المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٧ــ٣٩

طرق التخلص من المعارضين في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م) «حرق البشر الأحياء أنموذجًا»

شيماء أحمد السيد علي صالح(*)

ملخص

هدَفَ البحث تسليط الضوء علي ظاهرة حرق البشر أحياء كأحد وسائل العقاب في العصر العباسي، وذلك لإماطة اللثام عن جوانب هذه الظاهرة والكشف عن أسبابها ودوافعها وطرقها المختلفة، ورصد لبعض الحالات التي كان الحرق مصيرها، ومناقشتها بموضوعية دون انحياز، وبعيدًا عن المغالاة والمغالطات التي دفعت بالبعض اتخاذ مثل هذه الظواهر الفردية إثباتًا لدموية العالم الإسلامي، وبذلك قسم البحث إلي ثلاث مباحث تبدأ بمقدمة، ثم المبحث الأول يتناول نبذة حول ظاهرة حرق الأحياء ليشمل التعريف بالظاهرة وتاريخها ومعرفة حكم الشريعة الإسلامية في الحرق، ثم المبحث الثاني يتناول الحرق لمعارضة فكر الدولة ومنهجها. أما المبحث الثالث فيتضمن الحرق لمعارضة الأسرة الحاكمة، ويليه خاتمة بأهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال البحث.

الكلمات المفتاحية: وسائل العقاب والتعذيب، حرق الأحياء، العصر العباسي، المعارضة الفكرية، المعارضة السياسية.

(*) كلية الآداب – جامعة المنصورة.

Abstract

The Aim of the research is to shed light on the phenomenon of "Burning People Alive as one of the Means of Punishment in the Abbasid Era", in order to uncover the aspects of this phenomenon and to reveal its various causes, motives, methods, and to monitor some of the cases whose fate was burning, in addition to discuss them objectively without bias, also away from the exaggerations and fallacies which made a Few took such individual phenomena as a proof of the bloodiness of the Islamic world. Thus this research has been divided into three topics that begin with an Introduction, then the first topic copes with a brief on the phenomenon of "burning alive" to include the definition of the phenomenon, history, and knowledge of the rule of Islamic law in burning. Then the second topic approaches burning in opposition to the state's thought and method. As for the third topic" The Burning to Oppose the Dynasty", followed by a conclusion with the most important results that I reached through the research..

*

* *

مقدمة

كان التخلص من المعارضين بحرقهم أحياء في الدولة العباسية أحد وسائل العقاب والتعذيب الأقل شيوعًا، التي تنوعت وتعددت أسبابها المختلفة وان كانت جميعها في النهاية تصب في القالب الفكري للتخلص من هؤلاء المعارضين وإرهاب غيرهم، حتي لا يفكروا في معارضة الدولة، أو اعتراض فكرهم ويخرج عن الإطار الفكري لهذه الدولة فيلاقوا نفس المصير.

والثابت تاريخيًا أن عقوبة حرق الأحياء عرفت منذ عصور ما قبل التاريخ، وكانت هي أحد وسائل العقاب للحكام للتخلص من المعارضين سواء معارضة لنظام الحكم، أو معارضة فكر الدولة من المارقين والزنادقة والسحرة، وعلي الرغم من ذلك فإن الأحقاد السياسية والعلمية في بعض الأحيان قد اتخذت من معارضة الدولة ذريعة للتخلص من البعض، ليحكم عليهم بالقتل، ويثبت في النهاية أنهم وقعوا فريسة لهذه الأحقاد، ونظرًا لما تكتنفه ظاهرة حرق الأحياء كإحدي وسائل العقاب في العصر العباسي من الغموض، وما آل إليه مصير عدد من المعارضين للدولة سواء للحكام أو لفكر الدولة وعقيدتها، فقد فضلتُ اختيار هذا العنوان لإماطة اللثام عن جوانب هذه الظاهرة، ومناقشتها بموضوعية وحيادية دون انحياز، وبعيدًا عن المغالاة والمغالطات التي دفعت بالبعض اتخاذ مثل هذه الظواهر الفردية إثباتًا لدموية العالم الإسلامي، وذلك من خلال عرض أسبابها ودوافعها المختلفة والحالات التي كان الحرق مصيرها.

وقد قسمتُ البحث إلي عدة مباحث

- مقدمة :

المبحث الأول : نبذة حول ظاهرة حرق الأحياء.

المبحث الثاني : الحرق لمعارضة فكر الدولة ومنهجها.

المبحث الثالث : الحرق لمعارضة الأسرة الحاكمة.

- خاتمة بأهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال البحث.
- قائمة بأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية.

المبحث الأول : نُبذة حول ظاهرة حرق الأحياء

أولًا: الحرق لغةً واصطلاحًا

الحَرَقُ لغة : الحَرَقُ، بالتحريك : أي النار، فيقال : في حَرَقِ الله، والتحريقُ : تأثيرها في الشيء، والحَرَقُ من حَرَق النار، وفي الحديث : الحَرَقُ والغَرَقُ والشَّرَقُ شهادة[١]، وحرَقُ النار، أي لهبها[٢]، ويقال أحرقت النار شئ أو أحرقه بالنار فالفاعل حارقٌ، وحرِيقٌ والمفعول محروقٌ وحرِيقٌ[٣]، واشتق من فعل حَرَقَ بعض الأسماء، مثل حَراقٌ وحُرَيْقٌ وحُرَيْقاء وحُرَيْقٌ ابن النعمان بن المنذر وحُرَقَةُ بنته، والحُرَقةُ أيضًا عرف بأنه حيّ من العرب، وكذلك الحَرُوقةُ والمُحَرّقةُ بلد[٤].

أما الإحراق اصطلاحًا، فيؤخذ من عبارات بعض الفقهاء أن الإحراق هو إذهاب النار الشيء بالكلية، أو تأثيرها فيه مع بقائه، ومن أمثلة النوع الأخير: الكي والشي، وهناك بعض الألفاظ الاصطلاحية التي ارتبطت بالحرق منها، الإتلاف، أي الإفناء، وهو أعم من الإحراق، والتسخين، وهو تعريض الشيء للحرارة، فهو غير الإحراق، و الغلي، وهو آخر درجات التسخين[٥].

---

(١) قال رسول الله ﷺ الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله المطعون شهيد والغرق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد وصاحب الحريق شهيد والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيد . انظر : سنن أبي داوود: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت – المكتبة العصرية د.ت، ٣ : ١٨٨/ ٣١١١ (باب في فضل من مات في الطاعون).

(٢) ابن منظور : لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، القاهرة – دار المعارف، د.ت، ٨٤٠.

(٣) المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، القاهرة – اللجنة العربية وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٤م، ١٦٨.

(٤) ابن منظور : لسان العرب، ٨٤٣.

(٥) الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ج٢، ص١١٥

ثانيًا: وسائل الإعدام بالحرق

يتضح من خلال التعريف الاصطلاحي والمصطلحات التي ارتبطت بمفهوم الحرق، أنه قد تعددت وتنوعت أساليب ووسائل الحرق عبر العصور، ومن ثم قسمتُ الحرق إلي قسمين : الحرق الجزئي، ويقصد به الاكتفاء بتعذيب الشخص عن طريق النار، وذلك عن طريق عدة أساليب، منها كي الشخص بالنار في مواضع مختلفة في جسده(١)، وكذلك حرق أحد أعضاء الشخص مثل الساقين أو اليدين(٢)، وفي أحيانًا كان يتم حرق الأشخاص بصب الماء المغلي عليهم(٣).

أما الحرق الكلي، ويقصد به القضاء علي الشخص نهائيًا محروقًا بالنيران، وكان الحرق الكلي يتم بعدة أساليب، منها أنه كان يتم ربط الضحية أو المحكوم عليه في عمود خشبي أو صلبه، ويوضع أسفل منه المواد القابلة للاشتعال ثم يتم إضرام النار فيها(٤)، وأحيانًا كانت تستعمل الرأفة فيتم خنق المحكوم عليه قبل أن تصل النيران إليه(٥)، وفي أحيان أخري كان يتم إشعال النيران، وإلقاء الأشخاص فيها، وقد يبدي الشخص شجاعة في إلقاء نفسه بالنار واحتضانها، أو كان يتم ضرب المحكوم عليهم

---

(١) تاريخ الموصل، تحقيق أحمد عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، بيروت،ج٢،ص١٦٧؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، ج١٠،ص١١٤؛ محمود سعيد عمران : حضارة أوربا في العصور الوسطي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٨، ص٣٢٦.

(٢) جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، دار الثقافة المسيحية،القاهرة، د.ت، ج٢، ص١١٢.

(٣) الموسوعة الفقهية، ج٢، ص١١٥.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ،تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٩٨٧م، ج٧، ص١٠٣- ١٠٤؛ ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، مكتبة الفكر الجديد، الطبعة الثانية،د.ت، ص٢٥؛ محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٥، ص١٠٥.

(٥) محمد قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش ص١٠٥؛ ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٥-٢٦.

حتي يلقون بأنفسهم بالنار(١). كما كان من وسائل الحرق أيضًا وضع المحكوم عليه في فرن أو تنور بعد إشعاله حتي يحترق بالكامل أو قطع أطرافه ورميها به(٢)، وقد يتسع هذا الفرن في حالات الحرق الجماعي ليشمل الآلاف من المحروقين الذين يتم تحميصهم(٣).

وهناك طرق أخري لحرق الأحياء عن طريق الشواء وطهي الشخص علي النار كما تطهي الشواء، وظهرت مثل هذه الأساليب في العصور القديمة وكذلك الوسطي والحديثة(٤)، وهناك طريقة أخري للشي عرفت بقنطرة النار، وهي طريقة صينية قديمة ترجع إلي عصور ما قبل الميلاد، وتتم عن طريق حفر حفرة واسعة تملأ بالجمر وتمد عليها قنطرة من نحاس تلامس الحمر حتي تسخن، ويؤتي بالمحكوم عليه، فيُؤمَر بالعبور علي القنطرة حافيًا، فإذا تحملت قدماه النحاس المحترق اجتاز القنطرة، وإذا عجز ألقي بنفسه في الحفرة ليموت مشويًا(٥)، وفي كل الأحوال فإن حالات الحرق الفردية هذه يظل المحكوم عليه يعاني من ألم الاحتراق لعدة دقائق قبل أن تحدث الوفاة نتيجة لصدمة الحرارة فيما يشبه ضربة الشمس، أو من فقدان بلازما الدم(٦).

---

(١) أبو الفتح المصري : معاهد التنصيص علي شواهد التلخيص، تحقيق حامد عبد الله المحلاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢، ج٢، ص١٩٦-١٩٧.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفي السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٣٨م، ص١٠٦؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،د.ت، ج٢، ص١٥٣؛ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٩٩٢ م، ج٨، ص٥٧؛

(٣) ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٧.

(٤) الموسوعة الفقهية، ج٢، ص١١٥؛ هادي العلوي : من تاريخ التعذيب في الإسلام، دار الثقافة والنشر، سوريا، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م، ص٦٠.

(٥) هادي العلوي :من تاريخ التعذيب، ص٦١.

(٦) ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٦.

أما في حالات الحرق الجماعي، وذلك عند إعدام عدد كبير من الأشخاص في وقت واحد كما كان يحدث في محاكم التفتيش الأوربية، فكانت الأحكام تعلن في حفل كبير يقام من وقت لآخر عقب إنهاء الإجراءات(١)، وكان ينفذ حكم الحرق في العشرات، وينتظم الضحايا في موكب الأوتودافي Auuto-dafe التي اشتهرت في أسبانيا منذ القرن الخامس عشر، والتي كانت مناظرها الرهيبة تهرع جموع الشعب(٢)، ومن الملاحظ والذي يدعوا للغرابة والدهشة هو أنهم كانوا يُحرقون عند عامود الإحراق، بحيث يتم قتل المذنبين دون سفك الدماء الذي حرَّمته الكنيسة(٣)، وبحكم كبر النار وعظمها في حالات الحرق الجماعي، فإن الوفاة تحدث للمحكوم عليهم أحيانًا نتيجة الاختناق بثاني أكسيد الكربون، حيث تؤدي ألسنة اللهب إلي إيذاء جسم الضحية(٤).

وفي أحايين أخري كانت دوافع الانتقام تدفع بالبعض إلي تعذيب الضحية أو المحكوم عليه وإطالة معاناته لأطول فترة ممكنة، منها أنه أحيانًا يُرتب القش علي جسد المحكوم عليه بحيث يحترق جلده بالكامل قبل أن يموت، وأحيانًا أخري كان الجلاد

---

(١) وفي هذا الاحتفال يقسم المتهمون إلي جماعات ثلاثة هم: التائبون، حيث يؤكدون توبتهم، والثانية الجماعة المذنبة التي ستُسَلم إلي السلطات المحلية، ويسمح لهم بيوم واحد لإعلان توبتهم، ولو كانوا علي وشك الحرق، وهؤلاء يحكم عليهم بالسجن مدي الحياة. أما الثالثة فهي الطائفة التي تمسكت بموقفها وهؤلاء يحرقون أحياء في ميدان المدينة أو الإقليم، وعلي مرأي ومسمع من الناس. انظر: محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا، ص٣٢٦؛ محمد علي قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص١٠٣؛ محمد نمر المدني: أعداء الغرب، فكر لعالم جديد، مؤسسة رسلان، دمشق، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩، ص٢١١، ص٢١٥.

(٢) ومما يذكر في ذلك أن فرناندو الكاثوليكي كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة، وكان يسره أن يشهد حفلات الإحراق، وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة ما. انظر: محمد عبد الله عنان: موسوعة دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٣٨.

(٣) محمود سعيد عمران: حضارة أوروبا، ص٣٢٥-٢٣٦.

(٤) ميشيل حنا: تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٦.

يربط علي جسد الضحية مجموعة من الأوعية الصغيرة الممتلئة بالبارود إمعانًا في إيذائه. كما كانوا يربطون المحكوم عليه بحبل ويشعلون النار حوله، ويظل الضحية يجري هنا وهناك هربًا من النيران ومتألمًا من الحروق ثم يلقون عليه الماء البارد حتي يهدأ ومن ثم يشعلون النار من جديد، وذلك لتعذيبه أطول فترة ممكنة(١). وقد دفع الانتقام بالبعض إلي تقطيع أعضاء المحكوم عليه عضوًا عضوًا ويلقي بها في النار أمام عينيه ثم يلقي بباقي جسده في النار ومن ثم ينل الشخص أكثر من وسيلة تعذيب تنتهي بالحرق(٢).

ثالثًا : نماذج حرق الأحياء عبر التاريخ

عُرفت عقوبة الإعدام بالحرق منذ عصور ما قبل التاريخ، وكانت قديمًا الوسيلة المستحبة للساحرات، ويعدم بها أيضًا بعض الخونة والمهرطقين، وقد استخدم الإعدام بالحرق في الكثير من الممالك القديمة، ففي أيام الدولة الرومانية تم اعدام آلاف المسيحيين محروقين، حيث قدم نيرون (Nero 37-68) مسيحي روما طعامًا للنار العظيمة التي أشعلها عام ٦٤م(٣)، وكذلك في شمال افريقيا تعرض أتباع الديانتين المسيحية واليهودية الذين رفضوا تقديم ذبائح لتماثيل الإمبراطور للحرق وقطع الرقاب عهد الإمبراطور سبتيموس سفيروس(٤) الوثني SEPTIMIUS SEVERUS

(١) وكان هذا الأسلوب مبتكر لدي هنود الأباتشي Apache (الهنود الحمر) في تعذيب وإعدام المستوطنين البيض بعد ضم تكساس إلي الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر. انظر : ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٦، ٢٨.

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٠٦؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٣؛ ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٧؛

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣٤.

(٤) الامبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣-٢١١) : ولد الامبراطور سبتيموس سيفروس أو سبتيموس الأول في مدينة ليبتيس ماجنا (ليبتس العظيمة) في شمال افريقية عاصمة اقليم طرابلس ليبيا،=

(١٩٣-٢١١م)(١)، وكان من أشهر من نالوا مصير الحرق في روما ما حدث مع القديس لورنس روما LAURENTIUS الملقب بحامل إكليل الغار عام ٢٥٨م، حيث تم شي جسده علي شبكة حديدية في عهد الإمبراطور فالريان VALERIANUS (٢٥٣-٢٦٠م)(2) المضطهد للمسيحيين آنذاك(٣).

وفي جنوب الجزيرة العربية، شهدت المسيحية في اليمن خلال القرن الرابع الميلادي اضطهادًا مريرًا من قِبل اليهود ونالوا مصير الحرق الجماعي، كان أشهرها قصة ذي نواس أو محمد بن شراحيل (٤٦٨-٥٢٧م) الملك اليهودي الذي حكم اليمن في القرن الرابع الميلادي، وانتقم من النصاري الذين رفضوا اعتناق اليهودية، فأحرق جماعات منهم في أخاديد مليئة بالنيران وهم أحياء(٤)، وهي الحادثة الشهيرة

=وكان جنرالًا في جيش روما ولكن الجنود الذين كانوا تحت إمرته انتخبوه امبراطورًا، فهزم كل من وقف في وجهه، وفي عام ٢٠٢م أصدر مرسومًا بمنع الرعية من الدخول في اليهودية والمسيحية لأنه كان وثنيًا، وكان السبب في ذلك هو أن اليهود بدأوا ثورة تشبه ثورة باركوكبا. أما المسيحيون فقد اعتبرهم غير أهل للثقة لأن كثيرين منهم لم يكونوا متحمسين للمعارك، حيث كانوا ينتظرون المجئ السريع للمسيح. انظر : جون لوريمر: تاريخ الكنيسة، ج٢، ص١٩، ج٢، ص٢٩.

BIRLEY, ANTHONY: Septimius Severus: The African Emperor, LONDON AND NEW YORK, 1999, pp.212-213.

(١) وكان هذا الاضطهاد في عهده هو الأول من نوعه الذي شمل الديانتين وشمال كل العالم وامتد إلي الاسكندرية وأنطاكية وكورنثوس وروما وقرطاجنة. انظر : جون لوريمر :تاريخ الكنيسة، ج٢، ص٣٠.

(٢) الامبراطور فاليريان : فاليريانوس أو فاليريان الأكبر، هو امبراطور روماني حكم امبراطوريته ما بين (٢٥٣-٢٦٠م)، أظهر محبته للمسيحيين في البداية، وكان يجالسهم في قصره، ولكن بعد قليل انقلبت هذه المحبة إلي بغض وكراهية شديدة خوفًا من ازدياد نفوذهم، فاضهدهم اضطهادًا شديدًا، قتل فيه عدد كثير من الشيوخ والأساقفة، حتي اضطر كثير منهم الهجرة واتخذوا من الجبال والمغائر مخابئ لهم. انظر : منسي يوحنا : تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة المحبة، ١٩٢٤م، ص٩٠.

(٣) ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٧.

(٤) محمد باغستاني : صور من حقوق الإنسان في القرآن الكريم، ترجمة عبد الرحيم النجار، مجلة بحوث قرآنية باللغة الفارسية، عدد٤٥، ص١٦

التي استنكرها القرآن الكريم المعروفة بقصة أصحاب الأخدود[(١)].

وفي بلاد الشام كان عمرو بن المنذر[(٢)] (ت٥٤هـ/ ٥٧٨م) المعروف بامرؤ القيس الثاني يلقب بالمحرق الثاني، لأنه حرق مائة من بني تميم في جناية[(٣)]، ولقب بالمحرق أيضًا الحرث بن عمرو ملك الشام من آل جفنة، لأنه أول من حرق العرب في ديارهم، وكان يدعون آل محرق[(٤)]، فذُكر في تاريخ الفداء «.. **ثم ملك أخوهم عمرو بن الحارث ثم ملك جفنة الأصغر بن المنذر الأكبر، وهو الذي أحرق الحيرة، وبذلك سموا ولده آل محرق..**»[(٥)].

وفي عهد الدولة البيزنطية كان الحرق هو وسيلة إعدام أتباع الديانة الذرادشتية عقابًا لهم علي عبادتهم النار، وكانت وسيلة إعدام شائعة في بعض مدن الغرب الأوربي

---

(١) سورة البروج، آية ٤. واستمر اضطهاد المسيحية في اليمن حتي القرن السادس الميلادي، إذ طال الحرق بعض النساء، منهم امرأة تدعي زاروبا zaruba حرقها الملك اليهودي مسروق masruq، المضطهد للمسيحيين بعد حرقه كنيسة نجران، فقط لرثائها بعض القتلة المسيحيين في حادثة حرق الكنيسة.انظر : جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، دار الثقافة المسيحية،القاهرة، د.ت، ج٢، ص١٩.

(٢) عمرو بن المنذر : هو عمرو بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان اللخمي المشهور بعمرو ابن هند، الملقب بمُضَرِّط الحجارة أو المحرق الثاني لشدة ملكه وخشونته وقتله عمرو بن كلثوم التغلبي. وأمه هند بنت آكل المرار الكندي وعمه الشاعر امرئ القيس. انظر : المرزباني : معجم الشعراء، تحقيق وتصحيح ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص٢٠٥-٢٠٦؛ أبو الحسن نور الدين : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠١٠م، ج٤، ص٣٨٢.

(٣) أبي الفداء : المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، د.ت.، ج١، ص٧٠؛ ابن منظور : لسان العرب، ص٨٤١. منهم اسمه سويد الدرامي قتل ابنًا أو أخًا صغيرًا لعمرو، كان شديد البأس، كثير الفتك، هابه العرب وأطاعته القبائل. انظر : أبو الحسن نور الدين : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك،٢٠١٠م، ج٤، ص٣٨٢.

(٤) أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٧٠؛ ابن منظور : لسان العرب، ص٨٤١.

(٥) أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٧٣.

يعاقب بها المهرطقين والسحرة والخونة والقتلة[١]، ونجد أنه في عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م أقر المجلس الكنسي في فيرونا الحرق كوسيلة لإعدام المهرطقين[٢]، وهؤلاء يحرقون أحياء في ميدان المدينة أو الإقليم وعلي مرأي ومسمع من الناس[٣].

كما كان الناس في محاكم التفتيش يعدمون بالجملة[٤]، بل كانوا يحرقون أحياءًا كاملة، ففي عام ١٠٢٣م قامت الكنيسة بحرق ثلاثة أحياء في مدينة تولوز أورليان Orleans Toulouse في فرنسا[٥]، وفي ألمانيا أحرق هنري أسقف مدينة استراسبورج Strasbourg في عام ١٢١٢م ثمانين من الهراطقة في يوم واحد، كذلك اتهم جون هس John Huss (١٣٧٣-١٤١٥م) بالهرطقة وأُعدم حرقًا[٦]. و كان من أشهر

---

(١) محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص١٠٥؛ ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، ص٢٥-٢٦.

(٢) محمد نمر المدني : أعداء الغرب، ص٢١٥.

(٣) محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا، ص٣٢٦؛ محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص١٠٣؛ أعداء الغرب، ص٢١٥.

(٤) محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص١٠١

(٥) قامت الكنيسة بحرق ثلاثة أحياء في مدينة تولوز أورليان *Orleans Toulouse* في فرنسا من معتنقي الأفكار التي تنكر المعجزات وقدرة التعميد علي محو الذنوب والآثام.انظر : محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا، ص٣١٥.

(٦) وكان يتزعم هذه المجموعة أحد رجال الدين وهو القس يوحنا الذي أعلن عدم إيمانه بالمطهر والغفران، وهاجم عدم زواج رجال الدين وامتلاك هؤلاء للأراضي، ومن أجل اصلاح الأحوال الدينية والقضاء علي الهراطقة عين البابا جريجوري التاسع في عام ١٢٢٧م كونراد أسقف مدينة ماربرج رئيسًا لمحاكم التفتيش في ألمانيا كلها، وطلب البابا من الأسقف ملاحقة الهراطقة وإصلاح أحوال رجال الدين لأن فساد أحوالهم هو السبب الرئيسي في ظهور الهراطقة، وواءم كونراد في عمله بين القسوة والرحمة وانتهي أمره بأن قتله أصدقاء ضحاياه، واضطرت محاكم التفتيش أن تخفف من قسوتها واتبعوا العدالة في محاكمتهم، ورغم هذا فقد بقيت الهرطقة في ألمانيا وهي التي مهدت السبيل إلي ظهور جون هس John Huss (١٣٧٣-١٤١٥م) الذي= =اتهم بالهرطقة وأعدم حرقًا، ومارتن لوثر Martin Luthar (١٤٨٣-١٥٤٦م) الراهب الذي تزعم حركة الإصلاح البرتستانتي. انظر : محمود عمران :حضارة أوربا، ص٣٢٨-٣٢٩.

قصص محاكم التفتيش أيضًا محاكمة الفتاة الفرنسية جان دارك التي أحرقت في ساحة السوق في مدينة روان الفرنسية عام ١٤٣١م(١)، واستمرت عقوبة الحرق تمارس في الغرب الأوروبي حتي عصور النهضة(٢).

رابعًا: حكم الحرق في الشريعة الإسلامية

أما عن حكم الحرق في الشريعة الإسلامية، فبالرجوع إلي المصادر والمراجع الفقهية التي تعلقت بصدد هذا الشأن، تبين اتفاق الفقهاء علي وجوب إقامة القصاص بلا خلاف، واتفقوا على مشروعية استيفاء القصاص بالسيف، سواء كانت الجناية بالسيف أم بغيره، لأنه أرفق بالجاني(٣)، ولكنهم اختلفوا في استيفاء القصاص حرقًا بالنار إلى قولين :

القول الأول: جواز استيفاء القصاص بالحرق بالنار، وقد ذهب المالكية(٤)، والشافعية(٥) إلى جواز استيفاء القصاص بمثل الآلة التي وقعت بها الجناية، فإذا رماه من شاهق رمي منه، وإذا أحرقه فأنه يحرق، وإذا أغرقه فإنه يغرق، إلا إذا كانت الآلة

---

(١) محمد نمر المدني : أعداء الغرب، ص٢١٥.

(٢) حيث طال الحرق بعض الفلاسفة، منهم فيلسوف وعالم ايطالي ١٦٤٩م بعد أن مزقوا لسانه لأنه قال بالنظرية الارتقائية التي قال بها معاصره الشيرازي في إيران. كما فرض الإعدام حرقًا علي السحرة، ويذكر أن كالفن أعدم بالنار في عام واحد ١٤ امرأة اتهمهن مجمع كرادلة جنيف بتحريض الشيطان علي جلب الطاعون للمدينة.انظر :هادي العلوي : من تاريخ التعذيب، ص٥٩.

(٣) محمد بن عرفة الدسوقي : حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، دار إحياء الكتب العربية،د.ت ج ٤ ص ٢٦٥ - ٢٦٦؛ ابن قدامة المقدسي : المغني، مكتبة القاهرة، ١٩٦٨م،ج ٨ ص ٣٠٤؛ الخرشي : شرح مختصر خليل، دار الفكر للطباعة، بيروت، د.ت، ج٨ ص ٣٠.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير،ج٤ ص ٢٦٥ -٢٦٦.

(٥) الماوردي : الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، تحقيق الشيخ علي محمد معوض - الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩ م، ج١٢ ص١٠٩.

أو الطريقة محرمة فلا يقتل إلا بالسيف، كقتل بسحر أو لواط(١).

أما القول الثاني: وهو وجوب استيفاء القصاص بالسيف وعدم جوازه بالحرق، وقد ذهب إلى هذا الرأي الحنفية(٢)، وهو المذهب عند الحنابلة(٣).

وبحسب المراجع الفقهية التي نظرت في أدلة أقوال الفقهاء(٤)، تبين أن الراجح في المسألة هو عدم جواز الحرق بالنار مطلقًا، سواء كان حدًا أم قصاصًا أم تعزيرًا، وذلك لقوة أدلة تحريم التعذيب بالنار، وضعف أدلة القائلين به، ومما يؤيد حرمة العقاب بالنار ما ورد من أحاديث عن النبي ﷺ تنهي عن التعذيب به(٥).

---

(١) ابن قدامة المقدسي : المغني،ج٨ ص٣٠٤.

(٢) أبو بكر الكاساني : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع المؤلف، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية ١٩٨٦م، ج٧ ص٢٤٥.

(٣) علاء الدين بن سليمان المرداوي : الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، د.ت، ج٩ ص٤٩٠. وهو مروي عن إبراهيم النخعي وعامر الشعبي والحسن البصري وسفيان الثوري.انظر : بدر الدين العيني : عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج٢٤ ص٣٩. ومروي أيضًا عن عدد من الصحابة منهم: عمر وابن عباس رضي الله عنهم. انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، إخراج وتصحيح : محب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة – بيروت، ١٩٥٩م، ج٦ ص ١٥٠.

(٤) محمد الهواملة : حرق الإنسان بالنار بدعوى القِصاص؛ محمد السكر : القتل بالإحراق قصاصا (دراسة فقهية مقارنة)، المنارة، مج ٢١، عدد٤، ٢٠١٥م، ص١٣٨.

(٥) من الأحاديث التي نهت عن التعذيب بالنار ما يأتي:

حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن بكير عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال إن وجدتم فلانًا وفلانًا فأحرقوهما بالنار ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج إني أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا وإن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما . انظر : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، حديث رقم٢٨٥٣، ص١٧٣.

حدثنا أبو صالح محبوب بن موسى أخبرنا أبو إسحق الفزاري عن أبي إسحق الشيباني عن ابن سعد قال= =أبو داود وهو الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش فجاء النبي ﷺ فقال من=

المبحث الثاني : الحرق لمعارضة فكر الدولة ومنهجها

أعني في هذا المبحث المعارضين لفكر الدولة ومنهجها الزنادقة[١] من الملحدين أو من يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، والمتألهين أي مدعي الألوهية، والخوارج أصحاب البدع من الذين اتبعوا عقائد باطلة تتميز بالمغالاة والتطرف وتدعوا إلي الانحراف الفكري، أو من اودعوا بألوهية غير الله – عز وجل -، والمرتدين، بالإضافة إلي السحرة والمشعوذين والكهنة والمنجمين. فالزندقة تحمل معني التهتك، ثم التدرج فيه إلي الخروج عن الدين أحيانًا بألفاظ ماسة، ثم المغالاة في ذلك إلي أقوال فيها معني الإلحاد دون نَظرٍ أو تفكير[٢]، ومنها الغلو في التشيع عند غلاة الشيعة بالكوفة، الذين اعتقدوا عقائد متطرفة متضمنة مبادئ تجسيم الله وتشخيصه، وتأليه الأئمة، وتناسخ الأرواح[٣].

وقد نشأت الزندقة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وكان عددهم في البداية محدودًا ونشاطهم سريًا، ثم زاد نشاطها بعد قيام الدولة العباسية، وأصبحوا يشكلون حركة منظمة قوية ومدمرة، إلي أن انتشرت ظاهرة الزندقة بشكل واسع في

=فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال من حرق هذه قلنا نحن قال إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار. انظر : محمد شمس الحق العظيم آبادي : عون المعبود، دار الفكر، ١٩٩٥م، سنن أبي داود، أبواب النوم، باب في قتل الذر،٢٥٦٨، ص١٤١.

(١) الزندقة، هي لفظ أعجمي معرب من الفارسية بعد ظهور الإسلام، إذ لم يذكر هذا اللفظ صراحة في القرآن الكريم أو السنة النبوية، وقصد الفقهاء من الزنديق المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر، حتي وإن كان يقوم بجميع فرائض الحج من الصيام والصلاة، والحج، وكذلك قراءة القرآن، وسواء كان في باطنه يهوديًا أو نصرانيًا أو مشركًا أو وثنيًا، وكذلك أُطلق لفظ زنديق علي من ادعي الألوهية والربوبية.انظر : آمال بنت عبد العزيز العمرو : الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية جمع ودراسة، كلية أصول الدين، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٥، ص٣٣١.

(٢) انظر :حسين عطوان : الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت،ص١٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٦-١٥٧.

العصر العباسي، فتعاظم شرهم، وتفاهم خطرهم، وقد أدرك الخلفاء العباسيون نيات الزنادقة الخبيثة وأهدافهم الهدامة، التي ترمي إلي تهتك الدولة العربية الإسلامية وتصديع كيانها وتدمير أخلاقها وقيمها، والقضاء علي الإسلام، فضلًا عن إعادة مجدهم السياسي علي أنقاضها، عن طريق بعث الديانات الفارسية القديمة والسعي إلي نشرها عن طريق ترجمتها إلي اللغة العربية وإشاعتها بين العرب، وتشويه العالم الإسلامي بالطعن فيه والدس عليه وإغراء الشباب في المجتمع الإسلامي بالفجور والتعهر واستباحة المحرمات[١]، فتصدوا لهم، وجاهدوهم جهادًا صارمًا، قابضين عليهم محاكمين لهم، وناصبين العلماء لمجادلتهم ومناظرتهم وكشف أباطيلهم، وقتلوا من ثبتت عليهم التهمة[٢].

وكان القتل بالحرق أحد وسائل حكام الدولة العباسية في القضاء علي هؤلاء المعارضين وإن كانت أقل شيوعًا مقارنة بوسائل العقاب الأخري، ومن أمثلة الزنادقة الذين نالوا مصير الحرق في مدينة بغداد، **أبوجعفر محمد بن علي الشَّلمغاني الرافضي المعروف بابن أبي العزاقر** في عهد الخليفة الراضي[٣] (٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤١م) عام٣٢٢هـ/ ٩٣٤م، وكان مولده بقرية شلمغان التابعة لمحافظة واسط بالعراق، والسبب في حرقه أنه أحدث مذهبًا غاليًا في التشيع والتناسخ وانحرف عن العقيدة الشيعية، وادعي نيابته عن الإمام المهدي، أو أنه الخليفة المنتظر، ثم طُلب للسجن في

---

(١) حسين عطوان : الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، ص١٧، ص٢٣.

(٢) انظر :حسين عطوان : الزندقة والشعوبية، ص٢٥

(٣) الراضي بالله : أبو العباس محمد بن المقتدر بالله بن المعتضد بالله بن طلحة بن الهاشمي العباسي، من خلفاء الدولة العباسية العشرون، ولد عام ٢٩٧ هـ/ ٩٠٧م، بويع له يوم خلع القاهر بالله الذي كان سيء الخلق، سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤، وهو آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة كان يخطب يوم الجمعة، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش، وكان سمحًا جوادًا أديبًا فصيحًا محبًا للعلماء، وكانت وفاته عام ٣٢٩ هـ/ ٩٤٠م.انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص١٠٣.

عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م)(١)، إلا أنه هرب إلى الموصل، وأقام سنين، ثم انحدر إلي بغداد وظهر عليه ادعاء الألوهية، فآمن به وتبعه عدد كبير من أهل بغداد واعتنقوا مذهبه منهم كبار رجال الدولة العباسية(٢)، كحسين بن القاسم بن وهب(٣) وزير المقتدر، وإبراهيم بن أبي عون(٤) (ت٣٢٢هـ/ ٩٣٤م)(٥).

وكان مذهبه أنه «.. **إله الآلهة يحق الحق وأنه الأول القديم الظاهر الباطن الرازق التام المومأ إليه بكل معني..**»(٦). كما سمى موسى ومحمدًا الخائنين، لأن هارون أرسل موسى، وعليًا أرسل محمدًا، فخاناهما، وإن عليًا أمهل محمدًا ثلاثمائة سنة ثم تذهب شريعته، ومن رأيه ترك الصلاة والصوم، وإباحة كل فرج، وأنه لا بد للفاضل أن

---

(١) المقتدر بالله : أبو الفضل جعفر بن المعتضد المقتدر بالله من خلفاء الدولة العباسية، مولده عام ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م وعهد إليه أخوه المكتفي بالخلافة، ووليها بعد وفاة المكتفي وعمره ثلاث عشرة سنة عام ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م، واختل نظام الدولة كثيرًا في عهده لصغره، وكثرت الاضطرابات السياسية والفكرية، وكان مقتله عام ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م.انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٤٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٦-١٥٧.

(٣) الحسين بن القاسم : الحسين بن القاسم ن عبيد الله بن سليمان بن وهب، كان وزيرًا للمقتدر بالله، يقال له أبو الجمال، وأعرق الناس في الوزارة وأبوه أبو القاسم وزير المعتضد والمكتفي (ت ٢٩١هـ/ ٩٠٤م)، وأبو جدّه سليمان بن وهب وزير المهتدي، لم يكن بارعًا ولا مشكور السيرة، ولم تطل مدته في الوزارة، حيث قبض عليه المعتضد وصادر أمواله.انظر :ابن طباطبا :الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٦٨.

(٤) ابن أبي عون : ابراهيم بن محمد بن أبي عون بن هلال أبي النجم، كان من أصحاب محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر، وأحد ثقاته، وممن كان يغلو في أمره ويدعي أنه إلهه، ومن كتبه التشبيهات، وكان يتعاطي الكيمياء، ولما قتل ابن أبي العزاقر، عرض عليه أن يشتمه أو يبصق عليه لأن رفض خوفًا من ذلك للحين والشقاء، فأُلحق به. انظر : ياقوت الحموي :معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١، ج١٤، ص٥٦٧.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج٧، ١٠٤.

يجامع المفضول ليولج فيه النور[١].

وكان ظهور الشلمغاني في خلافة الراضي بالله فقُبض عليه وسجنه، ووجد في بيته كتب تُثبت ما شاع عنه وادعاء ألوهيته، وقد أنكر مذهبه وأعلن إسلامه، وانتهي أمره بفتوي الفقهاء بإباحة دمه[٢]، فصلب ابن الشلمغاني وابن أبي عون أحد أتباعه، في ذي القعدة ٣٢٢ هـ/ ٩٣٤م، وأحرقا بالنار[٣]. وذكر الذهبي «**فقال ابن عبدوس : إنه لم يدع إلهية؛ إنما ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر. ثم إنهم أحضروا مرات بمحضر الفقهاء والقضاة، ثم في آخر الأمر أفتى العلماء بإباحة دمه، فأحرق في ذي القعدة من السنة، وضرب ابن أبي عون بالسياط، ثم ضربت عنقه وأحرق..**»[٤].

وبالإضافة إلي هؤلاء المحروقين من الخارجين علي فكر الدولة، و الذين هدفوا الإساءة إلي الدين الإسلامي ونشر أفكارهم الهدامة التي من شأنها تؤدي إلي انحدار القيم، مثَّل البعض الآخر من الخارجين علي فكر الدولة خروجًا أيضًا علي السلطة الحاكمة والنظام الحاكم، وذلك من خلال ثوراتهم و دعواتهم السرية التي هدفت إلي القضاء علي الدولة العباسية ونشر معتقداتهم وتأسيس دولتهم، ومن هؤلاء ممن نالوا مصير الحرق وذاقوا عذاب النار، **محمد بن الحسن بن سهل المعروف بشيلمة**[٥] **عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م، وكذلك تعذيب وحرق الثائر القرمطي**

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٥٦٧.

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص ٥٦٧؛ ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٦-١٥٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٠٣-١٠٤.

(٤) الذهبي : سير اعلام النبلاء، ج١٤، ص ٥٦٨.

(٥) شيلمة: هو محمد بن الحسن الكاتب ولقبه شيلمة، والده الحسن بن سهل، أحد قادة الزنج في البصرة الذين دعوا ضد الخلافة العباسية، وكان أولًا مع العلوي البصري ثم صار إلى بغداد وأومن ثم خلط وسعى لبعض الخوارج وتبعه عدد كبير من رجال الدولة فحرقه المعتضد حيًا وكان مصلوبًا على عمود خيمة وله من الكتب كتاب أخبار صاحب الزنج ووقائعه.انظر ابن النديم: الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان الناشر، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ م، ص١٦٠؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار

حسين بن زكروية[١] **في عام ٢٩١هـ/ ٩٠٤م خلال عهد المكتفي بالله**[٢] **(٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠٢-٩٠٨م)**، وسيتم الإشارة إليهم بالتفصيل وكيفية حرقهم أو تعذيبهم خلال المبحث الثالث.

كما نال بعض السحرة والفلاسفة مصير الحرق في المشرق والمغرب نتيجة رميهم بالزندقة والإلحاد لمجرد أن أحدهم اتبع فكرًا وعقائد خالفت فكر الدولة في الظاهر دون النظر في جوهر الرأي واعتبرها الفقهاء وأصحاب الدين في الدولة الإسلامية ممن عدّوا أنفسهم أئمة وحراس للعقيدة خروجًا عن الدين واتهموهم بالزندقة، إذ كانت الفلسفة من الدراسات غير المرغوب فيها بالأندلس بصفة عامة، وعند العلماء بصفة خاصة. كما أن العامة كانت تطلق على كل من يشتغل في الفلسفة والتنجيم زنديق، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو **أحرقوه**[٣]، وبلغ الأمر هذا حدته في

إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢، ص٢٥٩.

(١) الحسين بن زكرويه : المعروف بصاحب الشامة، أو صاحب الخال: ثائر قرمطي، كان ينتمي الى الطالبيين، خرج على أمراء بني العباس بالشام مع أخيه، وقتل أخوه أثناء حصاره دمشق عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م، وقام الحسين بعده وقاد أصحاب أخيه، وهم نحو ثلاثة آلاف فارس، فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه، ثم دخل حمص، وخُطب له على منابرها ولقب نفسه بالمهدي أمير المؤمنين، وعهد إلى ابن عم له اسمه عبد الله، ولقبه المدثر وزعم أنه المدثر الذي في القرآن، ثم سار إلى حماة والمعرة وغيرهم، وقتل خلقًا كثيرًا، وقصد سلمية، فأخذها بالأمان، ثم فتك بأهلها، ولما اشتد أمره، خرج له المكتفي العباسي من بغداد، ونزل الرقة، وأرسل إليه الجيوش، فكانت المعركة على بعد ١٢ ميلًا من حماة (في إحدى قرى المعرّة) وانهزم، وهرب وابن عمه، فقبض عليهم في البرية، في موضع يقال له الدالية في طريقهم الى الكوفة، وقتلوا.انظر : ابن الأثير : الكامل، ج٦، ص٤١٩، ٤٢١-٤٢٢.

(٢) المكتفي بالله : أبو محمد علي المكتفي بالله بن أحمد المعتضد بالله بن الموفق طلحة بن المتوكل بالله العباسي، ولد لأم تركية عام ٢٦٤هـ/ ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيهِ المعتضد بعهد منه، وذلك في ربيع الآخر عام ٢٨٩هـ/ أبريل ٩٠٢م، ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ١٢ ذي القعدة عام ٢٩٥هـ/ ١٣ أغسطس عام ٩٠٨م.انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٣ ص٤٧٩-٤٨٠.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص٢٢١.

المشرق، حيث أقيم للفلاسفة محاكم تفتيش ومحارق حقيقية لكتبهم ولهم أحيانًا خاصة خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[(١)].

المبحث الثالث : الحرق لمعارضة الأسرة الحاكمة

يقصد بمعارضة الأسرة الحاكمة الخروج علي حاكم الدولة أو الخليفة، وكذلك رجال الدولة من الأمراء والقادة، وقد أخذت هذه المعارضة صورًا عديدة، منها الخروج عن الحاكم عن طريق الثورات أو الفتن، أو الدعوات السرية التي كانت تقام ضد الدولة من قِبل الخوارج، بالإضافة إلي محاولات التآمر لاغتيال الخليفة، وفي المقابل أيضًا عبر بعض أصحاب الفكر عن معارضتهم للدولة من خلال كتاباتهم التي انتقدت النظام الحاكمة أو السياسية القائمة أو عبرت عن كراهيتهم للخليفة القائم.

وبشكل عام كان الخارجين علي فكرة الدولة وعقيدتها في العهد العباسي والذي كان يرمون إلي تفتيت الدولة الإسلامية، يعملون علي جبهتين مزدوجتين منها الإساءة إلي الدين الإسلامي ونشر أفكارهم الهدامة كما اتضح من قبل، أو القيام بثورات ودعوات سرية من شأنها القضاء علي الدولة العباسية وإسقاطها، كان أشهرها ثورات

---

(١) حيث ذكر في أخبار سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م أنه في عهد المستنجد الخلافة ورغبته في القضاء علي ما كان في الإدارة من سوء وفساد، قبض علي أحد القضاة، وكان بئس الحاكم، فأمر بأمواله فأُخذت، وكتبة أحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة، ومنها كتاب الشفا لا بن سينا وإخوان الصفا وما علي شاكلتها. انظر : ابن الأثير : الكامل، ج٩، ص٤٣٨؛ ابن الجوزي : المنتظم، ج١٨، ص١٤٠؛ جورج طرابيشي: مصائر الفلاسفة بين المسيحية والإسلام، دار الساقي، بيروت، الطبعة الاولي، ١٩٩٨، ص٦٨. وعندما تعرضت أسرة المتصوف الحنبلي الكبير عبد القادر الجيلاني للاضطهاد في عهد وزارة يونس دهمت دار حفيده الشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب، وكان خصمًا للفقيه الجوزي، وفتشت ووجد فيها كتب الفلسفة ورسائل إخوان الصفا والسحر والنارنجيات وعبادة النجوم مكتوبة بخط يده، الذي حاول عبثًا تبرئة نفسه بأن لا يؤمن بهذه الأشياء إنما نسخها ليرد عليها، فقد أمر بحرق كتبه ولأجل ذلك أقيمت نار عظيمة وأحرقت بباب العامة، وحبس ثم أفرج عنه بشفاعة أبيه. انظر : ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص٣٦٣.

الخوارج وأخطرها وأطولها ثورة الزنج التي قامت في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في البصرة، وامتدت لأكثر من أربعة عشر عامًا، وهددت كيان الدولة العباسية عندما جندت كل إمكاناتها لتسحقها(١).

وقد دلت الشواهد التاريخية كيف مارست الدولة العباسية منذ بداية تأسيسها ألوان التعذيب علي الأشخاص المعارضين لسياساتهم العامة أو الخارجين عن منهجهم، ليُظهروا قوة في معاملة الأعداء، وخاصة مع الأشخاص الذين وجدوا منهم خطورة علي دولتهم وملكهم(٢)، وقد نال بعض هؤلاء المعارضين مصير التعذيب والموت حرقًا.

ومن هؤلاء المعارضين الذين نالوا مصير الموت حرقًا أحد قادة الزنج في البصرة الذين دعوا ضد الخلافة العباسية، **محمد بن الحسن بن سهل المعروف بشيلمة** عام ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م في عهد الخليفة المعتضد بالله(٣) (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠٢م) حيث تم شيه علي نار هادئة حتي الموت(٤)، وسبب شيه أن الخليفة المعتضد عندما أعطاه الأمان، اكتشف أنه يواصل نشاطه المعادي سرًا ضد الدولة العباسية، فوصلت إليه الأخبار دون معرفة المستخلف أو الشخص الذي يدعوا له، وتبعه عدد كبير من رجال الدولة وأهل بغداد وذاع صيته لذا شكل خطرًا كبيرًا علي الدولة ورفض

---

(١) حسين نصر الله : في ثورات الزنج وأثرها علي الخلافة العباسية. انظر : حسين نصر الله : حركة الزنج وأثرها علي الخلافة العباسية (٢٥٥-٢٦٩هـ/ ٢٧٠-٨٨٤م)، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمة، ٢٠١٥.

(٢) أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، ص٤٣.

(٣) المعتضد بالله : أبو العباس أحمد المعتضد بالله، بويع له بالخلافة بعد موت عمه المعتمد على الله انتعشت الخلافة العباسية في عهده، حيث أعاد للخلافة ما كانت تتمتع به من هيبة وإجلال، وكان المعتضد شجاعًا مهيبًا ظاهر الجبروت، شديد الوطأة على المفسدين، وهو أول خليفة عباسي لم يكن والده خليفة من قبله حيث لم يتول والده طلحة الموفق بالله الخلافة، و توفي وعمره ٤٨ عامًا في الثامن من ذي الحجة عام ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢م. انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٤٦٤.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص١٦٠؛ الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٥٩.

الإفصاح تمامًا عن اسم هذا الشخص بعد القبض عليه وقال للخليفة والله لو قطعتني إربًا ما أخبرتك اسمه قط، فأمر بنار فأوقدت، ثم شد علي خشبة من خشب الخيم وأدير علي النار كما يدار الشواء حتي تقطع جلده ثم ضربت عنقه[1].

ويذكر في ذلك صاحب الوافي بالوفيات «.. **فبلغ المعتضد الخبر على شرحه إلا اسم المستخلف فكبس شيلمة وأخذ فوجد في داره جرايد بأسماء من بايع وبلغ الخبر الهاشمي فهرب وأمر المعتضد بالجرايد فأحرقت ولم يقف عليها لئلا يفسد قلوب الجيش بوقوفه عليها وأخذ يسايل شيلمة عن الخبر فصدقه عن جميع ما جرى إلا اسم الرجل المستحلف فرفق به ليصدقه عنه فلم يفعل وطال الكلام بينهما فقال له شيلمة والله لو جعلتني كردناكا ما أخبرتك باسمه قط فقال المعتضد للفراشين هاتم أعمدة الخيم الكبار الثقال وشده عليها شدًا وثيقًا وأحضروا فحمًا عظيمًا وفرش على الطوابيق بحضرته وأجحوا نارًا وجعل الفراشون يقلبون تلك النار وهو مشدود على الأعمدة إلى أن مات بين يديه..**»[2].

كما نال بعض الثائرين والخارجين عن الدولة من القرامطة مصير التعذيب بالنار، والكي في مناطق متفرقة من الجسد كادت أن تقضي عليه حرقًا لولا ضرب العنق قبل أن تزهق أرواحهم، حيث أنه في عام ٢٩١هـ/ ٩٠٤م خلال عهد المكتفي بالله ضرب الثائر القرمطي حسين بن زكروية، والمعروف بصاحب الشامة، أو صاحب الخال، الذي خرج علي الدولة العباسية في بلاد الشام مئة سوط، وقطعت يداه ورجلاه، وكوي بالنار، فغشي عليه فأخذ خشب فأضرمت فيه نار ووضع في خوصره وبطنه فجعل يفتح عينيه ثم يغمضهما، فلما خافوا أن يموت ضربوا عنقه[3].

وفي حادثة غريبة انفرد بها ابن الأثير في سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م عهد الخليفة المقتدر

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٥٩.

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٥٩.

(٣) الأزدي :تاريخ الموصل،ج٢،ص١٦٧؛ الطبري : تاريخ الرسل، ج١٠،ص١١٤

بالله، تلك الفترة التي شهدت اضطرابات سياسية وحركات وثورات كثيرة للقرامطة والخوارج، فضلًا عن وجود بعض المؤامرات التي هدفت التخلص من الخليفة المقتدر بالله، حيث ظهر في هذا العام في دار كان يسكنها المقتدر بالله إنسان أعجمي، يرتدي ثيابًا فاخرة، وتحتها قميص صوف، ومعه مقدحة، وكبريت، ومحبرة، وأقلام، وسكين، وفي كيس سويق، وسكر، وحبل طويل، وقيل إنه دخل مع الصناع، فبقي هناك حتي شعر بالعطش، فخرج يطلب الماء، وعندما رآه أهل البلدة تعجبوا من أمره، فأحضروه عند الوزير ابن الفرات (ت٣١٢هـ/ ٩٢٤م)، فسأله عن حاله، فقال: لا أخبر إلا صاحب الدار «يقصد الخليفة»، فتعاملوا معه برفق ولكنه لم يفصح عن شئ وأصر علي أنه لن يخبر إلا الخليفة، فضربوه ليقرروه، فقال: بسم الله بدأتم بالشر؟ ولزم هذه اللفظة، ثم جعل يقول بالفارسية : ندانم، ومعناها لا أدري، فأمر به فأُحرق[(١)].

وعلي صعيد آخر عبر البعض عن مخالفتهم للحاكم أو رفضهم لسياسة الدولة من خلال كتاباتهم التي أفصحت بشكل ما عما تخفيه صدروهم، **ومن هؤلاء الذين نالوا مصير الموت حرقًا الأديب عبد الله بن المقفع**[(٢)] (ت١٤٢هـ/ ٧٥٩م) عهد الخليفة أبو

(١) وقد أنكر ابن الفرات على نصر الحاجب هذه الأوضاع، وعظم الأمر بين يدي المقتدر، ونسبه إلى أنه أخفاه ليقتل المقتدر، فقال نصر: لم أقتل أمير المؤمنين وقد رفعني من الثرى إلى الثريا؟ إنما يسعى في قتله من صادره، وأخذ أمواله، وأطال حبسه هذه السنين، وأخذ ضياعه. انظر :ابن الأثير : الكامل، ج٧، ص١٧.

(٢) ابن المقفع : هو في مجوسيته رُوزَبَةُ بن دَازَوَيْهِ الْمُقَفَّع، وكنيته أبو عمرو، وفي إسلامه عبد الله، وكنيته أبو محمد، ولقِّب والده بالمقفع؛ لأنَّه كان يتولى خراج فارس فاختلس من مال الدولة، فضربه أمير العراقين على يده حتى تقفعت يده، والمقفع فارسي الأصل، نشأ نشأة عربية في الأهواز، ولكنه لم يُسلم بل مات على مجوسيته، وكان له ولاء في آل الأهتم، وهم أهل فصاحة وبيان، وولد ابنه رُوزَبة، ونشأ في البصرة مجوسيًّا مستعربًا مثله،، فلما مات المقفع أخذ الولد يتكسب بصناعة والده، فكتب وهو في العشرين من عمره أو نيَّف عليها لداود بن هُبَيْرة. وأبو داود هو يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراقيين من قبل مروان بن محمد آخر خلفاء أمية، ولما انتقل الملك إلى العباسيين اتصل ابن المقفع بسليمان وعيسى وإسماعيل أبناء علي بن عبد الله بن عباس، وأعمام السفاح والمنصور، فكتب لعيسى أيام ولايته على كِرمان، وجعله إسماعيل والي الأهواز ثم الموصل مؤدِّبًا لبعض بنيه، ثم كتب لسليمان وهو أمير على البصرة، وترجم للمنصور في أثناء ذلك عدة كتب، ولكنه لم يتصل به، بل لبث منقطعًا إلى أعمامه حتى=

جعفر المنصور العباسي (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م)[١]، وكان السبب المباشر لحرقه التي أجمعت عليه المصادر التاريخية[٢] أن عبد الله بن علي[٣] (ت١٤٧هـ/ ٧٦٤م) عم المنصور كان واليًا على الشام، فخرج على ابن أخيه الخليفة أبو جعفر عام ١٣٧هـ/ ٧٥٥ م، وطلب الخلافة لنفسه، فأرسل عليه المنصور جيشًا بقيادة أبو مسلم الخراساني (ت١٣٧هـ/ ٧٥٥م)[٤]، فانتصر أبو مسلم وهرب عبد الله إلى البصرة، واختبأ عند أخيه سليمان، فقام المنصور بعزل سليمان عن البصرة عام ١٣٩هـ/ ٧٥٦ م، وولى مكانه سُفيان بن معاوية بن مُهَلب، ولبث عبد الله مختبئًا عند أخويه سليمان وعيسى، فطلبه المنصور منهما، ولكنه رفضا تسليمه إلا بأمان يُمليان شروطه، وقبل المنصور بذلك، فاختاروا كاتبهما ابن المقفع بأن يكتب الأمان، ويبالغ فيه كي لا يغدر

=مات. انظر : بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر العباسية (حياتهم- آثارهم- نقد آثارهم، دار هنداوي، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص١٠٧.

(١) أبو جعفر المنصور : أبو جعفر المنصور بن العباس بن هاشم القرشي، الخليفة العباسي الثاني للدولة العباسية والمؤسس الحقيقي لها، ومؤسس مدينة بغداد، بويع له بالخلافة في ذي الحجة عام ١٣٦هـ/ ٧٥٤ بعد وفاة أخية عبد الله السفاح، كان فحل بني العباس هيبة وشجاعة، ورأيًا وحزمًا، ودهاءًا وجبروتًا، وكان جامعًا للمال، حريصًا،حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم، ومرض أثناء ذهابه للحج عام ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، وتوفي. انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٧،ص٨٣-٨٤.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٦؛ ابن حجر : لسان الميزان،ج٣،ص٣٦٦؛ الجهشياري : الوزراء، الكتاب، ص١٠٣.

(٣) عبدالله بن علي بن عبدالله : هو أمير عباسي، هو عمُّ الخليفتين أبو العباس عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور، فتك بالأمويين في معركة الزاب، طالب بالخلافة أيام المنصور فهزمه أبو مسلم الخراساني، وقد مات سجينًا عام ١٤٧هـ/ ٧٦٤م. انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٨٤.

(٤) أبو مسلم الخُراساني : عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، ومن ثم واليها، مولده عام ١٠٠هـ/ ٧١٩م في ماه بالبصرة مما يلي أصبهان، ثم اتصل بإبراهيم بن الإمام محمد من بني العباس وكان في خدمته إلى أن أرسله إلى خراسان داعية بعد أن لمس فيه إخلاصه وشجاعته، واستطاع هزيمة مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، و استمر أبو مسلم بعد ذلك في دعوته، ومع قيام الدولة العباسية ارتفعت مكانته وكان محبوبًا من أتباعه ومعظمًا بينهم وقتل عالم ١٣٧هـ/ ٧٥٥م.انظر : الذهبي : سير أعلم النبلاء، ج٦، ص٤٨-٥٢.

المنصور بعمه، وبالفعل كتب ابن المقفع الأمان، وشدّد فيه، حيث أساء اختيار الألفاظ والعبارات حتى قال في جملة فصوله «.. **ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد لله بن علي، فنساؤه طوالق، ودوابُّه حُبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته..**»(١)، فعظم ذلك على المنصور، ولا سيما أمر البيعة، وجعله يضمر له الشر، فأوعز إلي سفيان بن معاوية بن يزيد المهلب والي البصرة بقتله(٢).

والحقيقة أنه قد تحينت الفرصة لسفيان للتخلص من ابن المقفع والذي توعد له من قبل بسبب عداوة وكراهية شديدة، بدأت هذه العداوة منذ تولية سفيان ولاية البصرة، حيث كان ابن المُقفع يعبث معه ويضحك عليه ويستخف به كثيرًا، وقد غضب سُفيان من ابن المُقفع يومًا وافترى عليه أمرًا ما وعندما سمِع عبد الله بن المقفع افتراء سُفيان عليه قذف أُمّه وسبها وقال له: «**يا ابن المغتلمة والله ما اكتفت أمك برجال أهل العراق حتى تعدتهم إلى أهل الشام!**»(٣)، وكانت أمه ميسورة بن المغيرة بن مهلبي. كما كان ابن المقفع يستخف بسفيان كثيرًا، منه أنه كان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما، يعني سفيان وأنفه لأنها كانت كبيرة، لِذا عزم على قتله والانتقام منه، وقال والله لأقطعنه إربًا إربًا وعينه تنظر، وحدث ما توعده بالفعل حينما أمر رجاله بِتقطيع أعضاء وأطراف عبد الله بن المقفع عضوًا عضوًا ثم يرمونها في الفرن حتى تحترق بينما يرى وينظر لها عبد الله بن المقفع حتى ألقي باقي جسده وأطبق عليه التنور(٤).

ويذكر الجهشياري تفاصيل حرقه، أن عيسي بن علي طلب يومًا لابن المقفع أن يذهب إلي سفيان ليوجه له رسالة، فطلب منه أن يرسل معه جَبَلة بن مخرمة الكِندي

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٦؛ ابن حجر : لسان الميزان،ج٣،ص٣٦٦.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٦؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ١٥٢.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٠٤ :؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٣؛ ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٧.

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب، ص١٠٦؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٣؛ ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٧؛

لأنه لا يأتمن علي نفسه مع سفيان، فمضيا فجلسا علي باب الديوان وجاء عمر بن جَميل، وأخبره بأن الأمير يأمرهم أن يدخلا في الديوان، ثم يمرا به عند منتصف النهار، ثم جاء الإذن ودخل إبراهيم بن جبلة، ثم خرج فأذن لابن المقفع «..**فلما دخل عُدِل به إلي مَقصورة أخري فيها شيرويه المَلاديسي، وعتاب المحمدي، فأخذاه فشدَّاه كِتافًا؛ فقال إبراهيم لسُفيان : إيذن لابن المقفع؛ فقال للآذن ثم رجَع فقال : قد انصرف؛ فقال سفيان لإبراهيم : هو أعظم كبرًا من أن يُقيم وقد أذِنتُ لك قبله، ما أشك في أنه قد غَضِب؛ ثم قام سفيان وقال لإبراهيم : لا تَبْرح، ودخل المقصورة التي فيها ابن المقفع، فقال له لما رآه ابن المقفع : وقعتَ والله ! فقال : أَنشُدك الله؛ فقال : أمي مُغتلمة كما ذكرتَ، إن لم أقتلك قِتلة لم يقتل بها أحد قط؛ وأمر بتنور فسُجِر، ثم أمر فقطعا منه عضوًا، ثم ألقاه في التنور وهو يراه، فلم يزل يقطعه عضوًا فعضوًا ويُلقيه في التنور وهو يراه، إلي أن قطعه أعضاء، ثم أحرقه وهو يقول : والله يابن الزنديقة لأحْرقنَك بنارِ الدنيا قبل نار الآخرة..**»[١].

كما يذكر ابن الجوزي وابن خلكان نقلًا عن أبو الحسن المدائني في حرق ابن المقفع «.. **كتب أبو الخصيب إلي سفيان بن معاوية يحكي له هذا الكلام عن أمير المؤمنين، فاعتزم علي قتله إن أمكنه ذلك فاستدعاه فقال : أتذكر ما كنت تقول ؟ قال : أنشدك الله أيها الأمير. فقال : أمي مغتلمة كما قلت إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد. فأمر بتنور فسُجر حتي إذا حمي أمر أن تقطع أعضاؤه، فكلما قطعوا عضوًا قال : ألقوه في النار. فيلقونه وهو ينظر إليه، حتي أتي علي جميع جسده، ثم أطبق التنور وقال : ليس عليّ في المثلة بك حرج؛ لأنك زنديق قد أفسدت الناس..**»[٢]. **وعندما بلغ الخبر سليمان وعيسى ابني علي، فخاصما سفيان إلى المنصور، وأحضراه إليه مقيدًا، وشهد بعض الناس بدخول المقفع دار سفيان ولم يخرج، ثم علموا بأن القتل بأمر من الخليفة، وذكروا**

---

(١) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص١٥٢.

أن من أسباب قتله اتهامه بالزندقة، ومعارضة القرآن، وترجمة كتب الزنادقة..»[١].

ويتضح مما سبق أنه اجتمعت المصادر علي حرق ابن المقفع وتقطيع أطرافه وحرقها، وأيضًا أن السبب المباشر لقتله كان سياسيًا وإن اتخذ قالب فكري باتهامه بالزندقة، أو بالأحري اتخذت من زندقته حجة لقتله، وفيما يتعلق بزندقته حيث اختلفت الآراء حوله، فالبعض أشاد بحكمته وعقله والبعض الآخر اتهمه بالزندقة[٢]، ذكر ابن الجوزي «.. **أنه قد اجتمع ابْن المقفع بالخليل بْن أَحْمَد فَقَالَ الخليل : علمه أكثر من عقله.وَكَانَ ابْن المقفع مَعَ هَذَا يتهم فِي دينه، فروي عَنِ المهدي أنه قَالَ : مَا وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابْن المقفع.وقدحكى المرتضى عَنِ الجاحظ أنه قَالَ : كَانَ ابْن المقفع ومطيع بْن إياس ومنقذ بْن زياد يتهمون فِي دينهم..»**[٣]، وقيل أيضًا أنه إذا شئت أن تلتمس زندقة ابن المقفع في ما خلَّف لنا من الآثار، فإنما أنت تتعب على غير طائل لأنَّ آثاره الباقية ليس فيها إلا كل ما يلائم مع الإسلام، ولا ينافي أحكامه[٤].

كما أن الزندقة في عهد الخلافة العباسية حينئذ كانت تعني الخروج عن الدين وكذلك السلطة القائمة معًا، أي الخيانة العظمي وهي تهمة كافية لقتله دون مؤامرة خاصة بسبب كثرة أعدائه لسخريته من العرب ونشره للفكر الفارسي[٥]، ولذلك فهناك أسباب ودوافع أخري تأتي علي رأس هذا الاتهام والتي أدت لهذه النهاية المأساوية لابن المقفع والتي لا يمكن خروجها عن معارضة نظام الحكم في الدولة، وما ضمره من كراهية للنظام والخليفة والوضع القائم في الدولة، وليس كما تداول وتناقل بين الناس وفي كتب الزندقة، وكان كتاب الأمان أحد هذه الأسباب، حيث

(١) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٨؛ بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر، ص١٠٨.

(٢) ابن حجر : لسان الميزان،ج٣،ص٣٦٦.

(٣) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٥٦.

(٤) بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر العباسية، ص١٠٨.

(٥) عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥، ص٢٢٧-٢٢٨.

اتخذ المنصور من ذندقته ذريعة لقتله كما ذكرنا[١].

ومن الأسباب الأخري التي أوغرت صدر المنصور ضد ابن المقفع، بالإضافة إلي كتاب الأمان أنه كان يعترم جانب المعارضة الخفية ضد الخليفة المنصور، وكان ينتهز كل فرصة للتشهير بهم والسخرية منهم، ومن المحتمل أنه كان يتوقع نجاح عبد الله بن علي عم المنصور وظفره بالخلافة، لعله يتخذه كاتبًا له[٢]، ولعل من بين الأسباب أيضًا رسالة كتبها توشك أن تكون برنامج ثورة موجهة إلي المنصور، وهي «رسالة الصحابة» وفيها نجد تشريعًا جديدًا من عمل الكاتب يقترحه علي الخلفية ليعمل به في أمور شتي كان أهمها القضاء الذي كثرت فيه الأقوال وأصبحت بسببه الدماء مباحة وغيرها من المقترحات الخطيرة التي كانت حقًا بمثابة ثورة عظيمة قام بها الكاتب ضد النظم القائمة ووجه فيها الكلام إلي الخليفة الطاغية[٣].

وربما من هذه الأسباب أيضًا كتابه كليلة ودمنة ومقدمته التي أوضح فيها للقراء أن سبب الكتابة غرض خفي، وقد اعتقد الخليفة العباسي المنصور أن الغرض هو الثورة علي الدولة فاستشاط غضبًا وكلف والي البصرة سفيان بن معاوية بمحاكمته بتهمة الزندقة فيما يعرف بديوان الزندقة[٤]، يضاف إلي هذه الأسباب حقد الكتاب في زمانه عليه لنبوغه وتفوقه، إذ ظهر ذلك في مناظراته الدينية بينه وبين أقرانه من علماء البصرة وما كان يقابل به ابن المقفع من الإكرام والإعظام عند بعض الأمراء وما كان يعامل به من الحسني عند بعضهم الآخر[٥].

ومن ذلك يتضح بالفعل أنه السبب الحقيقي وراء مقتل ابن المقفع سواء كان

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٥٨؛ بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر، ص١٠٨.

(٢) عبد اللطيف حمزة: ابن المقفع، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٣) عبد اللطيف حمزة: ابن المقفع، ص ٢٢٩.

(٤) أحمد علي محمد الصغير: الجلمود، دار كنوز، القاهرة، الطبعة الأولي، ٢٠١٦، ص١١٢

(٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٥٢، ص٥٦؛ عبد اللطيف حمزة: ابن المقفع، ص ٢٢٩-٢٣٠

زنديقًا أم ما زال علي دين الإسلام بأن الأسباب الرئيسة والكامنة لا تخرج عن معارضة نظام الحكم في الدولة والدعوة للتغير والإصلاح، وإن كان العقاب الذي يستحقه ابن المقفع هو القتل، فقد لعبت الضغينة والحقد الذي امتلأ به قلب سفيان ضد المقفع لتسلط لسانه عليه، والتي أيضًا تعود لأسباب سياسية مفادها كراهية ولايته، الدور الأكبر في اختيار هذه الموتة البشعة التي قد توعد له بها من قبل ليموت بها عدة مرات وهي حي ويري أعضائه تقطع وتحرق أمام عينه فضلًا عن عذاب القطع، وهو ما دفع البعض إلي اعتبار ابن المقفع شهيدًا من شهداء الحرية، حيث ذكر أحد الباحثين أنه «.. **دافع عن هذه الحرية في مجال العقيدة حتى اتهمه الناس بالزندقة، ودافع عنها في مجال السياسة حتى قالوا إنه لقي مصرعه على يد الخليفة المنصور بسبب الرسالة «الهاشمية» التي انتقد فيها ابن المقفع سياسة هذا الخليفة..**»[(١)] .

خاتمة بأهم نتائج البحث

يمكن رصد أهم النتائج التي توصلتُ إليها من خلال تناول البحث علي النحو التالي :

* كانت معظم حوادث الحرق التي رصدها البحث تصب في قالب فكري، فمن جانب كان معظم المحكوم عليهم بالحرق يمثلون معارضة فكرية تهدف إلي تشويه العالم الإسلامي وتفتيت الدولة الإسلامية وتصدعها بالخروج عن الحاكم والثورات أو الدعوات السرية التي من شأنها تضعف الدولة وتهدم كيانها وإسقاطها، وعلي صعيد آخر كان الحكام والخلفاء في العصر العباسي يهدفون بهذه العقوبة إلي التخلص من المعارضين، وارهاب غيرهم، حتي لا يفكروا في معارضة الدولة والتآمر عليها أو الخروج عن الإطار الفكري لها فيلاقوا نفس المصير، ومن ثم فكانت الزندقة في الدولة العباسية تتمثل في معارضة الدولة وفكرها أيضًا وليس معارضة الفكر فقط.

---

(١) عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع، ص٤ .

* كما اتضح أنه قد لعبت الأحقاد السياسية والعلمية في بعض الأحيان دورًا في التخلص من البعض بالحرق، حيث اتخذوا من معارضتهم الدولة ذريعة للتخلص منهم، ويثبت في النهاية أنهم وقعوا فريسة لهذه الأحقاد السياسية والعلمية.

* وكان ظهور حركات الزندقة بشكل واسع في العصر العباسي من شأنه أن يفرض اضطرابات سياسية وفكرية في الدولة، بحيث اعتبر بعض الفقهاء بعض الفلاسفة زنادقة واتُهموا بالإلحاد، لمجرد أنهم ساقوا فكرًا خالف فكر الدولة في الظاهر، وأقيمت محاكم ومحارق تفتيشية لكتبهم ولهم أحيانًا، وربما يرجع ذلك إلي ظهور الزندقة والزنادقة الذين كانوا يعلنون إسلامهم ويبطنون الكفر، وهو ما جعل البعض يعتبرون بعض هؤلاء المفكرين أو الأدباء الذين نالوا مصير الحرق بتهمة الزندقة شهداء الحرية.

* لم تكن حوادث حرق الأحياء صنيعة المجتمع الإسلامي أو كانت أحد الوسائل المبتكرة في العصر الإسلامي وإن كنا نأخذ علي فاعليها ذلك وننتقده بشدة لمخالفته الشريعة الإسلامية، وإنما عرفت هذه العقوبة منذ عصور ما قبل التاريخ وإن اختلف الزمن بوسائله وأدواته، وبالمقارنة بين حوادث الحرق في العصر العباسي كدولة عربية إسلامية، وبين حوادث الحرق العصور القديمة و ما عرف في الغرب الأوربي بمحاكم التفتيش الأوربية في العصور الوسطي وكذلك الحديثة، نجد أنه كان حوادث الحرق في العصر العباسي حوادث فردية لها أسبابها التي لا تخرج عن المعارضة الفكرية والمعارضة السياسية التي تمثل خطرًا كبيرًا علي الدولة من وجهة نظر فاعليها، في المقابل كان الناس في الغرب الأوربي وفي العصور القديمة يحرقون الناس بالجملة كما اتضح، وفي أحيان كانوا يحرقون أحياءًا كاملة بمن فيها.

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم.**
- ابن الأثير :محمد بن عبد الكريم الشيباني (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).
- الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٩٨٧م.
- الأزدي : أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس الأزدي (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م).
- تاريخ الموصل، تحقيق أحمد عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الأزدي السِّجِسْتاني : أبو داود سليمان بن الأشعث بن بشير (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٩م)
- سنن أبي داوود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
- بدر الدين العيني : أبو محمد محمود بن أحمد حسين الحنفى (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١).
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- ابن بسام : أبو الحسن بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ/ ١١٤٨م).
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفي البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢.
- أبو بكر الكاساني : علاء الدين أبو بكر بن مسعود الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ/ ١١٩١م).
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع المؤلف، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م .
- الجهشياري : أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري(ت٣٣١هـ/ ٩٤٣م).
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفي السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفي البابي الحلبي، الطبعة الأولي، ١٩٣٨م.
- ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- ابن حجر العسقلاني :أبو الفضل أحمد بن علي الشافعي (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، إخراج وتصحيح محب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة – بيروت، ١٩٥٩م.
- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم البرمكي(ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- الدسوقي : شمس الدين الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة (ت ١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م)

- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لأبي البركات سيدي أحمد الدرديري، وبهامشه الشرح المذكور مع تقريرات للعلامة المحقق الشيخ محمد عليش شيخ التادة الملكية، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
• الذهبي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)
- سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت ٢٠٠١.
• الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) .
- الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.
• الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م).
- تاريخ الطبري : تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م.
• ابن طباطبا : محمد بن المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م).
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، ١٩٩٧م.
• علاء الدين المرداوي : أبو الحسن علي بن سليمان الحنبلي (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).
- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف الناشر : دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، د.ت.
• أبي الفتح المصري : عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي (ت٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م).
- معاهد التنصيص علي شواهد التلخيص، تحقيق حامد عبد الله المحلاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢.
• أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل بن علي بن شاهنشاه بن أيوب (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م).
- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الأولى، د.ت.
• ابن قدامة المقدسي : أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد الجماعيلي المقدسي (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م).
- المغني، مكتبة القاهرة، ١٩٦٨م.
• الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).
- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
• المرزباني : أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (ت٣٨٤ هـ/ ٩٩٤م).

- معجم الشعراء، تحقيق الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- المقري التلمساني : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى القرشي) ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- ابن منظور :أبو الفضل محمد بن مكرم بن على(ت٧١١هـ/ ١٣١١م).
- لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، د.ت.
- المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، اللجنة العربية وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- نور الدين الأُشْمُوني الشافعي : أبو الحسن علي بن محمد بن عيسى (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م).
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق حسن محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة

- أحمد علي محمد الصغير : الجلمود، دار كنوز، القاهرة، الطبعة الأولي، ٢٠١٦.
- أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت.
- بطرس البستاني : أدباء العرب في الأعصر العباسية (حياتهم- آثارهم- نقد آثارهم، دار هنداوي، الطبعة الأولي، ٢٠١٤م، ص١٠٧.
- جورج طرابيشي: مصائر الفلاسفة بين المسيحية والإسلام، دار الساقي، بيروت، الطبعة الاولي، ١٩٩٨.
- جون لوريمر : تاريخ الكنيسة، دار الثقافة المسيحية،القاهرة، د.ت.
- حسين عطوان : الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت.
- عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع، دار االفكر العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٥.
- محمد عبد الله عنان : موسوعة دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد علي قطب : مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٥.
- محمد نمر المدني : أعداء الغرب، فكر لعالمٍ جديد، مؤسسة رسلان، دمشق، الطبعة الأولي، ٢٠٠٩، ص٢١١.
- محمود سعيد عمران : حضارة أوربا في العصور الوسطي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٨.

- الموسوعة الفقهية : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ج٢، ص١١٥.
- منسي يوحنا : تاريخ الكنيسة القبطية، مكتبة المحبة، ١٩٢٤م.
- ميشيل حنا : تاريخ وسائل الإعدام في العالم، مكتبة الفكر الجديد، الطبعة الثانية،د.ت،
- هادي العلوي : من تاريخ التعذيب في الإسلام، دار الثقافة والنشر، سوريا، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

– معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

ثالثًا : الرسائل العلمية

- آمال بنت عبد العزيز العمرو : الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية جمع ودراسة، كلية أصول الدين، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٥
- حسين نصر الله : في ثورات الزنج وأثرها علي الخلافة العباسية انظر : حسين نصر الله : حركة الزنج وأثرها علي الخلافة العباسية (٢٥٥-٢٦٩هـ/ ٢٧٠-٨٨٤م)، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة ٨ ماي ١٩٤٥ قالمة، ٢٠١٥.

رابعًا : الدوريات والأبحاث

- الهواملة، فضيلة المفتي محمد : حرق الإنسان بالنار بدعوى القِصاص، دراسة فقهية مقارنة، بحث علمي محكم منشور في مجلة البحث العلمي الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، جامعة أريس الدولية، السنة الحادية عشرة، العدد الرابع والعشرون ١٤ شعبان ١٤٣٦هـ الموافق ١/ ٦/ ٢٠١٥ دائرة الإفتاء العام/ مكتب إفتاء محافظة الطفيلة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

http://www.aliftaa.jo/Research.aspx?ResearchId=87#.XFeUuJjEEoM

- محمد باغستاني : صور من حقوق الإنسان في القرآن الكريم، ترجمة عبد الرحيم النجار، مجلة بحوث قرآنية باللغة الفارسية، عدد٤٥.

خامسًا: مراجع أجنبية

BIRLEY، ANTHONY R: Septimius Severus: The African Emperor, LONDON AND NEW YORK, 1999.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٤١–٩٢

صَاعِدُ الأَنْدَلُسِي
ومنهجه في كتابه «طَبَقَات الأُمَم»

طارق أبو الوفا محمد

ملخص

تميزت بلاد الأندلس في عصر **ملوك الطوائف (نحو ٤٠٠-٥٣٦هـ/ ١٠١٠-١١٤٩م)** بسمات عديدة متمايزة، وجمعت بين الإيجاب والسلب، القوة والضعف، الازدهار والتدهور، الوحدة السياسية حينًا والتفكك والتشرذم أحيانا أخري، في تلك الظروف المتمايزة بالتضاد نبغ بها علماء في مجالات شتي، أسهموا إسهامًا واضحًا في تميز الحضارة الإسلامية، كان من بينهم المؤلف: **صاعد الأندلسي**، الذي تميز بين مؤرخي التاريخ بعدة سمات، وخلف لنا **مصنفه** القليل في حجمه، **العظيم في نفعه** لكونه كشافًا موسوعيًا **دلنا** علي علماء عصره ومن سبقه في بلاد الأندلس وخارجها منذ أقدم العصور منتهيًا بعصره، **كما** كان واسع الإطلاع مما أمكنه النقد لمعظم المصنفات التي أشار إليها في كتابه الذي حمله عنوانًا يدل على مضمونه فسماه بـ «**طبقات الأمم**»، وحوله ستدور هذه الورقة البحثية.

Abstract

The country of Andalusia in the era of the Taifa kings (about 400-536 AH / 1010-1149 AD) was characterized by many distinct features, and it combined positive and negative, strength and weakness, prosperity and deterioration, political unity at times and disintegration and fragmentation at other times. They made a clear contribution to the distinction of Islamic civilization, among whom was the author: Sa'ed Al-Andalusi, who distinguished among historians of history with several features, and left us his work that is small in size, great in its usefulness as an encyclopedic scout who showed us the scholars of his time and those who preceded him in Andalusia and abroad since The oldest eras ended with his era, as he was very knowledgeable, which enabled him to criticize most of the works he referred to in his book, which bore a title indicating its content, so he called it "The Classes of Nations", around which this research paper will revolve.

*
* *

المقدمــة

تميزت بلاد الأندلس في عصر **ملوك الطوائف (نحو٤٠٠-٤٨٧هـ/ ١٠١٠-١٠٩٥م)** بسمات عدة متمايزة، حيث جمعت بين الإيجاب والسلب، القوة والضعف، الازدهار والتدهور، الوحدة السياسية حينًا والتفكك والتشرذم أحيانا أخرى، في تلك الظروف المتمايزة بالتضاد نبغ بها علماء في مجالات شتي، أسهموا إسهامًا واضحًا في تميز الحضارة الإسلامية، كان من بينهم مؤلفنا **صاعد الأندلسي**، الذي خلف لنا **مصنفه طبقات الأمم** القليل في حجمه، **العظيم في** نفعه لكونه كشافًا موسوعيًا **دلنا** علي علماء

عصره ومن سبقه في بلاد الأندلس وخارجها منذ أقدم العصور منتهيًا بعصره، **كما** كان واسع الإطلاع مما أمكنه النقد لمعظم المصنفات التي أشار إليها في كتابه الذي حمله عنوانًا يدل على مضمونه فسماه بـ«**طبقات الأمم**».

تناول عدد قليل من الباحثين العرب والمستشرقين الكتابة عن مؤلفنا وتحقيق مخطوطه، وسأعرض لهم في ترتيب زمني على حسب تاريخ طبع الكتاب: **هنري سوتر، لويس شيخو، ريجيس بلاشير، علي محمد أبو طالب، حياة العيد بوعلوان، حسين مؤنس**، وجميعهم **أولو** العناية بتحقيق النص، والإشارة إجمالًا إلى حياة صاعد ومنهجه في كتابه، **كذلك**، قدمت دراسة: الحركة العلمية للبربر في بلاد الأندلس من خلال كتاب ابن الفرضي، إعداد: **مليكة عدالة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٠م، وقد أولت الحياة السياسية وبعض النواحي الثقافية عناية دون الإشارة إلى صاعد، وأعيد نشر نشرة لويس شيخو وصدرت عن الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ٢٠١٦م **بتقديم د. محمود إسماعيل**، وقد علق عليها **إميل أمين** بجريدة الحياة، ديسمبر٢٠١٦م، **ولذلك**، آثرت علي نفسي تناول هذا الموضوع الثري في معلوماته، وتحليل منهج مؤلفه في كتابته، وهو **موضوع حري** بدراسته منهجيًا في ورقة بحثية، وذلك من خلال النقاط **التالية**:

التمهيد:

- الحياة السياسية في بلاد الأندلس.

صاعد الأندلسي «سيرة وحياة»:

- اسمه ونسبه.
- مولده ووفاته.
- عائلته ونشأته وطلبه للعلم.
- شيوخه.

- علاقته برجال الدولة ومعاصريه.
- وظائفه.
- مؤلفاته.

منهج صاعد في الكتاب:

- تاريخ تصنيف الكتاب.
- مخطوطة الكتاب بين يدي المحققين.
- رواة الكتاب.

موضوع الكتاب ومحتوياته:

- المادة العلمية في الكتاب:
- الجوانب الدينية في الكتاب.
- النصوص الأدبية.
- الوثائق.
- معرفته باللغات الأجنبية.
- التأكيد والتدقيق.
- ترجيحه للرواية.
- نقده للرجال.
- موسوعيته.
- أمانته العلمية.
- تقييمه للكتب.
- أثر صاعد.

الخاتمة: ذيلتها بما توصلت إليه من نتائج في هده الدراسة البحثية، ثم تلاها الملاحق، وتلاها. **قائمة المصادر والمراجع.**

التمهيد

الحياة السياسية في بلاد الأندلس إبان حياة صاعد الأندلسي

ولد المؤرخ الأندلسي صاعد عام **٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م**(١)، في **مملكة ألمرية**(٢) ببلاد الأندلس، وعاش بها فترة من عمره، حتى بلغ **الثامنة عشر**، فارتحل إلى إمارة **طليطلة**(٣)، وعاش بها وامتد عمره حتى عام ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م، وهذه السنوات التي تقرب من نصف قرن - **تعود** لعصر عرف باسم: عصر **ملوك الطوائف**(٤) في بلاد الأندلس، ذلك العصر الذي تمايز سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، فالفترة الواقعة بين انهيار الخلافة الأموية في بلاد الأندلس نحو عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، **(أوائل القرن١١م)**،

(١) بدأ عام ٤٢٠هـ في ٢٠ يناير سنة ١٠٢٩م؛ (محمد مختار: التوفيقات الإلهامية، تحقيق ودراسة وتكملة محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م، ص٤٥٢).

(٢) **ألمرية**: بالفتح ثم الكسر وتشديد الياء بنقطتين من تحتها، وهي مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبجّانة بابي الشرق منها يركب التجار وفيها تحل مراكب التجار وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب، يضرب ماء البحر سورها، ويعمل بها الوشي والديباج فيجاد عمله؛ (ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م، ج٥، ص ١١٩؛ أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت، صص١٧٤-١٧٥).

(٣) **طليطلة**: بضم الطاءين وفتح اللامين، مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتّصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق، وهي مدينة حربية تقع بين المسلمين في الجنوب والروم في السمال؛(البكري: أو عبيد الله البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب «المسالك والممالك» تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ص ص ٨٦-٨٨؛ ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج٤، ص٣٩؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ص ١٧٦-١٧٧؛ باسيليو بابون ماندونادو: الفن الطليطلي، ترجمة علي إبراهيم المنوفي، المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٨)

(٤) كليفورد.أ.بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة د.سليمان إبراهيم العسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٢، ١٩٩٥م، ص ٣٧.

وقيام دولة **المرابطين** فيها عام **٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م**، والتي قاربت **ثلثي قرن**[١]، هي فترة **التفكك السياسي** والازدهار الثقافي في آن واحد، فقد برز خلال تلك الفترة عدد من الأسر المحلية تم إحصاؤها بنحو ثلاثة وعشرين أسرة، والتي نتج علي إثرها استئثار القادة بالأندلس علي مدنها التي سنقتصر علي ذكر المدينتين اللتان عاش بهما **صاعد الأندلسي، وهما: مملكة ألمرية** حيث عاش فيها صاعد في الفترة من **٤٢٠-٤٣٧هـ/ ١٠٢٩-١٠٤٧م، وإمارة طليطلة** في الفترة من **٤٣٧-٤٦٢هـ/ ١٠٤٧-١٠٧٢م**، علي **النحو التالي**:

أَلْمَرِيَّة

ولد صاعد في عام ٤٢٠هـ إبان حكم زهير الصقلبي (٤١٩-٤٢٩هـ/ ١٠٢٩-١٠٣٩م)[٢]، الذي اختاره **الفتيان العامريون** لخلافة **خيران العامري (٤٠٥-٤١٩هـ/ ١٠١٥-١٠٢٩م)**[٣]، فانتقل إلى **ألمرية**، ومع بداية عهده، **غزا مجاهد العامري**[٤] مدينة

(١) كليفورد.أ.بوزورث: المرجع نفسه.

(٢) ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠م، ج١، ص ص ١٦٨- ١٧٢.

(٣) **خيران العامري: أو الصقلبي**، نشأ في كنف العامريين، **فولي ألمرية** للحاجب المنصور، ثم تدرج في المناصب في قصورهم حتى غدا من كبار **الفتيان العامريين في زمن الحاجب المظفر**، اهتم خيران **بألمرية** التي جعلها قاعدة لحكمه من عام ٤٠٥، فتى **المنصور ابن أبي عامر (392-327 هـ/ ٩٣٨-١٠٠٢م)** الذي استولى عليها سنة **(٤٠٥هـ/ ١٠١٥م)** فزاد في **بناء مسجدها** عام **٤١٠هـ/ ١٠٢٠م**، ومدّد سور المدينة من الجبل إلى البحر، وظل حاكمًا على **ألمرية ومرسية** وأعمالها إلى أن توفي في جمادى الآخرة **٤١٩هـ/ ١٠٢٩م**؛ (ابن عذاري: المصدر نفسه، ج٣، ص٩٦؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٧م، ج١، ص ١٦١؛ ج٢، ص٦٦٨).

(٤) **مجاهد العامري**: أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن علي الملقب بـ**«العامري»** نسبة إلى أستاذه ومعلمه الأول «المنصور بن أبي عامر» والذي اعتنى به عناية خاصة لما رآه فيه من صفات باهرة؛ من قوة وشجاعة إلى نسك وورع وتضلع في علم اللغة والقرآن؛ وهي صفات رشحته لأن يكون واليًا على حكم **«دانية»** ومنطقة الجزائر الشرقية، وظل عليها واليًا حتي توفي عام ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م؛ (الحميدي: محمد=

مرسية[١]، وتركها بعد أن **غنم منها الكثير والكثير، وأسر نائبه** على المدينة **أبي بكر ابن** طاهر، **إلا أن زهير الصقلبي** حافظ على علاقات طيبة مع جيرانه **بني حَمُّود**[٢] أصحاب **مَالِقَة**[٣]، وبني **زيري** أصحاب **غرناطة**[٤]، كما **كان** حريصًا على **مشاورة** علماء الدين في

=ابن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت، ص٣٥٢؛ المراكشي: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٢م، ص ١٢٧؛ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاونهم، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ج٤، ص ٣٥٣).

(١) **مرسية**: بضم أوله، والسكون، وكسر السين المهملة، وياء مفتوحة خفيفة، وهاء، مدينة بالأندلس من أعمال تدمير اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وسماها تدمير بتدمر الشام فاستمرّ الناس على اسم موضعها الأول، وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها،)١٣٩-١٧٢هـ/ ٧٥٦-٧٨٨م) عام٢١٠هـ/ ٨٢٥م؛ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٧؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ص ١٧٨-١٧٩).

(٢) **بنو حمود**: أو **بنو حماد** سلالة صنهاجية حكمت الجزائر ما بين (**٤٠٥-٥٤٧هـ/ ١٠١٤-١١٥٢م**) تأسست سلالة الحماديين من طرف حماد بن بلكين الابن الثاني لبلقين بن زيري، بعد الانفصال عن سلالة الزيريين بعد صراع على الخلافة، أقام حماد بن بلكين دولة بنى حماد التى تمثل أول دولة بربرية مستقلة تحكم الجزائر في العصر الإسلامي؛ (القلقشندي: شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٣١٧؛ ابن خلدون: عَبد الرَّحمن بن مُحَمَّد، أبو زَيْد وَلِّي الدِّين الحَضْرَمِيّ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاونهم، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩م، ج٦، ص١١٧؛ النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج٢٤، ص١٧٨).

(٣) **مالقة**: بفتح اللام والقاف، كلمة عجمية، مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء وألمرية،؛ (البكري: جغرافية الأندلس، ص ص ٨٦-٨٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص٤٣).

(٤) **بنو زيري**: سلالة حاكمة صنهاجية من منطقة المغرب الأوسط، حكمت في شمال أفريقيا الجزائر وتونس وأجزاء ليبيا ما بين ٣٦١-٤٤٤هـ/ ٩٧١-١١٥٢م، كان كبيرهم «**زيري بن مناد**» من أتباع=

شئون دولته، وفي عام **٤٢٩هـ/ ١٠٣٩م**، هاجم جيش **صنهاجة**[(١)] زهير وقواته، ووقعت **معركة كبيرة** انتهت بمقتل **زهير** ومعظم قواته[(٢)]، وأسر **وزيره ابن عباس** الذي قتله **باديس**[(٣)] بعد فترة بيده، كما غنم **باديس** من تلك المعركة الكثير، واستغل أيضًا الموقف، واستولى على **جيان**[(٤)] وأعمالها. **هكذا**، **توفي زهير الصقلبي** في آخر شوال

=الفاطميين منذ عام ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م، تولى الأخير سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م حكم الإمارة في **قلعة آشير**) الجزائر، تمتع ابنه من بعده بلكين بن زيري (٣٦١-٣٧٤هـ/ ٩٧١-٩٨٤م) باستقلالية أكبر عندما حكم جميع بلاد إفريقية، وتمكن من أن يمد في دولته غربا حتى **سبتة**، ثم استطاعوا بعد دلك مد نفوذهم إلى الأندلس وكانت لهم هناك دولة راجع؛ (ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ، ج٦، ص ص ٢٣٨-٢٤٠؛ كليفورد.أ.بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ، ص ص ٥١-٥٣).

غرناطة: بفتح أوله، وسكون ثانيه ثم نون، وبعد الألف طاء مهملة، ومعنى غرناطة رمّانة بلسان عجم الأندلس سمّي البلد لحسنه بذلك، تخترق النصف الآخر فتعمه مع كثير من الأرباض، وبينها وبين البيرة أربعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا؛ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٩٨).

(١) **صنهاجة**: أو قبيلة صنهاجة، واحدة من أكبر القبائل البربرية التي لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب الأوسط والأقصى، وأما ذكر نسبهم فإنّهم من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم. إلا أن العرب عرّبته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج؛ (ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص ص٢٠١-٢٠٢؛ حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٣٦).

(٢) الزيري: عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس الزيري، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة، المسماة بكتاب التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ص ٣٤-٣٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص ٩٦.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ، ج٦، ص ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٤) **جيان**: بالفتح ثم التشديد، وآخره نون، مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخا؛ (البكري: وجغرافية الأندلس وأوروبا، ص٦٤؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ص ١٧٤-١٧٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٩٦).

٤٢٩هـ/ ١٠٣٩م، فجعل أهل **المرية** من شيخهم **أبي بكر الرميمي**[(١)] **حاكمًا عليهم** إلى أن راسلوا **عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور**[(٢)] صاحب **بلنسية** [(٣)] يستدعونه لحكم مدينتهم في ذي القعدة **٤٢٩هـ/ ١٠٣٩م**، ثم جاءت عبد العزيز أنباء تحرك **مجاهد العامري** صاحب **دانية**[(٤)] لغزو **بلنسية**، فأسرع عبد العزيز تجهيز جيشه، وترك **وزيره أبا الأحوص «معن بن صمادح» (٤٣١-٤٤١هـ/ ١٠٤١-١٠٥١م)** لإدارة شئون **المرية**، الذي ما أن وطد شئونها، أعلن **خلع طاعة عبد العزيز**، ودعا لنفسه، واستولى على **المرية**

---

(١) **الشيخ الرميمي**: أَبُو بَكْر بْن الرميمي من أَهْل المرية يرْوى عَنْ أَبِي الْحَسَن عَلِيّ بْن مُعَاذِ روى عَنْهُ أَبُو القَاسِمِ عَبْد الرَّحْمَن بْن مَالك، وَقد حكى عَنْهُ أَبُو بَكْر بْن أَبِي الْفَيَّاض فِي تَارِيخه وَكَانَ يعرف بالأمين رَحمَه اللهَّ؛ (ابن الآبار: محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ج١، ص١٧٨).

(٢) **عبد العزيز بن أبي عامر**: المنصور أبو الحسن **عبد العزيز بن عبد** الرحمن (٣٩٧هـ- ٤٥٢هـ/ ١٠٠٦-١٠٦٠م) حاكم طائفة بلنسية في عهد ملوك الطوائف، وابن الحاجب المأمون وحفيد الحاجب المنصور حجاب الدولة الأموية في الأندلس؛(ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٤٧؛ ص ٣٠١؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٢، ص ١٦٠).

(٣) **بلنسيه**: السين مهملة مكسورة، وياء خفيفة: كورة ومدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرقي تدمير وشرقي قرطبة، وهي بريّة بحرية ذات أشجار وأنهارا، وبينها وبين تدمير أربعة أيام ومنها إلى طرطوشة أيضا أربعة أيام؛ (البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص١٢٢،٦٢؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ١٧٨-١٧٩؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٩١).

(٤) **دانية**: عد الألف نون مكسورة بعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقا مرساها عجيب يسمى السّمان، ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز، وكانت قاعدة ملك أبي الجيش مجاهد العامري، وأهلها أقرأ أهل الأندلس لأن مجاهدا كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق عليهم الأموال، فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا في بلاده، ومنها شيخ القراء أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني صاحب التصانيف في القراءات والقرآن؛(ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج ٢،ص ٤٣٤؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ١٧٨؛ الحميري: محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص ٢٣١؛ المقري، محمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م، ص٥).

وأعمالها عام ٤٣٣هـ/ ١٠٤٣م، حيث قدم إليها في هذا العام **بنو صمادح (٤٣٠-٤٨٠هـ/ ١٠٣٩-١٠٨٧م)**[(١)] وحولوها إلى مملكة بقيادة **معن بن صمادح** الذي نجح في الاستحواذ على الإمارة، **وظل مستأثرا** بحكمه في **ألمرية** وأعمالها حتى وفاته عام **٤٤٣هـ/ ١٠٥٣م**[(٢)]، وفي أثناء عهده رحل صاعد من ألمرية إلى طليطلة.

طُلَيْطِلَة إبان حياة صاعد

قدم صاعد إلى طليطلة عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٥م[(٣)]، وكان ذلك في **عهد يحيي الملقب «المأمون بن ذي النون»**[(٤)] الذي حكم منذ عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م إلى عام وفاته ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، وطال عهده إلى **ثلاثة وثلاثين عامًا، حفلت** خلالها **الإمارة** بحروب أهلية مدمرة بين الأندلسيين وبعضهم البعض، فقد حارب **المأمون**

---

(١) **بنو صمادح**: سلالة عربية من كندة، استوطن جدهم الأكبر أبو يحيي بن أحمد بن صمادح مدينة **وشقة**، وتولي أمورها في أيام الخليفة الأموي **هشام المؤيد بالله**، وفي عهد الاضطرابات استطاع **منذر التجيبي** صاحب **سرقسطة** طرد أبي يحيي بن صمادح، فلجأ أبو يحيى إلى عبد العزيز بن أبي عامر **صاحب بلنسية**، الذي أكرمه **وزوج** ابنته إلى ابنه **معن بن أبي يحيى بن الصمادح وولاه علي ألمرية**؛(ابن الآبار: الحلة السيراء، تحقيق: د.حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ج٢، ص ٨١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص١٧٣).

(٢) ابن الآبار: الحلة السيراء، ص ص ٧٨-٧٩؛ كليفورد.أ.بوزورث: الأسرات الحاكمة، ص ٣٤-٣٥؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس،ج٢، ص١٦٥).

(٣) حدد لنا صاعد في **كتابه** سماعه من شيخه هشام بن أحمد الوقشي، عام ٤٣٨هـ وهو العام الذي وصل فيه إلى طليطلة؛ صاعد الأندلسي: صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن، طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص١٠٤.

(٤) **ذو النون**: بنو ذي النون أسرة أمازيغية من هوارة، أسمهم الأصلي بنو زنون قبل أن يحرف لذي النون وهو لقب شائع في بلاد المغرب، أول ظهور لهذه الأسرة كيان مع تولى جدهم ذو النون بن سليمان حكم حصن أقليش وشنتمرية في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، حاولوا الاستقلال مرات عدة منها محاولة الفتح بن موسى بن ذي النون بـقلعة رباح سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م؛ (ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٧٦؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، ص١٥١؛ محمد مختار، التوفيقات الإلهامية، ص٣٣٢).

جيرانه المسلمين[١]، ومنهم: **بنو الأفْطس (٤١٣-٤٨٧هـ/ ١٠٢٢-١٠٩٤م)**[٢] حكام **بطليوس**[٣]، **وبنو عَبَّاد**[٤] **(٤١٤-٤٨٤هـ/ ١٠٢٣-١٠٩١م)** حكام **إشبيلية**[٥]، **وبنو هود (٤٣٠-٥٣٦هـ/ ١٠٣٩-١١٤٢م)**[٦] حكام

---

(١) ابن الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب، إعمال الأعمال، بيروت، د.ت، ص١٤٤.

(٢) بنو الأفطس: **سلالة أمازيغية** حكمت مدينة مملكة بطليوس في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف، منذ عام ٤١٣ حتى ٤٨٨هـ (١٠٢٢ - ١٠٩٤م). تنسب إلى مؤسسها عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، من **قبيلة مكناسة الأمازيغية** النازلة بفحص البلوط شماليّ قرطبة،كان مؤسس السلالة المنصور عبد الله بن الأفطس من كبار رجالات الخليفة الأموي الحكم الثاني، واقتطع لنفسه إمارة بطليوس بعد أفول الخلافة في قرطبة، وتمكن بنو الأفطس بعدها من تملك غرب إسبانيا وأجزاءٍ من البرتغال لفترات متفاوتة؛ (ابن الآبار: الحلة السيراء، ص ٥٥؛ كليفورد.أ.بوزورث: الأسرات الحاكمة، ص ٣٦).

(٣) **بطليوس**: بفتحتين، وسكون اللام، وياء مضمومة، وسين مهملة: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة؛ (أبو الفداء: تقويم البلدان، ١٧٣-١٧٤؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص١٤٧).

(٤) **بنو عباد**: أسرة عربية من قبيلة لخم، استطاعت تأسيس مملكة في إشبيليه جنوب الأندلس خلال القرن الخامس (١١ الميلادي) وفدت إلى الأندلس في نهاية عصر الدولة الأموية، وقد انتهت دولتهم على أيدي المرابطين عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، عندما دخلوا عاصمة بني عباد إشبيليه وأسروا المعتمد ثم نفوه إلى مدينة أغمات في المغرب، حيث توفي بعد أربع سنوات لتنتهي بوفاته سلالة بني عباد؛ (الذهبي:شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٢م،ج١٩، ص ٤٥-٥٠؛ حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص ص ٣٠٤-٣٠٦).

(٥) **إشبيليه**: بكسر الهمزة، بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، ولام، وياء خفيفة، مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضا، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عبّاد؛ (البكري: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ١٠٧-١١٦؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ص ١٧٤-١٧٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٤٩).

(٦) **بنو هود**: سلالة عربية من ملوك الطوائف في الأندلس، حكموا في سرقسطة ما بين ٤٣١-٥٠٤هـ/ ١٠٣٩-١١١٠م تنتسب إلى هود عبد الله ابن موسى بن سالم الجذامي من قبيلة جذام، مع سقوط سرقسطة في أيدي الموحدين سنة ١١١٠ فر عبد الملك (٥٠٤-٥٣١هـ/ ١١١٠-١١٣٦م) إلى الرويضة، استمر فرع بني هود هناك في الحكم حتى حدود سنة ٥٤١هـ/ 1146م؛ (القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، دار الكتاب الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٧م، ص ١٦).

سرقسطة(١)، حيث تحالف كل منهم مع حكام إسبانيا **المسيحيين** ضد الأخر(٢).

هكذا، كان العصر السياسي الذي عاشه صاعد بطليطلة حتى وفاته، مليئا بأحداثه السياسية حيث أدي تنافس أمراء وملوك هذا العصر سياسيا وعسكريا بإضفاء الألقاب المتعددة عليهم كما عج بلاط كل منهم بالعلماء والأدباء مكتفين بسير وأثار الخلفاء السابقين عليهم والمعاصرين لهم في بلاد المشرق الإسلامي.

صاعد الأندلسي «حياته»

صاعد بن أحمد «أبو الوليد» بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد **التغلبي**(٣)، **القرطبي**(٤)، حيث أجمعت معظم المصادر التي بين أيدينا إلى نسبته إلى **قرطبة** خلا **الضبي** الذي نسبه إلى **طليطلة**(٥)، وكذلك محدثين من المستشرقين الأوروبيين(٦)، بينما

---

(١) **سرقسطه:** بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال؛ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ٧١).

(٢) ابن الخطيب: إعمال الأعمال، ص١٤٤.

(٣) **التغلبي:** نسبة إلى **تغلب**، القبيلة العربية القديمة التى شاركت في فتح الأندلس عام ٩٢هـ/ ٧١٠م، وبلادها في الجزيرة بجهات سنجار ونصيبين وتعرف بديار ربيعة،، وبالتحديد في المنطقة الواقعة بين **قرقيساء وسنجار والموصل وماردين** وحتى جزيرة ابن عمر شمالًا، وعانة وتكريت جنوبًا؛ (ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، الصلة، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، ١٩٨٩م، ص٢٣٢؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب دار الساقي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج٨، ص٨٠، حسين بكر علي: القبائل العربية في الجزيرة الفراتية العليا في تركيا، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٨م، العدد ٣٧، ص ١٠٩).

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، نفس الصفحة؛ الصفدي: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات،تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م، ج١٦، ص ص ١٣٥-١٣٦.

(٥) الضبي: أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٢٣.

(٦) أنخيل جونثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسيين مؤنس، نقله من الأسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ٢٣٩؛

نسبه **الصفدي** إلى **جيان**(١)، ومن المحدثين من اتفق مع المصادر علي أنه القرطبي، وذهب في ترجمته إلى أنه **المالقي**(٢)، أما **كنيته** فقد كني بأبي القاسم(٣) واشتهر بـ **صاعد الأندلسي**.

مولده ووفاته

ولد صاعد عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م(٤)، في **ألمرية**(٥)، وامتد به العمر لنحو ثلاثة وأربعين عامًا، حتى توفي عام ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م(٦)، عند غالبية المؤرخين، بينما ذهب البعض إلى أنه توفي في عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م(٧)، وصلى عليه يحيى بن سعيد بن الحديدي(٨).

LUTZ RICHTER-BERNBURG, *Ṣā'id al-Andalusī: Abū al-Qāsim Ṣā'id ibn abī al-Walīd Aḥmad ibn 'Abd al-Raḥmān ibn Muḥammad ibn Ṣā'id al Taghlibī al-Qurṭubī, The Biographical Encyclopedia of Astronomers, Springer Reference.*, New York: Springer, 2007, p.1005.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص ص ١٣٥-١٣٦.

(٢) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م، ج١، ص٦١٠.

(٣) ابن بشكوال: الصلة، ٢٣٢؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٣٢٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص ص ١٣٥-١٣٦؛

أنخيل جونثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٣٩؛

LUTZ RICHTER-BERNBURG, *Ṣā'id al-Andalusī*, p.100.

(٤) ابن بشكوال: الصلة، ص ٢٣٢؛ أنخيل جونثاليث بالنثيا: المرجع نفسه، نفس الصفحة؛

LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op. cit*, p.1005.

(٥) ابن بشكوال: المصدر نفسه، نفس الصفحة؛ الضبي: بغية الملتمس، ص٣٢٣؛ أنخيل جونثاليث بالنثيا: المرجع نفسه، نفس الصفحة؛

Ṣā'id al-Andalusī, p.100. LUTZ RICHTER-BERNBURG,

(٦) ابن بشكوال، المصدر نفسه، ص ٢٣٢؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٦، ص ١٣٥؛ أنخيل جونثاليث بالنثيا: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٧) الضبي، بغية الملتمس، ص٣٢٣؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op. cit* p.1006.

(٨) الضبي، المصدر نفسه، نفس الصفحة.

عائلته ونشأته وطلبه للعلم

والده، أحمد، وكنيته **أبو الوليد**[١]، كان **قاضيًا** بطليطلة متحريًا في أموره، واختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد في الحقوق، وبالشهادة على الخط، وقضى بذلك أيام نظره، وظل قاضيا بها حتى وفاته في ٢٥ رمضان عام ٤٤٩هـ/ ٢٥ نوفمبر١٠٥٧م[٢]، أما إخوانه فكان له أخ يسمي الوليد وهو أكبر أبناء أبيه، وبه **كني** والده[٣]، أما أبناءه فكان له من البنين **القاسم** الذي كني به صاعد، وإن لم تسعفنا المصادر عن أسماء زوجته وأبنائه[٤].

أما عن نشأته، فقد نشأ في مدينة مولده أَلْمِرِيَّة، وهي **مدينة** تمتاز بكونها مركزًا لصناعة الحرير بالأندلس علاوة على كونها ميناء ومركزًا تجاريا يربط الأندلس بالخارج[٥]، مما يدلل على ثراء أهل هذه المدينة فقد بنيت بها قصور منيفة مما دفع أحد الشعراء إلى قوله[٦]: «**متى تلحظوا قصر ألمرية، تظفروا ببحر ندى، ميناه در ومرجان، وتستبدلوا من موج بحر شجاكم ببحر لكم منه لجين وعقيان**».

في وسط هذا المجتمع الثري، الذي انعكس بدوره على أسرة صاعد التي فرغته لطلب العلم فالتمس له والده من علمه كأقرانه في تلك الفترة، فتعلم القراءة والكتابة

---

(١) ابن بشكوال، الصلة، ص ٣٣٧؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op. citī*, p.1005.

(٢) ابن بشكوال، الصلة، ص٢٣٢؛ الضبي، بغية الملتمس، ص ٣٢٣؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *Ṣāʿid al-Andalusī*, p.1005؛ محمد مختار: التوفيقات الإلهامية، ص٤٨١ .

(٣) ابن بشكوال: المصدر نفسه، نفس الصفحة؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op. cit*, p.1005.

(٤) ابن بشكوال: المصدر نفسه، نفس الصفحة؛ الضبي: بغية الملتمس، نفس الصفحة.

(٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١١٩.

(٦) من قول **أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي**، الشهير **بابن درّاج القسطلي**) ٣٤٧-٤٢١هـ/ ٩٥٨-١٠٣٠م)،كاتب وشاعر الحاجب المنصور؛(ابن بشكوال: الصلة، ص ٨؛ ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٩٧٢م، ص١٣٥.

وعلوم القران والحديث والفقه، والحساب أيضا(١)، وعندما لمس والده منه ذكاءً مفرطًا في التحصيل، أرسله إلى **قرطبة** عند أعمامه من **بني تغلب**، فتتلمذ هناك علي شيوخها، ومن أبرزهم **ابن حزم** الذي سيتم الإشارة إليه عند الحديث عن شيوخه(٢).

في خضم هذا العهد الزاخر بالأدباء تأدب صاعد وسمع منهم وتعلم علوم الحديث والفقه إلى أن **بلغ الثامنة عشر من عمره**، فأرتحل مع أسرته إلى طليطلة طالبًا الاستزادة من العلم في عدة علوم منها: الرياضيات والفلك والتاريخ(٣) وذلك في مطلع شبابه، سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، وعاش في كنف أميرها يحيى بن إسماعيل من أسرة ذي النون، الذي استقضي والده، وظل فيها قاضيا إلى وفاته كما سبقت الإشارة **أنفا**(٤).

رحـلاته

تنقل صاعد في بلاد الأندلس بين مراكزها العلمية إلا أنه قصد عدة مراكز هامة وقتئذ هي **جيان** حيث ذكر **الصفدي أنه الجياني**، فأقام بها مدة يسيرة، ثم قصد **مالقة**، ثم قفل إلى **قرطبة** حيث تقيم قبيلته تغلب، وهناك التقي بأئمة قرطبة، وتتلمذ علي كثير من أئمتها وشيوخه، حيث التقي فيها بشيخه **ابن حزم**(٥)، ثم قرر الارتحال وهو في مطلع شبابه إلى **طليطلة** التي أرخ لنا مقدمه إليها في عام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م(٦) والتي استكمل فيها نضوجه العلمي، وأقام بها، والتقي بأئمتها وشيوخها، وحظي فيها بمكانة كبيرة عند حاكمها يحيى المأمون حيث قلده القضاء، وأنتج فيها صاعد مؤلفاته فحاز منزلة كبيرة بين علماءها مما جعله يعد من أئمة علماء الأندلس البارزين آنذاك.

---

(1) LUTZ RICHTER-BERNBURG, *Ṣā'id al-Andalusī*,p.1005.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ص٢٣٢.

(3) LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op. cit*, p.1005.

(4) *Ibid*, p.1005.

(٥) سيرد له ترجمة وافية فيما يلي عند الحديث عن شيوخ صاعد الأندلسي.

(٦) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ١٠٤؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op. citī*, , p.1005

شيوخه

تتلمذ صاعد علي يد شيوخ كثر إلا أنه ذكر لنا في مصنفه أشهرهم في مجالات عدة، وسأقتصر هنا علي ذكر أبرزهم، ومنهم:

الوقشي، هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكنانيّ، وكان يكنّى أبا الوليد، من أهل طليطلة، وقد حدد لنا صاعد[١] تاريخ لقائه وسماعه منه بعام ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م بطليطلة، وقد توفي بداية يوم الاثنين، ودُفن يوم الثلاثاء لليلة بقيت لجمادى الآخرة سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م[٢]، أخذ عنه صاعد رواية واحدة[٣].

الباغونش، وهو المكنى بأبي عثمان بن البُاغُونش[٤]، توفي في رجب سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م وهو ابن **خمسة وسبعون** سنة[٥]، أخذ عنه صاعد خمس روايات[٦].

ابن منيح، أبو جعفر أحمد بن خميس بن عامر بن منيح، من أهل طليطلة، أحد المعنيين بعلم الهندسة والنجوم والطب[٧]، وقصد للتعليم بذلك زمانًا طويلًا، وكان له بعد بعلم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، وعنه أخذت كثيرا من ذلك، وكان له مع ذلك نفوذ في علم العربية وقد أدب بها زمانًا بطليطلة، توفي رحمه الله ليلة الأربعاء لثلاث بقين من رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة[٨]،**(رجب ٤٥٤هـ/ أغسطس١٠٦٢م)**[٩].

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص١٠٤.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ص ٦١٧؛ أحمد تيمور: أعلام المهندسين في الإسلام،، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١١م، ص٣١.

(٣) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ١٠٤.

(٤) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٨٩؛ أنخيل جونثاليث: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١٧.

(٥) ابن الآبار: تكملة الصلة، ص٢٨٨؛ أحمد تيمور: أعلام المهندسين، ص٢٤.

(٦) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ص٨٩، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٧.

(٧) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص٩٦.

(٨) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٩) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية، ص ٤٨٦.

ابن حزم القرطبي

ذكره صاعد[١] بقوله: «**كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار**»، وكان صاعد **وثيق الصلة** بشيخه حيث كتب إليه شيخه ابن حزم أنه ولد **بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة**[٢]، **(رمضان ٣٨٤هـ/ ٧** نوفمبر٩٩٤م)[٣]، **عن سعة** علم أستاذه يخبرنا صاعد[٤] أن **ابنه الفضل ابن حزم قال له: «اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة**»، وقد كان لابن حزم مكانة جليلة عند تلميذه صاعد مما دفعه إلى أن يقول عنه في كتابه طبقات الأمم[٥]: «أوغل بعد هذا في الاستكثار من علوم الشريعة حتي نال منها ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله»[٦]، **ولصلة صاعد بابن حزم** ومتابعته له عن طريق المراسلة بابنه فقد استطاع أن يحدد لنا تاريخ يوم وفاته **بقوله: «توفي رحمه الله في سلخ شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة**»[٧]، **(شعبان ٤٥٦هـ/ ١٩ يوليو ١٠٦٤م)**[٨]، كان **أكبر** علماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري[٩]، كما عد من أوائل من قال **بكروية الأرض**[١٠]،

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٩٨.

(٢) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٣) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية، ص٤١٦.

(٤) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ٩٨.

(٥) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٦) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٧) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٨) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية، ص ٤٨٨.

(٩) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٩٨؛ أنخيل جونثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص ٢١٣-٢٣٩.

(١٠) قال ابن حزم في كتابه الشهير «الفصل في الملل والأهواء والنِحل» إن «البراهين قد صحت بأن الأرض كروية، والعامة تقول غير ذلك؛ (ابن حزم: الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، د.عبد الرحمن عميره، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٦م). ص ١٧٥.

أخذ عنه صاعد ثلاث روايات(١).

أبو المطرف، عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد بْن عَبْد الكبير الطليطي(٢)، كان حيًّا فِي سنة ستين وأربعمائة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)، وذكر أنه ولد سنة سبع وثمانين وثلاثمائة (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م)(٣)، تُوُفِّي فِي رمضان سنة سبْعٍ وستّين وأربعمائة، (٤٦٧هـ/ أبريل - مايو ١٠٧٥م(٤) له أخذ عنه صاعد روايتين(٥).

ابن الحشا، القاضي عبد الرحمن بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بابن الحشاء، قاضي طُلَيْطُلَةَ، ثم قاضي **طرطوشة**(٦)، ثم قاضي دَانِيَةَ، منه استقي صاعد عند ترجمته للحسن الهيثم بقوله: «**أخبرني القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن عيسي بن محمد بن عبد الرحمن أنه لقيه بمصر سنة ثلاثين وأربعمائة (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)**»(٧).

جدير بالذكر أن صاعد لم يكن متعصبًا في مذهبه مما دفعه إلى طلب العلم والتتلمذ علي يد **أهل الذمة** حيث أشار إلى طلبه العلم علي يد واحد منهم وقد ترجم له في كتابه ترجمتين لسعة علمه ولتقديره له وهو: **أَبُو الْفضل حسداي بن يُوسُف بن حسداي**(٨)

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ص ٩٧-٩٩.

(٢) ابن الآبار، تكملة، ج٣، ص ١٣؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ج١٠، ص٢٥١.

(٣) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص٩٧.

(٤) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية، ص ٤٩٩.

(٥) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ١٠٤.

(٦) **طرطوشه:** بالفتح ثم السكون ثم طاء أخرى مضمومة، وواو ساكنة، وشين معجمة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر ابره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعدّ في جملتها تحلّها التجار وتسافر منها إلى سائر الأمصار؛(ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٠).

(٧) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٨٠.

(٨) ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان، حققه وعلق عليه: حسين يوسف خريوش،مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م، ج٢، ص ص ٥٤٦-٥٥١؛ ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي، عيون الأنباء في طبقات الأنباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص ١٩٩.

وَكَانَ فِي سنة ثَمَان وَخمسين وَأَرْبَعمِائَة فِي الْحَيَاة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م) وَهُوَ فِي سنة الشبيبة(١)، وَذكر أَنه عُنِي بالتعاليم وَأسلم وساد(٢)، أخذ عنه صاعد أربع روايات(٣).

علاقاته برجال الدولة ومعاصريه

بدأت علاقاته وصلاته برجال الدولة والحكام ... منذ وقت مبكر من عمره، فلما انتقل للعيش في **طليطلة** عاش في كنف أميرها **يحيى بن إسماعيل** (٤٣٥-٤٦٧هـ/ ١٠٤٣-١٠٧٥م) من أسرة ذي النون، وهو الرجل الذي يرجع إليه الفضل في قصب السبق برعايته بالعلم والعلماء، كما كان مهتما ببناء قصورها العامرة التي أطنب في وصفها المؤرخون والشعراء(٤)، أما عن علاقته بالوزراء، فقد سبقت الإشارة إلى علاقته بشيخه ابن حزم(٥) الذي تولي الوزارة في قرطبة كما أنه تتلمذ له وللوزير أبو المطرف حيث ترجم صاعد له في مصنفه(٦).

أما عن **معاصريه**، فكانوا كثر، وأشهرهم حسب ترتيب الوفاة:

القاضي ابن شهر: هو أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن مختار بن شهر الرعيني، ولي القضاء في مدينة ألمرية آخر دولة زهير العامري في سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، وتوفي

---

(١) ابن خاقان: المصدر نفسه، نفس الجزء، ص ٥٤٦؛ ابن سعيد: أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي، كتاب المغرب في حلي المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٥٥م، ص ٤٤١.

(٢)ابن خاقان: المصدر نفسه، نفس الجزء والصحة؛ ابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدر العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١م، ص٦٢٧؛ ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ص ص ٥٤٦-٥٥١

(٣) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ص ٩٢، ١١٠، ١١١، ١١٢.

(٤) باسيليو بابون ماندونادو: الفن الطايطلي، ص ٢٨.

(٥) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ص ٩٧-٩٩.

(٦) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص١٠٤.

بمدينة قرطبة وهو باق علي القضاء سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م[١].

ابن برغوث: محمد بن عمر بن محمد المعروف **بابن برغوث**، والمكنى بأبي عبد الله، وكان له إشراف على سائر العلوم، ذكره **صاعد**[٢]، وقال توفي سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م.

أبو الحكم: **أبو الحكم** عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد الكرماني **(٣٦٨-٤٥٨هـ/ ٩٧٨-١٠٦٦م)**، أحد الراسخين في علم الهندسة والعدد[٣]، رحل إلى المشرق، وانتهى إلى حران من بلاد الجزيرة، **فعني** هناك بطلب الهندسة والطب، ثم رجع إلى الأندلس واستوطن مدينة سرقسطة، وهو الذي أدخل إلى الأندلس رسائل إخوان الصفاء، ولا يعلم أحد أدخلها قبله[٤]، توفي بسرقسطة سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م، وقد **بلغ التسعين** أو جاوزها بقليل[٥].

الواسطي: أبو الأصبغ عيسي بن أحمد، أحد المحنكين بعلم العدد والهندسة والفرائض، وقعد بقرطبة لتعليم ذلك، وله أيضا بصر بجمل من علم هيئة الفلك وحركات النجوم، قال صاعد: وهو باقي إلى وقتنا هذا (عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م)[٦].

ابن خيره: **سعيد** بن محمد الطليطلي، المعروف بابن العطار، وهو مولى الكاتب محمد بن أبي هريرة خادم الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن ذي النون كان من صغار تلاميذ ابن الصفّار، متقنًا لعلم العدد والهندسة والفرائض، وقعد لتعليم ذلك بقرطبة[٧].

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ٩٣-٩٥.

(٣) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ص ٩٢-٩٣.

(٤) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٩٣؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ج ٥، ص ٨٠؛ أحمد تيمور: أعلام المهندسين في الإسلام، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية- القاهرة، ٢٠١١، ص٢٧.

(٥) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ٩٣.

(٦) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه والصفحة.

(٧) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

وظائفه

أجمعت المصادر على تولي صاعد القضاء بطليطلة، بعهد من يحيى المأمون بن ذي النون (٤٣٥-٤٦٧هـ/ ١٠٤٣-١٠٧٥)[١]، أواخر حياته عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م، بعد عزل شيخه **أبو زيد الحنشا** الذي تولى القضاء خلفا لوالد صاعد كما سبقت الإشارة سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[٢].

مؤلفاته

خلف لنا صاعد من ورائه عدة مصنفات في عدة علوم حفظت لنا المصادر عناوينها وتخصصاتها وهي بين المفقود والمطبوع وسيتم الإشارة إليها مرتبة على حروف المعجم وهي:

- **حركات النجوم والكواكب.**

كتاب في علم الفلك، لعله أراد به شرح ورصد كيفية حركات النجوم والكواكب، ويدل على ذلك أن **الصفدي** ذكره بعنوان: حركات النجوم فقط[٣].

- **تاريخ الإسلام**[٤]، مخطوط في علم التاريخ.
- **تاريخ الأندلس**[٥]، مخطوط في علم التاريخ.
- **جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم**[٦].

---

(١) أنخيل جونثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأدلسي، ص ٢٣٩؛
LUTZ RICHTER-BERNBURG, *Ṣā'id al-Andalusī*, p.1006.

(٢) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص٩٧؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op.cit*, p.1006

(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص ١٣٦؛ الزركلي، الأعلام، ج٣، ١٨٦.

(4) LUTZ RICHTER-BERNBURG: *op.cit*:, p.1006.

(5) *Ibid*, p.1006.

(٦) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤٦٢؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٥٧م، ج، ص ٦٢٨؛ الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٨٦.

- **صوان الحكم، في طبقات الحكماء**(١).

طبقات الأمم(٢)

الكتاب **محور الدراسة**، طبع أكثر من مرة، كما توجد منه نسخ خطية في عدة أماكن، منها نسخة مخطوطة، تقع في ٦٩ ورقة، تم نسخها في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، برقم ٢٩٥٠ مكتبة شيستر بيتي بمدينة **دبلن** الأيرلندية(٣).

- **مقالات أهل الملل والنحل**: كتاب في الديانات والمعتقدات والفرق الإسلامية وغير الإسلامية(٤).

وبعد، ما وصل إلينا كان الكتاب **السادس** من أعماله، وهو ما تدور حوله دراستنا البحثية، وهو **طبقات الأمم**، وضعه أصلا للتعريف بأعلام عصره حين خدم كقاضٍ لطليطلة في عهد أمراء الطوائف(٥).

منهجه في كتاب «طبقات الأمم»

يعد كتاب طبقات الأمم من ذخائر التراث العربي لما جمعه من حقائق تاريخية عظيمة عن العلماء في شتي أقطار المعمورة مند بدء الخليقة إلى زمان المؤلف لذا فهو من الكتب الرائدة في هذا المجال، ويعول عليه الباحثون في استسقاء مادتهم العلمية في هذا الدرب من دروب المعرفة، كما يحوي بين دفتيه الكثير من المعلومات، لذلك فقد جاء في مقدمة مصادر البحث في تاريخ العلوم.

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٤، ص١١١؛ عمر رضا كحالة، المرجع نفسه، نفس الصفحة؛ LUTZ RICHTER-BERNBURG, *Ṣāʿid al-Andalusī*:, p.1006.

(2) LUTZ RICHTER-BERNBURG, *op.cit*:, p.1006.

(٣) كوركيس عواد: ذخائر التراث العربي، مجلة المورد، وزارة الإعلام، العراق، المجلد٤، العدد١، ١٩٧٥، ص ٢١٠.

(٤) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ص٨٢٦.

(٥) عمر رضا كحالة: المرجع نفسه، ص ٨٢٦؛ الزركلي: الأعلام، ج٣، ص ١٨٦.

تاريخ تصنيف الكتاب

إن أول ما يطالع القاري هو عنوان الكتاب الذي يحمل اسم طبقات الأمم، ولعل صاعد أول من ألف كتابا بها العنوان(١)، أما عن تاريخ تصنيف صاعد لكتابه فقد ذكره في أثناء حديثه عن مدينة طليطلة بقوله: **وهي في وقتنا هدا الذي هو سنة ستين وأربعمائة (١٠٦٨م) في أواخر كتابه، ولم يذكر ذلك إلا في هذه المرة**(٢)، وقد انتهي من تأليفه قبل وفاته بسنتين (٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م).

الكتاب بين يدي المحققين

حظي هذا الكتاب بجهود المحققين من المستشرقين والعرب علي حد سواء، **وجاء في طليعتهم**:

هنري سوتر: (١٨٤٨-١٩٢٢م)

مستشرق سويسري، برز في تاريخ الرياضيات والفلك عند العرب، عني بتراجم علماء الهيئة والرياضيات من العرب، فوضع كتابا بالألمانية اشتمل على نيف وخمسمائة ترجمة وأسماه الرياضيون والفلكيون العرب وأعمالهم، أما عن النسخة التي اعتمد عليها في نشر الكتاب وكانت أول نسخة تخرج الكتاب إلى النور، وقد قدم له بالألمانية مقدمة غير طويلة إلا أنه أنفق في تحقيقه جهدا كبيرًا(٣).

لويس شيخو

هو **الأب** لويس شيخو إليسوعي(٤)، أما عن نشرته فقد اعتمد فيها علي **نسختين**

---

(١) جورجي زيدان: كتاب طبقات الأمم (السلائل البشرية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩١٢م، المقدمة، ص ٤.

(٢) صاعد الأندلسي،: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٣) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، المقدمة، ص ٥.

(٤) خير الدين الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٨٦.

بالمتحف البريطاني بلندن النسخة الأولى، برسم 281 وكتبت سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م، والثانية حديثة برسم1622، كتبت سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٦٢م، والثالثة قام بشرائها عام ١٩٠٩م من مدينة دمشق، وهي عماد نسخته المحققة(١)، ولأهمية جهد المحقق في الكتاب أعيد نشر تحقيقه أكثر من مرة أخرها التي صدرت عن هيئة قصور الثقافة بالقاهرة عام ٢٠١٦م، تقديم محمود إسماعيل(٢).

ريجيس بلاشير، (١٩٠٠ - ١٩٧٣م)

مستشرق فرنسي، معروف بإطلاعه العميق على اللغة العربية و الأدب، اعتنى بكتاب طبقات الأمم، وترجمه إلى الفرنسية، وضمَّن هذه الترجمة تعليقاتٍ وافية وشروحًا، ونال على هذه الدراسة شهادة الدكتوراه في باريس عام ١٩٣٦(٣)، وأكد ذلك حسين مؤنس بقوله: «**أما بلاشير فقد بذل جهدًا كبيرًا في التحقيق، وترجمته الفرنسية التي استفدت منها في تحقيق النص**»(٤).

علي محمد أبو طالب

طبع الكتاب بالقاهرة ولم أقف علي هذه الطبعة، وقد ذكر عنها **حسين مؤنس** أنها طبعة لا بأس بها، وأنها غير مؤرخة(٥).

حياة العيد بو علوان

طبعة دار الطليعة، بيروت، سنة ١٩٨٥م، (الطبعة الأولى)، في ٢١٦ صفحة،

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو، التوطئة، ص ٥؛ أنخيل جونثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٢٣٩.

(٢) إميل أمين: جريدة الحياة، ديسمبر السبت ٣ ديسمبر ٢٠١٦م، العدد٥٩، ص ٩.

(٣) زهير حميدان: الموسوعة العربية، دمشق، د.ت، المجلد ١٢، ص ١١.

(٤) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، المقدمة، ص٥.

(٥) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

أطروحة جامعية، قدمت لنيل درجة الماجستير في الجامعة الأمريكية بيروت عام ١٩٨٣م، رجعت محققتها إلى أربع نسخ بالإضافة إلى طبعة شيخو، وسلكت فيها منهج التلفيق في إثبات النص الراجح عند اختلاف النسخ، لكن العمل في الكتاب افتقر إلى الدراية العلمية بما تعالجه المحققة فوقعت فيه تصحيفات علمية كثيرة لأسماء الكتب والمؤلفين وغيرهم، بل وفي الأحاديث النبوية أيضا، والعجيب أن الصواب قد يوجد في بعض النسخ التي تشير إليها في هوامش الكتاب فتثبت الخطأ في صلب المتن وتشير إلى خلافه في الهامش، كما يجد القارئ اختلالا في السياق – أحيانا – مما يُشعر بوجود سقط ما، هذا بالإضافة إلى حاجة الكتاب إلى فهارس تستخرج معلومات الكتاب، وقائمة بالمقابل اللاتيني للأسماء اليونانية الواردة في الكتاب.

حسين مؤنس

أحدث طبعة محققة للكتاب، وهي التي صدت عام ١٩٩٣م، دار المعارف، القاهرة، في ١٥٢ صفحة، وهي طبعة جيدة اعتمد فيها المحقق علي ثلاث نسخ محققة بالإضافة إلى أكثر من نسخة خطية، وهي التي سوف يتم الاعتماد عليها في الدراسة المنهجية لهذا الكتاب .

رواة الكتاب

حظي كتاب طبقات الأمم بمكانة رفيعة بين المصنفات الأندلسية مما جعله يروي داخل الأندلس وخارجها، كان من أوائل من تصدي لروايته بالأندلس **ابن برال**(١)، حيث ذكره ابن الآبار بقوله: أنه حدث به عن صاعد دون الإشارة إلى تاريخ وفاته، ولم نقف له علي تاريخ وفاة، كما كان **عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبي**(٢) من تلقي

---

(١) ابن الآبار: كتاب التكملة، ج٢، ص ٢٥٣.

(٢) **اليحصبي**: عَبْد اللهَّ بْن مُحَمَّد بْن مَرْزُوق اليحصبِي أندلسي يكنى أَبَا مُحَمَّد روى عَنْ أبي بَكْر عبد الْبَاقِي ابن برال الحجاري ورحل حَاجا فَسمع مِنْهُ بالإسكندرية أَبُو طَاهِر السلَفِي كتاب طَبَقَات الأُمَم للْقَاضِي=

رواية الكتاب بالأندلس عن **ابن برال**، ونقله إلى الإسكندرية[١] حيث سمعه منه أبو طاهر السلفي، فعد أول من روي الكتاب بالإسكندرية، وثالث الرواة في المجمل، لأنه رواه عن **اليحصبي**.

موضوع الكتاب ومحتوياته

كتب صاعد مؤلفه «**طبقات الأمم**»، وحاول فيه استكمال دراسة أستاذه **ابن حزم الظاهري** عن دور الأندلس في إنتاج العلوم، والتعريف بأهم **الشخصيات الفكرية** التي برزت في مختلف العهود الإسلامية، إلا أن **دراسته** اختلفت عن رسالة ابن حزم في «**مراتب العلوم**»[٢] لأنه لم يكتفِ بأخبار الكاتب بل حاول التعريف بعصره وظروفه وبيئته، **فوجدته** وبسبب شمولية الكتاب وضع مقدمة تحليلية للتعريف بتاريخ العلوم وتطور الأفكار واتصال الثقافات بعضها البعض من المشرق إلى المغرب وانتهاءً بالأندلس وعصره، وقد قسم صاعد كتابه إلى الأمم التي عنيت بالعلم وهم: الفرس والكلدانيون؛ الأشوريون والأرمانيون؛ العبرانيين؛ واليونانيون والروم؛ القبط أهل مصر والعرب؛ الهند والسند، وأمم لم تعني بالعلم وهم: الصين؛ الترك[٣].

جاءت دراسته في تصنيف الأمم التي ذكرها علي أساس **أنثربولوجي** فقد قال: إن الأمم تنقسم إلى الأجناس والأخلاق واللغات، وبذلك هو أقرب ما يكون إلى كتب الاجتماع[٤].

=أبي الْقَاسِم صاعد بْن أَحْمَد الطليطلي وَحدث بِهِ عَنْهُ عنِ ابْنِ برَّال عنْ صاعد؛(ابن الآبار: التكملة، ج٢، ص ٢٥٣).

(١) ابن الآبار: التكملة، ج٢، ص ٢٥٣؛ لويس شيخو اليسوعي: محققًا، التوطئة، ص ٤.

(٢) هو كتاب مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض.

(٣) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، المقدمة، ص٦؛أنخيل جونثاليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٤) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

أما **مصادر صاعد** في كتابه فقد انقسمت بين: **المشافهة**[١] **والمراسلة**[٢] **واطلاعه علي** الكتب فقد رجع إلى **خمسة مصادر** وهي:

- **الخوارزمي**، (ت٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، محمد بن موسي، عالم رياضيات وفلك وجغرافيا[٣].

- **أبو معشر (ت٢٧١هـ/ ٨٨٦م)**[٤]، أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، يعتبر كتاب أبي معشر الفلكي الكبير: المسمى «**بالطوالع الحدسية للرجال والنساء**» من أسهل الكتب المستعملة في الطلاسم والنجوم.

- **ابن قتيبة**، (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، أبو محمد عبد الله **بن عبد** المجيد بن مسلم، أديب فقيه محدث مؤرخ مسلم عباسي، استعان به في موضع أو أكثر[٥].

- **الهمداني**، (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المعروف بابن الدمينة، له كتاب: **الإكليل** من أنساب اليمن وأخبار حمير[٦].

- **المسعودي**، (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي،

---

(١) وقد جاءت عنده في كتابه بلفظ أخبرني راجع؛(صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص، ٨٩، ٩٤، ٩٨).

(٢) وقد جاءت عنده في كتابه بلفظ كتب إلي؛(صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٩٨).

(٣) الخوارزمي: محمد بن موسي، الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة، مطبعة بول باربر، القاهرة، ١٩٣٧م.

(٤) أبو معشر: أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي، الطوالع الحدسية للرجال والنساء، مكتبة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٥) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.

(٦) الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني،كتاب الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، مكتبة المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م؛ سرائر الحكمة، المقالةُ العاشرةُ منْ سرائرِ الحكْمة في عِلْم النُّجُوم، نسخه وعلق عليه محمد بن علي بن الحسين الاكوع الحوالى، د.ت.

وكتابه: التنبيه والإشراف[(١)].

أما عن خطته في الكتاب فيغلب عليها الإجمال والتفصيل مثل ما ذكره عن حال العرب في الإسلام، بقوله: «فعلي ما نذكره هنا بأوجز ما يمكننا وأخصره»[(٢)]، وعن تاريخ جهود الخلفاء العباسيين في العلم إجمالا ثم يفصح عن ذلك بقوله: «وإذ قد ذكرنا هذه المقدمة من أخبار العرب، فنذكر الآن من عرف من الدولة العباسية من المسلمين عربا كان أو أعجميا بشيء من علوم الفلسفة، فنقول...»[(٣)].

أما محتويات الكتاب فقد قمت بوضعها في ملحق راجعًا إلى صفحات طبعة دار المعارف التي قام بتحقيقها حسين مؤنس[(٤)].

المادة العلمية في الكتاب

أمدنا كتاب طبقات الأمم بمعلومات سياسية وعلمية مبثوثة في جنباته، فقد دلنا صاعد علي جهود الخلفاء العلمية وسياستهم في ذلك: ثم لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع منهم عبد الله المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل علي طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة[(٥)]، **كما أشار** إلى اهتمام بعض الوزراء بالعلم ودلنا علي أسماءهم[(٦)].

---

(١) المسعودي:أبو الحسن علي بن الحسن بن علي، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د.ت.

(٢) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٦٢.

(٣) صاعد الأندلسي، المصدر نفسه، ص٦٥، ١٠؛ وفيه:(لم يقسم صاعد كتابه إلى أقسام، بل هو يستمر في الكلام هنا دون تقسيم، ولكن الذي وقف هنا ورأي أن ما يلي من الكلام يعتبر قسما ثانيا من كتاب صاعد هو ريجي بلاشير في ترجمته الفرنسية، وعنده حق فرأيت أن أتابعه في هدا التقسيم وأجعل ما يلي من الكلام قسما ثانيا من الكتاب، وعنه أيضا أخذت عنوان القسم الثاني).

(٤) راجع ملحق رقم (١)، وفيه فهرس المحتويات لنسخة الكتاب المحققة عند حسين مؤنس.

(٥) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٦٤.

(٦) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

العلوم الدينية في الكتاب

أوضح لنا **صاعد** في كتابه معلومات دينية عن ديانات الأمم فيذكر مثلا رأيه عن الهند بقوله: «نميل[١]، ويتحدث عن أئمة الديانات غير السماوية عند الفرس ويحدد لنا أسماءهم[٢]، كما أمدنا بمعلومات عن ديانات العرب قبل الإسلام[٣]، كما كان له رأي واضحًا في عبادة العرب للأصنام[٤]، وأجمل صاعد قواعد الإسلام[٥]، كما أتي بأسماء بعض الفرق في الإسلام»[٦].

الآيات القرآنية في الكتاب

حوي كتاب طبقات الأمم بين دفتيه استشهادات بآيات قرآنية، وردت ثلاث مرات من ثلاث سور مختلفة، هي: **آل عمران؛ النحل؛ الزمر؛** وهي حسب ترتيبها في المصحف الشريف علي النحو التالي: سورة آل عمران، الآية ١٤٠[٧]، قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[٨]، **وقد** استشهد بها صاعد في أثناء حديثه عن سطوع نجم المسلمين وأنهم أزيلت أمامهم إمبراطوريات الفرس والروم وغيرهم.

سورة النحل، الآية ٢٦[٩]، ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص٢٢.
(٢) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٦٤.
(٣) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ص٥٨-٥٩.
(٤) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص٦٤.
(٥) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(٦) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه والصفحة.
(٧) القران الكريم: سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ١٤٠(٦٣).
(٨) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٦٣.
(٩) القرآن الكريم: سورة النحل، رقم ١٦، الآية ٢٦.

يَشْعُرُونَ﴾[١]، وقد استشهد بهذه الآية أثناء حديثه عن الكلدان واغترارهم بقوتهم.

سورة الزمر، الآية ٣[٢]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وقد استشهد بها في أثناء حديثه عن ديانات العرب وأنهم عبدوا الأصنام تقربا بها إلى الله.

الأحاديث النبوية الشريفة في الكتاب

حوي الكتاب بين دفتيه عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة، فورد أربع أحاديث في أماكن متفرقة، علي **النحو التالي: الأول**[٣]: ورد عند حديثه عن اتساع مملكة الإسلام إبان عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، قائلا: (زويت لي أقاصي الأرض)، بينما أن الرواية الصحيحة للحديث هي: عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنْزين الأحمر والأبيض»[٤].

الثاني[٥]: ورد عنده في أثناء حديثه عن الطب عند العرب، قائلًا: «يا عباد الله تداووا»، بينما نص الحديث هو: عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْهَرَمَ»[٦].

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٢٩.

(٢) القرآن الكريم: سورة الزمر، رقم ٣٩، الآية٣.

(٣) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٦٢ .

(٤) مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت، رقم (٢٨٨٩)؛ الصديقي: أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، «كتاب الفتن والملاحم»، باب ذكر الفتن ودلائلها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ ج١١، ص٢٥١.

(٥) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٦٣.

(٦) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، كتابه الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، رقم ٢٠٤٨.

الثالث(١): حديث «رأيت بين كتفي النبي خاتم النبوة»ﷺ(٢)، وقد أورده عند حديثه عن الطبيب الصحابي أبو رمثة التميمي ﷺ، كان طبيبًا على عهد رسول الله ﷺ، ومزاولًا لأعمال اليد وصناعة الجراح، وروى نعيم عن ابن أبي عيينة عن ابن أبجر، عن زياد عن لقيط عن ابن أبي رمثة قال أتيت رسول الله ﷺ، فرأيت بين كتفيه الخاتم، فقلت إني طبيب فدعني أعالجه، فقال «أنت رفيق، والطبيب الله»، قال سليمان بن حسان علم رسول الله أنه رفيق اليد ولم يكن فائقًا في العلم، فبان ذلك من قوله والطبيب الله.

الرابع(٣): حديث «ولا يبقين دينان في أرض العرب»، وقد استشهد به عند حديثه عن العلوم في بني إسرائيل حيث أشار إلى إجلاء عمر بن الخطاب ﷺ لهم معتمدًا علي هذا الحديث(٤)، ونص الحديث هو: كان آخِرُ ما تَكلَّمَ به أنْ قال: قاتَلَ اللهُ اليهودَ و النَّصارَى اتَّخذُوا قُبورَ أنْبيائِهِمْ مَساجِدَ، لا يَبْقَيَنَّ دِينانِ بِأرْضِ العَرَبِ».

الفقـه

أورد صاعد معلومات فقهية تحدث فيها عن إيمان العرب بالله وبرسوله ﷺ، فأورد حديث عن أمور الآخرة والبعث والنشور و الجزاء، وقواعد الإسلام ومن العمل بالطاعات والصيام والصلاة والزكاة والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٦٣؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ص١١٦-١١٨.

(٢) ابن حنبل: أحمد بن حنبل، مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م، رقم (١٧٤٩١)

(٣) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص ١١٠.

(٤) ابن حنبل: المصدر نفسه، رقم (١٦٩٤)؛ الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي، مسند الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠ م، رقم (٢٤٩٨).

ذلك من شريعة الإسلام(١)، **كما استخدم** صاعد في أثناء حديثه عن الحكم المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦)(٢) استخدم لفظ انتدب وهو من الألفاظ الفقهية حيث يأتي في المرتبة الثانية من مراتب الفقه(٣).

النصوص الأدبية

حوي الكتاب بين دفتيه العديد من فروع اللغة فاحتوت معلوماته علي العديد من:
الشعر: من خلال مصنف صاعد وضح مدي إلمامه بشعر السابقين من الجاهليين والمسلمين وتنوع هذا الشعر إلى:

الشعر الجاهلي، أورد صاعد في مصنفه العديد من الأبيات لشعراء من العصر الجاهلي، فأورد منهم بيتين **لمثقب العبدي**(٤) أثناء حديثه عن حياة البدو في حلهم وترحالهم(٥)، حيث قال:

تقول إذا درأت لها رضيني ... أهـــذا دينه أبـــدا وديني
أكل الدهر حل وارتحـــال ... أمـا تبقي علي ولا تقـــيني

كما أورد أبياتا لشعراء جاهليين ولم يدلنا علي أسماءهم حيث قال، وقال بعض الشعراء:

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٦٢.

(٢) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص٨٧.

(٣) **المندوب**: عند الفقهاء هو الفعلُ الذي يكون راجحًا على تركه في نظر الشارع، ويكون تركُه جائزًا؛(محمد عميم إحسان: التعريفات الفقهية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ص ٢١٩).

(٤) **المُثقِّب العَبدِي**: (٧١-٣٦ق.هـ/ ٥٥٣-٨٥٧م) هو **العائذ بن محصن بن ثعلبة**، من بني عبد القيس، من ربيعة. شاعر جاهلي، من أهل البحرين، عاصر الملك عمرو بن هند وله فيه مدائح ومدح النعمان بن المنذر. في شعره حكمة ورقة؛(ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد ساكر، دار المعارف، ١٩٥٨م، ص ص ٢٣٣-٢٣٥).

(٥) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، ص٥٨.

أكلــت حنيــفة ربها   عام التقحـم والمجـاعة
لم يحذروا مــن ربهـــم   سوء العواقب والتباعة[١]

كما أورد أبيات **لخزبمة بن الأشيم الفقعسي**[٢] قال فيهما:

يا سعــد إما أهلــكن فإنني   أوصيك أن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يمسي خلفهم   تعــبا يخــر علي اليدين وينكب
احمل أباك علي بعير صــالح   وابق الخطــيئة إنه هو أصـــوب
ولعل مالي ما تركت مطــية   في البهــم أركبها إدا قيل اركبــوا

كما ذكر البيت الأول من القصائد الأربعة الطوال التي مدح فيها الأعشي[٣]:

أولاهن: لعمرك ما طول هدا الزمان؛ والثانية: رحلت سمية غدوه أجمالها؛ والثالثة: أزمعت من ليلي ابتكارا؛ والرابعة: أتهجر غانية أم تلم[٤].

أما عن معرفته بشعراء المسلمين، فلم يذكر سوي بيتًا واحدًا لشعراء المشرق وهو لأبي تمام[٥]، في وصف عمورية:

وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها   كسري، وصدت عن أبي كرب

ثم أورد باقي الأبيات الشعرية لشعراء الأندلس حيث أورد اثني عشر بيت لأحمد بن محمد بن عبد ربه[٦]هم:

---

(١) صاعد الأندلسي: نفسه والصفحة. ص ٥٨

(٢) صاعد الأندلسي: نفسه، ص ٥٩.

(٣) الأعشي، هو الشاعر ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف بن سعد ابن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، يعود نسبه إلى نزار بن معد بن عدنان، كنيته أبو بصير، ولقبه الأعشى، واحدٌ من شعراء الطبقة الأولى بين شعراء الجاهليّة كما صنّفه ابن سلّام الجمحي في كتابه الطبقات؛(صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٧١).

(٤) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٧١.

(٥) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٥٧.

(٦) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص ٨٦.

أبا عبيدة ما المسئول عن خبر يحكيه إلا سوار الذي سألا
أبيت إلا شذودا عن جماعتنا ولم يصب رأي من أرجي ولا اعتزلا
كذلك القبلة الأولي مبدلة وقد أبيت فما تبغي بها بدلا
زعمت بهرام أو بيدخت يرزقنا لابل عطارد أو برجيس أو زحلا
وقلت ن جميع الخلق في فلك بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما هذا وذا دولا
فإن كانون في صنعا وقرطبة بردا وأيلول يذكي فيهما الشعلا
هذا الدليل ولا قول عزوت به من القوانين يجلي القول والعملا
كما استمر ابن موسي في غوايته فوعر السهل حت خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما أنا كفرت بها قالا وما فعلا

في الفلك، هذه الأبيات ذكر فيها أسماء بعض الكواكب والشهور والمناخ وتقلبه بين الشتاء والصيف مما يدلل علي انتقاء صاعد لأبيات الشعر في كتابه(١).

وآخر ما أورده صاعد في مصنفه من الشعر عن الأديب ابن عبد ربه، مساجلة بين الأديب سالف الذكر ابن عبد ربه وابن أخيه حيث عاتبه بن أخيه عن عدم زياراته له، لذا فقد اتخذ كتب الطب أنيسا له عوضا عن عمه، فهجاه عمه بقوله(٢):

لما عدمتم مؤنسا وجليسا نادمت بقراطا وجالينوسا
وجعلت كتبهما شفاء تفردي وهما الشفاء لكل جرح يوسي

كما أورد قصيدة لابن أخيه يتحدث فيها عن الحياة وتقلباتها: حيث قال:

أمن بعد غوصي في علوم الحقائق وطول انبساطي في مذاهب خالقي

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص٨٦.

(٢) صاعد الأندلسي: المصدر نفسه، ص١٠١.

وفي حين إشراقي علي ملكوته أري طالبا رزقا إلى غير رازقي [١]

هكذا، كان الشعر الذي ذكره صاعد في مصنفه يتحدث عن حياة العرب في الجاهلية والحياة في الأندلس مما يدلل علي موسوعيته وتنوعه وشموله في انتقائه للشعر في مصنفه. **النثر**:

تعددت أساليب صاعد في مصنفه فجاء استخدامه للنثر، بين الجناس والسجع وأبرز ما يدلل علي ذلك افتتاحيته الحديث عن الفرس، حيث قال: «وهي الفرس، فأهل الشرف الباذخ والعز الشامخ، وأوسط الأمم دارا، وأشرفها إقليما وأسوسها ملوكا، ولا نعرف أمة غيرها دام لها الملك، وكانت لهم ملوك تجمعهم ورؤوس تحامي عنهم من ناوأهم وتغلب بهم من غارهم، وتدفع ظالمهم عن مظلومهم وتحملهم من الأمور علي ما فيه حظهم علي اتصال ودوام وأحسن التئام وانتظام، يأخذ ذلك آخرهم عن أولهم وغابرهم عن سالفهم»[٢].

كما أن له **أساليب بلاغية** فهو يقول مثلا في ختام حديثه عن أبرز فلاسفة اليونان، حيث قال: «فهؤلاء شموس اليونانيين ومشاهيرهم في الآفاق الذين انتفع الناس بآثارهم واستفادوا بأنوارهم واهتدوا بأعلامهم، ولليونانيين بعد هذا عدة من الفلاسفة والحكماء قد قلد المؤلفون حكمتهم وجمعوا نوادرهم»[٣]، كما كان لديه قدرة علي وصف أحوال العرب حين البعثة فقال: (فضم الله شاردها وسكن نافرها)، بالإضافة إلى أنه لديه أسلوب جذاب يربط به أحداث التاريخ بقدرة الله حيث يقول: «... حكما من الله تعالي ماضيا وقضاء نافذا وتلك عادته في الأمم وسنته في القرون كما قال الله عز وجل: وتلك الأيام نداولها بين الناس»[٤].

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص١٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٢.

وحسه **اللغوي في قوله:** «حكما من الله ماضيًا وقضا منه نافذا وتلك عادته في الأمم وسنته في القرون»[١].

الوثـائق

ذكر صاعد في مصنفه وثيقة خطية بخط يد الخليفة الأموي **الحكم المستنصر** بالله (٣٠٢-٣٦٦هـ/ ٩١٥-٩٧٦م) تشير إلى وفاة الهمداني، بسجن صنعاء عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م، ويبدو أن صاعد قد عثر علي تلك الوثيقة أثناء زيارته لقرطبة في مطلع شبابه، خاصة أن صاعد قد تحدث في كتابه عن حب الحكم للعلم وإحراق خزانته بعد وفاته[٢]، حيث قال أن **الهمداني** توفي بسجن صنعاء سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م وقد أشار إلى أن ذلك مكتوب بخط الأمير[٣].

معرفته باللغات الأجنبية

مما لا شك فيه إن وجود صاعد بالأندلس مكنه علي الاطلاع علي لغات أجنبية إلا أنه اختص منها اليونانية حيث ذكر أنها تسمي الإغريقية، وذكر للدلالة علي ذلك: «**وكانت** من أوسع اللغات وأجلها، وكان علماء اليونانيين يسمون بالفلاسفة وأحدهم فيلسوف، وهو مشتق من كلمة محب الحكمة، وهم أجل طبقة وأعلي منزلة في المجتمع[٤]، كما كان له نصيب من الإلمام بلغات غير أوروبية حيث تعرف علي اللغة الهندية، واطلع علي كثير من كتب الفلك بها، وقد صرح بدلك عن تفسير أحد أسماء هذه الكتب وهو كتاب السند هند بقوله: وتفسير السند هند باللغة الهندية **الدهر الداهر**»[٥].

---

(١)صاعد الأندلسي: المصدر السابق، والصفحة.

(٢)المصدر نفسه، ص ص ٨٧- ٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٦٩.

التأكيد والتدقيق

استخدم صاعد ألفاظا تدل علي التأكيد في كتابه مثل لفظ: سمعت منه سماعا[١]، كما كان مدققا حيث أورد ترجمتين لأحد العلماء[٢]، ومنهم أبو جعفر بن خميس الطليطلي، وقال: قد تقدم ذكره في الرياضين إلا أنني لم أقف علي ترجمة أخري له التي ذكرها صاعد.

ترجيحه للرواية

استخدم صاعد في كتابه الترجيح للرواية إما بالألفاظ ومثال ذلك: ترجيح بألفاظ، وقوله: جمهرتهم، حيث قال: وأما بعد الطوفان فقد صار أهل الإقليم أخلاطًا من الأمم ما بين قبطي ويوناني وروماني وعمليقي وغيرهم، إلا أن جمهرتهم قبط[٣]، قال أبو محمد الهمداني: ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم[٤]، أو بترجيح رواية علي أخري، في أثناء معرض حديثه عن الروم قال: «وكثير من الناس يقولون أن هؤلاء الفلاسفة من الروم إلا أنهم يونانيون»، كما قال: «وكان للروم في بلاد إفريقية وغيرها حكماء أجلة علماء بأنواع الفلسفة، وكثير من الناس يقولون إن الفلاسفة المشهورين الدين قدمنا ذكرهم في عدد اليونانيون روميون، والصحيح أنهم يونانيون كما قدمنا»، ويظهر الترجيح عند صاعد بقوله: «والصحيح علي ما قدمنا»[٥].

كما استخدم الترجيح بالتأريخ[٦]، قام صاعد بترجيح الرواية بالتاريخ في أثناء

(١)صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٥)المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٤٣.

حديثه عن ملك أوغسطس وأنه رومي وليس بطلمي بقوله: «وأجمع أهل العلم بأخبار الأمم السالفة والمعرفة بتواريخ الأجيال الخالية أن أوغسطس هذا ملك رومي، وأنه تغلب علي قلوبطرا آخر ملوك البطالمة اليونانيين، وفي هدا ما يبين خطأ من زعم انه احد البطالمة أو البطالسة الملوك، وفيه كفاية إن شاء الله تعالي»[١]، ولم تقتصر عنايته بالترجيح بالتاريخ قبل الإسلام بل استخدم التأريخ ووصف انحدار العلم تبعا لفساد الأحوال السياسية بقوله: «ولتمام ثلاثمائة سنة خلت لتاريخ الهجرة منذ اختل الملك وتغلب عليه الفساد والأتراك، فلم يزل الناس يزهدون في العلم ويستغلون عنه بتزاحم الفتنإلى أن كاد العلم يرتفع جملة في زماننا هذا، والحمد لله علي كل حال»[٢].

أما نقده للرجال فينقسم إلى قسمين: بين المدح والقدح، كان صاعد موضوعيا في نقده للرجال حتى في حالات مدحه لهم وقدحه فكان من بين الذين امتدحهم وبين سبب مدحه له في عبارته **أبقراط،** فقال: «فمنهم ثم من المحتفين بعلوم الطبيعة والطب، بقراط سيد الطبيعيين في عصره، مؤلف الكتب الجليلة في صناعة الطب وغيرها من علوم الطبيعة وعلوم البرهان»[٣]، وكذا حينما امتدح المأمون وجهوده العلمية وأنسه بالعلماء قائلًا: «فكان يخلو بهم ويأنس مناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم فينالون بدلك عنده المنازل الرفيعة، و المراتب السنية»[٤].

مثال ثان، مدح ثاني للمأمون لعنيته بالفلك، حيث قال: «بعثه سروره وحداه نبله علي أن جمع علماء عصره من أقطار مملكته وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الآلات وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا منها أحوالها كما صنعه بطليموس ومن كان قبله»[٥].

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٩.

أما القدح: فقد قدح صاعد في رأي محمد بن **مروان بن زهر الاشبيلي**، حول استخدام الحمام في كونه يحدث عفونة في الأجسام ويغير الأمزجة بقوله: «وله في الطب آراء شاذة منها منعه من الحمام واعتقاده أنه يعفن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة، وهذا رأي خالف فيه الأوائل والأواخر ويشهد بخطئه العوام والخواص»[(١)]، **وكذلك**، قدح معرفة أهل الذمة بالطب في الأندلس قبل عصر محمد بن عبد الرحمن الأوسط (**١٧٦-٢٣٨هـ/ ٧٩٢-٨٥٢م**) بقوله: «وكان الناس قبلهم يعولون في الطب علي قوم من النصاري لم يكن عندهم تحقق به ولا بشيء من ساير العلوم، ونما كانوا يعولون علي كتاب بأيديهم من كتاب النصاري يقال له الأبرسيم وتفسيره الجامع و المجموع»[(٢)].

موسوعيته

اتصف صاعد بموسوعيته في العلوم فقد كان قارئ نهما لمجالات عديدة، ضمنها في كتابه، ومنها ما ذكره عن علماء الطب عند اليونان حيث أشار إلى **أبقراط وجالينيوس**، وقد رجع إلى المسعودي في إثبات وقت تاريخ **جالينيوس**، ولم يكتف بذكر هذين العالمين من الأطباء عند اليونانيين فقد ذكر أسماء أطباء آخرين إلا أنه قال في نهاية حديثه عنهم: «إلا أن أكثرهم ضعيف النظر بعيد عن الصواب، قد نبه أرسطاطاليس وجالينوس في كتبهما علي خطيهم وردا علي عليهم آراءهم بالحجج الصحيحة والبراهين الواضحة»[(٣)].

كذلك، يستدل علي موسوعيته من أنه قال في عبارته: «قد نبه أرسطاطاليس وجالينوس في كتبهما علي خطيهم وردا علي عليهم آراءهم بالحجج الصحيحة

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠.

والبراهين الواضحة البراهين مما يؤكد علي درايته باللغات الأجنبية»[١].

كما كان صاعد يبحث في مصنفات سابقيه **كابن الكناني**، الذي سمع عنه من الوزير أبي المطرف، ولم يكتفي بالسماع بل أطلع علي مصنفاته حيث قال: وكان بصيرًا بالطب متقدمًا فيه ذا حظ من المنطق والنجوم وكثيرا من علوم الفلسفة[٢].

كما كان صاعد مطلع علي التقاويم ومنها التقويم العبري، حيث ذكر عدد أيام السنة الشمسية والقمرية والفارق بينهما بالأيام والساعات والدقائق، فيقول عن ذلك: مقدار السنة القمرية عندهم ثلاثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وثمان ساعات وثمانمائة دقيقة، وست وسبعون دقيقة من دقائق ساعة واحدة التي هي ثمانون وألف دقيقة، ومقدار السنة الشمسية عندهم خمسة وستون وثلاثمائة يوم وربع يوم فقط، فتزيد السنة الشمسية علي السنة القمرية الناقصة عشرة أيام وواحدا وعشرين ساعة ومائتين وأربع دقائق[٣].

قام صاعد بتأريخ **للتقويم العبري** في أثناء كتابة تلك المعلومات في سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٥٦م بحديثه عن التقويم بقوله: «ومدخل السنة الأولي من المحرزورة الخامسة والخمسون والمائتان من مبدأ العالم عند اليهود هو مدخل سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأربعة آلاف (٤٨٢٧)، لتاريخ آدم عليه السلام عندهم، وسنة ثمان وخمسين وأربعمائة هجرية (١٠٠٦٦)»[٤].

ولسعة اطلاعه في كتب اليهود قد دلنا علي أن يهود الأندلس لم يكن لديهم علم بأعيادهم حتى عرفهم أستاذه حسداي لما قال: «فلما اتصل حسداي بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة بفضل دربته ونهاية براعته وأدبه توصل به إلى استجلاب ما شاء من

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

تواليف اليهود بالمشرق، فعلم عندئذ يهود الأندلس ما كانوا قبلا يجهلونه واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه»[١].

هكذا كان صاعد موسوعيًا ومطلعا علي كتب المسلمين وغيرهم من اليونان بين والهنود واليهود.

أمانته العلمية

اتسم صاعد في كتابته في مصنفه هذا بالدقة والأمانة العلمية، فلا يكتب معلومة إلا عزا إلى مصدرها، وإلي قائلها إلا أنه كان **أمينا** مع قرائه، فلم يتحرج من ذكر عدم معرفته، وقد استخدم في هذا ألفاظ عدة يأتي علي قمتها أنه لم يتحرج في إبداء معرفته، واعترافه بجهله ففي أثناء ختام حديثه عن علماء الرياضيات بالأندلس في زمنه قال: فهؤلاء مشاهير من عني بالعلم الرياضي بالأندلس، وقد كان بها جماعة غيرهم أضربت عن ذكرهم، إما لتقصيرهم عن هؤلاء، وإما لجهلي بأسمائهم وأخبارهم ومنازلهم من المعرفة وان كانوا مشهورين بأسمائهم عندنا بالأندلس[٢]، وقد عبر عن ذلك أيضا في ختام حديثه عن أسماء العلماء المشهورين في العلوم القديمة من المسلمين بقوله: فهؤلاء المشهورون من علماء المسلمين بالعلوم القديمة بالمشرق والمغرب، ولست أدعي الإحاطة بهم، فقد يمكن أن يكون في من لم أعرفه من يربي علي كثير من هؤلاء والله تعالي مريد الإعطاء لا رب غيرهم[٣].

دلل صاعد علي أمانته بألفاظ أخري، منها: ولم يبلغني ففي أثناء حديثه عن العالم **كنكه الهندي** قال: ولم يبلغني تحديد عصره ولا شيء من أخباره غير ما ذكرناه عنه[٤]، كما استخدم لفظ عند حديثه عن علماء الفلك البابليين بقوله: «ولم يصل إلينا من

---

(١)صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(٣)المصدر نفسه، والصفحة.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٥.

مذهب البابليين في حركات النجوم وصورة هيئة الفلك مذهب مستقصي ولا جملة ولا عندنا من آدابهم في ذلك ولا من أرصادهم غير الأرصاد التي نقلها عنهم بطليموس اليوناني الفلوذي في كتاب المجسطي فإنه اضطر إليها في تصحيح حركات الكواكب المتحيرة، إذ لم يجد لأصحابه في دلك أرصادا يثق بها»[١].

وكذا في أثناء حديثه عن حمير وملوكها، وعنايتهم بالكواكب قال: «ولم يبلغنا عن أحد منهم انه بحث في شيء من ذلك»[٢]، وعندما يتحدث عن التاريخ المصري القديم تظهر أمانته عن عدم معرفته بتاريخ ما قبل الطوفان بقوله: «فأما ما كان قبل الطوفان فجهل خبره وبقي أثره»[٣]، وفي أثناء حديثه عن علماء الإسكندرية يقول: ولا أعلم لأحد ممن ذكرت من علماء الإسكندرية زمانًا محدودًا ولا خبرًا مستقصي ولا وصل إلينا من حكمتهم إلا القليل النزر[٤]، ويتحدث عن العرب فيقول: «ولتقادم انقراضهم ذهبت حقائق أخبارهم وانقطعت عنا أسباب العلم بآثارهم»[٥].

تقييمه للكتب

لم يكن صاعد مجرد عالم يجمع لنا أسماء **الكتب المصنفة** في كل علم عند الأمم التي ذكرها فقط بل يقيمها، ومن ذلك علي سبيل المثال فقد قيم **ثلاثة كتب** في علوم مختلفة هي: علم الفلك وفي المنطق والنحو العربي، فقال عنها: «ولا أعرف كتابا ألف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل علي جميع ذلك العلم وأحاط بجميع أجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب: أحدها: كتاب المجسطي هذا في علم هيئة الفلك وحركات النجوم.، والثاني: كتاب أرسطا طاليس في علم صناعة المنطق، والثالث: كتاب سيبويه

---

(١)صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦.

البصري في علم النحو العربي، فإن هذه الكتب الثلاثة لا يشذ عن كل واحد منها أصول علمه ولا من فروعه إلا ما خطب له، والله تعالي وحده مريد الإحاطة وفضيلة التمام لا رب غيره[١].

كما كان **صاعد يقيم الكتب** ويشير إلى ذلك إما بألفاظ تدل علي غثها من ثمينها، فيقول عن كتب الكندي في المنطق: «وهي كتب قد نفقت عند الناس نفاقًا عامًا، وقلما ينتفع بها في العلوم، لأنها خالية من صناعة التحليل التي لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل في كل مطلوب الإبهام»[٢]، كما قيم **صاعد كتب الفارابي في** المنطق فقال: «فجات كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة»[٣]، كما **قيم** له كتاب في **إحصاء العلوم**، والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه[٤]، وكتاب **أخر في الفلسفة** يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة، والتحقق بفنون الحكمة[٥]، **وثالث** في العلم الإلهي والاستدلال بالعلم الطبيعي عليه، فلا أعلم كتابا أجدي علي طالب الفلسفة منه[٦]، وفي العلم المدني، له كتابان لا نظير لهما، أحدهما المعروف بالسياسة المدنية، والأخر المعروف بالسيرة الفاضلة[٧].

كما **قيم كتاب القلوي في** الفلك وأشار إلى استفادته منه بقوله: «سماه كتاب نظم العقد، كتاب جامع لصناعة التعديل مستمل علي أصول هيئة الأفلاك وحساب حركات النجوم علي مذهب السند هند وذكر فيه من حركة إقبال الفلك وإدباره ما لم

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٦) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٧) المصدر نفسه والصفحة.

يذكره أحد قبله»[١].

كما قيم كتاب **الإكليل للهمداني** بقوله: كتاب عظيم الفائدة يشتمل علي عشرة فنون[٢]، وبعد أن استعرض فنون الكتاب العشرة، قال عنه: وفي أثناء هذا الكتاب جمل حسان من حساب القرانات وأوقافها، ونبذ من علم الطبيعة وأحكام النجوم وآراء الأوائل في قدم العالم وحدثه، واختلافهم في أدواره وفي تناسل الناس ومقادير أعمارهم غير ذلك[٣]، وبعده، كتاب سرائر الحكمة، وغرضه التعريف بجمل هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب، وتبيين علم أحكام النجوم واستيفاء ضروبه، واستيعاب أقسامه[٤].

أثر صاعد

اقتدي بصاعد ثلة من الموسوعيين الدين اهتموا بالتأريخ لتاريخ العلوم ومصنفوها، أتي في مقدمتهم: ابن النديم صاحب كتاب الفهرست وهو: **محمد بن** إسحاق **بن محمد بن** إسحاق، المتوفي في نحو ٣٨٠هـ/ ٩٩٨م، أديب وكاتب سيرة ومصنف وجامع فهارس عربي سيعي صاحب المعروف بكتاب الفهرست والذي جمع فيه كل المصادر من الكتب و المقالات العربية بلغت عشر مقالات.

تأثر ابن النديم بصاعد، فنقل عنه في عدة مواضع من كتابه بلغت **أربع مواضع** فقد نقل عنه في أثناء حديثه عن أحمد بن عبد الله بن حبش حيث ذكر صاعد **لابن حبش** ثلاث مؤلفات ذكر منها ابن النديم اثنين[٥]، ولم يشر إلى الثالث[٦].

---

(١) صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة

(٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٦) ابن النديم، ابن النديم محمد بن إسحاق المعتزل، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت، ص٣٨٤.

أثر صاعد في ابن أبي أصيبعة

هو موفق الدين **أبو** العباس أحمد بن سديد الدين القاسم بن خليفة الشعري الخزرجي المعروف بابن **أبي أصيبعة (١٢٠٣-١٢٧٠م)**، طبيب ومؤرخ مسلم، صاحب كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، صنف كتابه طبقات الأطباء، أخذ عنه اسم **ما سرجويه** وأنه قام بترجمة كتاب أهرن في الطب لعمر بن عبد العزيز(١)، ولم يذكره صراحة أو يصرح باسمه.

في حديثه عن فلاسفة اليونان نقل عنه حرفيا ثلاثة أسطر، وقال: من ارفع الناس طبقة وأجل أهل العلم منزلة، لما ظهر منهم الاعتناء الصحيح بفنون الحكمة من العلوم الرياضية والمنطقية والمعارف الطبيعية والإلهية والسياسات المنزلية والمدنية(٢)، كذلك أخذ ابن أبي أصيبعة عن صاعد صفحتين كاملتين حرفيا في أثناء ترجمته **لبندقليس**(٣)، وعند حديثه عن **سقراط** نقل عنه حرفيا ترجمة سقراط(٤).

أثر صاعد عند ابن العبري

هو فيلسوف وعالم سرياني ولد ٦٢٣هـ الموافق ١٢٢٦م في مدينة ملطية، ولقب بابن **العبري** لأن جده أو والده قدم من قرية **(عبرى)** الواقعة قرب نهر الفرات، نقل ابن العبري عن صاعد صراحة أكثر من مرة (٥ مرات) في أثناء حديثه عن العرب البائدة نقل من عن صاعد رواية عن أسماء الأقوام البائدة بتصرف حيث نقل عن بداية الرواية عند صاعد سطر ونصف، وكذا نقل عن نهاية الرواية(٥)، وكذا فعل أيضا في أثناء حديثه عن قبائل العرب في الجزيرة ؛ ولما تحدث عن طبقات المجتمع الجاهلي،

---

(١) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٢٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ص٣٢-٣٣؛ المصدر نفسه، ص ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٤؛ المصدر نفسه، ص ٦٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦.

حيث أتى بصفات كل طبقة علي حدا بتصرف؛ وكذا وصف حال الرعاة، وعن أديان العرب يستمر ابن العبري في الأخذ عن صاعد بتصرف في أثناء حديثه عن ديانات العرب، كما تطرق ابن العبري في النقل عن صاعد في أثناء حديثه عن بعض معتقدات العرب التي تقترب من التوحيد والإيمان بيوم القيامة والثواب والعقاب.

نتائج البحث

- **دللت** الدراسة علي تباين الظروف السياسية المعقدة في عصر ملوك الطوائف وتسارعهم على السلطة مما أغري بهم أعداءهم إلى الاستيلاء علي إمارة تلو الأخرى.
- **صاعد** عربي الأصل ينسب إلى قبيلة تغلب التي سكنت قرطبة بعد الفتح الإسلامي.
- أوضحت الدراسة مدي اتفاق العلماء حول ميلاد ووفاة صاعد.
- **مكنت** ثقافة والد صاعد الذي أصبح قاضي بطليطلة، الابن صاعد من الارتحال في طلب العلم في أكثر من مدينة من مدن الأندلس حينئذ.
- **أظهرت** مدي شغفه بالعلم حتى أنه ترك بلده مرتحلًا في طلب العلم إلى أكثر مدن الأندلس قاصدا طليطلة وهي من أشهر المراكز الثقافية في ذلك الوقت.
- **أدى** نبوغ صاعد العلمي إلى اتصال صاعد بالعديد من العلماء في عصره. كما أفاده نبوغه في استفادة بعض معاصريه منهم.
- **أدت** موسوعية صاعد إلى تقلده منصب القضاء ومكنه ذلك من الاتصال بكبار الدولة في عصره. مدي منزلته وعلاقاته برجال الحكم في عصره.
- **أكدت** الدراسة على سعة تصنيفه وتصانيفه في مجالات عدة.

- **أظهرت** الدراسة مدي تنوع شيوخ صاعد حتى أنه لم يتحرج من التتلمذ علي أحد الذميين من اليهود.
- **بينت** الدراسة تاريخ انتهاء صاعد من الكتاب.
- أوضحت الدراسة مدي اعتناء الرواة برواية الكتاب بالأندلس وخارجها.
- **أثبتت** الدراسة أهمية الكتاب عند المحققين من المستشرقين والعرب.
- **بينت** الدراسة تنوع مادة الكتاب العلمية.
- **أكدت** على مدي ثراء الكتاب بعلوم الأديان المختلفة.
- **بينت** الدراسة رصانة أسلوب صاعد الأدبي.
- **أوضحت** الدراسة مدي سعة علاقات صاعد بعلماء عصره في شتي المجالات.
- **برهنت** الدراسة على أمانته العلمية حيث لم يتحرج صاعد من عدم معرفته بأسماء بعض العلماء أو وقوفه علي بعض مصنفاتهم.
- **حظي** كتاب صاعد بتقييم من لحق به.
- **أثر** صاعد في كتاب التاريخ الذين تأثروا به في كتبهم من بعده. وخاصة الموسوعيين منهم المتخصصين في تاريخ العلوم كابن النديم وابن أبي أصيبعة، ومن المؤرخين الذميين ابن العبري.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر العربية المطبوعة

ابن الآبار: محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)

٢- التكملة لكتاب الصلة، ج١، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.

٣- الحلة السيراء، تحقيق: د. حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م)

٤- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.

ابن بسام: أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م)

٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدر العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال، (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م)

٦- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، ١٩٨٩م.

البكري: أبو عبيد الله البكري، (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٥م)

٧- جغرافية الأندلس وأوروبا، من كتاب «المسالك والممالك» تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)

٨- الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، د.عبدالرحمن عميره، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٦م.

الحميدي: محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي، (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٦م)

٩- ذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.

الحميري، محمد بن عبد المنعم الحميري، (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)

١٠- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م)

١١- مسند أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩م.

ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، (ت ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م)

١٢- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٩م، جزءان.

ابن الخطيب: لسان الدين ابن الخطيب، (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م)

١٣- إعمال الأعمال فيمن بويع قبل الاحتلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، لبنان، ١٩٥٦م.

ابن خلدون: عَبد الرَّحمن بن مُحَمَّد ابن خَلْدُون أبو زَيْد وَلْي الدِّين الحَضْرَمِيّ، (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)

١٤- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاونهم، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر،(ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)

١٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٩٧٢م.

الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي الدارمي السمرقندي،(٢٥٥هـ/ ٨٦٤م)

١٦- مسند الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

الذهبي: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان، ت(٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)

١٧- سير أعلام النبلاء، ج٣، أشرف علي تحقيقه شعيب الأرنؤطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

الزيري: عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس الزيري،(كان حيا ٤٨٣هـ/ ١٠٩١م)

١٨- مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك بني زيري بغرناطة، المسماة بكتاب التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.

ابن سعيد: أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)

١٩- كتاب المغرب في حلي المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٥٥م.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري،(٨٤٩-٩١١هـ/ ١٤٤٥-١٥٠٥م)

٢٠- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.

صاعد الأندلسي: صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد، (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م)

٢١- طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م.

الصديقي: أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، العظيم آبادي (ت١٣٢٩هـ)،

٢٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، «كتاب الفتن والملاحم»، باب ذكر الفتن ودلائلها، ج١١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

الضبي: أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة (ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م)

٢٣- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

ابن عذاري: أبو العباس أحمد بن محمد،(ت٧٦٢هـ/ ١٣٦٦م)

٢٤- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى الفداء، (ت٧٤٢هـ/ ١٣٧٣م)

٢٥- تقويم البلدان، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)

٢٦- الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢م.

القلقشندي: شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد القلقشندي، (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)

٢٧- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، دار الكتاب الإسلامية، ٢٠٠٧م.

٢٨- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م.

المراكشي: عبد الواحد المراكشي،(ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)

٢٩- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٢م.

مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)

٣٠- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

المقري: أحمد بن محمد محمد المقري التلمساني،(ت بعد ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م)

٣١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

النباهي: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن المالقي الأندلسي (ت نحو ٧٩٢هـ)
٣٢- تاريخ قضاة الأندلس (المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، المحقق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان الطبعة: الخامسة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
ابن النديم: ابن النديم محمد بن إسحاق المعتزلي،(ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤ م)
٣٣- الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.
النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن محمد النويري، (٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)
٣٤- نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي،ت (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)
٣٥- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.

ثالثا: المراجع العربية والمعربة:
أحمد تيمور:
٣٦- أعلام المهندسين في الإسلام،، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، ٢٠١١م.
أنخيل جوناثاليث بالنثيا:
٣٧- تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الاسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.
باسيليو بابون ماندونادو:
٣٨- الفن الطليطلي، ترجمة علي إبراهيم المنوفي، المجلس الأعلي للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.
جرجي زيدان:
٣٩- كتاب طبقات الأمم (السلايل البشرية)، دار الهلال، القاهرة، ١٩١٢م.
حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني(ت١٠٦٧هـ)
٤٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.
حسن أحمد محمود:
٤١- قيام دولة المرابطين، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
خير الدين الزركلي:
٤٢- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
عمر رضا كحالة:
٤٣- معجم المؤلفين، «تراجم مصنفي الكتب العربية»، مؤسسة الرسالة، ١٩٥٧م.

كليفورد، أ، بوزورث:

٤٤- الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة د.سليمان إبراهيم العسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط٢، ١٩٩٥م).

محمد عبدالله عنان:

٤٥- دولة الإسلام في الأندلس .مكتبة الخانجي، ج١، القاهرة، ١٩٩٧م.

محمد عميم إحسان:

٤٦- التعريفات الفقهية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

مجمد مختار:

٤٧- التوفيقات الإلهامية، تحقيق ودراسة وتكملة محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

رابعا: الدوريات العربية:

إميل أمين:

٤٨- جريدة الحياة، السبت ٣ ديسمبر ٢٠١٦م، العدد٥٩، ص٩ .

حسين بكر علي:

٤٩- القبائل العربية في الجزيرة الفراتية العليا في تركيا، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٨م، العدد ٣٧.

زهير حميدان:

٥٠- الموسوعة العربية، دمشق، د.ت.

كوركيس عواد:

٥١- ذخائر التراث العربي، مجلة المورد، وزارة الإعلام، العراق، المجلد٤، العدد١، ١٩٧٥ .

خامسا: المراجع الأجنبية:

RICHTER-BERNBURG, "Ṣāʿid al-Andalusī: Abū al-Qāsim Ṣāʿid ibn abī al-Walīd Aḥmad ibn ʿAbd al-Raḥmān ibn Muḥammad ibn Ṣāʿid al Taghlibī al-Qurṭubī", *The Biographical Encyclopedia of Astronomers*, Springer Reference., New York: Springer, 2007.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ١٢٩-١٧٢

أثر ابن شحاذة اليمني القاهري المُقرئ في الحياة العلمية بمصر والحجاز (حتى منتصف ق١١هـ/ منتصف ق١٧م)

إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا(*)

ملخص

تسلط الدراسة الضوء على أثر عبد الرحمن بن شحاذة اليمني القاهري شيخ القُراء وإمام المجودين في زمانه، وفقيه عصره في إثراء الحياة العلمية بمصر والحجاز حتى منتصف ق١١هـ/ ق١٧م، وهو سليل بيت من بيوتات العلم المشهورة بمصر، فكان له ولوالده من قبله دور مُهم في ازدهار الفقه الشافعي، وعلم القراءات والتجويد بمصر والحجاز، تصنيفًا وتدريسًا. وقد أدرك طلاب العلم المصريين والحجازيين واليمنيين والشاميين أستاذية عبد الرحمن بن شحاذة اليمني وسمو مكانته العلمية في علم القراءات والفقه، فتحلقوا حوله وقرأوا عليه بالروايات وأخذوا منه بالقاهرة والحجاز. وقد رصدت في هذه الدراسة أسماء الكثيرين منهم، ووقفت على أثر عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في تكوينهم العلمي؛ مما أهّل بعضهم، ليصبحوا من أبرز شيوخ

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

الفقه والقراءات بمصر والحجاز في القرن الحادي عشر الهجري، فأسهموا بذلك في نشر مذهبه في القراءات، ومروياته في الفقه، وأكدوا عمق تأثيره في الحياة العلمية ببلدانهم.

Abstract

The study sheds light on the impact of Abd al-Rahman bin Shahadah al-Yamani al-Qaheri, Sheikh of al-Qur'a) Qura'an readers(and Imam of the Recruiteds in his time, and the jurist of his time in enriching the scientific life in Egypt and the Hejaz until mid-11 AH / 17AD CE. He was a descendant of one of the famous houses of knowledge in Egypt. Shafi'i jurisprudence, the science of readings and intonation in Egypt and the Hijaz, classification and teaching. The Egyptian, Hijazi, Yemeni and Shami students of science recognized the teacher of Abd al-Rahman ibn Shahatha al-Yamani and his high scholarly position in the science of readings and jurisprudence.

In this study, I spotted the names of many of them, and examined the impact of Abd al-Rahman bin Shahadah al-Yamani in their scientific formation. This qualified some of them to become among the most prominent sheikhs of jurisprudence and readings in Egypt and the Hijaz in the eleventh century AH, thus contributing to the spread of his doctrine of readings and his narrations in jurisprudence, and they confirmed the depth of its influence on the scientific life in their countries.

*

*   *

تمهيد

انكب المسلمون منذ فترة مبكرة على فهم القرآن الكريم وتدَبُّرِ معانيه، والاسترشاد بما جاء فيه؛ لتحقيق الخير والصلاح في الدنيا والآخرة. وقد نشأت علوم كثيرة تتعلق

بالقرآن الكريم، ومنها: التفسير، وأسباب النزول، والقراءات والتجويد، وإعجاز القرآن، ويُعد علم التفسير من أهم علوم القرآن، وقد ارتبطت به بقية العلوم القرآنية الأخرى، فصارت روافد له أو فروعًا منه. ويختص علم القراءات أو ما يسمى بعلم تجويد القرآن بكيفية قراءة القرآن تأسيسًا على اختلاف دلالات ألفاظ اللغة العربية باختلاف الناطقين بها[1]. ويفيد هذا العلم معرفة ما يقرأ به أئمة القراءة، وصون كلام الله من التغيير، والتحريف، وقد يبحث في الاختلافات غير المتواترة مما وصل إلى حد الشهرة[2]. وقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه»، رواه البخاري ومسلم. والمراد القراءات السبع الصحيحة التي سُمعت عن النبي ﷺ، وهي قراءات تتفق وبعض اللهجات القرشية للتيسير على الداخلين في الإسلام.

وعندما كثر القُراء وتفرقوا في البلاد، وظهر منهم المتقن للتلاوة والسند، وغير المتقن، اقتضت الضرورة وضع مقاييس للقراءة الصحيحة، فنشأ علم القراءات، فأقبل المسلمون وطلاب العلم في شغف على دراسته، وقام بعضهم بتأليف الكتب فيه؛ لأن مراعاة الأصول في قراءة القرآن الكريم، تؤدى إلى تقويم النطق بالآيات البينات على صورة ثابتة. وحتى لا يتسع الخرق وتمتد يد البدعة إلى قراءات القرآن، اختير سبعة من أئمة القُراء المشهورين بالثقة في مختلف الأمصار الإسلامية، وهم: عبد الله بن عامر الشامي (ت١١٨هـ/ ٧٣٦م)، وعبد الله بن كثير المكي (ت١٢٠هـ/ ٧٣٨م)، وعاصم بن أبي النجود الكوفي (١٢٧هـ/ ٧٤٤م)، وأبو عمرو بن العلاء

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، مطبعة شقرون، القاهرة، د.ت، ص٣٨٦. وانظر أيضًا: عبد الصبور شاهين، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) زكريا الأنصاري، اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم أو ما يعرف بخزانة العلوم، تحقيق د. عبد الله نذير أحمد، الطبعة الأولى، دار البشائر، بيروت، ١٩٨٨م، ص٨٨، وليد عبد الحميد عبد الرحيم، الحركة العلمية في مصر في القرن العاشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٨م، ص١٨٩.

المازني البصري (ت١٥٤هـ/ ٧٧٠م)، وحمزة بن حبيب الكوفي (ت١٥٦هـ/ ٧٧٢م)، ونافع بن عبد الرحمن المدني (ت١٦٩هـ/ ٧٨٥م)، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت١٨٩هـ/ ٨٠٤م)[١] ، وجميعهم من أهل العلم والدراية ومشهود لهم بالأمانة، واعتبرت قراءاتهم هى القراءات السليمة، وكان لكل قراءة منها سند ثابت. وهناك أيضًا قراءات ثلاث أخرى زيدت على القراءات السبعة، فصارت قراءات عشر، ولكنها موضع جدل وخلاف[٢]. ثم ألحقت بالقراءات العشر قراءات أربع أخرى أجمع القراء على شذوذها (القراءة باللحن)، ولو أنها قريبة في الرواية والسند من روايات وإسناد القراءات السبع والعشر، وقد رفضها العلماء المالكية، وقبلها العلماء الشافعية[٣]. وقد أنكر الطبري بعض هذه القراءات، واختار الحافظ أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٦م)، سبعًا من بينها، وأثبتها في كتابه «السبعة في منازل القراء»[٤]، مما جعل بعض القراء يقتصرون على السبعة، ثم على الثلاث المكملة لها (العشرة)، والقراءات العشر صحيحة ومتصلة السند برسول الله ﷺ، فيصح قراءة القرآن بأي وجه منها، وأن ما زاد على العشر فهو شاذ لا يجوز

---

(١) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. برجستراستر، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ج١، رقم ١٨٥٢ ص٤٤٣، وله أيضًا: النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج ١ ص١١٥-١٢١، زكريا الأنصاري، اللؤلؤ النظيم، ص٨٩.

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ص٥ وما بعدها، وله أيضًا: غاية النهاية في طبقات القراء، ج٢ ص٢، ٢٣، أبو شامة المقدسي، إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع للشاطبي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٦-٢٨.

(٣) أحمد البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د.ت، صابر حسن أبو سليمان، التيسير في القراءات السبع المشهورة وتوجيهها، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٤م، ص١٧.

(٤) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ، أبو علي الفارسي، الحُجة في علل القراءات السبع، تحقيق علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ج١ ص٣-٤.

قراءة القرآن به[١]. وقد صنف بعض علماء القراءات كتبًا للاحتجاج للقراءات، لتوثيقها، ونفي الشبهة عنها والشك في سلامتها، ومن أبرزها كتاب الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي[٢].

وقد اهتم كثير من العلماء المسلمين بعلم القراءات فحفظوها، وصنفوا مصنفات قيمة فيها، ومنهم: الفقيه أبو موسى عبد الرحمن بن موسى الهواري الأندلسي، وكان حافظًا للقراءات متبحرًا فيها، ويدل على ذلك كتابه المصنف فيها[٣]، والإمام أبو عمرو يوسف بن عبد البر القرطبي، وله كتاب «الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء، والحجة لكل واحد منهما»[٤]، وكتاب التيسير، وهو مشهور في أيدي الناس، وصنف الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي كتاب التبصرة[٥]، وللإمام الزمخشري (ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) كتاب في القراءات بعنوان «الكشف في القراءات»[٦]، وصنف الحافظ المقرئ شيخ الإسلام الحسن بن أحمد بن الحسن بن سهل الهمذاني

(١) الكرماني، شواذ القراءات، تحقيق الدكتور شمران العجلي، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠١٢م، الحموي، فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق عبد الله محمد الكندري، الطبعة الأولى، دار النوادر، دمشق، ٢٠١١م، م٢ ص٢٤١، صابر حسن أبو سليمان، التيسير في القراءات السبع المشهورة وتوجيهها، ص١٩.

(٢) أبو علي الفارسي، الحُجة في علل القراءات السبع، ص٢٨-٣٢ من مقدمة المحققين.

(٣) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٢٥٤، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، ق١، رقم ٧٧٨ ص٢٥٨.

(٤) المقري نقلًا عن ابن حزم ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، م٣ ص١٧٠.

(٥) المقري نقلًا عن ابن سعيد، نفح الطيب، م٣ ص١٧٠.

(٦) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل،ج١ ص٩٥، ١٠٤، ١٣٨، ١٤١، ١٧٢، ١٨١، ٢٧٥، ج٣ ص٢٨٦.

(ت٥٦٩هـ/ ١١٦٥م) في القراءات، وخرج له تلامذة أئمة في القراءات[١]، وصنف الإمام العلاّمة أبو القاسم القاسم بن فِيرة الشاطبي القاهري، وكان رأسًا في القراءات (توفي بالقاهرة سنة ٥٩٠هـ/ ١٢٠٠م)، حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع[٢]، وصنف الأمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م)، كتابًا مهمًا بعنوان «البرهان في قراءة القرآن»[٣]. ووضع الحافظ شيخ الإقراء في زمانه شمس الدين محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي الشافعي (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، وكان كما ذكر السيوطي إمامًا في القراءات لا نظير له، مقاييسًا للقراءة الصحيحة، وصنف كتابًا بعنوان «النشر في القراءات العشر»، لم يصنف مثله، ذكر فيه ستين مرجعًا أُلفت في القراءات[٤]، وقد وضع أبو القاسم محمد بن أحمد بن علي النويري المصري (ت٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، شرحًا لها بعنوان «شرح طيبة النشر في القراءات العشر». وألف ابن الجزري أيضًا كتابًا آخر بعنوان «غاية النهاية في طبقات القراء»[٥]، وكتاب

---

(١) السيوطي، طبقات الحفاظ، تحقيق د. علي محمد عمر، الطبعة الثانية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٩م، رقم ١٠٦٠ ص٤٩٧-٤٩٨.

(٢) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج٢ ص٢٠، المقري نقلًا عن ابن سعيد، نفح الطيب، م٢ ص٢٢. وحرز الأماني، هى القصيدة المشهورة بالشاطبية، وأبياتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتًا، وقد أبدع فيها الشاطبي كل الابداع، فقد أوجز وسّهل الصعب، وهى مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة، ولم يسبقه غيره إلى أسلوبها، وهى عمدة القراء في نقلهم ، ولها شروح كثيرة. وكانت الشاطبية من أهم كتب القراءات عند طلاب العلم، فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها، وقد حفظها خلق لا يحصون، وخضع لها فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذّاق القراء، وقد سارت بها الركبان. وكان الشاطبي يقول: «لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل، لأني نظمتها لله تعالى مخلصًا» (المقري، نفح الطيب، م٢ ص٢٤-٢٥، حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، م١ ص٦٤٦-٦٤٩).

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، م١ ص٢٤١.

(٤) السيوطي، طبقات الحفاظ، رقم ١١٨٥ ص٥٧٦.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ج٩ ص٢٥٥.

ثالث بعنوان «تحبير التيسير في القراءات العشر»[١]. وهكذا أصبح لهذا العلم قواعده وأصوله، واحتل مكانا بارزًا بين العلوم الإسلامية.

وقد صنف المصريون في علم القراءات في القرن الحادي عشر[٢]، واهتموا بموضوعات التجويد، والأداء، ومعرفة القواعد والضوابط، وأحكام حروف القرآن، وإتقان النطق بكلماته، وبلوغ الغاية في تحسين ألفاظه[٣]، وتحدثوا عن أنواع القراءات من حيث السنة حسب تقسيم ابن الجزري، وهى: المتواتر، والمشهور، وما صح سنده، والشاذ، والموضوع، وما يشبه المدرج من أنواع الحديث[٤]. وأشاروا في مصنفاتهم إلى أسباب النزول، وترتيب السور، وحكم البسملة في أول كل سورة، وما يحذر منه القرآن، وما ينبغي أن يكون عليه حامله، وما يتصف به من صفات، وأشاروا أيضًا إلى آراء اللغويين والنحويين والبلاغيين[٥]. وتجلت مظاهر اهتمام العلماء المصريين بعلم القراءات في ظهور أكثر من سلسلة حافظت عليه وساهمت في ازدهاره، ونذكر منها: سلسلة الشيخ محمد بن علاء البابلي عن الشيخ الزيادي، والشيخ أبي بكر الشنواني، والشيخ النور علي الحلبي، وحجازي الواعظ، وأحمد بن خليل السبكي، وغيرهم.

وفي هذا السياق تسلط الدراسة الضوء على أثر شيخ القُراء وإمام المجودين في زمانه، وفقيه عصره، عبد الرحمن بن شحاذة اليمني القاهري في إثراء الحياة العلمية

---

(١) تحبير التيسير في القراءات العشر، دراسة وتحقيق أحمد محمد مفلح القضاة، الطبعة الثانية، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ٢٠١٠م.

(٢) الحموي، فوائد الارتحال، م٢ ص٢٤١، م٣ ص٣٢٣.

(٣) المزاحي، رسالة فيها فوائد وأسئلة مع أجوبتها في التجويد، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٧٢ قراءات، لوحات ٥، ١٢، ١٧، ٢٢، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر فى الحياة العلمية فى الحجاز إبان العصر العثماني (٩٢٣- ١٢٢٠هـ/ ١٥١٧- ١٨٠٥م)، الطبعة الأولى، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٧٠-٢٧١.

(٤) صابر حسن أبو سليمان، التيسير في القراءات السبع المشهورة وتوجيهها، ص١٥-١٦.

(٥) الخطيب الشربيني، السراج المنير في الإعانة في معرفة بعض معاني ربنا العليم الخبير، القاهرة، ١٩٨٣، ج١ ص٢-٥.

بمصر والحجاز حتى منتصف (ق١١هـ/ ق١٧م)، وهو سليل بيت من بيوتات العلم المشهورة بمصر، فكان له ولوالده من قبله دور مُهم في ازدهار الفقه الشافعي، وعلم القراءات والتجويد بمصر والحجاز، تصنيفًا وتدريسًا. وقد أدرك طلاب العلم المصريين والحجازيين واليمنيين والشاميين أستاذية عبد الرحمن بن شحاذة اليمني وسمو مكانته العلمية في علم القراءات والفقه، فتحلقوا حوله وقرأوا عليه بالروايات وأخذوا منه بالقاهرة والحجاز. وقد رصدت في هذه الدراسة أسماء الكثيرين منهم، ووقفت على أثر عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في تكوينهم العلمي؛ مما أهّل بعضهم، ليصبحوا من أبرز شيوخ الفقه والقراءات بمصر والحجاز في القرن الحادي عشر الهجري، فأسهموا بذلك في نشر مذهبه في القراءات، ومروياته في الفقه، وأكدوا عمق تأثيره في الحياة العلمية ببلدانهم.

وستوفر الدراسة للمتخصصين في مجال الحياة العلمية بالجزيرة العربية والمهتمين به، ملمحًا جديدًا من ملامح التواصل العلمي بين مصر والحجاز في القرن الحادي العاشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، وستلقي الضوء على جهود الفقيه المقرئ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني القاهري في نهضة علم القراءات وازدهاره، وأثره العميق في تشكيل ثقافة تلاميذه المصريين والحجازيين واليمنيين والشاميين، ودور هؤلاء العلماء في نقل علومه ونشرها بين الناس. وقد حددت الفترة حتى منتصف القرن الحادي عشر كمجال زمني للدراسة؛ لأنه تاريخ وفاته. ورغم مكانة عبد الرحمن بن شحاذة اليمني العلمية وأثره في الحياة العلمية بمصر الحجاز، فإن الدراسات الحديثة المتخصصة، ومنها: دور مصر فى الحياة العلمية فى الحجاز إبان العصر العثماني (٩٢٣-١٢٢٠هـ/ ١٥١٧-١٨٠٥م)، لمحمد علي فهيم بيومي، لم تشر إليها، رغم أنها أشارت إلى بعض علماء القراءات المصريين من مشاهير تلاميذه. ومن هنا تأتي أهمية دراستنا.

وارتكزتُ في الدراسة على المنهجين الوصفي، والتحليلي الاستقرائي. وقسمتها إلى مباحث؛ فعرضت في المبحث الأول لأولية عبد الرحمن بن شحاذة اليمني، أشرت فيه

إلى اسمه وكنيته ونسبه ونشأته ومذهبه، وركزت اهتمامي في المبحث الثاني على دراسة تكوينه العلمي وتخرجه على شيوخ عصره، فتحدثت عن تخرجه بالإجازة والسماع على مشاهير الفقهاء والمُحدّثين والقراء واللغويين والنحويين بمصر، واقتباسه العلم منهم، مشيرًا إلى أهم الكتب التي أخذها منهم، وحدّث بها تلاميذه فيما بعد. وعرضت في المبحث الثالث لمكانته العلمية التي أهلته للتأثير في الحياة العلمية بمصر والحجاز، واستقصيت في المبحث الرابع أثره المهم في الحياة العلمية بمصر، فأشرت إلى تلاميذه الذين أخذوا عنه القراءات، والفقه، ودوره في تكوينهم العلمي الذي أهلهم ليتبوأوا مكانة علمية مرموقة في مصر والحجاز، وتحدثت في المبحث الخامس عن دوره المهم في إثراء الحياة العلمية بالحجاز من خلال تتلمذ الحجازيين على يديه بالقاهرة وتأثيرهم في بلادهم بعد عودتهم إليها، وقيامه برحلة إلى الحجاز، لأداء الفريضة ونشر العلم، وأثره في الحياة العلمية بالحجاز من خلال تلاميذه غير الحجازيين، وخصصت المبحث السادس للحديث عن تصوفه وأثره في نزوع تلاميذه المصريين وغيرهم إلى الزهد والتصوف، وأشرت في المبحث السابع إلى وفاته، وختمت الدراسة بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها.

واعتمدت في دراستي على بعض كتب التراجم، ومنها: لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر للغَزّي (١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م)، وعِقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، والسنا الباهر بتكميل النور السافر للشلي للحضرمي (ت١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م)، وصفوة مَنْ انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر للإفراني المراكشي (ت١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م). وكان كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي (ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م)، وكذلك كتاب فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر للحموي (ت١١٢٣هـ/ ١٧١٦م)، من الأعمدة الأساسية للدراسة؛ فقد أمدني كل منهما بنصوص مهمة، فقمت بتصنيفها وتوظيفها، واستنطاق بعضها فيما يخدم مباحث الدراسة. وتتضح قيمة خلاصة الأثر، وفوائد الارتحال، وأهميتهما في أنهما كانا معاصران للحقبة الأخيرة

من زمن الدراسة، وساهم أصحابها بقسط وافر في صنع الأحداث، فقد كانا من تلاميذ معاصري عبد الرحمن بن شحاذة اليمني وتلاميذ تلاميذه في مصر والحجاز والشام. وقد أكدت روايات الجبرتي (ت١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م)، في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ما جاء عند المحبي والحموي في كتابيهما.

(١) أولية عبد الرحمن بن شحاذة اليمني

هو عبد الرحمن بن شحاذة المعروف باليمني الشافعي، نسبة إلى قرية كفر اليمن من نواحي القليوبية غرب الدلتا بشمال مصر، وولد بالقاهرة سنة (٩٧٥هـ/ ١٥٦٦م)، وبها نشأ واستقر[١]، ويكنى زين الدين (الزين) [٢]. وهو ينتسب إلى بيت مصري كريم، اشتهر أفراده بالعلم والفضل، والتقوى والصلاح والورع؛ فوالده الشيخ شحاذة اليمني الشافعي (ت٩٨٧هـ/ ١٥٧٨م)، كان من مشاهير القُراء في مصر والحجاز، وكان يفتي ويدرس في الجامع الأزهر، فقصده كثير من طلبة علم القراءات، وكان قد نزل المدينة المنورة، وتوفي بها منصرفًا من الحج مع الشمس محمد بن أبي الحسن البكري، ودفن بجوار قبر إبراهم بن محمد ﷺ[٣]. ولم تزودنا المصادر بأخبار عن حياة عبد الرحمن بن شحاذة اليمني الخاصة، غير أنها أشارت إلى نشاطه غير العلمي، فذكر المحبي أنه كان يمارس التجارة، وإن لم يشر إلى طبيعتها، ويبدو أنها كانت تجارة رائجة، عادت عليه بالأرباح الوفيرة، فكان له كما ذكر المحبي «أموال كثيرة زائدة الوصف»[٤]. وقد انعكس ذلك الثراء على هيئته وملابسه، فكان حَسِنْ

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر بيروت، بدون تاريخ، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٢) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤٠٦، الحموي، فوائد الارتحال، م٤ ص٤٨٣، ٥٢٨.

(٣) الشلي، السنا الباهر بتكميل النور السافر، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، ١٤٢٥ه، ص٥٦٦، المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢٠-٢٢١، ٣٥٨، ٤٥٦-٤٥٧. وذكر الحموي (فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣)، أنه مات في المحرم سنة ٩٧٨ه.

(٤) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

الوجه والحِلية، يتلألأ نور وجهه كالقمر، بحيث إن الناظر إليه لا يقدر أن يملأ نظره منه[١].

(٢) تكوينه العلمي وتخرجه على شيوخ عصره

كانت مصر تزخر بكوكبة من مشاهير العلماء الموسوعيين في الربع الأخير من القرن العاشر ومستهل القرن الحادي عشر الهجريين/ السادس عشر الميلاديين، وقد برز كثير منهم في العلوم الشرعية، والعقلية، والنحو وعلوم اللغة العربية. وقد تلقى عبد الرحمن بن شحاذة اليمني العلم على بعض هؤلاء العلماء؛ فأثروا في تكوينه العلمي، وقد بلغ عدد شيوخه بالإجازة[٢]، وبالسماع، عددًا كبيرًا. فالمحبي يذكر أنه قرأ بالروايات السبع من الشاطبية على والده شحاذة اليمني من أول القرآن إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنَا من كُلِ أُمَةٍ بشهِيدٍ﴾ إلى آخر الآية[٣]، ﴿وجِئْنَا بِكَ على هَؤلاءِ شهيدًا﴾[٤]. وكان شحاذة اليمني إمامًا وشيخًا للقراء في عصره[٥]، وصنف مصنفات

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣-٥٨٤.

(٢) الإجازة واحدة من طرق تلقي العلم؛ يجيز فيها الشيخ لتلميذه رواية كتابه أو مروياته، وتسمى إجازة خاص في عام، والأداء عن الإجازة يكون بقول الراوي: «أجاز لي فلان»، أو «أخبرني إجازة». وهناك نوع آخر من الإجازات كان يعرف بإجازة المُجاز، فكان الشيخ يقول لتلميذه: أجزت لك مُجازاتي، أو أجزت لك رواية ما أجيز لي روايته، وقد أجاز بعض العلماء، ومنهم: ابن الصلاح العمل بها، واحتج في ذلك بقول أبي نعيم الأصبهاني «الإجازة على الإجازة قوية جائزة»، وكان بعض العلماء يروون بالإجازة عن الإجازة، حتى ربما والوا في روايتهم بين إجازات ثلاث، وينبغى لمن يروى بالإجازة عن الإجازة كما يذكر ابن الصلاح أن يتأمل كيفية إجازة شيخ شيخه ومقتضاه حتى لا يروى بها ما لم يندرج تحتها. وعن الإجازة وأنواعها، راجع: ابن الصلاح، علوم الحديث، تحقيق وشرح نور الدين عتر، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م، ص١٥١-١٦٥.

(٣) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٤) القرآن الكريم، النساء، ٤١.

(٥) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢٠، ٤٥٦.

مفيدة في علم القراءات، منها: مقدمة في أحكام النون الساكنة والتنوين. ومن المرجح أن ولده عبد الرحمن قد سمعه منه، وأخذه عنه. وقد تتلمذ على شحاذة اليمني جمع غفير من القراء بمصر والحجاز، وبه تخرجوا وصاروا من علماء القراءات، ونذكر منهم: شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي[(١)]، وسيف الدين أبو الفتوح ابن عطاء الله الوفائي الفضالي المقرئ الشافعي (ت١٠٢٠هـ/ ١٦١١م)[(٢)]، ومن تلاميذه الذين قرأوا عليه بالروايات أيضًا: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد الحموي المكي الحنفي، نزيل مصر، وصار إمامًا عالمًا بالفقه والتفسير والحديث والقراءات والأصول والنحو[(٣)]، ومنهم: عبد القادر بن محمد بن أحمد الفيومي الشافعي (ت١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م)، وكان إمامًا كبيرًا بارعًا في الفقه والحديث وعلم الفرائض، وغيرها، فانتفع به كثير من الطلبة واشتهر فضله، وألف تآليف كثيرة، منها: شرحه الكبير لمنهاج النووي، وقد تصدر للإفتاء والتدريس بالجامع الأزهر[(٤)]، ومحمد حجازي بن محمد بن عبد الله الشهير بالواعظ القلقشندي (٩٥٧-١٠٣٥هـ/ ١٥٥١-١٦٢٦م)، وصار إمامًا محدثًا مقرئًا، وبلغ من العلوم الحرفية الغاية القصوى[(٥)].

ولا نكاد نجد فيما بين أيدينا من مصادر ما ينم على أن عبد الرحمن بن شحاذة اليمني رحل في صباه مع والده إلى الحجاز، شأن بعض العلماء الذين كانوا يصطحبون أهلهم وأولادهم إلى الحجاز، لقضاء الفرض، واقتباس العلم[(٦)]. وفي حالة ارتحاله إلى

---

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢٠-٢٢١، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠٢٨ ص٢٦٩.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص٤٨٨-٤٨٩.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤٥٦.

(٥) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص١٧٤-١٧٥، الحموي، فوائد الإرتحال، م١، رقم ٦٥ ص١١٦.

(٦) الحموي، فوائد الإرتحال، م٢ ص٢٤٤.

الحجاز، فمما لاشك فيه أنه جالس العلماء الحجازيين، والقادمين إلى الحرمين، والمجاورين لهما، وأخذ منهم، مما أثر في تكوينه العلمي. فلما توفي والده شحاذة اليمني سنة (٩٨٧هـ/ ١٥٧٨م)، استأنف القراءة جمعًا للسبعة ثم للعشرة على تلميذ والده العلّامة الشهاب أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي الشافعي (٩٣٠-٩٩٩هـ/ ١٥٢٣-١٥٩٠م)(١). ويتضح من ذلك النص أن عبد الرحمن بن شحاذة استغنى بوالده عن التردد إلى غيره من علماء القراءات المصريين، فاكتفي بالقراءة عليه طيلة حياته، فلما توفي استكمل دروسه في القراءات على يد أنجب تلاميذه. وكان شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي إمامًا علّامة وشيخًا للقراء(٢)، وقام بالتدريس والافتاء «وصار ممن يشار إليه في الاقليم المصري بالبنان، وتتشنف بفرائد فوائده الآذان»(٣). وقد ذاع صيته في علم القراءات والتجويد والإقراء، فلم يهمل ذكره في أسانيد القُراء حتى نهاية القرن العاشر الهجري، وذاع صيته أيضًا في الأدب والعلوم العقلية والطبيعة كالمنطق والفلك، وصنَّف في كثيرٍ من ذلك، وشرح بعض المنظومات؛ فكان له كما ذكر ابن القاضي نظم ونثر، وله تآليف حسنة، ومن مؤلفاته التي اشتهر بها: روضة الفهوم بنظم نقاية العلوم، وهي نظم مختصر في أربعة عشر عِلمًا مع زبدة مسائلها للإمام السيوطي، وزاد السنباطي أربعة علوم فصار ثمانية عشر علمًا(٤)، ومن مؤلفاته أيضًا: إظهار الأسرار الخطية في حل الرسالة الجيبية أو «شرح

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٢) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢٠.

(٣) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، ج٨ ص٤٣٨.

(٤) ذكر ابن القاضي أنها سبعة عشر علمًا (درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٠م، ج ١ ص١٦٨ رقم ٢٠١)، البغدادي، هدية العارفين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، م٥ ص١٤٩، خير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ج١ ص٩٢، المرصفي، هداية القاري إلى تجويد كلام الباري،=

رسالة الجيب» للشيخ بدر الدين المارديني في المنطق(١)، وتوضيح على رسالة المارديني في العمل بالربع المجيب في الفلك(٢)، وشرح حرز الأماني للشاطبي في القراءات السبع المتواترة، وهو شرح الشاطبية، وهو شرح نفيس أجاد فيه وأفاد، ومن وقف عليه عرف مقدار الرجل، وسعة اطلاعه، وطول باعه في علم القراءات والتجويد(٣)، ومن مؤلفاته أيضًا: شرح جنة كواعب الأفكار، و«كواعب الأخيار» في المنطق(٤)، وشرح البسملة والحمدلة للقاضي زكريا الأنصاري(٥).

=الطبعة الثانية، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ١٤٠٦ه، ج٢ ص٧٧٨، عرباوي، الإمام السنباطي الذي لا ينبغي أن يهمل ذكره في أسانيد القراء، www.farghly.forumegypt.net

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، م١ ص٨٥٩، البغدادي، هدية العارفين، م٥ ص١٤٩، الزركلي، الأعلام، ج١ ص٩٢، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٥٩م، ج١ ص١٤٩.

(٢) الزركلي، الأعلام، ج١ ص٩٢، كحالة، معجم المؤلفين، ج١ ص١٤٩.

(٣) المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٧٧٨، عرباوي، الإمام السنباطي الذي لا ينبغي أن يهمل ذكره في أسانيد القراء، www.farghly.forumegypt.net

(٤) البغدادي، هدية العارفين، ج١ ص٥٤٠.

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون، م٢ ص١٠٣٥، الزركلي، الأعلام، ج١ ص٩٢، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٧٧٨. ولمزيد من التفاصيل، راجع: إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا، بنو عبد الحق السنباطي وأثرهم في الحياة العلمية بمكة المكرمة منذ الربع الأخير من القرن التاسع حتى نهاية القرن العاشر الهجريين (٨٧٥- ٩٩٩هـ/ ١٤٧٠- ١٥٩٠م)، قُدم للندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض (١٤-١٧/ ٤/ ٢٠١٤م). والقاضي زكريا هو شيخ مشايخ الإسلام العارف بالله علامة المحققين فهامة المدققين لسان المتكلمين، سيد الفقهاء والمُحدِّثين الحافظ الزين أبو يحيى زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنبكي القاهري الأزهري الشافعي (ت٩٢٦ه/ ١٥٢٠م)، وكان بارعًا في سائر العلوم الشرعية وآلاتها: حديثًا، وتفسيرًا، وفقهًا، وأصولًا، وعربية، وأدبًا، وكان مقدمًا أيضًا في القراءات، وقد تفرد بعلو الإسناد، وألف ما لا يحصى كثرة، فأقبل طلاب العلم من الحجاز والشام للاشتغال عليه، وانتفع به الفضلاء طبقة بعد طبقة، ولم يوجد في عصره إلا من أخذ عنه مشافهة أو بواسطة أو بوسائط وكان له الباع الطويل في التصوف، وكان كما ذكر العيدروس «المجدد على رأس القرن التاسع، لشهرة الانتفاع به وبتصانيفه، واحتياج غالب الناس إليها فيما يتعلق بالفقه وتحرير المذهب» (السخاوي، الضوء اللامع، ج٣ ص٢٠٨-٢١٢، ج٤، رقم ٥٨ ص٣٦، الشعراني، الطبقات الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون=

وتتلمذ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني أيضًا على محمد بن أحمد بن حمزة الملقب بشمس الدين بن شهاب الدين الرملي المنوفي المصري (نسبة إلى قرية رملة بالقرب من منية العطار تجاه مسجد الخضر بالمنوفية)[١]، الأنصاري الشهير بالشافعي الصغير (٩١٩-١٠٠٤هـ/ ١٥١٤-١٥٩٦م)، فكان يحضر دروس في الفقه[٢]، وكان الشمس الرملي مرجعًا لأهل مصر في تحرير الفتاوى[٣]، وكان قد جلس بعد والده للتدريس، فأقرأ التفسير والحديث والأصول والفروع والنحو والمعاني والبيان، وبرع في العلوم النقلية والعقلية وطار صيته في الآفاق، وولي عدة مدارس، وولي أيضًا منصب افتاء الشافعية، وأخذ عنه أكثر الشافعية من أهل مصر، ورجعوا إليه، وألف التآليف النافعة، منها: شرح المنهاج، وشرح البهجة الوردية، وشرح الطريق الواضح[٤]. وذكر الشلي أنه

=تاريخ، ج٢ ص١١١، ١١٦، الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، وضع حواشيه خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج١، رقم ٤٢١ ص١٩٨-٢٠٨، العيدروس، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، بدون تاريخ، ص١٢٣-١٢٤، ١٥٣، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٨ ص١٣٥، الحموي، فوائد الإرتحال، م٤، رقم ١٠٣٨، ص٢٨٢-٢٨٤، الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، شرحه ووضع فهارسه د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠١١م، ج١، رقم ١٧٥ ص١٩٦، حاجي خليفة، كشف الظنون، م١ ص٥٩٥، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٦٤٤-٦٤٥).

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٣ ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢) الشلي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق إبراهيم أحمد القحفي، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص٢٥، المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٣) ذكر المحبي أن تلميذه شهاب الدين أحمد بن خليل بن إبراهيم المصري الشافعي السبكي (ت١٠٣٢ه/ ١٦٢٣م)، جمع تلك الفتاوى من خط شيخه شيخ الإسلام الشمس الرملي في مجلد ضخم (المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج١ ص١٨٦، الحموي، فوائد الإرتحال، م٢ ص١٢٤، ١٢٧). وراجع، الرملي، الفتاوى، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٧٠ فقه شافعي.

(٤) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٢٦-٢٧، المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص٣٤٣، علي مبارك، الخطط التوفيقية التوفيقية وبالجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة=

جاور بالحرمين فعرف بإمام الحرمين، وتولى الإفتاء هناك، وشرح كتاب الإيضاح في المناسك للإمام النووي آنذاك[١].

وبعد وفاة شيخه الشمس الرملي، لازم ابن شحاذة اليمني الإمام الحجة العلي الشأن رئيس العلماء بمصر علي بن يحي الملقب نور الدين الزَّيّادي (نسبة لمحلة زياد بالبحيرة)[٢]، المصري الشافعي (ت١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م)، وبه تخرج[٣]، وكانت شهرة النور الزَّيّادي قد بلغت الآفاق، وتصدر للتدريس بالأزهر، وكان يقرئ الأصول بافريز الأزهر شمالي قبلة الحنفية في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان، وكان يصلي إمامًا بصحن الجامع الأزهر، ودرّس أيضًا بالمدرسة الطيبرسية، وكان العلماء الأكابر تحضر دروسه بالأزهر وهم في غاية الأدب، وكانت حلقته صفوفًا، فصارت له مشيخة على جميع علماء عصره، وألف مؤلفات نافعة، منها: حاشية على شرح المنهج اعتنى بها مشايخ مصر وغيرهم من علماء الشافعية، وله شرح على المحرر للرافعي، وقد أخذها عنه كثيرون[٤].

وتتلمذ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني أيضًا على الإمام نور الدين علي بن غانم

=المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ج٤ ص١٢٩-١٣٠، جرجي زيدان، مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٩٨، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ق٨ ص١٩٥.

(١) الغزي، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، حققه محمود الشيخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م، ج١، رقم ٢٢ ص٧٧-٨٥، الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٢٥، الحموي، فوائد السفر، م٢ ص١٢٥-١٢٨، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر فى الحياة العلمية فى الحجاز، ص١١٨.

(٢) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٩٧.

(٣) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٧٨٩.

(٤) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص١٤٣، المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٩٥.

المقدسي الأصل القاهري المولد والسكن، رأس الحنفية في عصره، وكان عالمًا كبيرًا حجة، وكانت الرحلة إليه من الآفاق، وانتفع به الجم الغفير من كبار أهل زمانه، وكان قد تولى المناصب الشريفة، ومنها: إمامة الأشرفية ومشيختها، ومشيخة مدرسة الوزير سليمان باشا، ومشيخة الإقراء بمدرسة السلطان حسن، وتدريس الصرغتمشية، وألف التأليف النافعة في الفقه وغيره، منها: شرح نظم الكنز، والشمعة في أحكام الجمعة[١].

ومن المرجح أن عبد الرحمن بن شحاذة اليمنى أخذ من الإمام الكبير المحدث الحجة الثبت أبي النجا سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري مفتي المالكية ورئيسهم (ت١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م)، وكان أجلْ أهل عصره، وكانت إليه الرحلة من الآفاق كما ذكر المحبي، واجتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره، وأخذ عنه الجم الغفير الذين لا يحصون من أهل مصر والشام والحرمين، وله مؤلفات كثيرة، منها: حاشية على مختصر الشيخ خليل في الفقه، ورسالة في ليلة النصف من شعبان[٢]. ويبدو أن ابن شحاذة اليمني أخذ أيضًا عن سيف الدين أبو الفتوح ابن عطاء الله الوفائي الفضالي المقرئ الشافعي (ت١٠٢٠هـ/ ١٦١١م) شيخ القراء بمصر في عصره، وكان قد قرأ بالروايات على الإمام شحاذة اليمني، وأحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي، وبهما تخرج، وأخذ عنه جمع من أكابر الشيوخ المصريين والحجازيين، وله مؤلفات مفيدة نافعة، منها: شرح بديع على الجزرية في التجويد، ورسائل كثيرة في القراءات، منها: اللؤلؤ المكنون في جمع الأوجه من سورة الكوثر،

---

(١) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٢٩-٣٢، المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٨٠-١٨١.

(٢) الشلي، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، ص١٤٤، الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، ج٢، رقم ١٦١ ص٤٦٧، المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٠٤، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠٣٦ ص٢٧٧-٢٧٩، الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق د. عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م، رقم ٥٦ ص١٢٧.

وكان قد جمعه بتوجيه من شيخه السنباطي[1]. ولم يكتف عبد الرحمن بن شحاذة اليمني بدروس الفقه والحديث والقراءات فحسب، إنما درس أيضًا علوم الأدب، فأخذها كما ذكر المحبي عن كثيرين[2].

ونستدل من الروايات أن عبد الرحمن بن شحاذة اليمني زامل كثير من طلاب العلم المصريين والقادمين إلى مصر عند شيوخه، وقد صار بعض أقرانه من الأئمة الكبار الأعلام، والمصنفين المكثرين، ونذكر منهم: محمد بن يحيى الشهير بابن شرف المصري الشافعي (ت١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م)، وكان قد أخذ عن الشمس الرملي، ولازمه واستفاد من فوائده، وأجازه بمروياته، ومسنداته، ومؤلفاته، وقد برع ابن شرف في الفقه وجدّ فيه وفاق من يماثله، وألف حاشية لطيفة على شرح التحري للقاضي زكريا[3]. ومن أقرانه أيضًا: سالم بن حسن الشبشيري (ت١٠١٩هـ/ ١٦١٠م)، وكان قد أخذ الفقه عن الشمس الرملي، وتكمل بالنور الزّيّادي ولازمه سنين عديدة، وكان من أجلّ طلبته، وكان يطالع لجماعة الزّيّادي درسه على عادة مشايخ الأزهر، وقد أصبح الشبشيري إمامًا حجة، وشيخًا لوقته وأعلم أهل عصره[4]. ومنهم أيضًا: عبد القادر بن محمد بن أحمد الفيومي الشافعي (ت١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م)، تلميذ والده شحاذة اليمني، وزامله أيضًا عند أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي، والنور الزيادي والشمس الرملي، وكان قد لزمه سنين وتفقه به، ورثاه بشعر مؤثر عند وفاته[5].

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢٠-٢٢١، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠٢٨ ص٢٦٩.

(٢) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨.

(٣) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٤ ص٢٥٨.

(٤) الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، ج٢، رقم ١٦٢ ص٤٦٨، المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٠٢-٢٠٣، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠٣٥ ص٢٧٤-٢٧٦، البغدادي، هدية العارفين، ج١ ص٣٨١.

(٥) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤٥٦.

ومن أقران ابن شحاذة اليمني أيضًا: نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن عمر الحلبي القاهري (٩٧٥-١٠٦٢هـ/١٥٦٦-١٦٥٣م)، وزامله عند شيخهما الشمس الرملي، فقد كان الحلبي ملازمًا للشمس الرملي سنين عديدة، وروى عنه، وروى أيضًا عن النور الزيادي شيخ ابن شحاذة اليمني[١]، وزامل أيضًا: علي زين العابدين محمد بن أبي محمد زين الدين الأجهوري (٩٦٧-١٠٦٦هـ/١٥٥٨م)، عند الشيخ الشمس الرملي، وقد صار هذه العالم شيخًا للمالكية بالقاهرة في عصره، ورحل إليه الناس من الآفاق للأخذ عنه[٢]، ومن أقرانه أيضًا: شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشويري عند الشمس الرملي، والنور الزيادي، وقد لازمهما سنين كثيرة، وأجازاه بالإفتاء والتدريس، وقد أصبح الشويري (٩٧٧-١٠٦٩هـ/١٥٦٨-١٥٦١م)، إمامًا متقنًا ثبتًا حجة وشيخًا للشافعية في وقته، وكان يلقب بشافعي زمانه[٣]. ومنهم أيضًا: سليمان البابلي المصري الفقيه الشافعي (ت١٠٢٦هـ/١٦١٧م)، رأس الفتيا بعد وفاة شيخه الزيادي، فكان معول الناس عليه، ورحل إلى الحجاز مرات بين سنتي (١٠٠٢-١٠١٤هـ)[٤]، وأبو العزائم سلطان بن أحمد بن سلامة المزاحي المصري الأزهري (ت١٠٧٥هـ/١٦٦٤م)، فقد قرأ بالروايات على الشيخ الإمام المقرئ سيف الدين بن عطاء الله الفضالي، وأخذ العلوم الدينية عن النور الزيادي، ومن دلائل معاصرة المزاحي لابن شحاذة اليمني أن معظم تلاميذ اليمني، ومنهم: محمد البقري، وشاهين الأرمناوي، والشبراملسي قد أخذوا عليه، كما أن جميع فقهاء الشافعية بمصر لم يأخذوا إلا عن المزاحي، وكان يقول: «من أراد أن يصير عالمًا فليحضر دروسي»، وكان المزاحي يختم نحو عشرة كتب في علوم عديدة في كل سنة، وكان يقرؤها

(١) المُحِبّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٢٢-١٢٤.

(٢) المُحِبّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٥٧.

(٣) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٢٩٦-٢٩٧، المُحِبّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص٣٨٥-٣٨٦.

(٤) الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، ج٢، رقم ١٦٣ ص٤٦٨-٤٦٩، المُحِبّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢١٣، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠١٣ ص٢٣٤-٢٣٥.

قراءة مفيدة، حتى صار شيخًا للإقراء ورئيس أهل التجويد كما وصفه الإفراني، وله تآليف، منها: شرحه على الشمائل، وهو متداول بين الطلبة، ومؤلف في القراءات الأربعة الزائدة على العشرة[(١)].

ومن أقرانه أيضًا: الإمام الكبير عبد الرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخياري الشافعي نزيل المدينة المنورة وخطيبها ومحدثها (مات ودفن بالبقيع ١٠٥٦هـ/ ١٦٤٧م)، وكان قد أخذ بمصر عن الجلة من المشايخ، ومنهم: النور الزيادي، وأبو بكر الشنواني، وأحمد الغنيمي، والشيخ محمد الخفاجي، ومن في طبقتهم من علماء ذلك العصر، وقد أجازوه وشهدوا له بالفضل. وعند تخرجه على مشايخه تصدر للإقراء بالجامع الأزهر، فلازمه جمع من أكابر الشيوخ وطلاب العلم، وأخذوا عنه العلم، منهم: النور الشبراملسي، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وسكنها بإذن النبي ﷺ، وكان وصوله إليها في أواسط المحرم سنة (١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م)، وانتفع به أهلها للأخذ عنه، والتلقي منه، وكان له يد طولى في جميع الفنون مع السكينة والوقار[(٢)].

(٣) مكانته العلمية التي أهلته للتأثير في الحياة العلمية بمصر والحجاز

استكمل عبد الرحمن بن شحاذة اليمني تحصيله العلمي سماعًا وإجازة على يد شيوخه، حتى بلغ الغاية في العلوم[(٣)]. وبدأ في ممارسة نشاطه التعليمي بالقاهرة، فتصدر لتدريس الفقه بالجامع الأزهر، فكان يقرأ كتابًا من كتب الفقه المعتبرة في كل سنة، ومنها: شرح المنهاج للمحلي، وشرح المنهج لشيخ الإسلام، فأصبح من الفقهاء البارزين في عصره، وقد ذاع صيته في الفقه الشافعي، فلازم كثير من طلاب العلم

---

(١) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٣١٥، المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢١٠-٢١١، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠١٨ ص٢٣٧-٢٤٠، الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، رقم ١٨٩ ص٢٥٧، الزركلي، الأعلام، ج٣ ص١٠٨، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٦٤٧.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٦٧-٣٦٨، الحموي، فوائد السفر، م٤، رقم ١٢٥٩ ص٥٥٦.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

دروسه الفقهية[١]. وقد جلس عبد الرحمن بن شحاذة اليمني أيضًا لقراءة القرآن بالروايات السبع، ومؤلفات شيوخه في علم القراءات، فانتهت إليه رياسة هذا العلم، وأصبح كما ذكر المحبي شيخ القراء وإمام المجودين في زمانه[٢]. وقد نعته المحبي أيضًا بالشيخ العلامة المقرئ[٣]. وقد ذاع صيت عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في علم القراءات والتجويد والإقراء، فلم يهمل ذكره في أسانيد القُراء حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، فالمحبي يذكر أن «غالب قراء جهات الحجاز والشام ومصر أخذوا عنه هذا العلم وانتفعوا به وعم نفعهم ببركته»[٤]. وللتأكيد على كثرة تلاميذ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في علم القراءات، فقد ذكر الحموي أن معظم المشايخ المصريين والشاميين الذين أدركهم وترجم لهم في كتابه الضخم «فوائد الارتحال» أخذوا عنه هذا العلم وانتفعوا به[٥]. ووصفه المحبي أيضًا أنه كان شيخًا مُهابًا عظيم الهيبة، جليل المقدار عند عامة الناس وخاصتهم[٦]، ووصفه الحموي بشيخ الفقهاء والقراء في زمانه[٧]، وفي موضع آخر وصفه بفقيه مصر ومقرئها[٨]. وهكذا جمع عبد الرحمن بن شحاذة اليمني بين الألمعية في القراءة، والفقه. فاستحق أن يجعله المحبي أحد أعمدة الدين في العالم الإسلامي آنذاك، وأن يحمد الله على أن كتابه خلاصة الأثر تشرف بذكره[٩]، ووصفه الحموي أنه أحد «رجال الرحمن الذين

---

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج١ ص٤١٩، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢١، ج٤ ص٤٠٣-٤٠٤.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٥) الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٦) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣-٥٨٤.

(٧) الحموي، فوائد الارتحال، م١ ص٥٢٩.

(٨) الحموي، فوائد الارتحال، م٤ ص٤٨٣.

(٩) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٧٦.

يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، وممن جمع الله بين سعادة الدارين، فطاب مقامًا»(١).

ويمكن معرفة المنزلة العلمية العالية لعبد الرحمن بن شحاذة اليمني من خلال أمور، منها: أن أصحاب كتب التراجم وصفوا شيوخه الذين أخذ منهم علومه المختلفة بصفات عالية، فشيخه الشمس الرملي كان أحد أساطين العلماء وأعلام نحاريرهم، ومحيي السنة وعمدة الفقهاء في الآفاق، واعتبره الشلي مجدد القرن العاشر(٢)، وكان شيخه النور الزيادي رئيس العلماء في مصر، وذكر المحبي أن رئاسة العلم انتهت إليه في عصره(٣)، وكان شيخه نور الدين علي بن غانم المقدسي القاهري كما ذكر المحبي إمام أئمة الدهر على الاطلاق، وأعلم علماء وقته وأكثرهم تبحرًا وأجمعهم للفنون(٤)، وكذلك سائر مشايخه. ويمكن معرفة المنزلة العلمية لابن شحاذة اليمني أيضًا: أن جُل تلاميذه الذين أخذوا عنه علمي القراءات والفقه، سيبلغوا أسمى المراتب بفضل قراءتهم عليه؛ فتلميذه الإمام العالم محمد البقري كان المنفرد في عصره بعلوم القرآن، وبرع في علم القراءات والتجويد خصوصًا، واشتهر فيها بمزيد الإتقان(٥).

ونستدل من الروايات على بعض أسباب إقبال طلاب العلم على عبد الرحمن بن شحاذة اليمني؛ فقد كان يُحسن معاملتهم، فكان يكثر الثناء عليهم في مجالسه العلمية، ويشجعهم على مواصلة دروسهم، ويشحذ هممهم، ويعمق ثقتهم العلمية بأنفسهم،

---

(١) الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣.

(٢) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٢٧، المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٣ ص٣٤٢، الحموي، فوائد الإرتحال، م٢ ص١٢٧-١٢٨.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٣ ص١٩٥-١٩٦.

(٤) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص٣٠-٣١، المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٣ ص١٨٠.

(٥) الحموي، فوائد الإرتحال، م١ ص٥٢٨.

فكانوا يثقون به وبنظرته الثاقبة، ويقبلون نصحه، ويمتثلون أمره[(١)]. وبعدما صار بعض هؤلاء الطلاب شيوخًا كبارًا ومن الأعلام كانوا، ومنهم: الشبراملسي، لا يفترون عن الثناء عليه في مجالسهم[(٢)]، وكان ابن شحاذة اليمني أيضًا كثير البر لطلبة العلم، وشديد المحبة لهم[(٣)].

(٤) أثره في الحياة العلمية بمصر

تتلمذ على الشيخ العلّامة المقرئ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني وتخرج على يديه بالسماع وبالإجازة مَنْ لا يحصون كثرة من طلبة العلم المصريين، حتى صاروا شيوخًا في حياته وبعد مماته. ويتضح من الروايات أن معظم تلاميذه أخذوا منه بالسماع، ويتضح منها أيضًا أنه أجازهم رواية مسموعاته. وكان نور الدين علي بن علي أبو الضياء الشُبرامَلسي الشافعي القاهري (ت١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م)، ممن قرأ عليه القرآن بالروايات، وكان من ملازمي دروسه الفقهية[(٤)]، وكان الشُبرامَلسي قد ولد ببلده شبراملس، وحفظ بها القرأن، ثم قدم القاهرة بصحبة والده سنة (١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م)، وتخصص في علم القراءات، فحفظ متون الشاطبية، والخلاصة والبهجة الوردية، والمنهاج، ونظم التحرير، وغير ذلك، وتلا جميع القرآن للسبعة من طريقي التيسير والشاطبية وختمه في سنة (١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م)، ثم قرأه كله للعشرة من طريق الشاطبية، وختمه سنة (١٠٢٥هـ/ ١٦١٧م)، وألف على شيخ القراء في زمانه الشيخ عبد الرحمن اليمني[(٥)]، وقد صار الشُبرامَلسي شيخًا جليلًا عاملًا عالمًا خاتمة

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٢) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨.

(٣) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٤) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص، ٣٦٠، المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨.

(٥) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٧٥، البغدادي، هدية العارفين، ج١ ص٧٦١، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٧٨٤.

المحققين، محرر العلوم النقلية وأعلم أهل زمانه[١]، وتصدر للإقراء بجامع الأزهر فانفرد في عصره بجميع العلوم وانتهت إليه الرياسة[٢]، وكان محققًا في فن القراءات حتى انفرد به في عصره[٣]، بحيث لم يكن في مصر يعادل الشيخ سلطان المزاحي كما ذكر الإفراني «في التجويد إلا هو»[٤]، ومن أشهر تلاميذه الذين أخذوا عنه القراءات وتفوقوا فيها، العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطي الشافعي الشهير بالبناء (ت١١١٧هـ/ ١٧٠٥م)، وقد صنف كتابًا في القراءات سماه «إتحاف البشر بالقراءات الأربعة عشر»[٥].

ومن تلاميذ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني أيضًا: الحافظ المتقن عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللقاني المصري المالكي (٩٧١-١٠٧٨هـ/ ١٥٦٢-١٦٦٧م)[٦]. وكان قد درس على والده البرهان، وبعد وفاته لزم غالب الجماعة الذين كانوا يحضرون درس والده، فقرأ بالروايات على عبد الرحمن بن شحاذة اليمني، فصار إمامًا كبيرًا محدثًا باهرًا، وشيخًا للمالكية في وقته بالقاهرة، وتصدر في مكانه بجامع الأزهر للتدريس، وكان كبار المشايخ من أهل وقته يحترسون ساحته وينقادون لرأيه، وصنف تآليف حسنة الوضع، منها: شرح المنظومة الجزائرية في العقائد، وله ثلاثة شروح على عقيدة والده الجوهرة[٧].

وكان أبو الإكرام شمس الدين محمد بن قاسم (بن عمر) بن إسماعيل البقري

---

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٧٤.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٧٦.

(٣) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص، ٣٦٠.

(٤) الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، رقم ١٩٢ ص٢٦٢-٢٦٣.

(٥) الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م، ج١ ص١٦٠-١٦١.

(٦) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، ٤١٧، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٧) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤١٦-٤١٧.

المقرئ الشافعي – منسوب إلى قرية دار البقر من أعمال المحلة بناحية الغربية – (١٠١٨-١١١١هـ/ ١٦٠٩-١٦٩٩م)، ممن أخذ علم القراءات عن الشيخ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني[1]، من طريق الشاطبية، وطيبة النشر في القراءات العشر، والدرة[2]، وقرأ عليه أيضًا شرح الجزرية للقاضي زكريا[3]، وغلب عليه علم القراءات واشتهر به، وقد لازم الإقراء في صحن الجامع الأزهر مكان شيخه اليمني بعد وفاته سنة ١٠٥٠ه/ ١٦٤١م، فصار شيخًا للقراء والمقرئين في مصر، فأقبل عليه الطلاب من كل حدب وصوب، ليأخذوا عنه سائر العلوم، وتخرجوا به، وانتفعوا الانتفاع التام، وذكر الجبرتي أن «غالب علماء مصر إما تلميذه، أو تلميذ تلميذه، وألف وأجاد وانفرد»[4]، ونذكر من مصنفاته القيمة: «القواعد المقررة والفوائد المحررة»، و«غُنية الطالبين ومُنية الراغبين»[5]. وقد ختم عليه تلاميذه القرآن من طريق الشاطبية[6]، وقرأوا عليه أيضًا شرح الجزرية للقاضي زكريا كما قرأهم هو على شيخه ابن شحاذة اليمني.

ومن تلاميذ ابن شحاذة اليمني أيضًا: شاهين بن منصور بن عامر الأرمناوي الحنفي (١٠٣٠-١١٠٠هـ/ ١٦٢١-١٦٩٠م)[7]، وكان قد حفظ ببلده القرآن والكنز والألفية، والشاطبية والرحبية، وغيرها، ثم رحل إلى الأزهر، فقرأ بالروايات

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م١، رقم ٣٠٣ ص٥٢٩، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤. الجبرتي، عجائب الآثار، ج١ ص١٢٤.

(٢) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص، ٣٨٥، الحموي، فوائد الارتحال، م١، رقم ٣٠٣ ص٥٢٩.

(٣) الحموي، فوائد الارتحال، م١، رقم ٣٠٣ ص٥٣٠.

(٤) الجبرتي، عجائب الآثار، ج١ ص١٢٤، الحموي، فوائد الارتحال، م١ ص٥٢٩، م٢ ص١٠٢-١٠٣، م٣ ص٣٢٦.

(٥) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص، ٣٨٦، الحموي، فوائد الارتحال، م١ ص٥٢٩، الزركلي، الأعلام، ج٧ ص٧.

(٦) الحموي، فوائد الارتحال، م٢ ص١٠٣، م٣ ص٣٢٦، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٧١٧-٧١٨.

(٧) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢١، ٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

على الشيخ العلامة المقرئ عبد الرحمن اليمني. ولازم في الفقه الإمام الشهاب الشويري، وأحمد المنشاوي، وفي العلوم العقلية شيخ الإسلام محمد الأحمدي، وأخذ عن النور الشبراملسي، وعبد السلام اللقاني، وقد أجازه جُل شيوخه، ومنهم: ابن شحاذة اليمني، وكان أفقه الحنفية بالقاهرة، واشتهر صيته، وسارت فتاواه في البلاد. وتصدر للإقراء في الأزهر في فنون عديده، ومنها: الفقه والفرائض والحساب والنحو، وغيرها، وعنه أخذ جمع من أعيان الأفاضل(١)، ولذلك استحق أن يصفه الجبرتي بالإمام العلامة شيخ الشيوخ(٢).

وكان الشاعر الأديب عبد البر بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن زين الفيومي العوفي الحنفي (ت١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م)، ممن أخذ عن ابن شحاذة اليمني، فالمحبي يذكر أنه أخذ القراءات عنه، وكان عبد البر الفيومي قد خالط كبار العلماء والأدباء بمصر فأصبح من جملتهم، وصار شاعرًا مطبوعًا، وأحد أدباء الزمان المتفوقين وفضلائه البارعين(٣)، وقد ولي من المناصب افتاء الشافعية بالقدس مع المدرسة الصلاحية، وله تآليف حسنة الوضع أشهرها: كتاب منتزه العيون والألباب في بعض المتأخرين من أهل الأدب، وكتاب بلوغ الارب والسول بالتشريف بذكر نسب الرسول، وكتاب اللطائف المنيفة في فضل الحرمين وما حولهما من الأماكن الشريفة(٤).

ومن تلاميذ ابن شحاذة اليمني أيضًا: علي بن إبراهيم الخياط الرشيدي الشافعي (١٠١٠-١٠٩٤هـ/ ١٦٠١-١٦٨٣م)، وكان قد ولد برشيد وبها نشأ وحفظ القرآن وجوّده، وأخذ عمن بها من علماء عصره، ثم قدم القاهرة، وقرأ بالروايات على مقرئ

---

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٢١، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٠٤٤ ص٢٨٧-٢٨٨، الجبرتي، عجائب الآثار، ج١ ص١٢٨.

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ج١ ص١٢٨.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٩١.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٩٣.

مصر عبد الرحمن اليمني، وأخذ الفقه والعلوم الشرعية والعقلية عن شيوخ كثيرين، منهم: النور علي الحلبي، والنور الشبراملسي، وقد صار الخياط الرشيدي شيخًا وإمامًا حجة مفننًا في العلوم جماعًا لها ومقدمًا في المعارف كلها، ومتكلمًا في أنواعها، وقد تصدر للتدريس، فأخذ عنه خلق كثيرون، منهم: العلامة عبد الرزاق الرشيدي(١). ومن تلاميذ ابن شحاذة اليمني أيضًا: عبد الرحمن بن سليمان المحلي (نسبة إلى المحلة الكبرى قصبة الغربية)، الشافعي نزيل دمياط، وكان قد قدم القاهرة واشتغل بالعلم، وجدّ فيه، وقرأ بالروايات على الزين عبد الرحمن اليمني وأخذ منه، ومحيي الدين بن شيخ الإسلام زكريا، والنور علي الحلبي، والشمس الشويري، وصحب النور الشبراملسي، ثم هجر الأزهر، ورحل إلى دمياط واستوطنها، وله مؤلفات كثيرة، منها: حاشية على تفسير البيضاوي، ومات بدمياط سنة (١٠٩٨هـ/ ١٦٨٧م)(٢). ومن تلاميذه أيضًا: محمد بن داود بن سليمان العناني الشافعي (ت١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م)، وقد قرأ عليه بالروايات، فصار كما ذكر الحموي من كبار العلماء العاملين، وقطع «شبيبته وشيخوخته في الاشتغال بالعلم ونشره، مع ملازمة الكتابة للكتب النافعة»(٣).

ونستدل من الروايات على أن زين العابدين بن محيي الدين بن ولي الدين بن جمال الأنصاري السنيكي (نسبة إلى سنيكة بليدة من شرق مصر)، الشافعي، قد درس على عبد الرحمن اليمني عند طلبه للعلم في عنفوان شبابه (١٠٠١-١٠٦٨هـ/ ١٥٩٢-١٦٥٧م)، فقد حفظ القرآن وتلاه بالتجويد، واعتنى به قراءة وفهمًا وكتابة، ورسمًا، ولازم أكابر شيوخ عصره عند طلبه العلم في عنفوان شبابه، ومما يؤيد تخريجنا أيضًا أن المحبي يذكر أنه شارك الشبراملسي في كثير من شيوخه، ثم لازمه، الإمام الفاضل

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٢٨، المرصفي، هداية القاري، ج٢ ص٧٨٢-٧٨٣.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤٠٥-٤٠٦، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٣٦ ص٥٢٧-٥٢٩.

(٣) الحموي، فوائد الإرتحال، م١، رقم ٢٤٦ ص٤٢٢.

العالم، وألف مؤلفات كثيرة شهيرة، منها: حاشية على شرح الجزرية(١). ونستدل من الروايات أيضًا على أن علي العزيزي (نسبة للعزيزية من الشرقية بمصر)، البولاقي الشافعي (ت١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، درس على عبد الرحمن اليمني، فقد كان كثير الاشتغال بالعلم محبًا لأهله، خصوصًا أهل الحديث، وكان إمامًا فقيهًا، فالمحبي يذكر أنه شارك الشبراملسي في كثير من شيوخه. ثم لازمه(٢)، وللعزيزي مؤلفات كثيرة، منها: شرح على الجامع الصغير للسيوطي في مجلدات، وحاشية على شرح التحرير، ودرس علي المحلي (نسبة للمحلة بالغربية بمصر) الشافعي (ت١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م)، على عبد الرحمن بن شحاذة اليمني كما نستدل من رواية للمحبي، فقد قرأ على النور الشبراملسي ولازمه كثيرًا مع كونه شاركه في كثير من شيوخه، ويبدو أنه اقتدى بشيخه ابن شحاذة اليمني، فمارس التجارة مثله حتى أثرى وكثر ماله(٣). وجدير أن عبد الرحمن بن شحاذة اليمني، شأن شيوخ القراءات، كان يقيم في الأزهر ختمًا حافلًا لتلاميذه في يوم مشهود، وكان يحضر فيه علماء العصر على عادة أهل مصر في شأن ذلك(٤).

وجدير بالذكر أن كثير من قراء بلاد الشام الذين قدموا إلى مصر قد أخذوا علم القراءات عن شيخ القراء بالديار المصرية عبد الرحمن بن شحاذة اليمني، وانتفعوا به، فالمحبي يذكر أن «غالب قراء جهات الحجاز والشام ومصر أخذوا عنه هذا العلم وانتفعوا به وعم نفعهم ببركته»(٥). وجدير بالذكر أيضًا أنه كان يوجد رواقًا للشوام

(١) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص١٩٩، الحموي، فوائد الإرتحال، م٤، رقم ٩٩٧ ص١٩٥-١٩٦، الزركلي، الأعلام، ج٣ ص٦٥.

(٢) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٣ ص٢٠١.

(٣) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٣ ص٢٠٢.

(٤) الحموي، فوائد الارتحال، م٣ ص٣٢٦.

(٥) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨.

بالجامع الأزهر(١). وقد زودنا المحبي بتراجم كثير من هؤلاء القراء الشاميين، ودورهم في نشر علم القراءات في بلادهم، ونذكر منهم: محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن سليمان بن سليمان المعروف بالأسطواني الدمشقي الحنفي ثم الشافعي الفقيه الواعظ الاخباري. وقد قام بنشر علم القراءات والمواعظ عند عودته إلى دمشق، فأقرأ شرح الهمزية، فحضر دروسه كثير من طلاب العلم، وكان يرحل إليه من بلد إلى بلد(٢). ومنهم أيضًا: المُحدّث المقرئ عبد الباقي بن عبد الباقي بن عبد القادر بن عبد الباقي بن إبراهيم بن عمر بن محمد الحنبلي البعلي الأزهري الدمشقي الشهير بابن البدر، ثم بابن فقيه فِصه، (فِصه قرية ببعلبك من جهة دمشق نحو فرسخ) (ت١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م)(٣)، وأخذ منه جميع القرآن الكريم بالروايات سنة ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م، وأجازه جميع ذلك، فلما عاد إلى دمشق تصدر للإقراء بالجامع الأموي في سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م، وأصبح شيخًا للقراء بدمشق، ودرّس أيضًا بالمدرسة العادلية الصغرى، فأخذ عنه خلق كثير وانتفعوا به(٤). ومنهم: إسماعيل الكلشتي خليفة الطائفة الكلشنية بحلب (ت١٠٧٦هـ/ ١٦٦٥م)، وكان ذا قراءة حسنة مجودة، وكان يقرأ بالألحان والأوزان والأنغام من غير أن يخرج الحروف والكلمات عن حقوقها، فاستحلى جميع الناس قراءته، وكانوا في ليالي شهر رمضان يأتون إليه من نواحي حلب للتلذذ بسماع قراءته(٥).

ومن تلاميذه الشاميين أيضًا: عبد القادر بن أحمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل ابن شعبان المعروف بابن الغصين الغزي الشافعي (ت١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م)، وكان قد

---

(١) مصطفى محمد رمضان، رواق الشوام بالأزهر، بحث ألقي في جامعة دمشق، ١٩٧٨م.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص٣٨٦-٣٨٧.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، ٢٨٣، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٨٤-٢٨٥، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١١٩٧ ص٤٨٣-٤٨٤.

(٥) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج١ ص٤١٩.

قرأ عليه سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م، فحفظ عليه القرآن جماعات لا يحصون بمصر وغزة، وأخذ عنه الحديث وغيره كثير منهم، ولم يخلف بعده في غزة مثله علمًا وعملًا[١]. ومنهم أيضًا: محمد بن علي بن محمد بن محمد المعروف بالسيد القدسي وبابن خصيب الدمشقي الشافعي (١٠١٢-١٠٨٢هـ/ ١٦٠٣-١٦٧١م)، وقرأ عليه القرآن للسبع، وأجازه بالإفتاء والتدريس، ثم قد دمشق فدرّس بها مدة، وانتفع به جماعة[٢]. ومنهم أيضًا: المحدث المقرئ أبو اليسر كمال الدين محمد بن محمد بن موسى بن علاء الدين الملقب العسيلي القدسي (ت١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م)، وقد أجازه الشيخ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في القراءات السبع[٣].

وأخذ بعض اليمنيين الذين قدموا على مصر علم القراءات أيضًا على ابن شحاذة اليمني، منهم: مصطفى بن علي بن نعمان الضمدي اليمني (نسبة إلى وادي ضمر من أعمال صبيعه)، فالمحبي يذكر أنه حفظ القرآن وجوّده على الشيخ العلامة عبد الرحمن اليمني، وقرأ عليه شرح الجزرية للقاضي زكريا. وقد أجازه ابن شحاذة اليمني وغيره من العلماء المصريين أيضًا في رواية الكتب الستة، وسيرة ابن هشام، وغيرها. وقد تأثر الضمدي بما حصله من علم شيوخه، فصار عالمًا يشهد بفضله العالم، وملأ صيته كل موطن وقفر، وقد صنف تصانيف شهيرة، منها: وهو أجلها، الفرات النمير تفسير الكتاب المنير، وقد حظي هذا التفسير باليمن بالقبول عند الفحول، ومدحه كثير من علمائه[٤].

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤٣٧.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص٦٠-٦١.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص٢٠٢. وعن ترجمة والده وإجازات العلماء المصريين له، ومنهم، النور الزيادي، راجع: المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص٢٣٤.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص٤٠٣-٤٠٤.

(٥) أثره في الحياة العلمية بالحجاز

كان لعبد الرحمن بن شحاذة اليمني دور مهم في إثراء الحياة العلمية بالحجاز في النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/ القرن السابع عشر الميلادي. وقد أثر فيها بشكل مباشر عن طريقين، أولهما: تتلمذ طلاب العلم الحجازيين عليه بالقاهرة، فعند عودتهم إلى بلادهم قاموا بنشر قرأتهم عليه، وثانيهما: رحلته إلى الحجاز لآداء الفريضة ونشر العلم. ولقد أثر ابن شحاذة اليمني في الحياة العلمية بالحجاز أيضًا بشكل غير مباشر عن طريق تلاميذه المصريين والشاميين واليمنيين الذين رحلوا إلى الحجاز، ونشروا بها علمه.

١/٥ تتلمذ الحجازيين على يديه بمصر وتأثيرهم في بلادهم بعد عودتهم إليها

ذاع صيتُ عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في الإقراء والتجويد، ورواية كتب الفقه، وعلا ذكره، فقصده طلاب العلم من خارج مصر، لعلمه ودينه، وقرأوا عليه بالروايات وجوَّدوا القرآن، وانتفعوا به. وقد رحل إليه بالقاهرة بعض القراء الحجازيين، ليستفيدوا من علمه؛ وكان يوجد بالجامع الأزهر رواق الحرمين الشريفين، يعيش فيه الطلاب الحجازيين، ويلتحقون بالدروس العلمية في حلقات العلم بالأزهر والحسين، وغيرها من معاهد العلم[١]. فانتفع هؤلاء الطلاب به وجوَّدوا القرآن على يديه، وعند عودتهم إلى بلادهم صار لبعضهم شأن كبير، فكانوا أئمة العلم والدين، فقاموا بنشر قراءاتهم عليه، ومؤلفات شيوخه التي أخذوها منه،

(١) وثائق مكتبة الأزهر، سجلات تعداد أهل الجامع الأزهر، تحت رقم ٣/٤٣٤ لسنة ١٢٥٢-١٢٩٤هـ/ ١٨٣٦-١٨٧٧، سجلات أروقة الأزهر وحاراته، رقم ١٠/٤٣٣ لسنة ١٣٠٥-١٣-٦هـ/ ١٨٨-١٨٨٨م، عبد العزيز الشناوي، الأزهر جامعًا وجامعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ج١ ص٢٥٠ وما بعدها. وله أيضًا: الأروقة قطعة من تاريخ الأزهر، من أعمال مؤتمر عقد بمناسبة مرور خمسة عشر قرنًا على الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز، ص٦٨٢-٦٨٣.

فالمحبي يذكر أن غالب قراء جهات البلاد الحجازية أخذوا عنه علم القراءات «وانتفعوا به وعم نفعهم ببركته»[١]. ورغم أن هذا النص يدل على كثرة القراء الحجازيين الذين أخذوا القراءات على ابن شحاذة اليمني، فللأسف لم يزودنا المحبي باسم واحد منهم، فحرمنا بذلك من فائدة كبرى، وللأسف أيضًا أننا لم نعثر على أسماء هؤلاء القراء الحجازيين في المصادر المتاحة بين أيدينا. ورغم ذلك يمكننا من خلال استنطاق الروايات، والقراءة المتأنية وتمحيص تراجم مشاهير العلماء الحجازيين المعاصرين لابن شحاذة اليمني، أن نتوصل لأسماء بعض القراء الحجازيين الذين أخذوا عنه القراءات وانتفعوا به. فمن الحجازيين الذين قدموا إلى مصر لتلقي العلم برهان الدين إبراهيم بن حسن الكوراني الشافعي المدني (١٠٢٥-١١٠٠هـ/ ١٦١٦-١٦٩٠م)، فقرأ على مشاهير علمائها بالأزهر، ثم رحل إلى الحرمين وقطن المدينة المنورة، وقد أجازه فيها الشيخ سلطان المزاحي، والشيخ الشمس البابلي[٢]، ومنهم: أيضًا: محمد بن كبريت العلوي مؤلف كتاب الجواهر الثمينة في محاسن المدينة (ت١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م)، وكان قد ولد بالمدينة المنورة، وبها نشأ وحفظ القرآن، ورحل إلى القرآن، ولزم كبار العلماء، ومنهم: محمد بن زين العابدين البكري، ثم عاد إلى المدينة فصحب محمد مكي المدني، وعكف على نشر العلم[٣]. فلعل هؤلاء العلماء التقوا بعبد الرحمن بن شحاذة اليمني وقرأوا عليه، وكان شيخ الفقهاء والقراء بالأزهر آنذاك.

٢/٥ رحلته الحجازية لأداء الفريضة ونشر العلم

رغم أن المصادر المتاحة لم تشر إلى رحيل عبد الرحمن بن شحاذة اليمني إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، ونشر العلم هناك، فإننا نرجح ذلك؛ ففريضة الحج ركن

---

(١) المُحِبِّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ج١ ص١٢٥.

(٣) المحبي، خلاصة الأثر، ج٤ ص٢٨-٣٢.

من أركان الإسلام وفرض على كل مسلم يستطيع إلى ذلك سبيلًا، وقد حج والده شحاذة اليمني أكثر من مرة، وكانت عادة المصريين كما ذكر الغزي الحج مرات[١]، وكان ابن شحاذة تاجرًا ثريًا، فلم تعوذه القدرة المالية لأداء تلك الفريضة، ومن دواعي رحيله إلى الحجاز أيضًا زيارة قبر والده بالبقيع بالمدينة المنورة. ومما يؤيد تخريجنا على أنه رحل في طلب العلم ونشره أن الحموي ترجم له في كتابه فوائد الارتحال ضمن العلماء المرتحلين، رغم أنه لم يشر إلى رحلته الحجازية صراحة[٢]، كما أن رواية المحبي التي أكدت أن غالب قراء جهات البلاد الحجازية قد أخذوا عنه علم القراءات، يمكن تفسيرها على وجهين، أحدهما أنهم قرأوا عليه بالقاهرة، والثاني أنهم قرأوا عليه بالحجاز أيضًا. ولا شك أن عبد الرحمن بن شحاذة اليمني قام بالإقراء في الحرمين الشريفين، فأقبل عليه طلاب العلم لينتفعوا به، فقرأوا عليه وجوّدوا القرآن. ومن المرجح أن يكون علي محمد بن علان الصديقي العلوي (٩٩٦-١٠٥٧هـ/ ١٥٨٧-١٦٤٦م)، مفسر القرآن الكريم ومحي السنة بالديار الحجازية، وسيوطي زمانه[٣]، من الذين قرأو القرآن الكريم بالروايات على ابن شحاذة اليمني وانتفع به، ويؤيد تخريجنا أن المحبي يذكر أن ابن علان الصديقي حفظ القرآن بالقراءات، وحفظ عدة متون في كثير من العلوم، وكان حريصًا على مواصلة دراسة علم القراءات، وكان يروي العلم إجازة عن كثير من العلماء المصريين، وغيرهم، القادمين إلى مكة، ومنهم: الشيخ عبد الله النحراوي، والإمام المُحدّث المقرئ محمد حجازي الواعظ، وقد أجازه في سنة ١٠٢٠هـ/ ١٦١١م[٤].

---

(١) الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، ج١ ص٨٠، الحموي، فوائد السفر، م٢ ص١٢٥، ٢٤١.

(٢) الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٣-٥٨٤.

(٣) عن ترجمته، راجع: المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص١٨٦-١٨٩.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص١٨٤-١٨٥، الحموي، فوائد الارتحال، م١ ص٣٥، م٣ ص٥٦٦، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز، ص٥٥٧-٥٥٨.

٣/٥ أثره في الحياة العلمية بالحجاز من خلال تلاميذه غير الحجازيين

لم تكن مساهمة عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في الحياة العلمية بالحجاز بشكل مباشر عن طريق رحلته الحجازية، وتتلمذ طلاب العلم الحجازيين عليه بالقاهرة فحسب، بل ساهم فيها أيضًا بشكل غير مباشر من خلال تلاميذه المصريين والشاميين واليمنيين الذين رحلوا إلى الحجاز، لأداء فريضة الحج، والمجاورة بالحرمين الشريفين لمدد متفاوتة، أو الأستقرار النهائي بمكة والمدينة، فحدّثوا هناك بما سمعوه منه، وقرأوا القرأن بقراءتهم عليه. فقد رحل الشبراملسي إلى الحجاز، فدّرس علم القراءات بالمسجد الحرام، فأخذ منه بعض المكيين القراءات، وأجاز بعضهم، ونذكر منهم: الشيخ العجيمي، وأجاز أيضًا بعض القادمين على مكة، ومنهم: الشيخ محمد المقدسي[١]، وكان سند الشبراملسي عن شيوخه، ومنهم: ابن شحاذة اليمني، من أعلى الأسانيد التي حصل علماء الحجاز بها على الإجازات العلمية المختلفة[٢]، وكان للشبراملسي أيضًا حلقة علمية في المسجد النبوي الشريف، وكانت حلقته في الحديث والتفسير، والفقه، فانتفع منه خلق كثير، منهم: الشيخ عبد الله الإسكداري المدني[٣].

ونستدل من الروايات أيضًا أن تلميذه عبد البر بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن زين الفيومي العوفي الحنفي نشر العلم الذي حصله من شيخه عبد الرحمن بن شحاذة اليمني بمكة المكرمة[٤]، ووذكر المحبي أن الشيخ المحدث

---

(١) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٧٦، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٨١-٢٨١.

(٢) أحمد النخلي، بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٣٢، مصطلح حديث، لوحات ١٠-١٤، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٨٥.

(٣) المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣ ص٨٢، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٤) المُحِبّي، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٩٢.

المقرئ عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبلي الأزهري الدمشقي تلميذ ابن شحاذة اليمني حج في سنة ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٧م، فأفاد واستفاد، فقد أخذ من علماء مكة، ومنهم: الشيخ محمد علان الصديقي، والشيخ عبد الرحمن المرشدي الحنفي مفتي مكة، وأجازوه، وأخذ عن أهل المدينة، ومنهم: الشيخ عبد الرحمن الحياري، وقد تصدر عبد الباقي الحنبلي للإقراء في مكة المكرمة، فقرأ الجامع الصغير في الحديث مرتين، وتفسير الجلالين مرتين، وقد حدّث بما عنده من مسموعاته عن شيوخه، فكان فيه نفع عظيم، وأخذ عنه خلق كثير، أجلهم الأستاذ الكبير واحد الدنيا في المعارف إبراهيم الكوراني[1]. وروى الإمام علي المحلي الشافعي عن شيوخه المصريين، ومنهم: ابن شحاذة اليمني، بمكة المكرمة، فقد حج المحلي مرات، وروى بإجازات شيوخه هناك[2]، ورحل عبد القادر بن أحمد بن يحيى الغزي المعروف بابن الغصين إلى الحجاز، لأداء الفريضة، ومن المرجح أنه قرأ القرآن هناك بقراءته على شيخه عبد الرحمن اليمني[3]، وحج أبو اليسر محمد بن محمد بن موسى العسيلي القدسي، وكان حافظًا لكتاب الله، ثلاث مرات، كان آخرها موسم ١٠٨٦هـ/ ١٦٧٥م، وأخذ بمكة عن ابن علان الصديقي، واجتمع مع القطب الغوث بمكة في المرة الثالثة[4]. فمن المرجح أنه قرأ بالحرمين بقراءاته على شيخه ابن شحاذة اليمني.

(٦) تصوفه وأثره في نزوع تلاميذه إلى التصوف

نستدل من الروايات على ميل عبد الرحمن بن شحاذة اليمني إلى التصوف؛ فقد كان عالمًا عابدًا، وكان أيضًا كما وصفه المحبي من أهل الخير والدين، وأكابر أولياء الله

---

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٢٨٤-٢٨٥، محمد علي فهيم بيومي، دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز، ص٦٢٦.

(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص٢٠٢.

(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٤٣٧.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص٢٠٢.

تعالى العارفين، وكان وافر الديانة، كثير البر لطلبة العلم والفقراء والصالحين[١]، فلم يكن «يمر عليه يوم إلا ويعطي فيه شيئًا كثيرًا»[٢]. ومن المرجح أنه تأثر بوالده شحاذة اليمني، فقد كان من أهل الدين والتقوى، وكان كثير الخير والإحسان[٣]، وتأثر أيضًا بشيوخه، ومنهم: علي بن غانم المقدسي، فقد كان زاهدًا وليًا ورعًا، وكان يبر الفقراء ويتحيل على كتمان أمره، ويفرق الذهب ويحافظ على ستره، وكان يجتمع بالفقراء ويحبهم ويحبونه، ويعرفهم ويعرفونه، وكان له كما ذكر المحبي من الأيادي، وكان يعظم الصوفية ويحسن الاعتقاد فيهم، ويقول «طريق الصوفية إذا صحت طريق الرشاد»[٤]، وكان شيخه وشيخ عصره العارف بالله النور الزيادي قطبًا ربانيًا[٥]، وكانت كراماته كثيرة جلية[٦].

ونستدل من الروايات على أثر عبد الرحمن بن شحادة اليمني في نزوع بعض تلاميذه إلى الزهد والتصوف، فكان تلميذه الشبراملسي متفرغا لقراءة القرآن والعبادة، وكان زاهدًا في الدنيا لا يعرف أحوال أهلها، وكان إذا مر في السوق تتزاحم الناس على تقبيل يده[٧]. وكان تلميذه زين العابدين بن محيي الدين بن ولي الدين بن جمال الأنصاري السنيكي أحد عباد الله الصالحين، والأجلاء المعتقدين المخصوصين بالأخلاق الرضية والشمايل البهية المرضية[٨]. وكان تلميذه الإمام الحجة علي بن

---

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص٣٥٨، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٢) الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

(٣) الشلي، السنا الباهر بتكميل النور السافر، ص٥٦٦.

(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٨٤-١٨٥. وراجع أيضًا: توفيق الطويل، التصوف في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٥) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٤ ص٤٢٣.

(٦) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص١٤٣.

(٧) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٣ ص١٧٥.

(٨) المُحِبيّ، خلاصة الأثر، ج٢ ص١٩٩.

إبراهيم الخياط الرشيدي الشافعي من الأولياء الصالحين الملازمين للطاعات، المكثرين للذكر، وكان أيضًا حسن المعاشرة، لين الجانب، كريم النفس، وظهرت له كرامات كثيرة(١). وكان تلميذه الأسطواني الدمشقي من منن الله تعالى على عباده، لم يزل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان ورعًا ناسكًا متقشفًا(٢)، وكان تلميذه المقرئ عبد الباقي بن عبد الباقي الحنبلي الدمشقي صوفيًا كبيرًا(٣). وكان تلميذه عبد القادر بن أحمد بن يحيى المعروف بابن الغصين الغزي الشافعي من الأولياء الصالحين، وكان من أصحاب الكرامات(٤). وكان أبو اليسر محمد بن محمد بن موسى العسيلي القدسي، محبًا للفقراء والصالحين محسنًا إليهم(٥). وكان محمد البقري خاتمة تلاميذه وخليفته في مشيخة الإقراء بالأزهر صوفيًا شهيرًا ، وكان تلميذه محمد بن داود من الأولياء الصالحين(٦).

(٧) وفاته

وبعد حياة طويلة في طلب العلم ونشره في الأفاق زادت عن السبعين عامًا توفي عبد الرحمن بن شحاذة اليمني فجاءة ليلة الأثنين خامس عشر من شوال ١٠٥٠هـ/ ١٦٤١م(٧). ونستدل من إحدى الروايات المهمة على أن تلك الوفاة لم تكن طبيعية، إنما كانت من جراء نكبة لحقته؛ فعند حديث المحبي عن النهاية المأساوية لعالم قطر الحجاز الفقيه عبد الرحمن بن عيسى بن مرشد المعمري المرشدي الحنفي

(١) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٣ ص١٢٨.
(٢) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٣ ص٣٨٦.
(٣) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٢ ص٢٨٤.
(٤) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٢ ص٤٣٧.
(٥) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٤ ص٢٠٢.
(٦) الحموي، فوائد الإرتحال، م١ ص٤٢٢.
(٧) المُحِبيّ، خلاصة الأثر ، ج٢ ص٣٥٩، الحموي، فوائد الارتحال، م٤، رقم ١٢٧١ ص٥٨٤.

مفتي الحرم المكي، ألمح إلى أن نكبته أشبه بما وقع للشيخ عبد الرحمن اليمني بمصر، وعبد الرحمن الخياري بالمدينة المنورة، وعبد الرحمن العمادي بالشام، وكانوا الأربعة «عُمد الدين، وقد جمعهم عصر واحد، فتشرف بهم». وكان أحمد عبد المطلب شريف مكة قد قبض على عبد الرحمن المرشدي في سنة ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٨م، وسجنه، ونهب داره وكتبه، ثم أمر بقتله خنقًا يوم النحر (عيد الأضحى)(١).

الخاتمة

استقصيت في الدراسة أثر عبد الرحمن بن شحاذة اليمني القاهري المُقرئ في إثراء الحياة العلمية بمصر والحجاز حتى وفاته سنة ١٠٥٠هـ/ ١٦٤١م. وأمكنني استنادًا إلى تحليل ثبت كبير من المصادر واستنطاقها، وارتكانًا على المنهج العلمي والرؤية التاريخية الشاملة، التوصل إلى بعض النتائج؛ فقد تأثر عبد الرحمن بن شحاذة اليمني بالحياة العلمية بمصر وبالحجاز في أواخر القرن العاشر ومستهل القرن الحادي عشر الهجريين؛ إذ ساهم شيوخه المصريون والحجازيون الذين تلقى العلم عنهم سماعًا وإجازة في تكوينه العلمي، وبينت الدراسة أنه لم يقتصر على الأخذ من شيوخ الشافعية فحسب، إنما أخذ أيضًا من شيوخ الحنفية والمالكية، فأصبح شيخًا للفقهاء والقُراء بالديار المصرية، وواحدًا من أبرز علماء القراءات بمصر والحجاز حتى وفاته في منتصف القرن الحادي عشر الهجري. وأثبتت الدراسة عمق تأثيره في الحياة العلمية بمصر والحجاز، وامتداد هذا الأثر إلى بعض مراكز الثقافة الإسلامية الأخرى، ومنها: الشام واليمن؛ فقد تخرج عليه بالقاهرة والحجاز مَنْ لا يحصون كثرة من طلبة العلم،

(١) الشلي، عقد الجواهر والدرر، ص١٨٥، ١٨٩، ٢٢٥، المُحِبّي، خلاصة الأثر ، ج٢ ص٣٧٦، الحموي، فوائد الإرتحال، م٢ ص٢٧٧. وعن أمراء مكة في العصر العثماني، راجع: إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكة في العصر العثماني، ترجمة دكتور خليل مراد، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٩م.

حتى صاروا شيوخًا في حياته وبعد مماته. وأثبتت الدراسة أيضًا أنه رغم بروز عبد الرحمن بن شحاذة اليمني في علمي الفقه والقراءات رواية وقراءة، فإنه لم يصنف فيهما، وكان منهجه أن اكتفى بقراءة أمهات كتب الفقه، كشرح المنهاج للمحلي، وشرح المنهج لشيخ الإسلام، وشرح بعض المنظومات، ومنها: شرح الجزرية للقاضي زكريا الأنصاري، وبينت الدراسة أيضًا مذهبه في القراءات؛ فقد كان يقرأ بالقراءات السبع والعشر من طرق الشاطبية، وطيبة النشر في القراءات العشر، والدرة، فأخذها عنه تلاميذه بمصر والحجاز وانتشرت في البلدين. وقد ظلت بصمات عبد الرحمن بن شحاذة اليمني باقية ومتداولة بمصر والحجاز والشام فترة طويلة من الزمن بفضل النابهين من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه الذين نقلوا علمه ونشروه بين الناس.

مصادر البحث ومراجعه

أولًا: الوثائق

(أ) وثائق مكتبة الأزهر، سجلات تعداد أهل الجامع الأزهر، تحت رقم ٤٣٤/ ٣ لسنة ١٢٥٢-١٢٩٤هـ/ ١٨٣٦-١٨٧٧.

(ب) سجلات أروقة الأزهر وحاراته، رقم ٤٣٣/ ١٠ لسنة ١٣٠٥-١٣-٦هـ/ ١٨٨-١٨٨٨م.

ثانيًا: المصادر العربية

(أ) المصادر المخطوطة

(١) الرملي (شمس الدين محمد بن أحمد بن حمزة) ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م:

- الفتاوى، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٩٧٠ فقه شافعي.

(٢) المزاحي (سلطان بن أحمد بن سلامة) ت١٠٧٣هـ/ ١٦٦٤م:

- رسالة فيها فوائد وأسئلة مع أجوبتها في التجويد، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٧٢ قراءات.

(٣) النخلي (أحمد) ت١١٣٠هـ/ ١٧١٧:

- بغية الطالبين لبيان المشايخ المحققين، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ١٣٢، مصطلح حديث.

(ب) المصادر المطبوعة

(١) القرآن الكريم.

(٢) البنا الدمياطي (أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني) ت١١١٧هـ/ ١٧٠٥:

- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، د.ت.

(٣) الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن) ت١٢٣٠هـ/ ١٨١٥م:

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٤) ابن الجزري الدمشقي (الحافظ شمس الدين محمد بن محمد) ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م:

- غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. برجستراستر، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

(٥) ـــــــــــ: تحبير التيسير في القراءات العشر، دراسة وتحقيق أحمد محمد مفلح القضاة، الطبعة الثانية، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ٢٠١٠م.

(٦) ـــــــــــ: النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

(٧) الحموي المكي (محمد بن فتح الله أحمد) ت١١٢٣هـ/ ١٧١٦م:

- فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق عبد الله محمد الكندري، الطبعة الأولى، دار النوادر، دمشق، ٢٠١١م.

(٨) حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م:

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

(٩) الخطيب الشربيني (شمس الدين محمد) ت٩٧٧هـ/ ١٥٧٠م:

- السراج المنير في الإعانة في معرفة بعض معاني ربنا العليم الخبير، المعروف باسم تفسير السراج، القاهرة، ١٩٨٣.

(١٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦:

- المقدمة، مطبعة شقرون، القاهرة، د.ت.

(١١) الزبيدي (أبو بكر محمد بن حسين) ت٣٧٩هـ/ ٩٨٩م:

- طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

(١٢) زكريا الأنصاري (قاضي القضاة زكريا بن محمد القاضي) ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م:

- اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم أو ما يعرف بخزانة العلوم، تحقيق د. عبد الله نذير أحمد، الطبعة الأولى، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٨٨م.
(١٣) السخاوي (الإمام محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن شمس الدين) ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م:
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ضبطه وصححه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
(١٤) الأسدي المكي (الشيخ أحمد) ت١٠٦٦هـ/ ١٦٨٥م:
- إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تحقيق د. غلام الحافظ أحمد، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٥م.
(١٥) السيوطي (الإمام جلال الدين عبد الرحمن) ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م:
- طبقات الحفاظ، تحقيق د. علي محمد عمر، الطبعة الأولى، الطبعة الثانية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٩م.
(١٦) أبو شامة المقدسي (شهاب الدين عبد الرحمن) ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م:
- إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع للشاطبي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٨م.
(١٧) الشعراني (عبد الوهاب بن أحمد بن علي) ت٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م:
- الطبقات الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
(١٨) الشوكاني (شيخ الإسلام محمد بن علي) ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م:
- البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع، شرحه ووضع فهارسه د. صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ٢٠١١م.
(١٩) الشلي الحضرمي (جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد) ت١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م:
- السنا الباهر بتكميل النور السافر، تحقيق إبراهيم بن أحمد المقحفي، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م.
(٢٠) ــــــــــــ: عِقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق إبراهيم أحمد القحفي، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٣م.
(٢١) ابن الصلاح (الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن) ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م:
- علوم الحديث، تحقيق وشرح نور الدين عتر، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.
(٢٢) ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد) ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م:
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٣) أبو علي الفارسي (الحسن بن أحمد بن عبد الغفار) ت٣٨٨هـ/ ١٠٠٠م:
- الحُجة في علل القراءات السبع، تحقيق علي النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
(٢٤) العيدروس (محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله) ت١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م:
- تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، بدون تاريخ.
(٢٥) الغَزّي الدمشقي (الشيخ نجم الدين محمد بن محمد) ت١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م:
- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، وضع حواشيه خليل المنصور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
(٢٦) ــــــــــــ: لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، حققه محمود الشيخ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م.
(٢٧) الإفراني المراكشي (الشيخ شمس محمدبن الحاج بن محمد) ت١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م:
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق د. عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م.
(٢٨) ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد) ت٤٠٣هـ/ ١٠١٣م:
- تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
(٢٩) ابن القاضي (أحمد بن محمد بن أبي العافية) ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م:
- درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٠م.
(٣٠) الكرماني (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر) عاش في ق٦هـ/ ق١٢م:
- شواذ القراءات، تحقيق الدكتور شمران العجلي، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠١٢م.
(٣١) المُحبي الدمشقي (محمد بن فضل الله بن محب الله) ت١١١١هـ/ ١٦٩٩م:
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
(٣٢) ابن مجاهد البغدادي (الحافظ أحمد بن موسى بن العباس) ت٣٢٤هـ/ ٩٣٦م:
- السبعة في القراءات، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.
(٣٣) المرادي (الشيخ محمد) ت١٢٠٦هـ/ ١٦٨٥م:
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.
(٣٤) المقري (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد) ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م:

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م.

ثالثًا: المراجع العربية

(١) إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا (دكتور): بنو عبد الحق السنباطي وأثرهم في الحياة العلمية بمكة المكرمة منذ الربع الأخير من القرن التاسع حتى نهاية القرن العاشر الهجريين (٨٧٥-٩٩٩هـ/ ١٤٧٠- ١٥٩٠م)، قُدم للندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض (١٤-١٧/ ٤/ ٢٠١٤م).

(٢) إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

(٣) إسماعيل حقي أوزون: أمراء مكة في العصر العثماني، ترجمة دكتور خليل مراد، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٩م.

(٤) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

(٥) توفيق الطويل (دكتور): التصوف في مصر في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.

(٦) جرجي زيدان: مصر العثمانية، تحقيق د. محمد حرب، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٧) خير الدين الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م.

(٨) صابر حسن أبو سليمان: التيسير في القراءات السبع المشهورة وتوجيهها، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٩٤م.

(٩) عبد الصبور شاهين (دكتور): القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.

(١٠) عبد العزيز الشناوي (دكتور): الأروقة قطعة من تاريخ الأزهر، من أعمال مؤتمر عقد بمناسبة مرور خمسة عشر قرنًا على الحضارة الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

(١١) ــــــــــــ: الأزهر جامعًا وجامعة، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م.

(١٢) عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، الطبعة الثانية، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ١٤٠٦هـ.

(١٣) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٥٩م.
(١٤) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية وبالجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
(١٥) فرغلي سيد عرباوي: الإمام السنباطي الذي لا ينبغي أن يهمل ذكره في أسانيد القراء، مقال منشور في منتدى الشيخ فرغلي عرباوي للقراءات www.farghly.forumegypt.net
(١٦) محمد علي فهيم بيومي (دكتور): دور مصر فى الحياة العلمية فى الحجاز إبان العصر العثماني (٩٢٣-١٢٢٠هـ/ ١٥١٧-١٨٠٥م)، الطبعة الأولى، دار القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
(١٧) مصطفى محمد رمضان، رواق الشوام بالأزهر، بحث ألقي في جامعة دمشق، ١٩٧٨م.
(١٨) وليد عبد الحميد عبد الرحيم: الحركة العلمية في مصر في القرن العاشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٩٨م.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٢٤٩-٢٨٨

الشيخ عبد العزيز الثعالبي والنخبة السياسية والفكرية في مصر (١٩٢٤ – ١٩٣١م) «صحيفه الشورى أنموذجًا»

أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس(*)

ملخص

يُعد الشيخ عبد العزيز الثعالبي أحد رواد الإصلاح التونسيين خاصة والعرب عامة، وعلم من أعلام الوطنية، وداعية من أبرز الدعاة إلى العروبة والإسلام في عصره. العصر الذي تميز بظهور جيل من المناضلين الذين وقفوا في وجه الإحتلال الأوروبي. إنه من جيل الرواد الذين ظهروا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين.

وكان الشيخ الثعالبي مجاهدًا فذًا، جاهد على أكثر من جبهة وفي أكثر من ميدان وتحمل في سبيل جهاده الكثير من الأذى والإعتقال دفاعًا عن الأمه العربية والإسلامية من أجل دينها وقيمها ومبادئها وأرضها وثرواتها وكرامتها، وهذا مالمسناه في مسيرة حياته ورحلاته وكتاباته.

وقد طاف الثعالبي في معظم بلاد المشرق العربي والإسلامي، منذ أوائل القرن العشرين، وأبرز فترات حياته وأهمها في المشرق العربي خلال الفترة من ١٩٢٣م إلى عام ١٩٣٧م، أي حوالي أربعة عشر عامًا بزغ فيها اسم المجاهد عبد العزيز الثعالبي في أوساط السياسة

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط – جامعة عين شمس.

والفكر والثقافة وقابل أكابر الساسة في البلاد التي ذهب إليها.

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي قد جاء إلى مصر ثلاث مرات، المرة الأولى في عام ١٩٠١م، والمرة الثانية في عام ١٩٢٦م ومكث بها حوالي خمسة أشهر، والمرة الثالثة في عام ١٩٣٠م ومكث بها حوالي عام.

وسوف نتناول في هذه الورقة البحثية مكانة الشيخ عبد العزيز الثعالبي لدى النخبة السياسية والفكرية والثقافية في مصر من خلال صحيفة الشورى منذ صدور العدد الأول لهذه الصحيفة عام ١٩٢٤م وحتى توقف صدور هذه الصحيفة في عام ١٩٣١م.

ومما هو جدير بالذكر أن المقصود بالنخبة السياسية والفكرية في مصر، هم المصريون وغيرهم من البلاد العربية والإسلامية المقيمين في مصر من سورية وفلسطين والمغرب وتونس والجزائر واليمن وحضرموت وجاوه وإيران، وانصهروا جميعًا مع المجتمع المصري وأصبحوا وكأنهم مصريين.

وسوف نتناول في هذا البحث النقاط التالية:

- نبذة عن الثعالبي وكفاحه ورحلاته قبل مجيئه إلى مصر.
- مجيء الثعالبي مصر عام ١٩٢٦م وحضوره مؤتمر الخلافة الاسلامية.
- أحاديث الثعالبي عن العالم الإسلامي.
- الثعالبي والصحافة المصرية.
- حفلات توديع وتكريم الثعالبي لدى مغادرته مصر عام ١٩٣١م.

Abstract

Sheikh Abdul-Aziz Al-Thalabi is one of the pioneers of Tunisian and Arab reform in general, a figure of patriotism, and one of the most prominent advocates of

Arabism and Islam of his time. The era marked by the emergence of a generation of militants who stood up to the European occupation. He is one of the generation of pioneers who appeared in the late 19th and early 20th centuries AD.

Sheikh Al-Thalabi was a great mujahed, who fought on more than one front and in more than one field and endured a lot of harm and arrest for his jihad in defense of the Arab and Islamic nation for its religion, values, principles, land, wealth and dignity, and this is what we have seen in the course of his life, journeys and writings.

Since the early 20th century, Al-Thalabi have roamed most of the Islam and Arabic Levant, most notably the Levant from 1923 to 1937, about fourteen years ago, when the name of the mujahed Abdul Aziz Al-Thalabi emerged in the circles of politics, intellect and culture and met the elders of the country to which he went.

It is worth mentioning that Sheikh Abdul Aziz Al-Thalabi came to Egypt three times, the first time in 1901, the second time in 1926 and stayed there for about five months, and the third time in 1930 and stayed there for about a year.

In this paper, we will address Sheikh Abdul Aziz Al-Thalabi's position among Egypt's political, intellectual and cultural elite through the Shura newspaper from the first issue of this newspaper in 1924 until the publication of this newspaper was discontinued in 1931.

It is worth mentioning that what is meant by the political and intellectual elite in Egypt are the egyptians and other Arab and Islamic Nationalities residing in Egypt from Syria, Palestine, Morocco, Tunisia, Algeria, Yemen, Hadramout, Jawa and Iran, which all fused with Egyptian

society and became like Egyptians.

In this research we will address the following points:

- Portion about Al-Thalabi's struggle and his travels before his arrival to Egypt.
- The arrival of Al-Thalabi to Egypt in 1926 AD and his attendance of the Islamic succession conference.
- Al-Thalabi's sayings about the Islamic world.
- Al-Thalabi and the Egyptian press.
- Farewell and honoring parties for Al-Thalabi when he left Egypt in 1931AD.

*

* *

مقدمـــــة

الشيخ عبد العزيز الثعالبي يعد أحد أعلام الوطنية والإصلاح التونسيين خاصة، وداعية من أبرز الدعاه إلى العروبة والإسلام في عصره، الذي تميز بظهور عدد من المناضلين الذين وقفوا في وجه الاحتلال الأوروبي.

عبد العزيز الثعالبي من الرعيل الأول من أعلام العروبة والإسلام الذين كانوا ينظرون إلى الأرض العربية الممتدة من المحيط الأطلسي غربًا إلى الخليج العربي شرقًا باعتبارها وطنًا واحدًا لأمة واحدة صاحبة تاريخ مشترك ولغة واحدة وثقافة واحدة.

إنه من جيل الرواد الذين ظهروا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين، وهو جيل فريد في تكامل شخصيته، فهو جيل النضال السياسي، والجهاد الوطني، والمصلح الديني، والرائد الإجتماعي، جيل التضحية بكل شيء في سبيل المُثل العليا التي يدافع عنها، وتحرير الأرض التي احتلها الأجنبي.

جيل الرواد الذي يعد من أبرز رموزه الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م)،

وسعد زغلول (١٨٥٨- ١٩٢٧م) في مصر، والأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩-١٩٤٦م)، الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥م) في بلاد الشام، والمناضل عبد القادر الجزائري (١٨٠٨ -١٨٨٣م)، والإمام عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩ – ١٩٤٠م) في الجزائر، والمفكر المناضل عبد الكريم الخطابي (١٨٨٢ – ١٩٦٣م) في المغرب، بالإضافة إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٤ - ١٩٤٤م) في تونس وغيرهم كثر.

هذه بعض رموز الكفاح العربي الإسلامي، عبرت عن الشعور المشترك والإحساس العميق بوحدة المصير العربي، وأهمية التمسك بالهوية العربية ليس لمواجهةالاحتلال الأجنبي الأوروبي فحسب، وإنما لبناء الوطن الواحد والمتكامل سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا.

كان عبد العزيز الثعالبي مجاهدًا فذًا يناضل على أكثرمن جبهة وفي أكثر من ميدان، لم يحصر نضاله فيما يعانيه وطنه تونس من الإحتلال الفرنسي فحسب، بل كان يحمل هموم الأمة كلها على عاتقه، ويسعى إلى تقديم ما يستطيع من عون ومساعدة لها، وهذا ما تبين لنا في مسيرة حياته ورحلاته وكتاباته ومحاضراته.

بات الثعالبي زعيم الحركة الوطنية التونسية منذ عام ١٩١٨م، وأسس الحزب الدستوري الحر عام ١٩٢٠م، وأصدر كتابه الشهير «تونس الشهيدة» في نفس العام، قبل أن يعود للمشرق العربي عام ١٩٢٣م ليمكث أربعة عشر عامًا مساهمًا في الحركة الاصلاحية العربية والاسلامية.

لقد طاف الثعالبي في معظم بلاد المشرق العربي والإسلامي حوالي أربعة عشر عامًا منذ عام ١٩٢٣م حتى عام ١٩٣٧م، بزغ خلالها اسم المجاهد عبد العزيز الثعالبي في أوساط السياسة والفكر والثقافة، وقابل أكابر الساسة في البلاد التي ذهب إليها.

قابل الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، و قابل سلطان لحج، وقابل شوكت عليّ في الهند، كما قابل مولانا محمد عليّ في دهلي (Delhi)، بل أنه قابل المهاتما غاندي، وعدد

كبير من رجالات الهند متنقلا بين مدن الهند من دهلي وكلكتا (Kolkata) وبومباي (Bombay) لأكثر من ٦ شهور لمناقشة البحث في المسائل الإسلامية والخلافة الإسلامية، كما قابل الملك فيصل الأول في العراق، وقابل الزعيم سعد زغلول في مصر وقابل الكثير من علماء الدين في جميع البلاد العربية والإسلامية التي زارها، وقابل رجال الفكر والثقافة والصحافة والكُتاب والشعراء.

كما سافر الثعالبي إلى اليمن والبحرين والكويت والعراق وفلسطين ومصر، وقد سجلت صفحات صحيفة الشورى[١] التي كانت تصدر أسبوعيًا في القاهرة منذ صدور عددها الأول في ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤م و حتى صدور العدد الأخير رقم (٣٣٢) بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٣١م، حينما منع النشر في الصحيفة وسحب ترخيصها بسبب سياسات الصحيفة المناهضة للاحتلال واعتقال مؤسسها الأستاذ محمد علي الطاهر[٢]. فهذه الصحيفة تُعد مصدرًا مهمًا يجب الاعتماد عليه لدراسة أعلام الوطنية

---

(١) أسس محمد علي الطاهر، صحيفة الشورى عام ١٩٢٤م، وقد كانت تصدر أسبوعيًا في القاهرة. وهي تعتبر من أشهر الصحف العربية التي كانت تصدر في بداية القرن العشرين، وهي صحيفة سياسية، تبحث في شئون فلسطين وسوريا ولبنان وشرق الأردن وبسبب سياسات الصحيفة المناهضة للاحتلال الأوروبي تم منع نشرها في الدول العربية. وبعدها سحبت السلطات المصرية بضغط من سلطات الاحتلال البريطاني ترخيصها عام ١٩٣١م واضطر بعد ذلك الأستاذ الطاهر إلى إلغاء نشر الصحيفة. والتي كان صدر العدد الأول منها في القاهرة يوم الأربعاء ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤م وظلت تصدر أسبوعيًا حتى صدر العدد (٣٣٢) بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٣١م، ثم توقفت وسحب ترخيصها بسبب أرائها الصحيفة المناهضة للاحتلال وأعتقل مؤسسها الأستاذ محمد علي الطاهر انظر:صحيفة الشورى، العدد الأول، ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤م.

(٢) محمد علي الطاهر: (١٨٩٦- ١٩٧٤م) وكنيته أبو الحسن، هو كاتب وصحفي فلسطيني، ولد في نابلس عام ١٨٩٦م وتلقى تعليمه الأساسي فيها. وقد عمل صحافيًا في أكثر من صحيفة. تولى الطاهر مديرية البرق والبريد في مدينة نابلس، ثم أنتقل بعدها إلى القاهرة عام ١٩١٢، وقد كان الطاهر من أوائل الصحفيين الذين حذروا من نية الانتداب البريطاني وإنشاء دولة يهودية في فلسطين وكان الطاهر يتعامل بأنه مصري فلسطيني بمعنى أنه فلسطيني مصري..

أعتقل الطاهر عدة مرات، وقد كانت معظم أسباب الاعتقال هي سبب آراءه الصحفية المناهضة للاستعمار، أعتقل أول مرة لمدة سنتين عام(١٩١٥م-١٩١٧) من قبل سلطات الاحتلال البريطاني، والمرة=

والإصلاح في العروبة والإسلام آنذاك.

وخلال هذه السنوات السبع (١٩٢٤-١٩٣١م) دونت صفحات صحيفة الشورى جميع أخبار وتنقلات ورحلات الشيخ عبد العزيز الثعالبي والنخبة السياسية والفكرية في مصر وغيرها وسوف نتناول في هذا البحث النقاط التالية:

- نبذة عن الثعالبي وكفاحه ورحلاته قبل مجيئه إلى مصر.
- مجيء الثعالبي مصر عام ١٩٢٦م وحضوره مؤتمر الخلافة الاسلامية
- أحاديث الثعالبي عن العالم الإسلامي.
- الثعالبي والصحافة المصرية.
- حفلات توديع وتكريم الثعالبي لدى مغادرته مصر عام ١٩٣١م.

أولًا: نبذة عن الثعالبي وكفاحه ورحلاته قبل مجيئه إلى مصر

ولِد الشيخ عبد العزيز الثعالبي في تونس في (١٥ شعبان ١٢٩٣هـ/ ٥ سبتمبر ١٨٧٤م) [١]. ونشأ في كنف جده عبد الرحمن الثعالبي من أقطاب الجزائر وسادتها المشهورين الذي هاجر إلى تونس بعد ما رفض التوظيف لدى الإدارة الفرنسية ورفض العمل مع الفرنسيين الذين كانوا قد احتلوا الجزائر عام ١٨٣٠م، وأدخله جده المدارس التونسية[٢] وورث عبد العزيز عن جده أخلاقه ومبادئه. وكان قد حفظ

=الثانية كانت عام ١٩٢٥م، والمرة الثالثة كانت عام ١٩٣١م والمرة الرابعة ١٩٤٠م وتمكن الطاهر من الهرب، حتى صدر عفو من وزارة مصطفى النحاس باشا، والمرة الأخيرة كانت عام ١٩٤٩م في معسكر الهايكستب الشهير في القاهرة. ولقد توفي الطاهر في بيروت عام ١٩٧٤م. انظر:

https://ar.m wikpedia.org

(١) بوطيبي محمد: دور المثقفين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية، الجزائر - دار الهدى، عين مليلية، ٢٠١٢م، ١١٦.

(٢) أنور الجندي: عبد العزيز الثعالبي رائد الحركة والنهضة الاسلامية، بيروت - دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٨٤م، ٩.

القرآن الكريم وأتم الدراسة الأولية في البيت على يد مدرس خاص، ثم دخل مدرسة «باب سويقة الابتدائية» في تونس، ثم التحق بجامع الزيتونة وتخرج فيه عام١٨٩٦م وأخذ يتردد على المدرسة الخلدونية حتى حصل على الدراسات العليا(١).

وبظهور أول حزب لتحرير تونس ومقاومة الاحتلال الفرنسي فيها عام ١٨٩٥م كان الثعالبي من أوائل من انضم إليه؛ ليؤسس بعدها الحزب الوطني الإسلامي الذي كان يدعو إلى تحرير العالم العربي كله وقيام الوحدة بين أقطاره.

وكان قد كتب وعمل محررًا في صحيفتي «المبشر»(٢) و«المنتظر» إلى أن أوقفتهما السلطات الفرنسية، ثم أصدر صحيفة(٣) «سبيل الرشاد» ١٨٩٦م وكرسها للوعظ والإرشاد والدعوة إلى الإصلاح. وبعد عام أوقفتها الحكومة التونسية المعينة من الاحتلال الفرنسي، وأصدرت قانونا جديدًا للمطبوعات قيدت به الصحافة حتى تمنع صدور الصحف الوطنية التي تدعو إلى المقاومة والتحرر والاستقلال والتمسك بالإسلام(٤).

فقرر الثعالبي إثر ذلك السفر إلى خارج بلاده لنشر القضية التونسية، فمنعته

---

(١) الموسوعة التونسية: الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وانظر ايضًا: الشورى، العدد ١٥٨، السنة ٤ بتاريخ ١ ديسمبر ١٩٢٧م.

(٢) صحيفة المبشر، هي صحيفة عربية أصدرتها الإدارة الفرنسية في الجزائر باللغة العربية بقرار من الملك لويس فيليب، وقد صدر عددها الأول في ١٥ سبتمبر عام ١٨٤٧م وأوكلت مهمة الإشراف عليها إلى مكتب الشئون الأهلية في الحكومة العامة، وكانت صحيفة المبشر موجهة أساسًا إلى السكان الجزائريين، وكانت لسان حال الإدارة الفرنسية وتوقفت عن الصدور في عام ١٩٢٧م.

انظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر - دار البصائر للنشر، الجزائر ٢٠٠٧، ٢٢٧.

(٣) صحيفة سبيل الرشاد، أول صحيفة لعبد العزيز الثعالبي، أصدرها عندما كان في التاسعة عشر من عمره في الجزائر لتنبيه العاملين لمناهضة الاحتلال الفرنسي، وقد أوقفتها الإدارة الفرنسية بعد عام واحد لاختيارها نهجًا لمقاومة الاحتلال.

(٤) عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال أفريقيا منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد أدريس، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م، ٨.

السلطة الفرنسية من ذلك ليفر إلى «طرابلس»، ثم يغادرها إلى «بني غازي»، ثم قصد استانبول عن طريق «اليونان » و«بلغاريا» عام ١٨٩٨م، ثم غادر استانبول إلى مصر للمرة الأولى، عام ١٩٠١م واقام بها فترة من الزمن بين متابعة الدروس بالجامع الأزهر الشريف والالتقاء بالعلماء ورجال الفكر المصريين وفي مقدمتهم الإمام محمد عبده رائد حركة الاصلاح الاسلامية في المشرق العربي.

وفي عام ١٩٠٢م عاد إلى تونس بعد غيبة لمدة ست سنوات (١٨٩٦-١٩٠٢م) ليعكف على نشر الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، وتحرير العقل، ونبذ الجمود وطاف بالبلاد التونسية لهذه الغاية، يلقي دروسا عامة على الناس الذين التفوا حوله وآمنوا بفكرته. غير أن الأمر لم يتم له على النحو الذي أراده، وسرعان ما وجدت السلطات الفرنسية في حركته خطرًاعليها ليواجه مقاومة شديدة من الحكومة التونسية الموالية للاحتلال والسلطة الفرنسية انتهت باعتقاله وسجنه عام ١٩٠٦م، الأمر الذي أحدث ضجة كبيرة قادت إلى إجبار السلطة الفرنسية إلى إطلاق سراحه.

في عام ١٩٠٧م انضم الثعالبي إلى الحركة السياسية التي أنشأها المناضل التونسي «علي باش حانبة» (١٨٧٦-١٩١٨م)[1] وأصبحت تعرف في الأوساط السياسية باسم «حركة الشباب التونسي»؛ لتأثرها في بعض نواحيها بحركة الشباب العثماني ومناصرتها لفكرة الجامعة الإسلامية. ثم كلّف الشيخ الثعالبي برئاسة تحرير النشرة العربية من جريدة «التونسي» الناطقة بلسان حركة الشباب التونسي.

وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على ليبيا وأغارت على طرابلس في عام ١٩١١م كان الثعالبي في مقدمة العاملين لمساعدة المجاهدين وإرسال البعثات الطبية، وقد نقم عليه الفرنسيون ذلك فقبضوا عليه وأخرجوه من تونس، فسافر إلى مرسيليا وباريس داعيا إلى حرية تونس.

---

(١) علي باشا حانبه، صحفي ورجل سياسة تونسي، ولد عام ١٨٧٦م بمدينة تونس، وهو من الأباء المؤسسين للنضال الوطني، ضد الاحتلال الفرنسي وتوفي في استانبول في عام ١٩١٨م.

وإثر ذلك حاول الفرنسيون إغراءه مقترحين تقليده منصبًا علميًا على أن ينصرف عن السياسة، فرفض وسافر إلى سويسرا ومنها إلى ألمانيا فتركيا، ثم رحل إلى الشرق وعاد إلى تونس عام ١٩١٣م. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٨م دعا إلى عقد مؤتمر لحل قضية تونس واختير زعيما بالإجماع، ثم سافر إلى باريس للدفاع عن قضية بلاده أمام مؤتمر الصلح عام ١٩١٩م. وتمثل نشاطه منذ وصوله إلى باريس في إلقاء المحاضرات والخطب ونشر المقالات في الصحف الفرنسية المناصرة لقضايا الشعوب في باريس، والاتصال بقادة الأحزاب السياسية ورؤساء الجمعيات الثقافية والمنظمات الإنسانية.

وفي باريس التقى الثعالبي بسعد زغلول الزعيم المصري والملك فيصل ملك العراق (١٩٢١-١٩٣٣م) ونسق معهم العمل على تحرير البلدان العربية واستقلالها. وهذه كانت بداية التعارف بين الزعماء الثلاثة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد سخّر كل طاقته لتأليف كتاب «تونس الشهيدة» بالتعاون مع المحامي التونسي المقيم بباريس أحمد السقا الذي تولى نقله إلى اللغة الفرنسية، ومن خلال الكتاب اظهر جرائم الاحتلال الفرنسي في تونس، وقد أحرز الكتاب منذ صدوره في يناير ١٩٢٠م بتونس ضجة كبيرة، وكان يتم توزيعه في كنف السرية[1].

وقد زاد كتاب «تونس الشهيدة» في حماس الوطنين التونسيين الذين تبنوا المطالب والأفكار الواردة فيه، وأجمعوا على بعث أول حزب منظم في تونس برئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي وهو «الحزب الحر الدستوري التونسي» الذي تم الإعلان عن تأسيسه في ١٥ يونيو ١٩٢٠م.

وقد تمثل رد فعل الحكومة الفرنسية في إلقاء القبض على عبد العزيز مؤلف كتاب

---

(١) خليفة الشاطر وآخرون: تونس عبر التاريخ الحركة الوطنية ودولة الاستقلال، الجزء الثالث، تونس - مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ٢٠٠٥م، ٨٦-٨٧. وانظر أيضًا:

https://ar.m wikipedia.org

«تونس الشهيدة» وترحيله في ٢٨ يوليو ١٩٢٠م إلى تونس، حيث اعتقل في السجن العسكري بتهمة التآمر على الدولة الفرنسية، ولكن اعتبارا لما أثاره ذلك الإجراء التعسفي من ردود فعل لدى الرأي العام سواء في تونس أو في فرنسا نفسها، فقد اضطرت السلطات الفرنسية إلى الإذن بإطلاق سراحه في أول مايو ١٩٢١م[١].

كما استثمرت مجلة «الفجر»[٢] لسان حال الحزب الحر الدستوري التونسي؛ لتوضيح المنهج النظري الذي اختاره لنشر أفكاره الإصلاحية، وهو يتلخص في «أن مصدر التوجيه هو الدين الإسلامي، وأن الدين قوامه العلم والأخلاق، ووسيلة نشره الدعوة والتناصح، وأن من حق الدعوة الإقدام في سبيلها والاستخفاف بما يتعرض إليه القائم بها من متاعب أو يناله من إرهاق»[٣].

ولم تمضِ مدة طويلة على ميلاد الحزب الدستوري حتى بدأت تظهر الخلافات بين بعض قادته حول طرق العمل الواجب اتباعها في سبيل تحقيق المطالب الوطنية؛ فبينما كانت الأغلبية الملتفة حول الثعالبي ترى ضرورة المطالبة بالدستور والتمسك بالمطالب الواردة في كتاب «تونس الشهيدة» كان الشق الآخر الذي كان يتزعمه المحامي «حسن القلاتي» (١٨٨٠-١٩٦٦م)[٤] يدعو إلى قبول الإصلاحات التي

---

(١) خليفة الشاطر، المرجع السابق ٨٧.

(٢) أنشأ عبد العزيز الثعالبي مجلة الفجر في ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، حيث كانت تحث على إن مصدر التوجيه هو الدين الإسلامي وأن الدين قوامه العلم والأخلاق ووسيلة نشر الدعوة هي التسامح انظر: سهام بوزيد وندى مقرود: شخصية عبد العزيز الثعالبي (مسيرته ومواقفه) ١٨٧٤م -١٩٤٤م، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة ٨ ماي، الجزائر، ١٩٤٥م، ٤٧.

(٣) أحمد توفيق المدني: مذكرات حياة كفاح، ج١، الجزائر - دار البصائر ٢٠٠٨، ٢٤٨.

(٤) حسن القلاتي، من مواليد قصر النجارى بالجزائر عام ١٨٨٠م، وانتقل مع والده إلى تونس عام ١٨٨١م حيث عين والده مترجمًا في المحكمة الفرنسية، وقد إلتحق ابنه حسن بالتعليم الابتدائي في تونس واستكمل دراسته في مدرسة ثانوية كارنو، وأكمل دراسته العليا في جامعة تولوز بفرنسا، وحصل على شهادة الحقوق عام ١٩٠٢م، وعاد إلى تونس وأصبح من كبار المحاميين، وانخرط في حركة الشباب التونسيين.
Ar.n.wiripedia.org

أعلنت عنها الحكومة الفرنسية والمنحصرة في رفع الرقابة على الصحافة وتأسيس وزارة للعدل وتعويض المجلس الشوري بالمجلس الكبير.

وانتهى الأمر بهذا الشق الأخير إلى الانفصال والانشقاق عن الحزب الدستوري وتأسيس حزب جديد أطلق عليه اسم «الحزب الإصلاحي»، ولكن ذلك الحزب لم يستطع استقطاب الجماهير الشعبية التي ظلت وفيّة للشيخ عبد العزيز الثعالبي وحزبه.

وإزاء هذا الانشقاق اغتنم المقيم العام الفرنسي في تونس لوسيان سان LUCIEN SAINT (١٩٢١-١٩٢٩م) هذه الفرصة لشل الحركة الوطنية والقضاء على رجالها، وذلك بإصدار مجموعة من الأوامر الاستثنائية التي عطلت الصحف الوطنية ومنعت الاجتماعات العامة، فاضطر عبد العزيز الثعالبي إلى الهجرة من جديد إلى المشرق العربي.

غادر الثعالبي تونس في ٢٦ يوليو ١٩٢٣م متوجهًا إلى ايطاليا ومنها إلى بلاد اليونان وتركيا ثم زار الحجاز والهند ومسقط والبحرين والكويت وانتهى به المطاف إلى العراق التي وصلها في ١٤ يوليو ١٩٢٥م، فاستقبلته جميع الأوساط العلمية والثقافية والسياسية بالتبجيل والاحترام، وأمر الملك فيصل الأول ملك العراق (١٩٢١-١٩٣٣م) الذي كان قد تعرف عليه عند إقامته في باريس واستانبول بتعينه مدرسًا للفلسفة الإسلامية بجامعة آل البيت، وقد باشر مهمة التدريس فيها من مطلع عام ١٩٢٦م.

وقد كانت صحيفة الشورى، تتتبع أخبار ورحلات الشيخ عبد العزيز الثعالبي منذ صدور العدد الأول منها في ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤م، فقد كان مؤسس هذه الصحيفة الأستاذ محمد علي الطاهر(١٨٩٦- ١٩٧٤م) صديقًا للشيخ عبد العزيز الثعالبي حتى توقفت الصحيفة عن الصدور عام ١٩٣١م. لقد خصصت الصحيفة مراسل خاص يتابع رحلات الثعالبي وأسفاره في جميع رحلاته في كل البلاد التي كان يذهب إليها.

وفي الأعداد الأولى لصدور الصحيفة تابعت رحلاته إلى اليمن والتنقل بين مدنها وكذلك رحلاته إلى الهند والتنقل بين مدنها ورحلاته إلى بلاد العرب في الحجاز ومسقط والبحرين والكويت والعراق، ثم مجيئة إلى مصر للمرة الثانية والمرة الثالثة[١]، بينما لم تسجل مجيئة لمصر في المرة الأولى لأن الصحيفة لم تكن قد صدرت بعد.

ثانيًا: مجيء الثعالبي إلى مصر عام ١٩٢٦م وحضوره مؤتمر الخلافة الاسلامية

نشرت **صحيفه الشورى** أن الأستاذ الكبير عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس سيأتي لمصر في شوال الجاري (١٣٤٤هـ/ أبريل ١٩٢٦م) لحضور مؤتمر الخلافة الإسلامية ثم يعود بعد ذلك إلى بغداد لاستكمال أسفاره[٢].

وبالفعل قد غادر بغداد قاصدًا القاهرة وقد اكدت ذلك صحيفة المقطم وقالت أن الأستاذ الثعالبي يصطحب معه مفتي العراق السابق ومدير أوقاف بغداد أنذاك الشيخ عطاء الخطيب والشيخ محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل لحضور مؤتمر الخلافة[٣].

وفي مساء يوم ١٢ مايو ١٩٢٦م وصل القطار المُقل للشيخ الثعالبي محطة مصر بالقاهرة ومعه الشيخ عطاء الخطيب مدير أوقاف بغداد. فاستقبله عدد كبير من أفاضل المصريين والسوريين والمغاربه وغيرهم يتقدمهم صاحب السعاده أحمد شفيق باشا[٤] وكيل الرابطه الشرقية ورئيس الديوان الخديوي لعباس حلمي الثاني، وأحد

---

(١) الشورى: العدد (١) السنة الأولى، ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤م؛ الشورى: العدد ٨٥، السنة الثانية، ١٨ يونيو١٩٢٦م.

(٢) الشورى: العدد ٧٨ السنة الثانية، ٣٠ أبريل ١٩٢٦م.

(٣) الشورى: العدد٧٩ السنة الثانية، ٧ مايو ١٩٢٦م.

(٤) أحمد شفيق باشا، سياسي مصري بارز، لعب دورًا مهمًا في الحياة السياسية المصرية في نهايات القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، فقد كان رئيس الديوان الخديوي (الخديوي عباس حلمي الثاني) ووكيل الجامعة المصرية الأهلية. ولد في ١٨ مايو ١٨٦٠م بالقاهرة وصاحب موسوعة (مذكراتي في نصف قرن) ٤ أجزاء تبدأ من ١٨٧٣م و تنتهي بعام ١٩٢٣م، و توفي عام ١٩٤٠م، انظر: أحمد شفيق: مذكراتي في نصف قرن، ج١، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م، ٤-١٩؛ وانظر: الأهرام بتاريخ ٣ يوليو ١٩٩٨م.

كبار الأعيان، وأحمد حلمي باشا وزير مالية سوريه سابقا[١]، و أصحاب الفضيله والعزة الشيخ علي سرور الزنكلوني[٢]، والسيد محمد الغنيمي التفتازاني[٣]، والشيخ عبد المجيد اللبان، المفتش بالمعاهد الدينية، و عبد الغني سليم عبده بك من النواب السابقين بمجلس النواب، والأستاذ الدكتور منصور فهمي[٤]، ووفد من قبل لجنه مؤتمر الخلافة، وعدد كبير من العلماء وأحرار سوريا وأدباء مصر ورجال الصحافة والطلبة الأزهريين الخ.

فلما نزل الثعالبي من القطار قوبل من المستقبلين بتصفيق حاد فعانق أصحابه وعانقوه، ثم مشوا معه في موكب فخم إلى خارج المحطة فصافحهم شا كرًا، ثم ركب السيارة إلى فندق الكونتيننتال[٥] حيث نزل فيه، وقد رحبت صحف مصر بالزعيم

(١) أحمد حلمي عبد الباقي (سياسي واقتصادي فلسطيني ولد عام ١٨٨٢م، في مدينة صيدا اللبنانية، تولى وزارة المالية السورية ثلاث مرات من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤م، وبعد ابتعاده عن المنصب الوزاري توجه بكل طاقاته وإمكاناته للدفاع عن القضايا العربية والاسلامية، وكان أحد مؤسسي اللجنة المركزية لإعانة منكوبي سوريا عام ١٩٢٥م. وكان رئيس حكومة عموم فلسطين ١٩٤٨-١٩٥٩م توفي عام ١٩٦٣م في مدينة سوق الغرب اللبنانية. انظر: وكيبديا ar.m.wikipedia.org

(٢) الشيخ علي سرور الزنكلوني، هو العلامة أبو الحسن علي بن سرور الحسني الأزهري الزنكلوني المدرس بالأزهر، وعضو هيئة كبار العلماء بالأزهر، المولود عام ١٢٨٨ هـ أو ١٢٨٩ هـ بقرية الزنكلون بمديرية الشرقية، وتلقى تعليمه الأولي بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم ارتحل إلى الأزهر الشريف بالقاهرة، وحصل على العالمية عام ١٣١٢ هـ وكان له دور بارز في ثورة ١٩١٩ م، وكان له نشاط في تأييد الأحزاب السياسية ولذا فصل من الأزهر وعاد مرة أخرى وتوفي في ٢١ رمضان ١٣٥٩هـ.

(٣) محمد الغنيمي التفتازاني، (١٨٩٣م/ ١٣١١هـ - ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ) هو كاتب وشاعر وخطيب ومتصوف مصري، عرف بميوله القومية العربية وهو شيخ السادة الغنيمية الخلوتية بالديار المصرية.

(٤) الدكتور منصور فهمي، فيلسوف ومفكر وعالم اجتماع مصري (١٨٨٦ - ١٩٥٩م) ولد في احدى قرى محافظة الدقهلية وحصل على ليسانس الحقوق ثم سافر إلى باريس للحصول على الدكتوراه في الفلسفة من السوربون، وكان أول عميد لكلية الآداب بجامعة القاهرة ثم مديرًا لدار الكتب ومدير لجامعة الاسكندرية إلى أن احيل للتقاعد عام ١٩٤٦م، وتوفي عام ١٩٥٩م.

(٥) فندق الكونتيننتال، انشىء عام ١٩٠٨م، وكان يطلق عليه الكونتيننتال الملكي ويقع أمام الأوبرا الخديوية القديمة بمنطقة وسط القاهرة، ومثل مقرًا رئيسًا لضيوف مصر، نظرًا لموقعه المتميز، وكان ينزل فيه=

التونسي ورحب به أفاضل مصر، فكان فندق الكونتيننتال في هذين اليومين يغص بالفضلاء وأهل العلم فكأنه سوق عكاظ(١).

وأدلى الأستاذ عبد العزيز الثعالبي بحديث لصحيفة السياسة الأسبوعية(٢) نشرفي أربع أعداد متتالية من الصحيفة الأعداد (٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤) ونقلته عنها صحيفة الشورى(٣).

وكتبت الصحيفة أن عبد العزيز الثعالبي قضى شطرًا كبيرًا من حياته يتجول في بلاد الشرق كلها من أدنى ومتوسط، بل زار قسمًا غير قليل من الشرق الأقصى وقطع السنوات الثلاث الماضية في هذا الطواف وجاء مصر. وهاهو يعود إليها تلبية لدعوة لجنه مؤتمر الخلافة الإسلامية(٤).

وأضافت أن السيد الثعالبي إلى جانب هذا، له تاريخ مجيد في الحركة الوطنيه التونسية فقد كان علمًا من أعلامها ولا أكون مغاليًا إذا قلت أن مكانته في تونس نفس مكانة سعد باشا زغلول في مصر(٥).

وقد أثار الثعالبي وهو في باريس عام ١٩١٩م الأرض والسماء على فرنسا فى سبيل تحرير تونس، وهو يخرج مع بعض أصدقائه للعالم كتاب «تونس الشهيدة» ضمنه

=ملوك وملكات أوروبا، وكان ملتقى رجال الأحزاب المصرية في العهد الملكي، وكان من الأماكن المفضلة لكبار زائري مصر. www.masrawy.com

(١) الشورى: العدد ٨٠، السنة الثانية، ١٤ مايو ١٩٢٦م.

(٢) صحيفة السياسة الأسبوعية، كانت تصدر في القاهرة، ومؤسسها محمد حسين هيكل، وكان يرأس تحريرها ايضًا، وهي صحيفة ثقافية أسبوعية، أنشئت عام ١٩٢٦م، وصدر العدد الأول في ١٣ مارس ١٩٢٦م، واحتجبت عن الصدور عام ١٩٣٣م، واشترك فيها أئمة الفكر المصري أمثال الشيخ علي عبد الرازق، طه حسين، محمود عرفي، عبد العزيز البشري، وغيرهم.

(٣) الشورى: العدد ٨١، السنة الثانية، ٢٣ مايو ١٩٢٦م.

(٤) الشورى: العدد ٨٢، السنة الثانية، ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

(٥) نفسه.

فضائح الحكم الفرنسي في بلاده، وكانت لهذا الكتاب ضجة كبري فقد وزعه مجانًا على كل نائب وشيخ ومشتغل بالسياسة في فرنسا وغير فرنسا، فاطلعوا جميعا فيه على فظائع لم يسمع الإنسان بمثلها في أي بلد من البلاد المتوحشة(١).

خلاصة القول أن الثعالبي أصلى حكومة فرنسا نارًا محرقه من «البروباجندا» Propaganda على نطاق واسع حتى ضاق ذرعها به، فأخذته من داره يومًا «في باريس» على غرة إلى السجن والنفى.

لا أنسى وقد أصم مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩م أذنيه عن كل صوت يرتفع من الشرق، ولا أنسى تلك الحركة المباركة التي قام بها الثعالبي للتأليف بين قلوب المسلمين من مصريين وتونسيين ومراكشيين وجزائريين وطرابلسيين وهنود واذربيجانيين وقوقازيين وسوريين وفلسطينيين وغيرهم، لوضع أساس التعاون والتقارب بين بلاد الشرق الإسلامي وبعضها البعض(٢).

ولا أنسى الإجتماعات التي كنا نعقدها كل يوم في دار من الدور أو مطعم من المطاعم نبحث فيها أحوال الشرق ونضع أساس «عصبة الأمم الشرقية» التي لم يقدر لها الظهور لأن القوة المستبده شتت شمل القائمين بالحركة(٣).

وكان الشيخ عبد العزيز الثعالبي أثناء وجوده في مصر يدعو لإقامة ثقافة إسلامية عربية خالصة متحررة من النفوذ الأجنبي، ودعوته لإقامة عصبة أمم إسلامية.

فقد كان يرى أن سبيل المقاومة لطرد الغزاة، إنما يكون في تأسيس ثقافة عربية إسلامية، وتصعيد الثقة بهذه الأمة التي هي من أعظم أمم الأرض، وأقدرها على مواجهة الأحداث.

---

(١) الشورى: العدد ٨٣، السنة الثانية، ٤ يونيو ١٩٢٦م.

(٢) خليفة الشاطر: المرجع السابق، ٨٦، الشورى: العدد ٨٣، السنة الثانية، ٢٣ مايو ١٩٢٦م؛ وانظر أيضًا عبد العزيز الثعالبي: خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، المصدر السابق، ١١.

(٣) الشورى: العدد ٨١،السنة الثانية، ٢٣ مايو ١٩٢٦م.

ولهذا ركز على تكوين جيل من الشباب المسلم، قادر على العمل في سائر الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والدينية، ودعاهم إلى التحرر من سائر أشكال التخلف والجمود، وكان يطوف في المدن والقرى، ليلقى دروسًا وخطبًا تشرح ما يجب أن يكون عليه الشعب من أجل النهوض.

وقد دعت جمعية الرابطة الشرقية[1] صباح الأحد (٢٣ مايو ١٩٢٦م) جميع من بقى في مصر من أعضاء مؤتمر الخلافة إلى سياحة أثرية في القاهرة، وقد أقلت السيارات التي أعدتها الرابطه لهؤلاء الضيوف وسارت أولًا إلى جامع سيدنا عمرو بن العاص في مصر القديمة، ثم جامع أحمد بن طولون بحي الخليفة ومن هناك سار الركب إلى دار الآثار العربية بميدان باب الخلق[2].

لا يزال الأستاذ الثعالبي ضيف في مصر موضع تكريم أهل الفضل وحفاوتهم وقد لبى دعوات الأستاذ إبراهيم بك الهلباوي[3]، والأديب عثمان باشا مرتضى[4]، والسيدة ماري نجار، وعلى الرفاعي بك، وجمعية آل أفريقيا، والأستاذ الزنكلوني، والشيخ حسين عدلي، والدكتور منصورفهمي. ولا تزال الدعوات من كبراء مصر

---

(١) الرابطة الشرقية، افتتحت الرابطة الشرقية في السادس من شهر يناير ١٩٢٥م، مقرها الجديد في القاهرة، وذلك بعد ثلاث سنوات على تأسيسها عام ١٩٢٢م، وسعت الرابطة إلى نشر المعارف والآداب والفنون الشرقية وتوثيق روابط التعارف بين مختلف أمم الشرق، بالاعتماد على بث دعوتها بالقلم واللسان وإنشاء فروع لها في شتى بلدان الشرق وعقد المؤتمرات الدورية.

https://wwwallayan.ae Storytelling

(٢) الشورى: العدد ٨٢، السنة الثانية، بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

(٣) إبراهيم الهلباوي، من مواليد ٣٠ أبريل ١٨٥٨م ببلدة العطف بالمحمودية في محافظة البحيرة، وهو من أبرز المحاميين المصريين في القرن العشرين، وانتخب أول نقيب للمحامين المصريين عام ١٩١٢م، واشتهر الهلباوي بلقب جلاد دنشواي بعد أن عمل مدعيًا عامًا ضد فلاحي دنشواي، ثم انخرط في سلك العمل والكفاح الوطني ليكفر عن الخطأ الذي صدر عنه في دنشواي توفي عام ١٩٤٠م.

(٤) عثمان مرتضى باشا، رئيس الديوان الخديوي عباس حلمي الثاني (١٨٩٢-١٩١٤م).

متتابعة حفاوة وتكريمًا لمجيء الثعالبي إلى مصر(١).

اجتمع الزعيم التونسي مساء ٢٣ مايو بالزعيم سعد باشا زغلول في بيت الأمة، وقد حضر سعادة إبراهيم بك الهلباوي والشيخ عطا أفندي الخطيب مدير أوقاف بغداد واستغرق الاجتماع أكثر من ساعة دار فيها الحديث عن أمور الشرق عامة، ومصر وتونس خاصة، وقد أعجب دولة سعد باشا زغلول بالأستاذ الثعالبي غاية الإعجاب، وبعد نهاية الاجتماع، ودع سعد زغلول ورجال الوفد المصري الأستاذ الثعالبي بالإجلال والإكرام(٢).

وفي إطار تجول الثعالبي في المدن المصرية، توجه إلى مدينة الأسكندرية في ٢ يونيو لقضاء بضعة أيام فيها إجابه لدعوة إخوانه أبناء المغرب(٣).

وعاد من الأسكندرية في١٠ يونيو، بعد أن زار الجالية المغربية وتفقد شئونهم(٤).

ولايزال الأستاذ الثعالبي مقيم في القاهرة، يلقى من الإكرام والإجلال حدًا يفوق الوصف وقرر مد إقامته لمدة شهرين آخرين(٥).

ولذا انتقل الأستاذ الثعالبي زعيم تونس من فندق الكونتيننتال إلى دار في شبرا وهي احدى ضواحي القاهرة. وقد فرشت وأسست خصيصًا لراحته(٦).

ولايزال الأستاذ الثعالبي موضع تكريم كبار المصرين والسوريين والتونسيين ولاتزال المآدب تقام لتكريمه وآخرها بدار حمد باشا الباسل(٧) وآل عبد الرازق

---

(١) الشورى: العدد ٨٢،السنة الثانية، بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

(٢) الشورى: العدد ٨٢، السنة الثانية، بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

(٣) الشورى: العدد ٨٣، السنة الثانية، بتاريخ ٤ يونيو ١٩٢٦م.

(٤) الشورى: العدد ٨٤، السنة الثانية، بتاريخ ١١يونيو ١٩٢٦م.

(٥) الشورى: العدد ٨٥، السنة الثانية، بتاريخ ١٨يونيو ١٩٢٦م.

(٦) الشورى: العدد ٨٦، السنة الثانية، بتاريخ ٢يوليو ١٩٢٦م.

(٧) حمد باشا الباسل، من زعماء الحركة الوطنية المصرية، وكان عميدًا لقبيلة الرماح بالفيوم، أحد أعضاء الجمعية التشريعية، وكان وكيل حكومة الوفد ووكيل حزب الوفد ووكيل البرلمان ولد عام ١٨٧١م وتوفي عام ١٩٤٠م.

والأستاذ الزنكلوني وآل العبادي والاستاذ أبو العيون وعبد الستار بك الباسل والسيد بن الساسي وآخر مآدبه كانت بدار عبد الله أفندي العايري أحد أعيان دمشق(١).

كما دعا بعض أفاضل بنها سعاده الأستاذ الثعالبي لزيارة تلك الجهات واستمر فيها يومين مع بعض الرفاق قبل أن يعود إلى القاهرة(٢). ثم توجه إلى كفر شكر تلبية لدعوة آل محي الدين كبار أعيانها(٣).

هكذا أُستقبل عبد العزيز الثعالبي منذ أن وطئت قدماه أرض مصر في ١٢ مايو ١٩٢٦م استقبالًا طيبًا يليق به كمناضل عربي إسلامي، من كبار المفكرين والمثقفين المصريين وغيرهم، في كل مكان ذهب إليه حتى غادرها في ١٩ سبتمبر ١٩٢٦م وأثناء هذه الزيارة حضر مؤتمر الخلافة الإسلامية الذي أقيم في القاهرة.

ثالثًا: الثعالبي ومؤتمر الخلافة الإسلامية في مصر

عقد المؤتمر الإسلامي العام بمصرفي ١٣ مايو ١٩٢٦م (أول ذي القعدة ١٣٤٤هـ) في دار المعاهد الدينية التابعة لجامعة الأزهر الشريف في الحلمية بمدينة القاهرة برئاسة الشيخ محمد أبي الفضل الجيزاوي(٤) شيخ الجامع الأزهر ورئيس المؤتمر.

وكانت الدعوة لعقد هذا المؤتمرعلى أثر سقوط الخلافة الإسلامية في أكتوبرعام (١٩٢٤م/ ١٣٤٣هـ)، إلا أن الإعداد والتجهيز تأخر إلى منتصف عام ١٩٢٦م.

---

(١) الشورى: العدد ٩٠، السنة الثانية، بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٢٦م.

(٢) الشورى: العدد ٩١، السنة الثانية، بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٢٦م.

(٣) الشورى: العدد ٩٣، السنة الثانية، بتاريخ ١٩ أغسطس ١٩٢٦م.

(٤) الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي، ولد عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٧م باحدى قرى الجيزة وتلقى تعليمه بالأزهر، عُين عضو بمجلس إدارة الأزهر في عهد الشيخ البشري، ثم وكيلًا للأزهر عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، توفي عام ١٩٢٧م، وكان تولى مشيخة الأزهر عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م حتى عام ١٩٢٧م، وعاصر ثورة ١٩١٩م وما تلاها من صراع بين الشعب والاحتلال البريطاني حتى توفي عام ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

إلا أن هذا المؤتمر لم يحقق الهدف من انعقاده بسبب الخلافات بين الدول الإسلامية وعدم توحيد كلمتهم، ولعل ذلك ما انعكس على تصريحات عبد العزيز الثعالبي للصحافة عقب انتهاء جلسات المؤتمر.

وعقب انتهاء جلسات مؤتمر الخلافة أدلى الثعالبي بعدة تصريحات عن مؤتمر الخلافة وشئون الشرق:

قالت صحيفة **وادي النيل**(١) التي كانت تصدر في الأسكندرية، أن الأستاذ الثعالبي تفضل بالحديث عن أهم المسائل الشرقية وخاصة الروابط التي تربط بين أمم الشرق عامة.

وعندما سئل عن، ما هو الأثر الذي خلفه لديكم مؤتمر الخلافة؟

قــال: لقد كان هذا المؤتمر داعيًا إلى الإرتياح والإغتباط لأنه أول اجتماع من نوعه بين المسلمين، وقد كان يجب أن يتم من عدة سنوات.

وعندما سئل عن وأي نتيجة فعلية انتهى إليها مؤتمر الخلافة؟

قــال: قرر المؤتمر أن الخلافة لازمة للمسلمين والبت فيها يجب أن يوكل لإجماع الاقطار الإسلامية.

وسئل: ألا تظنون أن الوقت قد حان لعقد مؤتمر اسلامي عام يتولى النظر في شئون دول الإسلام الشرقية؟

فقال: أن عقد المؤتمرات التي يمكن أن تحل المشاكل الإسلامية و توجد علاقة بين الشرق والغرب لا يأتي بفائدة إلا إذا كان في جو حر مثل أوروبا وأمريكا، وأضاف... وفي اعتقادي أن أي مؤتمر يعقد في بلد من بلاد الشرق لا يمكن أن يجيء بنتيجة. أما إذا عقد المؤتمر في بلد من بلاد أوروبا المحايدة مثل سويسرا أوأمريكا فإن الجو الحر البعيد

---

(١) صحيفة وادي النيل، هي صحيفة أسبوعية أصدرها عام ١٨٦٧م عبد الله أبو السعود في نفس الوقت الذي ظهرت فيه صحف أخرى مثل الأهرام ونزهة الأفكار، وروضة الأخبار.

https://gate.ahram.org.eg

عن المؤثرات التي تحيط به يساعد على تحقيق الأغراض السامية التي يطمح إليها المسلمون.

وسئل: إذن أنتم ترون وجوب تنفيذ فكرة عصبة الأمم الشرقية ؟

فقال: أن تكوين عصبة تجمع بين الأمم الشرقية أمر لابد منه. وهو يكون نتيجة طبيعية لتلك المؤتمرات التى أشرنا إليها. على أنه لا مفر في آن التآلف والإتفاق بين هذه الأمم هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق أماني الشرقيين في (الاستقلال) و(الحرية). وللمحافظه على هذين العاملين الرئيسيين في حياتهم.

وسئل: وأي تأثير احدثته في نفسكم زيارتكم الأخيرة لمصر؟

فقال: إن الروح المصرية أصبحت شاعرة بأن الحياة الماضية مستحيلة (يقصد مصر تحت الاحتلال البريطاني)، لأن مصر تطلب الخلاص من القيود. وأضاف وأنت تجد فيها تجددًا يتناول كل مظهر من مظاهر الحياة، فالتجديد في الأدب والتجديد في الاقتصاد والتجديد في السياسة. وأبدع من هذا إنك تجد حركة شرة في طلب العلم. وأنا واثق بأن من يزور مصر بعد سنتين أو ثلاث سنوات سيجد فرقًا كبيرًا في الروح المصرية، في استطاعتي أن أصرح بأنه لا يمكن أن يعود إلى مصر الحكم الفردي بأي وجه من الوجوه. ولا شك أن هذه حالة يرتاح إليها قلب كل شرقي؛ لأن مصر مهد العلم والعرفان وهي تنشر بين الأمم الشرقية ما تشيعه من نور يضيء السبيل أمام كل قاصد للحرية والاستقلال[١].

هذا الحديث للشيخ عبد العزيز الثعالبي يبين ما يجول في داخل كل عربي ومسلم حر، في التنسيق بين مواقف المسلمين وتوحيد كلمتهم، لمناهضة الصهيونية والتضامن مع الشعب الفلسطيني وتذكير المسلمين بأن القضية الفلسطينية هي قضية كل عربي ومسلم.

---

(١) الشورى: العدد ٨٥، السنة الثانية، بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٢٦م.

رابعًا: أحاديث الثعالبي عن العالم الإسلامي للصحافة المصرية

سأل محمود أبو الفتح[١] الصحفي **بصحيفة السياسة**، الشيخ الثعالبي عن النهضة العلمية في العراق و عن النهضة الاقتصادية و عن الملك فيصل وحكومته وعن بغداد نفسها ؟ ثم سأله عن جزيرة العرب؟ مسقط ودبي والبحرين والكويت[٢]؟

فقال: أن حركة التهذيب والتعليم آخذة في الإنتشار في البلاد العربية بعد أن كانت منقطعة عن العالم، وأصبحت تصل إليها صحف مصر والعراق وفلسطين و صحف تونس أيضًا، وأضاف أن الناس في الخليج الفارسي (العربي) كانوا يقرأون أخبار حركة مصر الوطنية وكانوا ينقسمون إلى حزبين أحدهما «سعدي» والآخر «عدلي» ولكن لا أخفيك أن الأغلبية الكبرى كانت سعدية.

وهناك مسأله يجب أن يعرفها المصريون وهي أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إليهم كأرق الشعوب الإسلامية وأكثرها أخذًا بالنهوض، فهم يعدون مصر عاصمة الشرق الناهضة.

أما من حيث حالة البلاد الاقتصادية، ففي جزيرة العرب ثروات كبيرة وأغلب تجارة الصادر والوارد في يد أهلها تزاحمهم بعض العناصر من أهل فارس وقليلون من الهنود، ومغاصات اللؤلؤ تدر على سكان الخليج الفارسي (العربي) نحو خمسين مليون روبية في كل عام، ولكن من المحزن أن رؤوس الأموال الكبيرة تودع في بنوك الهند دون أن ينتفع بها البلاد في إخراج مشاريع جديده أو إنشاء أعمال تزيد الربح.

ويضيف الثعالبي فيقول: وفي اعتقادي أن أهل البلاد العربية الواقعة على الخليج الفارسي (العربي) أنشط عنصر في الشرق، وأكثر التجارة مع الهند بيدهم، ولكنهم لا يستثمرون أموالهم في التوسع في أعمالهم.

---

(١) الصحفي محمود أبو الفتح، صحفي مصري ولد في الزقازيق عام ١٨٩٣م وتوفي في ١٥ أغسطس ١٩٥٨م، وهو أول نقيب للصحفين المصريين عام ١٩٤١م.

(٢) الشورى: العدد ٨٥، السنة الثانية، بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٢٦م.

ولا أرى عقبة في طريق نهضة جزيرة العرب أكبر من وجود تلك الطبقة الجاهلة من المتفقهة الذين يسمونهم «المتطوعة» فهم عنصر رجعي في البلاد ينفر مرآهم ومسلكهم الناس من الإقبال على العلم. واذكر أني كنت أشير على أحد الوجهاء هناك بإرسال ابنائه إلى مصر أو غيرها، لتحصيل ما ينبغي لهم من العلوم الحديثة، فقال لي ماذا تريد أن نعلم أبناءنا ليكونوا مخنثين كسالي شحاذين؟ والواقع أن العلم الذي يخرج مثل أولئك المتفقهة من شأنه أن يمسخ النفوس ولا يفيدها.

ثم سأل الأستاذ محمود أبو الفتح المحرربصحيفة السياسة الشيخ الثعالبي عن اليمن **فقال:**... وهناك حقول شاسعه للزراعة منسقة أحسن تنسيق تزرع فيها الحبوب بأنواعها المعروفة في بلادنا والدخان والنيلة والقطن والبن والقات و(هو نبات مخدر) ومن يطوف في اليمن يعتقد أنها ذات مدنية عريقة وليست بلاد بداوة، وسألناه عن الحالة العلمية في اليمن فقال: أن التعليم العصري مفقود.

وأهم شيء يجب أن يعرفه قراء صحيفتكم هو القدرة البالغة التي استطاع الرجل القدير الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن (١٩٠٤- ١٩٤٨م) أن يحكم بها اليمن ويحفظ الأمن والنظام فيها حتى أصبح في ميسوركل إنسان أن يقطع البلاد من أقصاها إلى أقصاها في أي وقت دون أن يخشى خطرًا أو يقع له أي حادث.

ويضيف أبو الفتح أن أكبر مسألة شاغلة لفكرة هذا الزعيم العربي الكبير (الثعالبي) هي التفكير في إصلاح اليمن بصوره لا تجعله في المستقبل هدفًا للمطامع الأجنبية[1].

وبسؤال الثعالبي عن الهند فقال:... أن الهند جادة في سبيل الحياة غير هازلة ولا مترددة فكل أحزابها وكل رجالها العاملين مثل الماهتماغاندي (١٨٦٩- ١٩٤٨م) وجواهرلال نهرو (١٨٨٩- ١٩٦٤م) يعملون بإخلاص وتجرد عن الغاية، ويضيف الثعالبي ويقول: من المعروف أن كبار الزعماء في الممالك يتخاصمون إلا في الهند،

---

(١) الشورى العدد ٨٢، السنة ٢، ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

فالاتفاق تام والوئام عام بين الزعماء من المسلمين وهندوس وكلهم لا ينشدون إلا مصلحة الوطن[١].

أن من يرى نهضة الهند الأدبية والاجتماعية والسياسيةعن قرب لا يسعه إلا أن يعجب بها ويباركها لأنها تقوم على قواعد صحيحة... فإن الحركة العقلية التي يقوم بهاأدباء وعلماء الهند جعلت هذا اللسان من أغنى الألسن الشرقية والفضل في ذلك لمجامع علمية كثيرة تكونت في ظرف نصف قرن مثل مجمع دهلي وآخر في كلكتا ومجمع ثالث في حيدرأباد. ودار التأليف والترجمة الملحقة بالجامعة العثمانية في حيدرأباد ودار للصنفيين.

ولا أدل على هذه النهضة المباركة العظيمة في الهند من أن أذكر لكم فكرة ترجمة القرآن لا تزال مبتسرة لم تنضج في الشرق الأدنى خصوصًا في تركيا ومصر. ولكنك تجد اليوم (١٩٢٦) في مكتبات الهند ٢٠ ترجمة للقرآن الكريم، ولا تجد أي فن من فنون أوروبا بما فيها أحداثها إلا تلقى فيه عدة مؤلفات.

وسألنا الأستاذ الثعالبي عن حيدرأباد ونظام حيدرأباد ؟

فقال: ليس بين ملوك المسلمين ملك منقطع للإصلاحات مثل ملك حيدرأباد، ويرجع إليه الفضل فيما فيه بلاده من مستحدثات من خزانات للمياه ومشروعات للري ومستشفيات ومدارس وأبنية ومحكمة للعدل جعلت عاصمة ملكة من أرقى العواصم لا في الشرق وحده بل في أوروبا أيضًا.

حدثنا الأستاذ الثعالبي لصحيفة السياسة، من قبل عن العراق وبلاد العرب والهند وهو اليوم يحدثنا عن «تونس» بلاده التي وهب لتحريرها حياته[٢]. وفي سؤال عن الحركة العلمية في تونس؟

فقال الثعالبي: النهضة العلمية في تونس بطيئه الأثر جدًا، فمخصصات المعارف في

---

(١) الشورى العدد ٨٢ السنة ٢، بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

(٢) الشورى العدد ٨٢ السنة ٢، بتاريخ ٢٨ مايو ١٩٢٦م.

الميزانية غير كافية لا تكاد تذكر. وأن سياسة التعليم لا ترمى إلا إلى إيجاد أيد عاملة لاإلى عقول مدبرة. أيد تنتج الثروة أما العقول التي تفهم وتدبر الثروة لأصحابها الحقيقيين يضرب حولها نطاق من الجهل، وأضاف أن تونس غنية بالمناجم. فيها مناجم للفوسفات وللرصاص والكالومين والحديد والفحم الحجري والفضه كلها تعدن، ولكن لمصلحة الأجانب لايستفيد منها التونسيون. أما مسألة الزراعة والملكية الأهلية، فإن املاك الدولة والأوقاف العامة تعطي للأجانب بأبخس الأثمان بدون مزاحمة(١).

خامسًا: الثعالبي في الصحافة المصرية

وقبل مغادرة الثعالبي لمصر في زيارته الثانية لها عام ١٩٢٦م، قالت صحيفة «**العالم**» الغراء التي كانت تصدر في مصر وأسهبت الصحف اليومية في وصف حفلة الشاي التي أقامتها اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني يوم ١٩ سبتمبر ١٩٢٦م توديعًا للأستاذ عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي الشهير ورحالة الشرق الكبير.

ولما كان الأستاذ الثعالبي قد قاسى في سبيل بلاده ما قاساه زعماء الوفد المصري في سبيل بلادهم وعانى من صنوف الاضطهاد والإمتهان لأجل مطالبته بحقوق وطنه وقوة ما عانوه لأجل مطالبتهم بحقوق وطنهم وقومهم، رجونا منه أن يفضى إلينا ببعض ذكرياته عن أيام سجنه واعتقاله ليقيننا أن قراءنا، وخصوصًا شبيبتنا الناهضة، يتوقون إلى الإطلاع على هذا الجانب من سير كبار المجاهدين في سبيل حريه بلادهم واستقلال أوطانهم.

حدثنا الأستاذ الثعالبي فقال: أنه لما كان في باريس ١٩٢٠م وجهت إليه الحكومة الفرنسية ثلاث تهم أولها، المخابرة مع أعداء فرنسا، وثانيها التآمر على سلامة الدولة

(١) الشورى العدد ٨٤، بتاريخ ١١ يونيو ١٩٢٦م.

الفرنسية في تونس، وثالثها بث أفكار خطيرة مناوأة لسياسة الحكومة الفرنسية في الديار التونسية.

وفي صباح ذات يوم وبينما كان الأستاذ الثعالبي جالسًا في منزله في باريس دخل عليه رجال البوليس الفرنسي وطلبوا إليه أن يصحبهم إلى القشلاق العسكري فاستمهلهم فأبوا فلم ير مندوحة عن الإطاعة.

وكان في نية ولاة الأمور الفرنسيين يومئذ أن يرسلوا الأستاذ الثعالبي في اليوم التالي إلى مارسيليا لينزلوه إلى باخرة مسافرة إلى تونس حتى إذا وصل إليها أحالوه إلى محاكمها وزجوه في سجونها.

وكان ولاة الأمور الفرنسيون يأملون أن تظل خطتهم هذه طي الكتمان إلى أن يصل الأستاذ الثعالبي إلى تونس فيغدو أنصاره وأصدقاؤه في فرنسا أمام الأمر الواقع وتذهب احتجاجاتهم وصيحاتهم أدراج الرياح(١).

غيرأن الأستاذ الثعالبي كان يتوقع دائما منذ ما حل باريس أن يقبض عليه ولاة الأمور الفرنسيون بدون إشعار أو إنذار، فكلف صديقه الدكتور قرطبي أن يتفقده كل يوم ثلاث مرات أو أربعًا من باب الاحتياط والاطمئنان حتى إذا نزل به سوء من جانب ولاة الأمور أسرع الدكتور إلى إبلاغ أنصاره من أحرار الفرنسيين فيهبون إلى نجدته ومساعدته.

ومن غرائب الإتفاق أنه بينما كان الجند الفرنسيون يقود الأستاذ الثعالبي من بيته التقى بهم الدكتور قرطبي عند بابه وكان أتيًا ليتفقد الزعيم كعادته، فلما رآه محاطًا بحراسة أدرك الغاية من اعتقاله فدنا من الجند ورجا منهم أن يأذنوا له في مرافقتهم فرفضوا فكرر رجاءه قائلا أنه كاتب الأستاذ الثعالبي وأن عنده أمور شخصية مهمة يريد أن يطلعه عليها، وبعد إلحاح شديد سمحوا له بالركوب معهم. وما هي إلا دقائق

---

(١) نفسه.

حتى وصلت السيارة التي أقلتهم إلى القشلاق العسكري فتركهم الدكتور قرطبي وذهب حيث يجتمع أنصار الأستاذ الثعالبي عادة ليطلعهم على ما حل به.

وكان في مقدمة أنصار الأستاذ الثعالبي يومئذ مسيو أندريه هريو ANDRE HAURIOU (١٨٩٧-١٩٧٣م) والأستاذ موروجيا فيري FIRE ومسيو بروتون PROTON.

فأما مسيو «أندريه هريو» فكان في ذلك الحين محاميًا ورئيسًا لبلدية ليون Lyon ثم أصبح ١٩٢٤ رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها، ولما استقالت وزارته انتخب رئيسا لمجلس النواب الفرنسي.

أما الأستاذ «موروجيا فيري»، فيعد من أشهر محامي فرنسا وقد انتخب نقيبًا لهم فيما بعد، أما مسيو «بروتون» فمن أكبر العاملين في الحزب الشيوعي الفرنسي وله في صحيفة (الأومانيتيه) L, Humanitee الشيوعية الفرنسية مقالات رنانة أماط فيها اللثام عن مخازي رجال الاستعمار.

وما كاد أولئك الثلاثة وغيرهم من المحامين من أصدقاء الأستاذ الثعالبي يعلمون خبر اعتقاله على المنوال الذي وصفناه آنفا، حتى اجتمعوا وبحثوا في الأمر بحثًا دقيقًا طويلًا، ثم قدموا احتجاجا شديدا معززا بالبراهين القانونية ورفعوه إلى ولاة الأمور، فأضطرهؤلاء إلى تأجيل ترحيل الأستاذ الثعالبي إلى تونس نحو أربعين يومًا، غير أنهم عادوا فنفذوا خطتهم ولما وصل الزعيم إلى تونس حاكموه وسجنوه أكثر من ثمانية شهور خلال عام ١٩٢١م[١].

نشرت **مجلة الأخاء الغراء** في عددها الأخير صورة كبيرة لسعادة الأستاذ الثعالبي وكتبت فصلًا خاصًا عن حضرته وها نحن (الشورى) ننقله عنها[٢].

وجاء في مقالة نشرها الأديب اليوزباشي إبراهيم سرمد أفندي في **الأهرام**.

---

(١) الشورى: العدد ١٠٠، السنة ٢، ٧ أكتوبر ١٩٢٦م.

(٢) الشورى: العدد ١٠١، السنة ٣، ١٤ أكتوبر ١٩٢٦م.

وقد سعدت وأنا في الباخرة بمقابلة الأستاذ الثعالبي المعروف لدى عموم المصريين وأمم الشرق وقد أعجبت بسعة اطلاعه وعلمه الغزير.

وقد تباحثنا في مختلف الشئون المصرية والشرقية والغربية فوجدته بحرًا واسعًا وكنزًا ثمينًا يستفاد منه ومن معلوماته وخبراته ومشاهداته في ساعة ما يغنيك عن سياحة عشرين عامًا كاملة(١).

هكذا كان للثعالبي صولات وجولات صحفية لعرض أفكاره، فقد كانت الصحافة أحد وسائله للألتقاء بالوطنيين ومريديه.

سادسًا: حفلات تكريم وتوديع الثعالبي لدى مغادرته مصر

أقام الأستاذ الثعالبي في القاهرة نحو ما يقرب خمسه أشهر خلال عام ١٩٢٦م كان في خلالها موضع إكرام المصريين وإخوانهم أبناء المشرق والمغرب النازلين أرض مصر.

ولما اعتزم سعادته مغادرة الديارالمصرية دعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني بالقاهرة إلى حفلة شاي لتكريمه وتوديعه فتفضل بالقبول، ثم وزع السكرتير العام للجنة البطاقة التالية وهذا نصها(٢):

«بمناسبة عزم الأستاذ السيد عبد العزيز الثعالبي العالم الزعيم المعروف على الرحلة إلى بلاد العرب والهند، ترجو اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة أن تتفضلوا بتشريف ناديها في شارع عابدين رقم ٤٥ الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الأحد ١٩ سبتمبر ١٩٢٦م لتناول الشاي ولكم الفضل».

السكرتير العام

نجيب شقير

مصر ١٨ سبتمبر ١٩٢٦م

---

(١) الشورى: العدد ١٠١، السنة ٣، ١٤ أكتوبر ١٩٢٦م.

(٢) الشورى: العدد ٩٨، السنة ٢، بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٢٦م.

كان في مقدمة المدعون الأستاذ أحمد شفيق باشا وكيل الرابطة الشرقية، والدكتور اللواء سليم موصلي باشا(١)، والأساتذه السيد محمد رشيد رضا(٢)، والسيد التفتازاني، ومحمد أمين واصف السكرتير العام للرابطة الشرقية(٣) السكرتيرالعام للرابطة الشرقية، ومحمود سالم بك، وخليل ثابت بك وأحمد حافظ عوض بك، ومحمود عزمي بك، وأحمد رأفت بك، وعبد الرحمن عزام بك(٤)، ومختار الصلح بك، وصالح جودت بك(٥)، والصحفي محمود أبو الفتح بك، وأمين الرفاعي بك، والدكتور عبد العزيز أفندي قاسم، وعدد كبير من أعيان مصر وسوريا وفلسطين وحضرموت وجاوة ورجال الصحافة المصرية التي تمثلت فى هذا الإجتماع أحسن تمثيل إذ حضرها المقطم، والسياسة والإتحاد، والناس، والأهرام، والكشكول، والكواكب، والبلاغ، والصاعقة، والعالم، والشورى الخ.

وكان الأستاذ نجيب شقير يستقبل الحاضرين بما فطر عليه من اللطف ويجلسهم في أماكنهم، ولما أقبل سعادة المحتفل به قوبل بالتصفيق والهتاف، ثم طاف الندل على المودعين بأكواب الشاي وأطباق الحلوى وهم يتحدثون و يتسامرون ويذكرون جهاد الضيف الكبير ومناداته في سبيل استقلال وحرية الشرق وأهله.

وخلال الحفل وقف فضيلة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الغراء

---

(١) الدكتور لواء سليم موصلي باشا، طبيب لبناني، موصلي الأصل، وكانت أسرته هاجرت إلى مصر بعد الثورة العرابية ١٨٨٢م، ترقى في الجيش المصري، إلى أن أسند إليه الانجليز إدارة مستشفيات الجيش في السودان، توفي عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

(٢) محمد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، ولد في قرية القلمون بجبل لبنان (٢٧ جمادي الأولى ١٢٨٢هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٨٦٥م) وتوفي بمصر في (٢٣ جمادي الأولى ١٣٥٤هـ/ ٢٢ أغسطس ١٩٣٥م).

(٣) الأديب محمد أمين واصف، ولد بالقاهرة عام ١٨٧٦م ونال شهادة الحقوق، وخدم الحكومة المصرية، وعين مفتشًا لوزارة الأوقاف وكان عونًا لمصطفى كامل في عمله الوطني، وتوفي عام ١٩٢٨م.

(٤) عبد الرحمن عزام بك، ولد في ٨ مارس ١٨٩٣م وتوفي في ٢ يونيو ١٩٧٦م، وأصبح في ٢٣ مارس ١٩٤٥م أول أمين لجامعة الدول العربية.

(٥) صالح جودت، وهو شاعر مصري ولد في ١٢ ديسمبر ١٩١٢م بالقاهرة، وتوفي بها عام ١٩٧٦م.

بصفته نائب رئيس اللجنة التنفيذية فا فتتح الحفلة بكلمة بليغة نوه فيها بمكانة الأستاذ الثعالبي وعظيم جهاده في خدمة هذا الشرق، وذكر السبب في إقامة الحفلة وهو توديع هذاالزعيم الحكيم بمناسبة سفره إلى بلاد العرب والهند لخدمة القضية الشرقية المشتركة.

وبعد ذلك تقدم الوجيه الأستاذ نسيم أفندي صيبعة، أمين صندوق جمعية إغاثة المنكوبين في البلاد السورية، للكلام باسم اللجنة وألقى الخطبة التالية(١):

أيها السادة: يقول قوم أن أستاذنا الثعالبي تونسي، ويقول آخرون لا بل هو ملك مشاع، فلكل بلد شرقي منه نصيب. والصحيح أنه دب وشب في تونس، ولما اشتد ساعده لحمل القلم واتسع صدره لحب الوطن ضاقت بوطنيته صدور المستعمرين وهي بطبيعتها ضيقة غليظة. فخيروه بين أن يقيم على ضيم أو أن يرحل، فرحل «هتاف» ولكن شاء القدر وقضت شخصيته البارزة أن تسير بذكره الركبان وأن يكون حيث نزل على الرحب والسعة بين الأهل والأخوان.

أيها السادة: تفهمون من هذه الكلمة الصغيرة أني ما وقفت لأتكلم عما تحلى به الأستاذ من رجاحة العقل، ورحابة الصدر، وسعة الإختبار، فتلك أمور مفروغ منها ومعترف بها، وإنما وقفت لأتمنى له سفرًا سعيدًا وعودًا قريبًا حميد، ولأبدي أسفي شخصيًا لكون بعض الظروف القاهرة حرمتني مدة إقامته بيننا من أن استفيد من أنس محضره، وحلومعشره، وحلو حديثه، ومن أن أتلقى عنه بعض الدروس فيما يجب على الأمم الشرقية عمله في هذه الأدوار العصيبة التى نجتازها... الخ.

ثم وقف الأستاذ الكبير محمد أمين واصف فألقى الكلمة التالية:

أيها السادة الفضلاء: اجتمعنا اليوم لنودع زعيمًا جليلًا، وصديقًا كريمًا، جمعتنا وإياه وحدة القومية، وحدة الفكر والمبدأ، ووحدة المحن والرزايا، التي حاقت بهذا الركن

(١) الشورى: العدد ٩٨، السنة الثانية، ٢٣ سبتمبر ١٩٢٦م.

من الإنسانية، ألا وهو السيد عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي الكبير...اجتمعنا لنودع صديقًا أزمع السفر إلى أطراف الشرق لا لترويح النفس ولا ليمتع نفسه برؤية إخوان لنا أصابوا حظًا من الحياة السعيدة. إنما يسافر ناعيًا مصائب قومه إلى إخوانهم وأبناء عشيرتهم فيما وراء البحار داعيًا لاتحاد قلوبهم، طالب عطفهم على شباب غض أفنيته الحروب الظالمة، طالبًا عطفهم على شيوخ ونساء وأطفال يتضررون جوعًا وعريًا[١].

وبعد ذلك نهض الأستاذ أحمد شفيق باشا وودع الزعيم الحكيم باسم جمعية الرابطة الشرقية بكلمة لطيفة تناسب المقام.

وألقى الشاعر المعروف محمود أفندي رمزي نظيم[٢] الأبيات التالية:

يا أيها المنفى تشكر *** المروءة والشهامة
ما حارب الغرب الظلوم *** سوى الحمية والزعامة
والنفي خير من بقاء *** المرء مفقود الكرامة
الشرق بيتك إن حلات *** وإن رحلت لك السلامة
لك كل أرض تونس *** خضراء تسقيها الغمامة[٣]

وكان صاحب الدولة سعد باشا زعيم مصر الجليل لقد أظهر رغبته في توديع الأستاذ الثعالبي، فبادر الأستاذ الثعالبي ومحمد عبد الرحمن بك عزام، وقد قصدا بيت الأمة حيث ودع سعد باشا مراعاة لصحته وقد مكث وإياه نحو ساعتين تحدثا في خلالها عن ورطة الشرق ووقوع معظم الأمم الشرقية في شرك الاحتلال، ثم تعانقا

(١) نفسه.

(٢) الشاعر محمود رمزي نظيم بن محمود رمزي الحسيني أبو الوفا،ولد عام (١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م) و توفي عام (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م)، وهو شاعر من كبار الزجالين المصريين ولد في بركة السبع من قرى المنوفية، ولقب بشاعر المظاهرات وعمل بالصحافة ٣٥ عامًا وخدم الثورة المصرية عام ١٩١٩م بنظمه ومقالاته.

(٣) الشورى: العدد ٩٨ السنة الثانية، ٢٣ سبتمبر ١٩٢٦م.

وغادر الأستاذ االثعالبي بيت الأمة مودعًا بالتكريم والإجلال[(١)].

غصت محطة مصر عند غروب يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٢٦م بعدد كبير من الفضلاء والعلماء والوجهاء لتوديع صاحب السعادة الأستاذ عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس وحكيم هذا العصر، يتقدمهم أصحاب الفضيلة والسعادة والعزة السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، والشيخ مصطفى بك عبد الرازق المفتش بوزارة الحقانية، والشيخ عبد المجيد اللبان المفتش بالمعاهد الدينية، والأستاذ التفتازاني شيخ السجادة الغنيمية الخلوتية، والشيخ محمود أبو العيون المدرس بالأزهر، والشيخ إبراهيم أطفيش من علماء الجزائر، والأساتذة أحمد شفيق باشا الوكيل الأول للرابطة الشرقية، ومحمد أمين واصف بك السكرتير العام للرابطة، و الميرزا مهدي رفيع مشكي بك عميد الجالية الإيرانية في مصر، والقائد العسكري عزيز علي المصري بك، ونجيب شقير، وعزيز ميرهم بك عضو مجلس الشيوخ، ونسيم صبيعة، ومحمود سالم بك صاحب مجلة عرفات الفرنسية في باريس، وعبد الرحمن عزام بك عضو مجلس نواب، وغيرهم من الأدباء والفضلاء والصحافيين والأطباء والتجار المصريين والسوريين والمغاربة...الخ.

وعند تمام الساعة السادسة تحرك القطارمن محطة مصر فصفق جمهور المودعين لحضرة الزعيم الجليل تصفيقًا شديدًا.

أرسل الثعالبي وهو في السويس برقية قال فيها: «أرى من الواجب عليّ أن أرسل تحية من أعماق صدري إلى الأمة المصرية علي الحفاوة اللائقة التي قابلتني بها أثناء إقامتى في مصر ولا أستطيع أن أفيها حقها من الشكر على ما قامت به نحوي من التوديع المخلص، وتحيتي لمصر رأس الشرق المفكر، وإنما هى فى الواقع تحية لجارتيها الشقيقتين فلتعيش مصر حرة مستقلة ولتعيش شقيقاتها مطلقات ناهضات[(٢)].

وبعد مغادرة الثعالبي لمصر في ٢٠سبتمبر ١٩٢٦م تنقل في رحلاته بين بلاد

(١) نفسه.

(٢) الشورى: العدد ٩٨، السنة الثانية ، بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٢٦م.

العرب واليمن، والعراق والهند وباريس، وإيران وفلسطين، وكان يقابل الساسة والمناضلين ورجال الفكر والثقافة؛ لينقل لهم أفكاره الإصلاحية لبناء الأمم من ناحية وحثهم على مناوأة الاحتلال من ناحية أخرى، وانتهى به المقام الإقامة في العراق في معية الملك فيصل الأول ملك العراق (١٩٢١- ١٩٣٣م)، الذي عينه للتدريس بجامعة آل البيت ليبث أفكاره ومبادئه الرائعة المأخوذة من الصالح من أعمال السلف، ليخدم الأمة العربية ولينفع العراقيين بغزارة معلوماته[١].

وظل الثعالبي في جامعة آل البيت ينشر أفكاره عن أسرار فلسفة التاريخ وعظمة الديانة الإسلامية، بضع سنوات حتى صدر الأمر بإلغاء جامعة آل البيت في أواخر عام ١٩٣٠م، فعزم الثعالبي على الرحيل من بغداد إلى القاهرة، حيث عينه الملك فيصل الأول مراقبًا لبعثة الطلبة العراقيين في مصر[٢]، وغادر بغداد في أواخر سبتمبر ١٩٣٠م، ملتحقًا بمنصبه الجديد في القاهرة، وخلال تلك الفترة قام بزيارة إلى فلسطين، وألقى العديد من المحاضرات عن الدعوة الإسلامية وعن مطالع النهضة في الشرق وقد لاقت استحسانًا كبيرًا[٣] واستحكمت صلات المودة بين الثعالبي وبين السيد أمين الحسيني مفتي فلسطين (١٨٩٥- ١٩٤٧م) واتفقا على القيام بدعوة واسعة النطاق لعقد مؤتمر إسلامي بالقدس، من أجل إثارة اهتمام الرأي العام الإسلامي وكسب عطفه وتأليف جبهة قوية تستطيع الوقوف في وجه الحركة الصهيونية.

وبالفعل تم التنسيق والإعداد لعقد المؤتمر الإسلامي بالقدس في ٧ ديسمبر ١٩٣١م، وساهم الثعالبي في أعمال المؤتمر وتم تعيينه عضو المكتب الدائم المنبثق عن

---

(١) الشورى: العدد ٢٨٢، السنة السادسة، بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٣٠م.

(٢) الشورى العدد ٢٧٩، السنة السادسة، بتاريخ ٢٥ يونيو ١٩٣٠م.

(٣) الشورى: العدد ٢٨٦، السنة السادسة، بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٣٠م والعدد ٢٨٨، السنة السادسة، بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٩٣٠م.

اللجنة التنفيذية للمؤتمر[١] ويُعد هذا المؤتمر من أهم انجازات الثعالبي آنذاك.

وقد تواصل الثعالبي أثناء إقامته الثالثة والأخيرة في مصر برجال الفكر والثقافة والأدب أمثال الشيخ علي عبد الرازق، ومحمد رشيد رضا، ومحمد علي الطاهر وغيرهم من الأصدقاء الذين إلتقى بهم في زيارته الثانية عام ١٩٢٦م، أي منذ أربع سنوات، وأثناء إقامته بمصر، تم إرساله من قبل الأزهر الشريف مبعوثًا لدراسة قضية المنبوذين في بلاد الهند، وكتب تقرير تاريخي كشف كثيرًا عن الحقائق التي كانت مجهولة آنذاك، منها أن غاندي قد سرق الحركة الوطنية من المسلمين.

سابعًا: زيارة الثعالبي لمصر في المرة الثالثة والأخيرة عام ١٩٣٠م

وصول الثعالبي لمصر يوم ٣٠ سبتمبر١٩٣٠م و نزل في فندق الكونتيننتال أيضًا الذي نزل فيه في المرة السابقة، واستمرت هذه الزيارة ما يقرب من العام، وخلالها تم إقامة المآدب تكريمًا للثعالبي من فضلاء مصر منهم الزنكلوني وآل عبد الرازق باشا، والسيد محمد رشيد رضا، وعثمان باشا مرتضى.وتم تكريمه من الأستاذ محمد وحيد بك الأيوبي، و تكريم من الأستاذ إبراهيم بك الهلباوي، وتكريم من الأستاذ توفيق دياب بك،وتكريم من الأستاذ نقولا افندي الحداد، وتكريم من الأستاذ خير الدين أفندي الزركلي الكاتب والمؤلف السوري، والكاتب الكبير لطفي بك جمعة[٢] الذي كتب مقالًا مطولًا على عمودين وله بقية في العدد التالي على عمودين أيضًا في صحيفة الشورى[٣]، كما أقام محمد علي الطاهر صاحب صحيفه الشورى حفل تكريم له، كما

(١) عبد العزيز الثعالبي: خلفيات المؤتمر الاسلامي بالقدس، تحقيق حمادي الساحلي، بيروت – دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ٢٣٧.

(٢) الكاتب محمد لطفي بك جمعة، ولد بالإسكندرية في (١٣٠٣هـ/ ١٨ يناير ١٨٨٦م) وهو كاتب ومترجم وروائي ومحامي وناشط سياسي مصري وحصل على شهادة الحقوق من جامعة ليون بفرنسا عام ١٩٠٩م وشارك في العمل الوطني وشارك في مؤتمر الشبيبة المصرية والمؤتمر الوطني المصري واللذان انعقدا في جينف وبروكسل عام ١٩٠٩م، ١٩١٠م، وتوفي في ١٥ يونيو ١٩٥٣م (١٣٧٣هـ).

(٣) الشورى: العدد ٢٨٦، السنة السادسة، بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٣٠م.

أقام الأستاذ نسيم أفندي صبيعة. وكذلك كتب الأستاذ محمود زكي باشا مقال عن الأستاذ الثعالبي وذكريات تونس الخضراء، كما أقام الأستاذ سليم أفندي صاحب صحيفه الأخاء حفل تكريم للثعالبي.

كما نشرت صحيفة الشورى الإعلان عن سفر الثعالبي إلى فلسطين في أغسطس ١٩٣١م؛ لحضور المؤتمر الإسلامي العام بالقدس الذي انعقد في الفترة (من ٧-١٧ ديسمبر ١٩٣١م/ الموافق رجب ١٣٥٠هـ).

وكان الثعالبي من أبرز الذين دعوا إلى تنظيم المؤتمر الإسلامي، وكان عضوًا مؤسسًا في هذا المؤتمر الذي انعقد من أجل التضامن مع الشعب الفلسطيني، ومناهضة الصهيونية، وقد حضر هذا المؤتمر عدد كبير من أعلام المسلمين برئاسة الشيخ محمد أمين الحسيني مفتى فلسطين، وشارك فيه: شوكت علي، ومحمد إقبال «عن الهند»، ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، ومحمد بهجت الأثري «عن العراق»، وإبراهيم أطفيش «عن الجزائر»، والبشير السعداوي «عن ليبيا»، وكل من عبد الحميد سعيد، وسعيد رمضان، وعبد الرحمن عزام، والتفتازاني، ومحمد علي علوبة «عن مصر» وسعيد الجزائري «عن سوريا» ومصطفى الغلاييني «عن لبنان» وعبد العزيز الثعالبي «عن تونس».

وقد أظهر الشيخ الثعالبي حركة عظيمة أثناء هذا المؤتمر، كما عمل بهمة ونشاط على تنسيق مواقف المسلمين لمناهضة الصهيونية، والتضامن مع الشعب الفلسطيني، وتذكير المسلمين بأن قضية فلسطين هي قضية كل عربي مسلم.

واستمرت علاقة واهتمام الثعالبي بقضية فلسطين قبل المؤتمر، وأثناءه، وبعده، دون انقطاع، كما اهتم الشيخ الثعالبي بشرح تاريخ اليهود، ومؤامراتهم، وعقائدهم الفاسدة، وخطرهم على الإسلام والمسلمين من خلال محاضراته التي كان يلقيها على طلبة المعهد الديني ببغداد في الفترة التي عمل بها أستاذًا في هذا المعهد منذ عام ١٩٢٦م حتى ١٩٣٠م.

وأثر انتهاء المؤتمر انتخب الشيخ عبد العزيز الثعالبي عضوًا في المكتب الدائم للمؤتمر ثم عين بعد ذلك مسؤولا عن لجنة الدعاية والنشر. وقد سخر كل جهوده اعتبارا من ذلك التاريخ للدفاع عن القضايا الإسلامية، والكفاح من أجل تحرير الشعوب العربية والإسلامية من الاحتلال الأوروبي، حتى أصبح من أبرز قادة النهضة الإسلامية الحديثة.

وعندما عزم الثعالبي على مغادرة مصر في نوفمبر ١٩٣٠م، لمواصلة جولاته في بلاد الهند، عقدت النخبة الفكرية والسياسية المصرية والعربية المقيمة بمصر حفلات لتكريم الثعالبي، تم دعوة نحو ٥٠ من أهل العلم والفضل والوجاهة تلبية لدعوة الأستاذ الكبير محمد وحيد بك الأيوبي[١] إلى مائدة عشاء أقامها لتكريم العلامة الكبير والزعيم الجليل السيد عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس وعظيمها، وكان يتقدم المدعوين أصحاب الفضيلة والسعادة الأساتذة السيد مصطفى عبد الرازق، والسيد التفتازاني، وإبراهيم الهلباوي بك، ومحمود أبو النصربك، ومحمد لطفي جمعه، والدكتور منصور فهمي بك، والدكتور أحمد عيسى بك، وتوفيق دياب بك، وعلى عبد الرازق بك، ومهدي رفيع مشكي بك، وأمير الشعراء شوقي بك، والدكتور محجوب ثابت بك، وإدوارد قصيرى بك، وحامد العلايلي بك، وانطوان الجميل بك، وغيرهم كثيرون من أهل الفضل ورجال الصحافة وفي مقدمتهم الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى[٢].

وبعد تبادل الأحاديث أثناء الطعام وقف الأستاذ الخطيب المفوه لطفى بك جمعة وألقى كلمة عن الشيخ الثعالبي ومعرفته إياه قبل ثلاثين عامًا، وكيف أنه وجد فيه

---

(١) وحيد بك الأيوبي، ولد عام ١٨٧٢م، وتلقى تعليمه في مدرسة فرنسية، ثم درس القانون، وأجاد اللغات الفرنسية والتركية والعربية، وكان أحد أثرياء مصر وهو سياسي ومؤسس الحزب الوطني الحر عام ١٩٠٧م، وقد اصدر الأيوبي صحيفة اسماها «الأحرار» لتكون لسان حال الحزب، وكان له مجلس في مقهى «نيوبار» قرب ميدان الأوبرا بوسط القاهرة وسماه «البعكوكة».

(٢) الشورى: العدد، ٣٠٠، ١٩ نوفمبر ١٩٣٠م.

شخصية ابن بطوطة وابن خلدون مجتمعتين في شخصية عبد العزيز الثعالبي، ثم أشار إلى جهاده السياسي في سبيل الشرق، وسعة علمه وغزارته وفصاحته. وتلاه الأستاذ أحمد بك وفيق بخطبة بليغة عن جهاد الثعالبي ومعرفته إياه في باريس منذ عشرين عامًا وهو يسعى لخلاص بلاده من الاحتلال الفرنسي، وبعد ذلك تكلم الخطيب الشهير الأستاذ توفيق دياب بك فكان مبدعًا في كلمته، ثم تكلم الهلباوي بك وقال إن الذي يجلس إلى الأستاذ الثعالبي ويحدثه دون أن يعرفه يشعر أنه في حضرة رجل عظيم غير عادي[١].

وفي النهاية وقف الأستاذ الثعالبي ألقى كلمة شكر شكر فيها صاحب الدعوة وفضله في جمع شمل هذه النخبة النبيلة، ثم شكر حضرات الخطباء على من أولوه من لطف، وبعد ذلك تحدث الشيخ الثعالبي عن المسألة السياسية العامة وعن الاستعمار وأساليبه وخططه، وقد استمرت هذه الحفلة حتى منتصف الليل[٢].

ولايزال الثعالبي موضع الحفاوة في مصر وقد أقيمت له في مصر حفلات شتى كان منها مأدبتي الأستاذ الهلباوك بك وتوفيق دياب بك[٣].

وفي إطار التكريم توالت الكتابات الصحفية في الصحف لكبار الكتاب والمفكرين أمثال الكاتب الكبير لطفي بك جمعه[٤]، وصاحب السعادة محمود زكي باشا[٥].

كما أقيمت كثير من حفلات الشاي تكريمًا للشيخ الثعالبي، حضرها أصحاب المعالي والفضيلة والعزة والسعادة الأساتذة محمود فهمي النقراشي بك (وزير

---

(١) نفسه.

(٢) الشورى: العدد ٣٠٠، السنة السابعة، بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٣٠م.

(٣) الشورى: العدد ٣٠١، السنة السابعة، بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٣٠م.

(٤) الشورى: العدد ٣٠٢، السنة السابعة، بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٣٠م؛ الشورى: العدد ٣٠٣، السنة السابعة، ١٠ ديسمبر ١٩٣٠م.

(٥) الشورى: العدد ٣١٢، السنة السابعة، بتاريخ ١١ فبراير ١٩٣١م.

المواصلات السابق) والشيخ علي سرور الزنكلوني، والسيد مصطفى بك عبد الرازق، والسيد علي بك عبد الرازق، والسيد محمد رشيد رضا، والشيخ محمود أبو العيون، والشيخ محمد التفتازاني، وعثمان باشا مرتضى، وعزيز بك علي المصري، والسيد وحيد بك الأيوبي، ونسيم بك صيبعة، وإلياس أنطوان إلياس، وخيرالدين الزركلي[١].

هكذا يتضح أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي كان له مكانة خاصة لدى النخبة السياسية والفكرية في مصر، وكان موضوع ترحيب عندما ينزل أرض مصر، وموضوع تكريم عندما ينوي مغادرتها.

وفي عام ١٩٣١م سحب ترخيص صحيفة الشورى وبالتالي توقف النشر عن أخبار عبد العزيز الثعالبي، الذي سافر إلى بلاد المشرق العربي، ثم استقر به المقام في الهند عام ١٩٣٣م وأثنائها ألف كتاب « تاريخ الهند»[٢]، وألف كتاب مسألة المنبوذين في الهند عام ١٩٣٦م[٣].

وبعد هجرة دامت أربعة عشر عامًا (١٩٢٣- ١٩٣٧م) في بلاد المشرق العربي والإسلامي، عاد الثعالبي إلى تونس في ١٩ يوليو ١٩٣٧م، ليعيش بقية حياته بعيدًا عن السياسة بعد أن وجد الجو السياسي قد تبدل وأن الزمن غير الزمن، بعد أن أسس الحبيب بورقيبة وثلة من رفاقه الحزب الحر الدستوري الجديد وانحصار الموجة الشعبية التي تمتع بها عبد العزيز الثعالبي وظل كذلك حتى توفي في أول أكتوبر ١٩٤٤م، وبعد حياة حافلة بالكفاح، لم يذق خلالها طعم الراحة، ولا سعى لمصلحة ذاتية، بعد أن أعطى كل ما وهبه الله لقضية بلاده، ولقضايا العرب والمسلمين.

---

(١) الشورى: العدد ٣٠٨، السنة السابعة، بتاريخ ١٥ يناير ١٩٣١م؛ الشورى:العدد ٣٢٠، السنة السابعة، بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٣١م، الشورى العدد ٣٣٥، السنة السابعة، بتاريخ ٥ أغسطس ١٩٣١م.

(٢) عبد العزيز الثعالبي: من آثاره واخباره في المشرق والمغرب، تحقيق صالح الخرفي، بيروت – دار الغرب الإسلامي ١٩٩٥م، ٣٦٨.

(٣) ولمزيد من التفاصيل عن المنبوذين في الهند. انظر كتاب: عبد العزيز الثعالبي: مسألة المنبوذين في الهند، بيروت – دار الغرب الإسلامي ١٩٨٤م، ٧.

الخاتمـــة

عبد العزيز الثعالبي زعيم سياسي وديني من القليلين الذين زاوجوا بين السياسة والدين، وبين المحلي والإقليمي والعالمي في عملهم للتخلص من الاحتلال وظلمه، والرفعة بالمجتمع والرقي به في الوقت ذاته. فيحق أن نطلق عليه داعية الاصلاح والتجديد والمقاومة.

يتضح لنا مما سبق أن الشيخ عبد العزيز الثعالبي، المناضل التونسي العربي لم يستسلم للسجن والاعتقال من قبل السلطات الفرنسية. ورحل باختياره إلى بلاد المشرق العربي في رحلات وزيارات مستمرة تقابل فيها مع السياسيين والمثقفين والمفكرين والمصلحيين والمناضلين في كل بلد ذهب إليه، لنقل أفكاره والكتابة في الصحف سواء التونسية أو الشامية أو العراقية أو الفرنسية أو المصرية يبث أفكاره المستنيرة.

واتضح لنا مما سبق أن الثعالبي انشغل طوال حياته بمسألة إصلاح فكر الأمة، وتصحيح عقيدتها واعتبرها أساس التحرر السياسي.

كما اتضح أن الثعالبي كان يؤمن بالوحدة العربية ويسعى إلى تحقيقها، ويردد دائمًا إن تونس جزء من الأمة العربية، وكان لا يعترف بالحدود المصطنعة التي أقامها الاحتلال الأجنبي لتمزيق العالم الإسلامي، وقال إن الأرض الإسلامية وطن لكل مسلم.

كما كان الثعالبي يؤمن إيمانًا عميقًا بالحرية ويدعو إليها بقوة وإخلاص، كما كان أول من دعا إلى إقامة (عصبة الأمم الإسلامية) لإقامة ثقافة إسلامية عربية خالصة متحررة من النفوذ الأجنبي، لأنه كان يرى أن سبيل المقاومة لطرد الغزاة، إنما يكون في تأسيس ثقافة عربية إسلامية، وتصعيد الثقة بهذه الأمة التي هي من أعظم أمم الأرض، وأقدرها على مواجهة الأحداث، ولذا قيل عنه في مصر أنه أول من نادى بتوحيد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج.

كما اتضح لنا أن صحيفة الشورى منذ صدور العدد الأول منها في ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤م وحتى توقفها من الصدور بعد صدور العدد الأخير منها، في ١٥ يوليو ١٩٣١م، وهي تتتبع أخبار وجهاد المناضلين والمصلحين العرب وفي مقدمتهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي، حتى أنها كانت ترصد أخباره حتى قبل مجيئه إلى مصر، وبعد مجيئه إلى مصر ظلت ترصد أخباره ولقاءاته ومحاوراته ورحلاته ومحاضراته، فهي تعد مصدرًا مهمًا من مصادر الدراسات التاريخية باعتبارها معاصرة للأحداث.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٢٨٩-٣٤٩

موقف مصر من العراق بعد تكوين حلف بغداد ١٩٥٥-١٩٥٨م (قراءة فى أرشيف الخارجية البريطانية)

أحمد عبد الدايم محمد حسين(*)

ملخص

تباينت مواقف كل من مصر والعراق من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط فى بداية خمسينيات القرن العشرين تباينًا كاملًا. فاقترب العراق، برعاية بريطانية، من المشروعات الدفاعية التى عرضت عليه فى تلك الفترة، فى حين ابتعدت مصر عنها بشكل واضح وصريح. غير أن الطريق الذى انتهجه العراق انتهى به إلى تكوين حلف بغداد سنة ١٩٥٥. لكن حينما برز هذا الحلف للوجود حرصت الإدارة المصرية على محاصرته فى كل البلدان العربية. فاشتعلت معركة علنية بين مصر والعراق طيلة الفترة من ١٩٥٥ وحتى سقوطه سنة ١٩٥٨، وقع فيها الملك فيصل الثانى، ملك العراق، ونورى السعيد رئيس الحكومة، والدكتور فاضل الجمالى وزير الخارجية، فى مرمى السهام المصرية. وتمت محاصرتهم فى كل الأماكن التى يستهدفونها. ومع أن الأرشيف المصرى قد رصد هذه المعركة رصدًا دقيقًا، إلا أن متابعة الأرشيف البريطانى لها كانت مختلفة ومميزة جدًا. خاصة وأن بريطانيا هى الراعية لهذا الحلف،

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الدراسات الإفريقية العليا - جامعة القاهرة.

بتوكيل من الولايات المتحدة الامريكية وحلف الاطلنطى. فالناظر للمتابعات البريطانية للموقف المصرى من العراق بعد تكوين حلف بغداد حتى سقوطه سنة ١٩٥٨، سيجد الكثير من التفاصيل التى غابت عن دراستنا العربية. وفى هذا الإطار تنقسم الدراسة إلى خمسة محاور رئيسية:

المحور الأول: تباين موقف مصر والعراق من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط.

المحور الثانى: تكوين حلف بغداد.

المحور الثالث: الدعاية المصرية ضد العراق وتكوين حلف بغداد.

المحور الرابع: إختلاف المواقف المصرية من العراق بعد العدوان الثلاثى.

المحور الخامس: أثر الموقف المصرى فى قيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ وسقوط حلف بغداد.

*
* *

تباينت مواقف كل من مصر والعراق من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط فى بداية خمسينيات القرن العشرين تباينًا كاملًا. فاقترب العراق، برعاية بريطانية، من المشروعات الدفاعية التى عرضت عليه فى تلك الفترة، فى حين ابتعدت مصر عنها بشكل واضح وصريح. غير أن الطريق الذى انتهجه العراق انتهى به إلى تكوين حلف بغداد سنة ١٩٥٥. لكن حينما برز هذا الحلف للوجود حرصت الإدارة المصرية على محاصرته فى كل البلدان العربية. فاشتعلت معركة علنية بين مصر والعراق طيلة الفترة من ١٩٥٥ وحتى سقوطه سنة ١٩٥٨، وقع فيها الملك فيصل الثانى، ملك العراق، ونورى السعيد رئيس الحكومة، والدكتور فاضل الجمالى وزير الخارجية، فى مرمى

السهام المصرية. وتمت محاصرتهم فى كل الأماكن التى يستهدفونها. ومع أن الأرشيف المصرى قد رصد هذه المعركة رصدًا دقيقًا، إلا أن متابعة الأرشيف البريطانى لها كانت مختلفة ومميزة جدًا. خاصة وأن بريطانيا هى الراعية لهذا الحلف، بتوكيل من الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الأطلنطى. فالناظر للمتابعات البريطانية للموقف المصرى من العراق بعد تكوين حلف بغداد حتى سقوطه سنة ١٩٥٨، سيجد الكثير من التفاصيل التى غابت عن دراستنا العربية.

من هنا، فإن الجديد الذى تقدمه الدراسة هو اعتمادها بشكل أساسى على وثائق الخارجية البريطانية، سواء ملفات الشرق الأوسط، أو محافظ العراق، أو الملفات الخاصة بمصر، لدراسة الموقف المصرى من العراق خلال تلك الفترة. لترصد تلك المعركة الخفية والعلنية بين الطرفين، وتتابع تجليات الحرب الدعائية المصرية ضد العراق، مفرقًة بين النظام السياسى الذى يحكمه، والشعب العراقى. وترصد ردود الفعل العراقية الرسمية والشعبية حول هذا الأمر. فما كان يهم بريطانيا فى المقام الأول هو الحفاظ على مصالحها الاقتصادية فى المنطقة، ورعاية حلف بغداد من الانهيار. وبالتالى بذلت كل جهد فى رصد كل المنغصات التى تعترض تلك المصالح وتقف ضد الحلف. وفى هذا الإطار تنقسم الدراسة إلى خمسة محاور رئيسية:

المحور الأول: تباين موقف مصر والعراق من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط.

المحور الثانى: تكوين حلف بغداد.

المحور الثالث: الدعاية المصرية ضد العراق وتكوين حلف بغداد.

المحور الرابع: إختلاف المواقف المصرية من العراق بعد العدوان الثلاثى.

المحور الخامس: أثر الموقف المصرى فى قيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ وسقوط حلف بغداد.

المحور الأول: تباين موقف مصر والعراق من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط

استمرت العلاقات المصرية العراقية تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ، حيث استمرت قائمة عبر العصور على جميع المسارات، وممتدة فى مختلف المجالات. بل حظيت باهتمام كبير وعميق من جانب الكثيرين، حيث كانت محورًا لدراسات عديدة. لكننا فى هذه الدراسة لا يمكننا التطرق لاستعراضها، كون المساحة والموضوع لا يسمحان بإلقاء الضوء عليها. لذا فإننا سنركز على الموقف المصرى من العراق بعد تكوين حلف بغداد، وفى الفترة من ١٩٥٥ وحتى سقوطه سنة ١٩٥٨. وقبل الدخول لموضوع الدراسة سنمهد لها باستعراض موقف الدولتين من مشروعات الأحلاف الدفاعية قبل سنة ١٩٥٥.

وبطبيعة الحال لا يمكننا تتبع موقف مصر والعراق من مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط إلا بفهم العلاقة البريطانية مع العراق فهمًا جيدًا. حيث بدأ الاحتلال البريطاني للعراق في أواخر سنة ١٩١٤، فدان لها بالولاء تمامًا مع نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨، لكنه لم يصدر صك الانتداب البريطاني على العراق إلا في ١٧ يونيو سنة ١٩٢٠[(١)]. وبعد قمع ثورة العشرين، وانعقاد مؤتمر القاهرة في ١٢ مارس ١٩٢١ برئاسة وزير المستعمرات تشرشل، وحضور وفد من العراق، تم ترشيح الأمير فيصل بن الحسين[(٢)] باعتباره أنسب حاكم له[(٣)]. وتم تتويجه رسميًا فى ٢٣ أغسطس ١٩٢١ على أن تكون ملكيته دستورية نيابية[(٤)].

---

(١) حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز، فيشون ميديا – السويد، ٢٠٠٦، صص١٤-١٦، ١٩.

(٢) تولى الملك فيصل الأول كملك على العراق سنة ١٩٢١ ثم جاء من بعده الملك غازي، ثم تولى عبد الإله بعد مقتل الملك غازي كوصى على العرش، إلى أن تولى الملك فيصل الثانى، وبقى ملكا على العراق حتى سقطت الملكية سنة ١٩٥٨.

(٣) علياء محمد حسين: الخلاف بين الملك فيصل الأول والإنكليز حول السياسة في العراق؟، مجلة كلية الآداب، العدد ٩٥، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، ص٣٦.

(٤) حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز. المرجع السابق، ص٢٦، ٢٨.

وتجدر الإشارة إلى أن بريطانيا حاولت بعد تأسيس الدولة العراقية، وتتويج الملك فيصل الأول، الانفراد بالعراق وإبعاده عن أي نفوذ سياسي أجنبي عنه، وعلى نحو خاص فرنسا[١]. بعدها تقرر إدخاله فى عصبة الأمم، وإنهاء الانتداب البريطاني عليه، بشرط التزام الحكومة العراقية بعقد معاهدة جديدة مع بريطانيا. وعليه فقد بادر رئيس الوزراء نوري السعيد[٢] إلى بدء المفاوضات العراقية البريطانية في ٣١ مارس ١٩٣٠، إلى أن عقدت المعاهدة رسميا فى يوم ٨ إبريل ١٩٣٠[٣]. لكن بعد وفاة الملك فيصل الأول في ٧ سبتمبر عام ١٩٣٣، وتولي نجله الملك غازي استمرت العلاقة على حالها[٤]، إلى أن شهدت نهاية الحرب العالمية الثانية بداية لبروز الحرب الباردة. فبدأت تتحدد مناطق النفوذ بمناطق العمليات العسكرية. ومع اشتداد تلك الحرب، بلجوء الاتحاد السوفيتى إلى فرض أيديولوجيته الشيوعية على دول شرق أوروبا، ووقوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب دول غرب أوروبا[٥]، وصلنا إلى نقطة فارقة فى

---

(١) علي عبد الواحد الصائغ: العلاقات الدبلوماسية للعراق مع الجمهورية الفرنسية (١٩٢١-١٩٣٩)، مجلة القادسية فى الآداب والعلوم التربوية، العددان ٣، ٤، المجلد ٦، جامعة القادسية، العراق، ٢٠٠٧، ص١٧٩.

(٢) ولد نوري السعيد عام ١٨٨٨م في بغداد من عائلة متوسطة، وهو من الطائفة السنية، درس في الأكاديمية العسكرية في اسطنبول، وتخرج برتبة ملازم في الجيش العثماني، كما درس في كلية الأركان وتخرج منها، وانضم إلى مجموعة الضباط الذين التحقوا بالثورة العربية ضد الحكم العثماني بزعامة الملك حسين بن علي ملك الحجاز عام ١٩١٦، كما انضم إلى الملك فيصل الأول عندما تولى عرش سوريا. لكن القوات الفرنسية أسقطت نظام حكم الملك فيصل وطردته من سوريا، وقرر البريطانيون فيما بعد تنصيبه ملكًا على العراق. وكانت لنوري السعيد حصة الأسد في قيادة العراق حيث شكل أربعة عشر وزارة خلال الحقبة الملكية التي دامت ٣٧ عامًا. للمزيد انظر، حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. رجل المهمات البريطانية الكبرى، دار فيشنو ميديا كرونبري للطباعة والنشر، ص ١٢.

(٣) حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز. المرجع السابق، ص٤٧، ٤٨.

(٤) علي عبد الواحد الصائغ: المرجع السابق، ص١٨٠.

(٥) سيد محمد عبد العال: الموقف السوفيتي من مشروع أيزنهاور ١٩٥٧-١٩٥٨، العدد الثامن عشر من مجلة كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي، ص١٧٥.

تحديد المعسكرات وبناء التحالفات. وفى هذا الإطار لم تسلم منطقة فى العالم لمحاولات الاستقطاب من كلا المعسكرين، الغربى والشرقى. وكان استكمال الثغرة التى نتجت على أثر تأسيس حلف الناتو فى نهاية الأربعينيات، أن دخلت مصر والعراق فى هذا الاستقطاب لمشروع الدفاع عن الشرق الأوسط. فعندما تأسس حلف الأطلسى لمقاومة النفوذ السوفيتى، وكانت نصوصه لا تقضى بتقديم المساعدة لأعضائه خارج أوروبا، لذا نُظر إلى منطقة الشرق الأوسط باعتبارها واحدة من المناطق التى تستكمل هذا النقص(١).

وبدت موافقة العراق على مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط جلية واضحة. ففى مذكرة الشئون العربية فى ٤ مايو ١٩٤٩ اعتبر بيان وزير الدفاع العراقى أن الدفاع عن الشرق الأوسط لابد وأن تشترك فيه الدول العربية. مشيرًا بأن تركيا أصبحت خط الدفاع الأول عن الشرق الأوسط، وأنه لا مفر من إقامة خط ثانى من البلاد العربية المتحالفة مع بريطانيا. حيث اقترح إيجاد هيئة أركان حرب مشتركة من البلاد العربية وبريطانيا، تعمل على تنسيق الدفاع ووضع الخطط(٢). وإذا كان العراق قد دخل فعليا فى منظومة الدفاع عن الشرق الأوسط إلا أن عرضه على الدول العربية، وعلى رأسها مصر، لدخول هذه المنظومة اقتصر على الطلب فقط. ولهذا أدخلت بريطانيا طرفا آخر ليعرض على الإدارة المصرية هذا الموضوع. حيث تشير مذكرة الإدارة السياسية لقسم بريطانيا وأمريكا بوزارة الخارجية المصرية فى ١٤ فبراير ١٩٤٩ بالاقتراح المقدم لمصر من قبل الهند بشأن تكوين اتفاقيات مشتركة بين الأمم الأسيوية، وأنه بدلًا من تكوين كتلة أسيوية عامة، فلابد من تكوين عدة كتل منفصلة، على رأسها إطار يتكون من

---

(١) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى أفريقيا ١٩٥١-١٩٥٨، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١٢٦.

(٢) مذكرة الشئون العربية فى ٤ مايو ١٩٤٩ حول ملاحظات على بيان وزير الخارجية العراقى، ملف ٤، رقم ٣٨/ ٢٦/ ٢٣، مشروع اتفاقيات مشتركة بين بعض الدول الآسيوية والدول العربية، محفظة رقم ٢٤٣ (رقم ٢٤٢ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص٢، ٣.

مصر وإثيوبيا وسوريا ولبنان واليمن والعراق وإيران والحجاز وأفغانستان ونيبال وباكستان والهند، وطلبت معرفة رأى الحكومة المصرية قبل أول مارس ١٩٤٩. ولما كان من الصعب السير فى سياسة أسيوية تتزعمها الهند، كى لا يكون انضمامها إضعافا لكيانها الدولى، كان الرأى وجوب معرفة خباياها عن طريق سفارة مصر بالهند(١). ويبدو أن موافقة العراق على مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط كان شفويا، حيث تخبرنا إحدى الوثائق المصرية بتاريخ فبراير ١٩٥٠، بأن فشل بريطانيا فى عقد أى تحالفات مع مصر والعراق، وخروجها من فلسطين، وجلائها من بعض المناطق، قد أحدث ثغرة فى الدفاع. لذا رغبت فى عمل تكتل يكفل أمنًا جماعيًا. حيث دعمت بريطانيا مشروع إسلامستان ممثلًا فى قيام وحدة اقتصادية بين باكستان والدول العربية والإسلامية. حيث دعمت بريطانيا هذا المشروع لرغبتها فى تكوين أى تكتل يقف ضد السوفيت، ويوفر عليها انتقاد وقوفها بجانب الهند(٢).

وفى هذا الإطار تكشف لنا محادثة بين أحد الوزراء البريطانيين ووزير الشؤون الخارجية التركى في ستراسبورغ فى ١٥ أبريل ١٩٥٠ حول الشرق الأوسط، بأن الحوار دار حول ما إذا كانت هناك فرصة لمناقشة المسائل مع النحاس باشا منذ توليه منصب رئاسة الوزراء، والشعور بالقلق حول الموقف في مصر. فالحكومة المصرية ليس لديها الرغبة في استمرار الاحتلال العسكري بالمعنى القديم، ولكن لم يكن هناك مهرب من حقيقة أن منطقة القناة كانت حيوية للدفاع عن الشرق الأوسط، ولابد من

---

(١) مذكر الإدارة السياسية لقسم بريطانيا وأمريكا بوزارة الخارجية المصرية فى ١٤ فبراير ١٩٤٩ بشأن ما تقترحه حكومة الهند من انضمام مصر إلى الاتفاقيات المشتركة المزمع تكوينها بين الأمم الآسيوية، ملف ٤، رقم ٣٨/ ٢٦/ ٢٣، مشروع اتفاقيات مشتركة بين بعض الدول الآسيوية والدول العربية، محفظة رقم ٢٤٣ (رقم ٢٤٢ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص١، ٢.

(٢) مذكر الإدارة الاقتصادية فى فبراير ١٩٥٠ بشان مشروع إسلامستان للتكتل الاقتصادى، ملف ١، رقم ٤٥/ ٤/ ١٣، مسائل اقتصادية الكتلة الإسلامية إسلامستان، محفظة رقم ٢٦٥، أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص ١، ٢.

وجود تفاهم حول المسألة. وكان هناك رضاء بريطاني حول موقف ممثلي الكومنولث في مؤتمر كولومبو نحو الشرق الشرق الأوسط. حيث قرر بأن تنهمك بريطانيا بعمليات سلاح الجو وتقدم المشورة الفنية للسوريين شريطة أن يقوموا ببناء مطارات على نفقتهم، ويستعدوا لاستقبال زيارات من RAF. وفى هذا الإطار تشير الوثيقة بأن تركيا كانت ترغب فى استمرار الوجود البريطاني في مصر وفى شمال أفريقيا. لكنها تقطع بأن مصر كانت واحدة من الصعوبات في هذا المجال، لهذا اتفق الطرفان، التركى والبريطانى، على أن يعملا سويا على جذب مصر لهذا الأمر، وإبعادها عن الدول العربية[١].

ومن المؤكد أن التحركات المصرية ضد بريطانيا، وضد مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط، قد جعلت العراق يعيد النظر فى علاقته معها أيضا. حيث تشير إحدى وثائق الخارجية البريطانية بتاريخ ٢٨ نوفمبر ١٩٥٠ بأن هناك رغبة عراقية فى تعديل معاهدة سنة ١٩٣٠، وأن هذه الرغبة مستمدة من مشاعر عدم رضا المصريين على معاهدة ١٩٣٦، وأن العلاقة مع بريطانيا يجب أن تستند على المبادئ التي لا تؤثر على سيادة العراق ودينها وكرامتها الوطنية. وأنه لا يجوز للأجنبي الاحتفاظ بقواعد عسكرية في أراضي العراق في وقت السلم، وأن التعاون مع الأشقاء المصريين في ضوء هذه المبادئ للتوصل لحل تلك المسألة هو أمر حيوى جدا[٢]. ومع ذلك فإن ما تشير به وثيقة أخرى بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٥٠ بأن التضامن مع مصر في طلبها لتنقيح معاهدة ١٩٣٦؛ ما هو إلا للاستهلاك الداخلي فقط. مشيرةً بأن الموقف المصرى غير المهادن للمستعمر البريطانى كان نموذجا يقتديه العراق الرسمى أحيانا للسيطرة على

(1) F.O.487-4, Further Correspondence Respecting Middle East(General), Part 4. January to December 1950, No.2, Conversation between the Secretary of State and the Turkish Foreign Minister about the defence of the Middle East, Part II. Middle East, Present: Mr. Bevin. M. Sadak.Mr. Barclay, pp.3, 4.

(2) F.O.481-4, (18434): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 4January to December 1950, No. 15, (1) Nuri Pasha's views on the 1930 Portsmouth Treaty, Sir H. Mack to Mr. Bevin. Received 28 November (Bagdad, Telegraphic) 28 November, 1950., p.23.

الشارع العراقى المحلى. وأن خشية نوري السعيد من هجوم الصحافة عليه، هو الذى جعله يصمم كلامه عن تغيير معاهدة ١٩٣٠ للاستهلاك الداخلي. لهذا تختم الوثيقة حديثها بنصيحة الإدارة البريطانية «بأنه لابد من إحداث تغيير فى الموقف المصرى من الدفاع عن الشرق الأوسط»(١). وعلى هذا يتضح لنا أمرين: الأول، أن الموقف المصرى الرافض للمشروع كان بإمكانه أن يتمدد وينتشر بصورة طبيعية لولا التحركات البريطانية التالية. الثانى، أن الموقف المصرى لم يرتبط بثورة يوليو ١٩٥٢، بل كانت خشية العراق من مصر موجودة وقائمة قبل وقوعها. وهذا ما يدلل على تبنى النظام العراقى للموقف المصرى أحيانا للاستهلاك المحلى.

وأحسب أن التطورات التى لحقت بالمشروع سنة ١٩٥١ وجهت هدفها نحو دفع الخطر الشيوعي عن منطقة الشرق الأوسط من خلال إنشاء حلف «الحزام الشمالي» من الدول التى تقع جنوب الاتحاد السوفيتي مباشرة، وهى باكستان وإيران والعراق وتركيا. وكان الأمر يتطلب إنشاء قيادة متحالفة بالمنطقة تشترك فيها الدول القادرة على الدفاع عنها. لهذا قدمت الرباعية، والتى تتكون من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وتركيا، مقترحاتها لمصر فى ١٣ أكتوبر ١٩٥١م، للدخول فى هذا المشروع. غير أن رفض مجلس الوزراء المصري بجلسته المعقودة في ١٤ أكتوبر ١٩٥١م لتلك المقترحات(٢)، قد أبطل التحركات البريطانية وأفشلها. وفى هذا الإطار تخبرنا رسالة ستيفنسون إلى موريسون تحت عنوان «مصر ونظام الدفاع عن الشرق الأوسط»، فى١٥ أكتوبر ١٩٥١، بلقاء تم بينه وبين وزير الشؤون الخارجية المصرى يوم السبت ١٣ أكتوبر، أبلغه فيه أن الحكومة الملكية المصرية لا يمكنها النظر في مقترحات الرباعية لثلاثة

(1) F.O.481-4 (18434): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 4, January to December 1950, No. 15, (2) Solidarity with Egypt in its demand for revision of the 1936 Treaty; His Majesty's Ambassador's comment that the speech was designed for internal Consumption, Sir H. Mack to Mr. Bevin. Received 29 November (Bagdad, Telegraphic) 29 November, 1950., p.24.

(٢) سيد محمد عبد العال: المرجع السابق، صص ١٧٧-١٨٠.

أسباب: أولها، بقاء القوات البريطانية تحتل مصر والسودان. ثانيها، أن المقترحات المذكورة تختلف من حيث المضمون عن المقترحات التي عرضتها حكومة المملكة المتحدة على الحكومة المصرية فى ١١ أبريل، و٨ يونيو ١٩٥١، ورفضتها الحكومة المصرية حينها جملة وتفصيلا. ثالثها، أنه ينبغى على بريطانيا ومصر إبلاغ واشنطن وأنقرة وباريس بهذا الأمر في أقرب وقت ممكن(١). ويبدو أن الرفض المصرى المتتالى للمشروع قد جعل إحدى الوثائق البريطانية تشير فى أواخر مايو سنة ١٩٥١ بأن علامات التوتر الكامن بين مصر والعراق تظهر بشكل واضح. وأن ملامح التوتر الخفي والعلنى يتضح جيدًا فى انقسامهما حول تقديم المساعدات العسكرية لسوريا(٢).

وحينما أعلن فى أغسطس عام ١٩٥٢م عن مشروع جديد تحت اسم «منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط»، والذى انتظمت فيه الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وتركيا، بالإضافة إلى استراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا، وجعلت جزيرة رودس مقرًا لقيادته، رفضت الإدارة المصرية الانضمام إليه إلا بعد جلاء بريطانيا عن قاعدة السويس(٣). وبطبيعة الحال فإن هذا الرفض المستمر جعل إحدى الوثائق البريطانية تشير بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٥٣ تحت عنوان «قرار حكومة الولايات المتحدة بإقامة مهمة تدريبية في إثيوبيا»، بأن هذا القرار قد أوجد اهتمامًا كبيرًا. فحين فشلت بريطانيا مع مصر فى الشرق الأوسط، راحت ترصد التحركات الأمريكية فى الحصول على تسهيلات مستمرة في راديو مارينا، بشرط تدريب القوات الإثيوبية. وتؤكد على أن إثيوبيا تحاول أن تحل محل مصر، وتعلن عن رغبتها في الانضمام إلى أي

---

(1) F.O. 407-230: Further Correspondence Respecting, Egypt, Part 5, January to December 1951, Secret, No. 35, Egypt and the Middle East defence system, Sir R. Stevenson to Mr. Morrison. (Received 15th October) (No. 744) Alexandria, (Telegraphic) 15th October, 1951. Cairo telegram No. 113. pp.80, 81.

(2) F.O.487-5, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 5, January to December 1951, NO.10, 14th Session of the Arab League Council, Mr. Montagu-Pollock to Mr. Morrison. Received 26th May (No. 78) Damascus. 22 nd May, 1951 pp.12, 13.

(٣) سيد محمد عبد العال: المرجع السابق، ص١٩١.

منظمة تنشأ للدفاع عن الشرق الأوسط، رغم وقوعها خارج منطقة الشرق الأوسط جغرافيًا. وتعترف الوثيقة بطموح الإمبراطور هيلاسلاسى وأنه يريد أن يلعب دورًا. غير أن الإدارة البريطانية رفضت هذا الطلب(١). ومما سبق يتضح بأن موافقة العراق على المشروع قد أبطله الرفض المصرى دومًا. وهذا يعنى أن البلدين قويان إذا اتحدا على هدف، ومتنازعان إذا اختلافا عليه.

ولم يكن قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر حدثًا عاديًا لهذا أثر كثيرًا فى سياسة العراق الداخلية والخارجية. فقد نشرت ثورة يوليو مفهوم الوعى القومى والحركات الثورية، وعملت على تأجيج الصراع بين السلطة الحاكمة فى العراق والتيارات المقاومة لها، فحدثت انتفاضة نوفمبر ١٩٥٢(٢). ويبدو أن الموقف العراقى الرسمى من مشروع الشرق الأوسط كان سببًا رئيسيًا فى تلك الانتفاضة. ولكن حين بلغ الملك فيصل الثاني في ٢ مايو سنة ١٩٥٣، سن الرشد وتولى مهامه الدستورية ملكًا على العراق(٣)، لم تكن هناك مشكلة حول المشروع. وهذا ثابت فى الوثائق البريطانية، فحسبما تشير إحدى الوثائق بتاريخ ٧ يوليو ١٩٥٣ تحت عنوان «موقف البيت الهاشمي في العراق» بأن هناك ازدواجية فى السياسة العراقية، وأنها أحد الأسباب التي أدت إلى تدهور مطرد في الوضع الداخلي. حيث كان هناك قلق من البيت الهاشمي المالك، بما يؤثر على الوضع السياسي المستقر خلال اثني عشر عاما السابقة(٤).

---

(1) F.O.487-7, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 7, January to December 1953, No. 4, United States Governiment 's Decision to Establish A Training Mission in Ethiopia, Mr. Eden to Mr. Bell (Addis Ababa) (No. 8. Confidential) Foreign Office, 28th January, 1953. p.5.

(٢) فواز حماد محمود: العلاقات العراقية المصرية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد الأول، مارس ٢٠١٢، صص١٦٨، ١٦٩.

(٣) حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. المرجع السابق، صص٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٧-٢٢٩.

(4) F.O.481-7, Secret (19273): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 7,January to December 1953, No. 5,The Position of the Hashemite House in, Sir J. Troutbeck to Lord Salisbury.(Received July 16, (No 119. Secret) Bagdad, July 7, 1953, p.18.

وإذا كانت الإدارة البريطانية قادرة على التحكم فى مجرى الأمور العراقية إلا أنها كانت فاشلة تمامًا على الجانب المصرى. لذا استمرت محاولاتها لضمها لمشروع الشرق الأوسط بشكل دورى ومستمر. وخطاب القائم بالأعمال فى السفارة المصرية بكراتشى إلى وكيل الخارجية فى ٥ فبراير ١٩٥٤، يشير إلى محاولات غربية مستمرة لإشراك مصر فى مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط. لكنه يقطع أيضًا باستمرار الرفض المصرى كانت له أسبابه: أولها، عدم الزج بالدول العربية فى صراع عالمى. ثانيها، عدم التسليم بحق مصر فى مسألة قناة السويس. ثالثها، أن رفضها هذا كان ينفر الدول العربية من الانضمام للمشروع، ويعطل جبهة الدول الغربية عن تحقيق مأربها(١). ويشير خطاب سفير مصر فى بون إلى وكيل الخارجية بشأن مباحثات مؤتمر الدول التسع فى لندن فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٤، بأن الهدف من إنشاء منظمة الدفاع عن أوروبا، لتكون تابعة لحلف الأطلسى، وتساهم فيها بريطانيا وفرنسا وألمانيا وعدد من الدول الأوروبية، وتشترك بها بريطانيا بأربع فرق للدفاع عن أوروبا، وتساهم أمريكا بنفس العدد فى الجيش الأوروبى على اعتباره من منظمات حلف الأطلسى، وتدخل ألمانيا وإيطاليا للدفاع عن أوروبا، وبالتالى الاشتراك فى حلف الأطلسى بطريق غير مباشر(٢)، كل ذلك يقطع بأن الإدارة المصرية أوقفت برفضها مشروعا أوروبيا طموحا، ظل العراق يراه فى مصلحته.

المحور الثانى: تكوين حلف بغداد

الحلف فى عرف القانون الدولى هو علاقة تعاقدية بين دولتين أو أكثر، يتعهد

---

(١) خطاب القائم بالأعمال فى السفارة المصرية بكراتشى، عز الدين أمين، إلى وكيل الخارجية، فى ٥ فبراير ١٩٥٤، ملف ١، رقم ٣٨/ ٢٦/ ٣٠، حلف تركيا – باكستان، محفظة رقم ٢٤٧ (رقم ٢٤٦ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، فيلم ٥٤ بريتوريا، محفظة ٨٤، أرشيف البلدان، خارجية.

(٢) خطاب سفير مصر فى بون إلى وكيل الخارجية بشأن رفع تقرير مستشار أول السفارة أحمد عبد المجيد بشأن مباحثات مؤتمر الدول التسع فى لندن، فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٤، ملف ٢، رقم ٢٠٤/ ٧/ ١ مكرر، تقارير بون السياسية، محفظة رقم ٦١٩، أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص١، ٣.

بموجبها الفرقاء المعنيون بالمساعدة فى حالة الحرب(١). وحتى يتكون أى حلف لابد من أن يمر بفترة طويلة من الاستعدادات والمقاربات وحفظ التوازنات. وخير مثال على هذا هو موضوع محورنا، حلف بغداد. فقد عرفنا من المحور السابق بأن مشروع الشرق الأوسط كان هو المشروع المطروح على المنطقة منذ أواخر الأربعينيات. وأن مصر والعراق كانتا على طرفى النقيض من هذا المشروع، وعلى هذا فإن الخطوات التى حدثت منذ سنة ١٩٥٤ وصاعدا، ما هى إلا استكمال لذلك المشروع وصياغته تحت مسمى حلف بغداد. وقبل أن نتحدث عن مناقشة الوثائق البريطانية لهذا الأمر، نعرض للخطوات التى تابعتها الوثائق المصرية قبل تكوين حلف بغداد. حيث يشير خطاب سفير مصر بدمشق إلى وكيل وزارة الخارجية فى ١٨ يونيو ١٩٥٤، لزيارة رئيس الوزارة الباكستانية لأنقره، ومروره بدمشق فى ١٦ يونيو ١٩٥٤ بهدف دعم الاتفاقية العسكرية المعقودة بين تركيا والباكستان، ثم إقناع بعض الدول العربية للانضمام إلى هذا الاتفاق الذى يرمى إلى دعم الدفاع الذى تريده أمريكا ودول الغرب ضد روسيا فى هذه المنطقة من الشرق الأوسط. وانتقدت الوثيقة الاتفاقية لسببين: أولهما، أنها قد تتسبب فى تصدع جامعة الدول العربية إذا تم انضمام بعض الدول العربية إليها. ثانيهما، أنها ستتسبب فى عزل مصر عن باقى الدول العربية، وإضعاف مركزها فى مفاوضتها مع انجلترا للجلاء عن قناة السويس عقابا لها لعدم موافقتها على الانضمام لأى حلف غربى للدفاع عن الشرق الأوسط(٢).

ومن المؤكد أن الوثائق البريطانية لم تغفل الخطوات التمهيدية لحلف بغداد، حيث تشير المحادثة بين وزير الدولة البريطانى ووزير الشؤون الخارجية العراقية فى ٢٨ يوليو ١٩٥٤ بأن الحكومة العراقية بعد أن هنأت الحكومة البريطانية على تسوية المسألة

(١) محمد عزيز شكرى: الأحلاف والتكتلات فى السياسة العالمية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص١١.

(٢) خطاب من سفير مصر بدمشف، اللواء على نجيب، إلى وكيل وزارة الخارجية، فى ١٨ يونيو ١٩٥٤، ملف ١، رقم ٣٨/ ٢٦/ ٣٠، حلف تركيا – باكستان، محفظة رقم ٢٤٧ (رقم ٢٤٦ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية،، فيلم ٥٤ بريتوريا، محفظة ٨٤، أرشيف البلدان، خارجية.

المصرية، طلبت منها أمرين: أولهما، عقد معاهدة جديدة مع المملكة المتحدة، وإعادة النظر في المعاهدة الإنجلو-عراقية. ثانيهما، توفير المساعدات البريطانية للعراق، وحمايتها من أي هجوم روسي(١). غير أن وثيقة أخرى مؤرخة فى ٢٠ يوليو ١٩٥٤ تفضح الدور الذى لعبته بريطانيا فى المجئ بنورى السعيد لتنفيذ خططها. حيث تتطرق الوثيقة إلى ثلاثة أمور تكشف هذا الدور وتوجزه: الأمر الأول، الأحاديث التى دارت بين وزير الدولة البريطانى والسيناتور نوري السعيد فى الفترة ما بين ١٤ و ١٦ يوليو ١٩٥٤ للتعرف على ما إذا كان السعيد سيقدم الدعم له، ويتعاونا سويا مع الآخرين فى مكافحة العناصر الشيوعية. وهنا تفضح الوثيقة العروض التى قدمها نوري السعيد لينال الرضا البريطانى. فقد عبر عن عدم نيته فى تشكيل حكومة تتضمن «عناصر الضعف»، مشيرا لصالح جبر ومؤيديه. وكأن يلمز فى الرجل ويطعن فيه حتى لا يحظى بالدعم البريطانى. بل إن قوله: «بأنه يدرك جيدا بأن السفير البريطانى كان يدعو صالح جبر للتعاون معه، إلا أنه كان يصر على رأيه»، يعبر بأنه من المرونة بمكان للتعامل مع الموقف. بل إن إضافته «بأنه غير مستعد للتعاون معه إلا إذا نبذ سياساته الغوغائية علنا، وأعطته الجماهير دعمها، وأنه لا يوجد صراع شخصى بينه وبين صالح جبر إلا أن طموحات الأخير وضعته فى موقف حرج، حيث كان يقدم وعود غير مسؤولة للفوز بالدعم الشعبي، جعلته يرى فى نفسه أنه كسعد زغلول أو النحاس، مع أنه في الواقع ليس لديه برنامج سياسي يستحق النظر»، يضعنا أمام رجل يستخدم خصمه كفزاعة للبريطانيين. الأمر الثانى، أنه عند الضغط عليه من قبل وزير الدولة، حول شكل الحكومة التى يعمل معها، عبر تعبيرا يسوق فيه نفسه للبريطانيين تسويقًا جيدًا. فحين ذكر «بأنه سيشكل حكومته من أوسع نطاق ممكن، وبأنه سيضم أي شخص من شأنه أن يساعد فى بناء سياسات مقبولة يعمل على تنفيذها، وأن هذا

---

(1) F.O.487-8, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 1, January to December 1954, No. 8, Conversation between the Minister of State and the Iraqi Minister for Foreign Affairs on July 28, 1954, Mr. Eden to Mr. Hooper (Bagdad) (No. 141. Confidential) Foreign Office,, August 4, 1954. p.5.

قد يشمل صالح جبر، مع أنه يشك فى أن الأخير سيخضع بما يكفى للعمل تحت قيادته، لكنه يملك من البدائل والحلول ما يكفى»، فهذا يعنى أن الرجل يملك خيارت أوسع من منافسه على المنصب(١).

الأمر الثالث، أن حديثه المشكوف عن المشروعات البريطانية فى المنطقة يقطع بأن الرجل كان يمتلك من الخبرة ما يقنع المسؤلين البريطانيين به بشكل مستمر. فحين عبر «بأن نظام الدفاع الإقليمي يمكن وضعه على أساس عربي بمشاركة مصر، وأن هذا سيتوقف على التقدم فى المفاوضات الأنجلو مصرية، وأن هذا سيتطلب تغييرا فى الموقف العربى وسياساته، وأنه لم يكن راغبا في ما فعلته مصر، وأنها يمكن أن تدخل في هذه المجموعة إذا رغبت، بشرط أن تتركهم وشأنهم إذا رفضت» يدلل على أن الرجل يدرك ما يفكر فيه البريطانيون، ويقدم لهم الإجابات التى تريحهم وتطمئننهم. ولعل رصد الوثيقة الخلاف المصرى العراقى حول هذا الأمر يعد خير مثال على رؤية الرجال حول مستقبل العلاقة مع مصر حول المسألة. فحين عبر نورى السعيد «بأن العراق لا يمكنه مغادرة الجامعة العربية، وأنه من غير المتوقع أن تتصرف مصر جيدا بما فيه الكفاية لايجاد حل ممكن، حيث درج المصريون على مهاجمة العراق وعلاقاتها مع باكستان، وأن هذا سيظهر للإنجليز خلال مفاوضاتهم فى ٤ أغسطس القادم»، يشى بأن العلاقة بين البلدين كانت متوترة حول الخطوات التى تتخذها العراق قبل ظهور الحلف بشكل رسمى. بل إن استدعائه لرسالة سابقة بتاريخ ٢٥ يونيو، وإحاطته فيها الإدارة البريطانية علما بشأن المقابلة التى جرت بين الدكتور فاضل الجمالي، وزير الخارجية العراقى، ووزير الدولة البريطانى حول الدفاع بحزم عن الترتيبات مع الغرب، حتى وإن كانت هى السياسة الوحيدة لعزل مصر»، يشير إلى أن البديل العراقى لعزل مصر فى حالة رفضها

(1) F.O.481-8 (19572): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 8,January to December 1954, No. 15, Conversation between the Minister of State and Senator Nuri Said on July 15 and 16, 1954, Mr. Eden to Mr. Hooper (Bagdad), (No. 130. Secret) Foreign Office, July 20, 1954, p.28-30.

لحلف بغداد كان قائمًا. بل كانت خطة تقوية معاهدة باكستان العراق الدفاعية، من خلال ربط سوريا ولبنان بها، بديلًا عراقيًا مطروحًا فى حالة انسحاب القوات البريطانية من السويس. فهذا من شأنه إعطاء تلك الأطراف خطوط اتصالات مع البحر الأبيض المتوسط. ولعل انتهاء الوثيقة بطرح رؤية السعيد «بأنه حان الوقت لوضع نهاية للمؤامرات المصرية السعودية في سوريا ولبنان، وقيام الحكومة الفرنسية بممارسة نفوذها لدفع سوريا ولبنان لإقامة علاقة مع العراق» تثبت بأن الرجل كان هو المطلوب وصوله للسلطة فى تلك الفترة. وبالتالى لا يهم إجابته حول استفسار السفير البريطانى فى بغداد حول ما إذا كان العراق يهدف إلى احترام سيادة سوريا واستقلالها، «بأنه ليس لديه الرغبة فى إحداث تغيير فى الوضع السياسي لسوريا أو أنه يطلب من بريطانيا بأن تقوم بفعل شيء من شأنه إثارة العداء بين الفرنسيين والسوريين، وأن رغبته تتمثل فى توثيق التعاون بشأن الدفاع والتجارة والمسائل الجمركية والاتصالات»(١)، يثبت بأن الرجل كان مستعدا لتلك المرحلة، وأن بريطانيا وجدت فيه ضالتها المنشودة.

وفسرت لنا إحدى الوثائق البريطانية الظروف القاسية التى تولى فيها نورى السعيد الوزارة. فقالت بأنه منذ استقالة حكومة الدكتور فاضل الجمالي في أبريل عام ١٩٥٤، وتزايد الجمود في البرلمان، وتصاعد موجة التحريض في البلاد، كان الرجل هو الأمل فى حل تلك العقبات. حيث دعى على أرشد العمري لتشكيل الحكومة وعقد الانتخابات لكنه لكبر سنه وقضائه فصل الصيف في اسطنبول بعيدا عن حرارة بغداد وغبارها لم يكن رئيسا للوزراء جيدا لتلك الفترة. فلم يحل مشكلة البرلمان ولم يحل مشكلة إثارة المشاعر القومية والعداوات المحلية. وكان الوضع ينذر بكارثة لذا قدم استقالته دون انتظار لعقد البرلمان وغادر إلى تركيا، فجاء نورى السعيد ليهيئ الأوضاع(٢).

---

(1) Ibid.

(2) F.O.481-11, (20974): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 11,January to December 1957, No. 7, The achievements of Nuri Said, Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. {Received July 9, No. 176. Confidential) Bagdad, July 4, 1957, p.23.

ولعل المحادثة بين وزير الخارجية العراقى ووزير الخارجية البريطانى في ٢٨ يوليو ١٩٥٤ حول التسوية المصرية البريطانية، والتى أشار فيها الوزير العراقي إلى ضرورة عقد معاهدة جديدة بينهم وبين المملكة المتحدة؛ وأن هدفها الأساسى هو توثيق التعاون بين الدول العربية، جعل الحكومة البريطانية تقر بذلك، وتقبل تشكيل حكومة عراقية جديدة بقيادة نوري السعيد(١). الأمر الذى جعله يؤلف وزارته الثانية عشرة في ٣ أغسطس ١٩٥٤، بهدف رئيسى وهو ربط العراق بالأحلاف الغربية. فما كان منه إلا أن أصدر عدة مراسيم، أراد بها أن يستبق الأحداث ويقمع أية معارضة شعبية ضد الحلف المزمع إنشاؤه. معلنًا الحرب على الأحزاب والجمعيات والصحف، والنقابات الوطنية، وحتى النوادي الاجتماعية(٢). لكن ما قالته إحدى الدراسات من أن عودته للحكم قد تمت بناءً على توصية السفارة البريطانية لينفذ المخطط البريطاني الأمريكي الهادف إلى ربط العراق بحلف بغداد(٣)، يغاير ما قالت به الوثائق البريطانية التى عرضناها. فقد كانت الخارجية قبل السفارة هى التى تولت ترتيب المسألة، وأن الرجل أُختبر شفهيًا، ونجح فى هذا الاختبار.

وإذا كانت الوثائق البريطانية لم تغفل الاستفسار من نورى السعيد عن تصورات لمواجهة الانتقاد المصرى لموقفه من الحلف المزمع إنشاؤه، فإنها لم تغفل أيضا التحركات المصرية الواعية لتحركات الطرفين والراصدة لها. ولعل حديث إحداها عن محادثة جرت بين أحد المسؤلين البريطانين ومسؤلين مصريين فى ١٥ ديسمبر ١٩٥٤، ونقاشها للآثار المترتبة على الموقف المصرى الداعم لإقامة حلف الأمن العربي، واعترافها بأن هذا يناقض اتفاقية الجلاء، ويناهض عمل أى ترتيبات بين

(1) F.O.481-8 (19572): Op.Cit., No. 16,Conversation between the Minister of State and the Iraqi Minister for Foreign Affairs on July 28, 1954, Mr. Eden to Mr. Hooper (Bagdad), (No. 141. Confidential) Foreign Office, August 4, 1954, p.30, 31.

(٢) حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٣) حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز، المرجع السابق، ص٥٩، ٦٠.

الدول العربية والغرب، يثبت بأن بريطانيا كانت منزعجة من المواقف المصرية المعلنة والمستقبلية. وهو الأمر الذى جعل الإدارة البريطانية تعمل على تغيير موقفها. فختام الوثيقة «بأنه على الرغم من أن وضع اتفاقية الأمن العربى كان ضد إسرائيل، إلا أنها ترغب فى أن تكون أساسا للدفاع ضد روسيا السوفيتية»[١]، يقطع بأنها كانت تدرك عواقب خطوة إعلان الحلف، وأن التحركات المصرية مربكة.

وفيما يتعلق بموقف الإدارة المصرية من التقارب التركى العراقى، تشير إحدى الوثائق البريطانية أن الصحافة المصرية شنت فى الفترة من ١٨-٢٥ يناير ١٩٥٥ حملة دعائية عنيفة ضد نوري باشا بمناسبة اقتراح الحلف التركى-العراقى. وأن هذه الدعاية قد أحدثت اضطرابات عنيفة فى العراق فى المدة من ٢٢-٢٤ يناير، رغم تأكيد الداخلية العراقية بأنها على ثقة من وقوفها في وجه الضغوط التى وضعت عليها. وتستمر الوثيقة فى عرض تلك التأثيرات وتختزلها فى أمرين: الأول، حدوث اعتقالات لثلاثين طالبًا من كليتى القانون والتجارة بتهمة إثارة التحريض ضد الحكومة في سياستها التركية. الثانى، انتهاج وزارة نورى السعيد سياسة قمعية ضد الشيوعيين والمحرضين، للقضاء على الاضرابات التى استمرت طيلة شهور يناير وفبراير ومارس. غير أن الوثيقة عبرت عن ضرورة الأخذ في الاعتبار الصعوبات الداخلية التي يواجهها رئيس الوزراء المصرى. مفسرة موقف الحكومة العراقية بأنها إذا رفضت التحالف مع تركيا فسوف يكون موقفها غاية فى الصعوبة. وأنها إذا فشلت فإن سياسة الدفاع الإقليمي ستفشل في المستقبل القريب. مؤكدة على أن ظروف الدول العربية جميعها مواتية لإطلاق خطة الدفاع الإقليمي. وأنه من المؤسف ألا تكون مصر غير قابلة بهذا الأمر، مع أن مبادرة نوري السعيد تقول بأن تحالفًا مع تركيا

---

(1) F.O.487-8, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 8, January to December 1954, No. 16, Mr. Shuckburgh's Conversations with Egyptian Ministers... Uiscussions on Israel, Jordan, Turco-Pakistan-Iraqi Pact and Relations with the West, Mr. Murray to Sir Anthony Eden. (Received December 20) (No. 228. Confidential) Cairo, December 15, 1954, p.55.

هو خطوة في الاتجاه الصحيح، وأنه لابد من دعمه وتأمين المصالح البريطانية في هذا المجال[١]. وهذا يعنى أن الإدارة البريطانية كانت على علم بالخلافات الموجودة بين مصر والعراق لأنها السبب فيها، وأنها انحازت للطرف المؤيد لخططها، والداعم لمشروعها.

وإذا نظرنا للوثائق المصرية المتعلقة بإقامة الحلف، ثم استعرضنا الوثائق البريطانية ورؤيتها لنفس الموضوع، لوجدنا فارقًا كبيرًا. فهناك خفايا وأسرار يكشفها البحث لأول مرة. ولنبدأ بالوثائق المصرية لنتعرف على هذا الفارق بينها وبين رؤية الوثائق البريطانية للموضوع فيما بعد. حيث تشير رسالة وزير مصر المفوض بالفاتيكان إلى وكيل وزارة الخارجية فى ١٥ فبراير ١٩٥٥ بأن المفوضية المصرية هناك كانت أول من أرسلت خطابا للإدارة المصرية عن نوايا العراق لإقامة حلف بغداد. فقالت عندما تقدمت العراق للدول العربية بمشروع يقضى بإيجاد وحدة عربية واقتصادية وسياسية وقانونية على أن يترك لكل دولة تحديد الموقف الذى تراه منها، بأن ما تسعى إليه العراق هو الوصول بالجامعة العربية إلى التكتلات الثلاث: أولها، العراق ألاردن سوريا. ثانيها مصر والسودان وليبيا. ثالثها، السعودية واليمن والمحميات الجنوبية. وأن هذا يتمشى مع سياسة بريطانيا فى إيقاف النفوذ السوفيتى وراء خط الدفاع الأول عن الشرق الأوسط، والذى يتألف من تركيا وباكستان وإيران والاحتفاظ بمنطقة الشرق الأدنى وأفريقيا تحت السيطرة البريطانية، وإمكان ربط تكتلات عربية بحلف دفاعى مشترك، كالضمان الجماعى، يكون لبريطانيا الكلمة العليا عن طريق إتفاقية ثنائية بين بريطانيا والتكتلات المذكورة[٢]. وهو ما أكدت عليه إحدى الدراسات

(1) F.O.487-9, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 9, January to December 1955, No.2 Dispatsh of Mr. Hooper, Record of events, January 18-25, 1955, in connexion with the proposed Turco-Iraqi Pact, No. 30 , Jan. 26, 1955, p.55.

(٢) خطاب وزير مصر بالفاتيكان إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن الحلف العراقى التركى وموقف العراق من الجامعة العربية، فى ١٥ فبراير ١٩٥٥، ملف ١ رقم ٣٨/ ٢٧/ ١٧ ج٢، الاتفاقيات التركية العراقية، محفظة رقم ٢٤٩ (رقم ٢٤٨ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية.

العراقية بأن ميثاقا للتعاون المتبادل بين العراق وتركيا قد عقد في ٢٤ فبراير ١٩٥٥، وأن مادته الأولى نصت على تعاون الدولتين لغرض صيانة سلامتهما والدفاع عن كيانهما(١). لكن تستمر الوثائق المصرية فى عرضها لما حدث، حيث يشير خطاب سفارة مصر فى لندن فى ١٣ ابريل ١٩٥٥ بأن مجلس العموم البريطانى اجتمع ظهر ٤ ابريل ١٩٥٥ معلنا انضمام الحكومة البريطانية إلى ميثاق تركيا-العراق، وذلك من أجل تقوية الجناح الأيمن لحلف الناتو(٢). تنفيذا لسياسة الغرب فى إقامة الحزام الشمالى Northern Tier. بل قطعت إحدى الوثائق المصرية بأن الحلف العراقى التركى سيساعد الكتلة الغربية ويرجح كفتها على الكتلة الشرقية فى منطقة الشرق الأوسط. لكنها عبرت عن وجهة النظر الغربية فقالت، بأن عدم اشتراك مصر وباقى الدول العربية فيه لن يؤتى الثمرة المرجوة، وأن بعد مصر والدول العربية عن تلك الأحلاف سيجعلها قليلة الجدوى، خاصة وأنهم قابلوا مولد هذا الحلف بتكوين أحلاف دفاعية ثنائية. بل استعانوا بدول الكتلة الشرقية فى مد هذه الأحلاف بحاجتها من السلاح، وهو الأمر الذى يقلل من نتائج الحلف العراقى التركى. مضيفة بأن انضمام إيران إلى الحلف سيقوى من ساعد الكتلة الغربية، لكنها قالت بأن انضمان تركيا والعراق وباكستان وإيران لبريطانيا، ورفض مصر له، ودخولها فى أحلاف ثنائية عربية، واستيراد السلاح من الكتلة الشرقة سيضعف من الحلف(٣). فدخول مصر فى

(١) حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. المرجع السابق، ص٢٥٦.

(٢) خطاب مصطفى الديب بنشى، سكرتير أول السفارة المصرية بلندن، إلى وكيل وزارة الخارجية بشأن مناقشة الاتفاقية الخاصة بانضمام بريطانيا إلى الميثاق التركى العراقى بمجلس العموم البريطانى، فى ١٣ أبريل ١٩٥٥، ملف ١ رقم ٣٨/٢٧/١٧ ج٢، الاتفاقيات التركية العراقية، محفظة رقم ٢٤٩ (رقم ٢٤٨ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص١، ٢.

(٣) خطاب من القائم بالأعمال بمفوضية بريتوريا، محمد سامى، إلى السيد وكيل الخارجية الدائم، بشأن صدى انضمام إيران إلى الحلف العراقى التركى فى الأوساط الرسمية فى الاتحاد، فى ١٥/ ٥/ ١٩٥٦، ملف ٢،٣٨/ ٢٧/ ١٧ ج٣، الاتفاقيات التركية العراقية، محفظة رقم ٢٤٩ (رقم ٢٤٨ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، فيلم ٥٤ بريتوريا، محفظة ٨٤، أرشيف البلدان، خارجية، صص١، ٢.

أحلاف ثنائية عربية، بعقد اتفاقيات ثنائية بين مصر وسوريا والسعودية، ومن المحتمل توقيع اتفاقية تعاون عسكرى مع لبنان، وأن روسيا تنشط فى أفريقيا بمساعدة العرب(١)، يعنى أنها اتفاقيات عسكرية تخالف حلف بغداد. وهذا يعنى أن الإدارة المصرية كانت حجر عثرة للمشروعات البريطانية فى المنطقة. وأن العراق تم توظيفه ليكون جسرا للغرب فى الوقوف ضد التوسع السوفيتى فى المنطقة.

وفى نفس السياق تشير مذكرة إدارة المخابرات العامة المصرية، بأن دخول إسرائيل فى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط فى ٣ أبريل ١٩٥٥ يجعلها تبذل جهودا جبارة للارتباط بأمريكا أو تركيا فى أى منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط. وأن تركيا لا ترغب فى عقد معاهدة مع إسرائيل إلا بعد أن تتبلور المساعى التى تبذلها لضم باقى الدول العربية لحلف تركيا العراق(٢). وخلاصة الأمر أن حلف بغداد قد اكتمل بانضمام تركيا وباكستان والعراق وإيران وبريطانيا، برعاية عسكرية أمريكية، ليصبح اسم الحلف بعدها «حلف بغداد».

إلى هنا كان حديث الوثائق المصرية عن قيام حلف بغداد، لكن إذا نظرنا للوثائق البريطانية لوجدنا أنها تعج بالتفاصيل المهمة حول الموضوع. فتحت عنوان «الحلف العراقى التركى» تأتى إحدى الوثائق البريطانية بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩٥٥، بنص ميثاق الحلف على اعتبار أنه استمرارا للتعاون المتبادل بين البلدين منذ عقد معاهدة الصداقة

---

(١) مرفق خطاب من القائم بالأعمال بمفوضية بريتوريا، محمد سامى، إلى السيد وكيل الخارجية، بشأن صدى انضمام إيران إلى الحلف العراقى التركى فى الأوساط الرسمية فى الاتحاد، فى ١٥/ ٥/ ١٩٥٦، ملف ٢،٣٨/ ٢٧/ ١٧ ج٣، الاتفاقيات التركية العراقية، محفظة رقم ٢٤٩ (رقم ٢٤٨ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، فيلم ٥٤ بريتوريا، محفظة ٨٤، أرشيف البلدان، خارجية.

(٢) مذكرة البكباشى أركان حرب عثمان نورى نائب إدارة المخابرات العامة بشأن دخول إسرائيل فى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط فى ٣ أبريل ١٩٥٥، ملف ٢، رقم ٣٨/ ٦٨/ ٢٨، حلف الشرق الأوسط «المقترحات الرباعية»، محفظة رقم ٢٤٥ (رقم ٢٤٤ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية.

وحسن الجوار، المبرمة بين ملك العراق ورئيس الجمهورية التركية في أنقرة في ٢٩ مارس ١٩٤٦. وفى هذا الإطار فصلت الوثيقة فى مضمون الميثاق التركى العراقى، وقالت سبعة أمور: الأول، أنه يقر بأن السلام والأمن بين البلدين هو جزء لا يتجزأ من السلام والأمن لجميع دول العالم، وعلى وجه الخصوص دول الشرق الأوسط، وأنه هو الأساس لسياساتها الخارجية. الثانى، أن المادة الثانية من معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي تلتزم بها اتفقت عليه دول الجامعة العربية وميثاق الأمم المتحد. الثالث، أن الاتفاق تم برعاية الملك فيصل الثاني، ملك العراق، والسيد نوري السعيد، رئيس الوزراء، وبرهام الدين باشا، القائم بأعمال وزير الخارجية، والسيد جلال بايار، رئيس الجمهورية التركية، والسيد عدنان مندريس، رئيس الوزراء، والسيد فؤاد كوبرولو، وزير الشؤون الخارجية. الرابع، أن مادته الأولى جاءت اتساقا مع المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، حيث أقرت بتعاون الأطراف المذكورة على أمنهم والدفاع. الخامس، أن السلطات المختصة في البلدين ستحدد التدابير التي ينبغي اتخاذها في أقرب وقت يدخل الاتفاق حيز النفاذ. السادس، تعهد فى مادته الثالثة بامتناع أى طرف عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر بأى صورة، وأن تتم تسوية النزاعات بينهما بطريقة سلمية، ووفقا لميثاق الأمم المتحدة. السابع، أن المادة الرابعة قالت بأن التصرفات في الاتفاق الحالي لا تتعارض مع أي من التزاماتها الدولية تجاه الدول الأخرى(١).

ولم نتعرف على تفاصيل تشكيل الحلف من وثائق الخارجية البريطانية فى سنة ١٩٥٥ فقط، بل استمرت تلك الوثائق تقدم لنا بعض التفاصيل المهمة التى لا نجدها فى أى أرشيف آخر. ففى إحدى رسائل مايكل رايت إلى سلوين لويد نتعرف على أن

---

(1) F.O.487-9, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 9, January to December 1955, No. 6, Iraqi-Turkish Pact, Sir Michael Wright to Sir Anthony Eden. {Received February 25) (No. 189. En Clair) Baghdad, (Telegraphic) February 25, 1955 , p.13.

حكومة السعيد ورثت من حكومة جميل المدفعي[١] دراسة من قبل مجلس الوزراء أعدتها لجنة تتعلق بإيجاد السبل لإنهاء المعاهدة البريطانية العراقية لعام ١٩٣٠، واستبدالها لتنتهي في أكتوبر ١٩٥٧. حيث أوصت هذه اللجنة بجملة أمور، منها عقد اتفاق إقليمي لا يتعارض مع المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وبطبيعة الحال بحث نوري السعيد عن كيفية إبرام مثل هذا الاتفاق. فاتصل بالحكومة المصرية التى أبرمت مؤخرًا اتفاق قناة السويس مع الحكومة البريطانية. فالتقى السعيد مع الرائد صلاح سالم في سرسنك Sarsank في أغسطس، ومع العقيد ناصر في القاهرة في سبتمبر، وكان هذا مشجعا بما فيه الكفاية ليمضي بقوة بعقد الميثاق. لكن قيل بأن تنكر الحكومة المصرية لاتفاق صلاح سالم يشير بأن ما حدث في القاهرة كان غامضًا. فقد اعتقدوا بأن العقيد ناصر كان مشجعًا، وأنه لا يريد الانتماء لكتلة السوفيت، وأنه لا يمكن تصميم بناء على أشياء مبهمة أدلى بها العقيد ناصر. المهم أن زيارة رئيس الوزراء التركي إلى بغداد في يناير، والخطوات الأولى نحو إقامة الحلف العراقي التركي فى ٢٤ فبراير ١٩٥٥، ثم انفجار المعارضة من مصر، جعلت الحديث يخفت بأنهم حصلوا على حليف آخر للعرب ضد إسرائيل. فالاتفاق العراقي التركى كما نص فى مادته الخامسة يسمح بانضمام الدول الأخرى. لكن ما حدث العكس، فقد عقدت اتفاقيات ثنائية خاصة بين تلك الدول، حتى قبل توقيع نوري السعيد عليه. من هنا بدأت بريطانيا العمل من أجل انضمام المملكة المتحدة إلى الحلف، وإبرام اتفاق خاص مع الحكومة العراقية، وهو الاتفاق الذى تم توقيعه فى ٤ أبريل[٢]. وهذا يعنى أمرين: أولهما، أن محاولة العراق لجر مصر للحلف قد حدثت إلا أن الجهود المصرية لإبطاله بدأت منذ لحظة ولادته الأولى. ثانيهما، أن الاتفاقيات الثنائية قد أضرت بمستقبل

---

(١) استمر جميل المدفعي رئيسا للوزارة فى نهاية فترة الملك غازى وبداية فترة الملك فيصل الثاني حتى قدم استقالة حكومته في ١٥ سبتمبر ١٩٥٣.

(2) F.O.481-11,(20974): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 11 January to December 1957, No. 7, The Achievements of Nuri Said, Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. {Received July 9, No. 176. Confidential) Bagdad, July 4, 1957, p.24.

الحلف وأبطلت إمكانية تحقيق أهدافه، الأمر الذى جعل الإدارة البريطانية تغير من طريقة تعاملها فى العراق.

وتحت عنوان «المفاوضات مع العراق بعد نقل القيادة إلى الحبانية والشعيبة»، تحدثت إحدى الوثائق البريطانية بتاريخ ١٩ يوليو ١٩٥٥ عن المزايا التي يمكن تحقيقها من خلال تعزيز الاتفاق الجديد وبقاء نوري السعيد في السلطة. فقالت بأن الدعم الشعبي للاتفاق يعتمد على مدار العلاقات البريطانية العراقية بشكل عام. وأن هناك مذكرة قوية فى ديسمبر تحذر من أي ضمان باستمرار بقاء نورى السعيد رئيسا للحكومة. وأنه إذا ذهب السعيد فسيخلفه؛ إما صالح جبر أو أحمد مختار بابان أو نجيب الراوي أو فاضل جامع أو ضياء جعفر أو آخرين، وأنهم لا يعطون احتمالًا لأى من هذه الأسماء، فربما تواصل الخطوط الرئيسية لسياسته الخارجية، وبخاصة دعم حلف بغداد والاتفاق الأنجلو عراقي الجديد، غير أنها أكدت على أن اليد الحاكمة لن تكون قوية. بل أضافت بأنه بفقدان نورى السعيد سيفقدون القرص المحرك. وأنه بتصاعد السخط الداخلي رفضا لتخصيص المال لشراء المنشآت، ستكون هناك معارضة. ولفتت الوثيقة النظر فى نهايتها بضرورة تقديم مساعدات الأسلحة للعراق مجانا، وعلى وجه الخصوص المعدات والمدرعات، تلك التى لم يتم تسويتها بعد. وقالت بوجود حل تلك المشكلة فى البرلمان الجديد[١]. وعلى هذا كانت الوثائق البريطانية أكثر واقعية، وتعاملت بحرفية شديدة لاستمرار رجلها فى السلطة.

وتقدم لنا الوثائق البريطانية خلفية مهمة عن الاجتماع الأول لمجلس حلف بغداد، فتحت هذا العنوان أشارت رسالة السير مايكل رايت إلى السيد ماكميلان فى ٣٠ نوفمبر ١٩٥٥ بأن هذا الاجتماع عقد في بغداد فى ٢١ و٢٢ من ذلك الشهر، وأنه كان

---

(1) F.O.481-9 (20133): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 9 January to December 1955, No. 13, Negotiations with Iraq following the Transfer of Command at Habbaniya and Shaiba, Sir Michael Wright to Mr. Macmillan. {Received July 23) (No. 159. Confidential) Bagdad, July 19, 1955, p.35.

عبارة عن جلسات أربع عقدت فى بغداد قبل يومين من افتتاح المؤتمر، حيث سبقها وصول وفد تركي بقيادة عدنان مندريس، ووفد باكستانى بقيادة السيد محمد علي، وإيرانى بقيادة حسين علاء. وأنه تحت قيادة الملك فيصل الثاني عقدت اجتماعات المجلس في قصر الزهور وهو على بعد ٢ ميل خارج بغداد. وفي الافتتاح فى صباح ٢١ نوفمبر حضر ممثلو الصحافة من جميع الدول الأعضاء، وحضرته وكالات الأنباء الدولية الرئيسية بأعداد كبيرة. وانتخب نوري السعيد بالإجماع رئيسيًا حتى نهاية عام ١٩٥٦. ووافق المجتمعون على مشروع قرار بإنشاء المجلس الدائم لحلف بغداد على مستوى وزاري. داعين انضمام سفير الولايات المتحدة ببغداد للاجتماع. وسمحوا بوجود الصحافة فى الجلسة الاولى فقط، تمهيدا للمناقشات السرية المطروحة على جدول الأعمال. وتعترف الوثيقة بأن بريطانيا هى التى اتخذت مسمى «حلف بغداد» حيث كلفت حكومة العراق بمهمة تسجيله بهذا الاسم مع الأمم المتحدة نيابة عن جميع الموقعين(١).

واستعرضت الجلسة الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي بشكل عام، وتم التحذير من الاتحاد السوفيتى، وأن إقامة حلف بغداد قد جاء فى الوقت المناسب تمامًا. لكن اقترحت بألا يقتصر التعاون بين الدول الأعضاء فى الاتفاق فقط، بل أشير بامتداده إلى الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى، وذلك للمشورة الفنية حول مواجهة التهديدات الشيوعية، مع ضرورة الاستفادة من تجربة حلف جنوب شرق آسيا. وانتهى إلى ثلاثة انطباعات عامة: أولها، اتفاق نواب الوزراء على أن الاجتماع المقبل للمجلس سيكون على مستوى وزاري في النصف الأول من شهر أبريل عام ١٩٥٦ في طهران. وأن اجتماع منظمة الأمن سيتم في ديسمبر ١٩٥٥. وأن الاجتماع

---

(1) F.O.487-9, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 9, January to December 1955, No.11, Proposed Syrian Agreement with Egypt and Saudi Arabia, Sir John Gardener to Mr. Macmillan. (Received April 25) (No. 55. Confidential) Damascus, April 20, 1955. p.41.

الأول للأمانة العامة العسكرية المؤقتة سيكون فى ١٥ ديسمبر، وأن اجتماع المخططين العسكريين الأول سيعقد فى ١٥ يناير. فى حين تعقد اللجنة الاقتصادية اجتماعاتها في ديسمبر، حتى يكونوا راضين عن الانجازات التى تتم على أرض الواقع. وأن العراقيين يفتقرون إلى الخبرة والقدرة الإدارية التي ستكون ضرورية للحفاظ على الزخم الذي تم فى الاجتماع الأول، ليكونوا مستعدين لتقديم المشورة بشكل مستمر. ثانيًا، أظهرت الاجتماعات أن الميثاق يجب أن يكون قادرا على ترسيخ نفسه خلال الأشهر القليلة المقبلة عبر قوة الدفع الخاصة به، ويضم أعضاء جدد. وتم ترشيح الأردن ولبنان وأمريكا لهذا الانضمام، بهدف إقامة حلف قوى لا يستهان به. ثالثًا، أن الدفاع عن المنطقة سيكون هدفه الاطمئنان على حل مشكلة فلسطين. ويمكن القول بأن بعض الوفود استغلتها فرصة لتبادل وجهات النظر حول الوضع الدولى بطريقة ودية في منتدى عالمي. كما تم استعراض المشاكل التي تعاني منها المنطقة، فأوصت حكوماتها بالقيام بالجهد اللازم. لكن اعتبرت الوثيقة الحلف فى نهايتها بمثابة تجمع مشابه لتجمع الكومنولث، أو أنه نوع من أنواع المؤتمرات الدولية(١).

وتحت عنوان «تشكيل حكومة جديدة» أشارت رسالة السير مايكل رايت للسيد سلوين لويد فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥٥ إلى استقالة حكومة العراق فى ١٧ ديسمبر، وإلى حدوث تغييرات جديدة. فذكرت أنه ليس من المرجح أن تضيف تلك التغييرات أي قوة لنوري السعيد أو لمجلس الوزراء، حيث تم إضافة ثلاثة رجال صادقين لإزالة وصمة خيانة الأمانة. وتم تشكيل الحكومة الجديدة من قبل نوري السعيد في وقت لاحق من نفس اليوم. وقالت بأن الوزراء الجدد الثلاثة هم سيد عبد الرسول الخالصي، وزيرا للشؤون الاجتماعية، والدكتور عبد الأمير علاوي وزيرا الصحة، ومنير القاضي، وزيرا للتربية والتعليم. مبدية ملاحظة شخصية مغلقة عن منير القاضي(٢).

(1) Ibid., p.41, 44.

(2) F.O.481-9 (20133): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 9 January to December 1955, No. 14, Formation of new Government on December 17, 1955, Sir Michael

وعبر الوثائق البريطانية ندرك بأن حلف بغداد ليس هو الاتفاقية المؤسسة فقط، حيث أشارت إحدى الوثائق إلى اجتماع اللجنة الاقتصادية لحلف بغداد، عبر مراسلة من السير مايكل رايت للسيد سلوين لويد فى ١٨ يناير ١٩٥٦. فقد ذكرت الوثيقة بأن اجتماعات اللجنة عقدت في بغداد فى ١٠ و١١ يناير. وكلفت بمهمة دراسة التقارير وتقديمها إلى المجلس، بشأن تدابير التعاون الاقتصادي بين الدول الأعضاء فى الحلف، وتعزيز الموارد الاقتصادية والمالية لها ومساعدتها. ونظرا للأهمية التي توليها الحكومات الأعضاء في هذا الجانب، أوصت الجلسة الافتتاحية للجنة بأن تعقد على المستوى الوزاري وأدنى من الوزارى، من أجل تمهيد الطريق لمناقشة الوزراء للموضوعات المتخصصة، على أن تكون لاحقة لاجتماع الخبراء. وفى نفس الاجتماع قاد بعض الوفود وزراء، كبريطانيا والعراق، أما الآخرين فكانوا على مستوى أدنى من الوزارى[١].

وكانت أهم مساهمة للمملكة المتحدة هى عرض المساعدة التقنية في الإعداد لمركز تدريب بغداد، في مجال الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية[٢].

وتفضح لنا الوثائق البريطانية الدور الأمريكى فى الحلف، حيث تشير إحدى الوثائق لمناقشة جرت على الغداء بين السيد دالاس والسفير البريطانى فى باريس، فى ٣ مايو ١٩٥٦ حضرها وزيرة الخارجية الفرنسى. فتعترف بإضمام حكومة الولايات المتحدة للجنة اللجنة الاقتصادية ومكافحة عدم تخريب حلف بغداد، بتشجيع الدول

Wright to Mr. Selwyn Lloyd. (Received January 2, 1956) (No. 281. Confidential) Baghdad, December 24, 1955, p.37.

(١) فإيران حضر منها العضو المنتدب لمنظمة التخطيط الإيراني، وحضر من باكستان سعيد حسن، أمين وزارة الشؤون الاقتصادية، ومن تركيا حضر سفيرها في بغداد. وحضر من الولايات المتحدة الأمريكية ممثل مراقب.

(2) F.O.487-10, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 10, January to December 1956, No. 3, First session of the Baghdad Pact Economic Committee Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. (Received January 24) No. 20 E. Confidential) January 18, 1956, p.6.

الأعضاء فيه. وعرضت فكرة استخدام تجمعات إقليمية لاغرض اقتصادية وتقديم المساعدات التقنية للبلدان الأقل نموا. وهنا تقر الوثيقة بأنهم قد أعربوا بأن التدخل السوفيتى في الشرق الأوسط قد يؤدي إلى قتال خطير لا يمكن وقفه بسهولة. فى حين ذكرت بريطانيا بأن المصالح الحيوية للغرب مهددة. وأنه لابد من مساعدة تلك الدول لتحصينها ضد أى اختراق اقتصادي وتقني. خاصة وأن السوفيت يعترضون بشدة على حلف بغداد، ويبذلون قصارى جهدهم لتدميره. وأن الغرب نفسه منزعج من القواعد الجوية الغربية في دول الحلف، خصوصا تلك التي يمكن أن تمثل خطرا على حقوله النفطية فى تلك المنطقة. فأشار البريطانيون بأنه لا قواعد جديدة في دول الحلف، وأنه ينبغى على أمريكا تقديم نفس الضمانات. وأقرت الوثيقة بوجود قواعد للأمريكان في تركيا، لم يستفد منها الدول المكونة لحلف بغداد، وأنه لا نية لديهم فى الحصول على قواعد جديدة. أما فيما يختص بمصر، فنوقشت مسألة السد العالي في أسوان، فعبر دالاس بأنهم سيسحبوا أقدامهم بحيث لا يتم المشروع. معبرين بأنهم لم يجيبوا على المقترحات المصرية المعروضة عليهم قبل نحو شهرين، ولم يجيبوهم بعدها. وأن عبد الناصر كان على عجلة من أمره، فكان يجرى التفاوض مع السودان حول المياه. فاعتقد دالاس بأن الحكومة المصرية قد بدأت تشعر بأن المشروع مكلف جدا، وينطوي على التزامات اقتصادية ثقيلة على اقتصادهم على مدى السنوات العشرين المقبلة. وأنه إذا كان الأمر غير مبشر، فإنهم سحبوا دعمهم لمشروع السد. ومن ثم توقعت الخارجية الفرنسية بأنه حفاظًا على كرامة الروس، وجوب ترك المشروع يقع، ولكن دون إعطاء أي عذر لعبد الناصر لتحميلهم الخطأ(١).

(1) F.O.487-10, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 10, January to December 1956, No. 10, Discussions with Mr. Dulles at luncheon, British Embassy, Paris, May 3, 1956, p.30.

المحور الثالث: الدعاية المصرية ضد العراق وتكوين حلف بغداد

عرفنا فى المحور السابق تفاصيل مهمة عن قيام حلف بغداد، لم تكن معروفة من قبل. ولما كانت الدولتان مصر والعراق على طرفى نقيض من مشروع الشرق الأوسط قبل سنة ١٩٥٥، من ثم فإن مصر استمرت أكثر شراسة فى رفضها لحلف بغداد بعد تكوينه. فحينما جرى تفاهم بين العراق وتركيا، راحت الإدارة المصرية تدعو لعقد مؤتمر القاهرة فى ٢٢ يناير ١٩٥٥. ذلك المؤتمر الذى أصدر قرارا بعدم انضمام أى دولة عربية للميثاق العراقى التركى. وفى نفس السياق جرى اجتماع حضره الرئيس اللبنانى كميل شمعون وصلاح سالم وسفير مصر فى لبنان، اللواء عبد الحميد غالب، للاستماع للمناقشات حول حلف بغداد. أيضا تم تشكيل وفد مصرى سورى فى مارس ١٩٥٥ للذهاب إلى العراق لمناقشة الأمر مع المسئولين العراقيين. ثم ذهب وفد مصرى لبنانى لمقابلة الملك فيصل الثانى، ملك العراق، لإقناعه بالانسحاب منه غير أن نورى السعيد تمسك بموقفه. وحينما انقسم اللبنانيون إلى فريق مؤيد للانضمام لحلف بغداد، وفريق رافض له، ابتعد لبنان بسبب التدخل المصرى عن إمكانية الانضمام للحلف. خشية من مقاطعة السياحة واستثمار الأموال وإنهاء عمل أكثر من ٤٠ ألف لبنانى فى مصر(١). وعلى هذا بدت المجاهرة المصرية لمحاصرة الحلف منذ بداية تشكيله.

ولم يقتصر الموقف المصرى على مواجهة العراق فى المناطق المحيطة به، بل تعداه للمناطق الأخرى. فحينما برزت إرهاصات تشكيل الحلف حرصت الإدارة المصرية على عدم دخول ليبيا فيه. وبرز تأثيرها فى هجوم صحيفة طرابلس الغرب فى ٢٦ يناير ١٩٥٥ للحلف العراقى التركى. وقالت بأن رأيها هو رأى الحكومة الليبية، مما أدى إلى احتجاج السفير التركى. حيث قامت الإدراة المصرية بإرسال هدية من الأسلحة إلى الجيش الليبى لزيادة تقاربها مع الملك السنوسى، وإفشال محاولات إبعاد ليبيا عنها

---

(١) عطية مساهر حمد، سامى صالح الصياد: موقف لبنان من حلف بغداد، مجلة آداب الفراهيدى، العدد ١٥، يونيو ٢٠١٣، صص ٨٠-٨٥، ٩١-٩٤.

وربطها بحلف بغداد[(١)].

واستدعى الرد المصرى على قيام حلف بغداد وتحركاتها السريعة لمقاومة هذا الحلف ومحاصرته، أن تلتفت بريطانيا للمسألة بقوة. وعلى الفور تابعت الإدارة البريطانية تلك التحركات بدقة. حيث ترصد رسالة السير جون جاردنر John Gardener إلى ماكميلان بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٥٥، اتفاقية الشراكة السورية المقترحة مع مصر والمملكة العربية السعودية. فتشير بأن الرأي العام في سوريا سيعارض إبرام اتفاق مع مصر والسعودية. وأن الدعم المقدم للاتفاق المقترح يأتى من قبل الاشتراكيين البعثيين والشيوعيين وغيرهما من العناصر اليسارية، حيث تم نشرها بشكل جيد من قبل الصحفيين. مستغلين خوف الجماهير من العدوان الإسرائيلي، وحماية سوريا من هجومها. حيث تشير بأن هدف الاتفاق الثلاثي كان إخراج سوريا من العراق، والخوف من العدوان التركي. لكن ائتلاف القوميين والاشتراكيين البعثيين كان غير قادر على تبنى سياسة واحدة نحو الاتفاق الثلاثي. ولم يتمكن القوميون والشعبيون على توحيد المعارضة المشتركة لعقد المعاهدة السورية المصرية. وكانت عناصر في الجيش قادرة على التهديد بانقلاب عسكرى لإجبار الحكومة السورية على إبرام اتفاق مع مصر على أساس أن المساعدات المصرية أمر ضروري للدفاع عن سوريا ضد إسرائيل. وحاولت المعارضة تشجيع تدخل محدود من قبل القوات العسكرية العراقية بموافقة أمريكية وبريطانية. لكنها ذكرت بأنه من المرجح أن يتم تجاهل ذلك، بناء على المشورة السلبية التي قدمها الأميريكيون للبريطانيين. وقالت بأنه من المحتمل إذا وقفت الأحزاب اليمينية معًا، ستكون قادرة على الصمود أمام ضغط الجيش، لأنه ليس من المؤكد، أن يتمكن فصيل الموالين لمصر في الجيش على تنفيذ تهديدهم في الظروف الحالية. وقدرت الموقف بأن تجري مناقشة المقترحات

---

(١) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى أفريقيا ١٩٥١-١٩٥٨، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١٣.

السورية مع الوفود المصرية والسعودية، لكنها رجحت بتدخل الجيش لإبرام معاهدة مع مصر. خاصة وأن القوميين قادرين على إنتاج نوع من الوحدة معها[١].

وبطبيعة الحال رصد أحد المؤرخين العراقيين الموقف المصرى من العراق بعد تكوين حلف بغداد، فقال بأن الرئيس عبد الناصر شن حملة متواصلة على حكومة نوري السعيد وحلف بغداد والإمبريالية. وأن إذاعة صوت العرب لعبت دورًا كبيرًا في الدعاية ضد السعيد والمشاريع التي يروج لها في المنطقة. مما اضطره نوري إلى إصدار بيان رسمي في ٦ مارس ١٩٥٥ ندد فيه بالموقف المصري وبصوت العرب. داعيا الحكومة المصرية إلى التراجع عن موقفها تجاه الحكومة العراقية، محذرًا إياها من إمكانية اتخاذ ما يراه مناسبًا للرد على هذا الموقف[٢]. ويبدو أن درجة الهجوم المصرى على نورى السعيد قد بلغت حدا كبيرا، لدرجة جعلت اسمه مصدر إزعاج لآخرين. حيث تحدثنا إحدى الوثائق المصرية فى ٢٠ مايو ١٩٥٥ عن إنزعاج نائب وزير خارجية إثيوبيا مما نشرته مجلة الثورة الأسبوعية تحت عنوان «هل يلعب هيلاسلاسى دور نورى السعيد؟». فإذا كان مجرد تشبيه هيلاسلاسى بنورى السعيد قد أزعج السلطانت الإثيوبية[٣]، فهذا يعد نجاحا للإدارة المصرية فى محاصرة حلف بغداد والقائمين عليه.

ومن المؤكد أن الحصار المصرى لحلف بغداد لم يقتصر على الدول العربية المجاورة للعراق، حيث تشير إحدى وثائق الخارجية المصرية فى أبريل ١٩٥٦ باهتمامها بالعلاقة

---

(1) F.O.487-9, Further Correspondence Respecting Middle East (General) Part 9, January to December 1955, No.11, Proposed Syrian Agreement with Egypt and Saudi Arabia, Sir John Gardener to Mr. Macmillan. (Received April 25) (No. 55. Confidential) Damascus, April 20, 1955, p.28,29.

(٢) حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. المرجع السابق، ص٢٤٨.

(٣) خطاب من القائم بالأعمال بالنيابة، إبراهيم الدسوقى إمام، بسفارة مصر بأديس أبابا إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن ملاحظات الحكومة الإثيوبية على ما نشر فى الصحف المصرية أخيرًا عن جلالة الإمبراطور هيلاسلاسى، ملف٣ رقم ٢٢٥/ ٧/ ١ ج٢ التقارير السياسية للسفارة المصرية بأديس أبابا «مختلف» ١٩٥١-١٩٥٦، فيلم ٥٠ أديس أبابا، محفظة ٧٩، أرشيف البلدان، خارجية، صص١، ٢.

بين حلف بغداد ومنطقة شمال أفريقيا[١]. وتشير أخرى بتاريخ ٢٣ يوليو ١٩٥٦ بأنها وقفت بالمرصاد ضد زيارة الدكتور فاضل الجمالى، وزير خارجية العراق، إلى ليبيا ومراكش وتونس. حيث ذكرت صراحة بأن هدف زيارته هو محاولة إقناع تلك الدول بالتكتل فى حلف جديد يكمل حلقات حلف بغداد والأحلاف الأخرى القائمة بين دول شمال البحر المتوسط[٢]. فكان وقوف مصر ضد الزيارة قد أفشل أهدافها. وحينما حاولت تركيا إقناع ليبيا بالانضمام إلى حلف بغداد أثناء زيارة عدنان مندريس رئيس الوزراء التركى، رصدت وثيقة ثالثة بتاريخ ٢٧ مارس ١٩٥٦ تلك المحاولة. وتابعت فيما بعد مشروع معاهدة الصداقة الليبية التركية المقترح عقدها فى يناير ١٩٥٧، لكن ليبيا رفضت الانضمام إلى حلف بغداد خشية قيام ثورة شعبية. بل كان إعلان رئيس وزرائها فى البرلمان موقف الحياد من مصر وبغداد رغم محاولة تركيا إدخال دولته ذلك الحلف، يؤكد على قوة التأثير المصرى فى ليبيا ومحاصرة العراق وخططه غير المباشرة[٣]. وبفضل الدعاية المصرية ضد حلف بغداد، فشل العراق فى ضم أى دول عربية له. وبالتالى لم تقتنع تلك الدول بما يروجه نوري السعيد من أن الاتحاد السوفيتي لا يقل خطرا عن إسرائيل[٤].

---

(١) مذكرة إدارة الأبحاث بشأن الإيعاز للهيئات الوطنية اليونانية والقبرصية لاصدار بيان ينص على عدم السماح باستخدام القواعد البريطانية ضد الشعوب العربية، ١٤/ ٤/ ١٩٥٦، ملف ٢ رقم ٢٠٧/ ٧/ ١ ج٤ التقارير السرية للسفارة المصرية فى أثينا، محفظة ٦٣١ (كود ارشيفى ٦٣٠) سرى جديد، خارجية.

(٢) خطاب القائم بالأعمال بالنيابة أنور محمود السكرى بسفارة مصر بليبيا إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن زيارة فاضل الجمالى لليبيا، طرابلس فى ٢٣ يوليو ١٩٥٦، ملف١ رقم ٢٤٢/ ٧/ ١ ج٥ تقارير بنغازى السياسية، فيلم ٣٢ ليبيا، محفظة ٥٠، أرشيف البلدان، خارجية، صص١، ٢.

(٣) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى أفريقيا. المرجع السابق، ص١٣٠-١٣١. وكذلك انظر، أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى شمال أفريقيا. المرجع السابق، صص٢٩٨-٣٠٢.

(٤) محمد عزيز شكرى: الأحلاف والتكتلات فى السياسة العالمية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص٤٩-٥١.

ويبدو أن الإدارة المصرية لم تكتف بالوقوف ضد حلف بغداد وفقط، بل حاولت التعرف على الأحلاف المكملة له يمينا ويسارا. وإذا كانت الإدارة قد أدركت فى وثيقة سابقة بأن حلف بغداد هو الزراع اليمنى لحلف الناتو، جاء خطاب سفارة مصر بالهند فى مارس ١٩٥٦، ليلقى الضوء عن حلف الناتو باعتباره الزراع اليمنى لحلف بغداد نفسه. حيث أشار إلى اجتماع حلف دول جنوب شرق آسيا فى كراتشى فى ٦ مارس ١٩٥٦. وبعد أن يعطينا معلومات عن حلف السياتو، وأنه تشكل منذ ١٨ شهرا فى اجتماع مانيلا، وأنه اشتركت فيه ثمانى دول؛ استراليا وفرنسا ونيوزيلندا وباكستان والفلبين وتايلاند والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، وأنه عقد أول اجتماع للحلف منذ سنة مضت فى بانكوك، يدخل فى الاجتماع الثانى فى كراتشى فى ٦ مارس ١٩٥٦ مشيرا لخطبة دلاس المؤكدة على وقوف أمريكا وراء استقلال شعوب آسيا وأفريقيا[(١)]. وهذا يعنى أن دعم الاستقلال أصبح هو اللغة المستقطبة لانضمام دول العالم الثالث للأحلاف. مع أن مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥، الذى شاركت فيه مصر، قد خصص بندًا مانعًا لتلك المسألة. ونتعرف من خطاب سفير مصر بطوكيو فى ١٨ مارس ١٩٥٨ على التطورات التى حدثت فى حلف جنوب شرق اسيا، وأن مجلسه التنفيذى قد اجتمع فى الفترة من ١١-١٣ مارس بحضور وزراء خارجية الدول الثمانية؛ باكستان والفلبين وتايلاند والمملكة المتحدة وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا وأمريكا، وجرت محاولات لتوسيع نطاقه بضم اليابان والصين الوطنية وكوريا الجنوبية. وفى هذا الإطار يعطينا خلفية عن انتقاد الاتحاد السوفيتى لهذا الاجتماع، معتبرا إياه محاولة غربية لاستبدال السياسة الاستعمارية القديمة فى جنوب شرق آسيا بوسائل جديدة. مشيرا للبيان الذى أصدرته الصين تحذر الدول الأسيوية المشاركة

---

(١) خطاب السفير مصطفى كامل بسفارة مصر بنيودلهى إلى وكيل الخارجية فى مارس ١٩٥٦، بشأن عرض لما تم فى اجتماع دول جنوب شرق آسيا بكراتشى وأثر قرار المؤتمر فى الهند، ملف ٣، رقم ٣٨/ ٢٦/ ٣١، حلف تركيا - باكستان، محفظة رقم ٢٤٧ (رقم ٢٤٦ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص١-٣.

فيه، من مخالفة قرارات مؤتمر باندونج، مطالبة إياها بأن يرفضوا تدخل أمريكا فى السياسة الداخلية[١].

إلى هناك تعرفنا من الوثائق المصرية على جوانب من المواقف المصرية من حلف بغداد، غير أن الوثائق البريطانية تعطينا بعض الجوانب الأخرى التى أغفلت عنها. ولعل رسالة وفد المملكة المتحدة إلى حلف السياتو SEATO فى كانبيرا، فى ١٤ مارس ١٩٥٧، من الرسائل المهمة التى تلقى الضوء على زوايا مهمة فى الموقف المصرى، حيث تعرفنا بأن الضغط على عبد الناصر كان عقابًا على هذا الملف تحديدًا. حيث تشير لحديث مع دالاس، واستفساره من أحد المسئولين البريطانيين عن أى الطريقين ترغب حكومة المملكة المتحدة اتخاذه تجاه ناصر: الأول، استخدام كل الضغوط لإسقاطه على المدى الطويل. الثانى، استخدام الضغوط للحصول على خطة دولية مرضية لتشغيل القناة. فعبروا عن رغبتهم بسقوط ناصر، لكن لابد من إيجاد تسوية للنزاع تتفق مع المبادئ الستة المنصوص عليها من قبل مجلس الأمن، وأنهم يودون مساعدة الولايات المتحدة لهم فى هذا الأمر. فعبر دالاس بأنه لا يمكن التفكير في أي إجراءات اقتصادية جديدة، وأنه إذا لم يقبل ناصر باستمرار الإجراءات الحالية إلى أجل غير مسمى، فسيكون هناك برنامج نشط لتقليل الاعتماد على القناة. وبالتالى لابد من دفعه لاتفاق مرض، ولكن هذا سيعني نهاية ظاهرية للقيود المالية والعودة التدريجية للعلاقات الطبيعية مع مصر. خاصة وأن ناصر سيستفيد من أي ضعف في موقف المستخدمين للقناة. وأن التهديد لعمله يجب أن يكون حقيقيا وسريعا جدا، لتنكسر مقاومته العنيدة. وأنهم سيفكرون فى خطوط أنابيب بديلة وناقلات كبيرة، وأشياء أخرى. وبدا واضحا أن الولايات المتحدة سيكون عليها الأخذ بزمام المبادرة

---

(١) خطاب سفير مصر بطوكيو مصطفى يوسف إلى وكل وزير الخارجية، فى ١٨ مارس ١٩٥٨، ملف ٢، رقم ٣٨/٢٦/٣١، حلف تركيا – باكستان، محفظة رقم ٢٤٧ (رقم ٢٤٦ كود جديد) أرشيف سرى جديد، أرشيف وزارة الخارجية، صص١-٣.

والتصرف، وأنها ستنفتح على مختلف القضايا التي نشأت فى الناتو[١]. وتضيف وثيقة أخرى بانه من غير المحتمل أن يتخلى عبد الناصر عن سياسة واحدة للتعاون مع الغرب. وأنه سوف يستمر في محاولته لقيادة العرب في حملتهم الصليبية ضد إسرائيل، وفي محاولة طرد الغرب عن المصالح النفطية الاستراتيجية والتجارية. وقالت بأن الإذاعة المصرية بثت دعايتها باللغة الفارسية، ووسعت نطاقها باتجاه دول الخليج وعدن وشرق أفريقيا[٢]. بل تشير وثيقة ثالثة بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٥٧ إلى مقتطفات من جريدة لوفيجارو الفرنسية تزعم أن الإسرائيليين ذكروا لوزير الدفاع الوطنى الفرنسى بأنهم سيهاجمون مصر في منتصف أكتوبر، وأن تلك المعلومات تم توصيلها للسير أنتوني إيدن وله في باريس يوم ١٦ أكتوبر. لكنها تنصح بألا يلتفت إلى تقارير الوكالة الصحفية، وأن مضمونها لا يختلف عما ذكره بعض الوزراء في مجلس العموم. وإذا استدعى الأمر ينبغى لفت الانتباه إلى تصريحات السير أنتوني إيدن في مجلس النواب يوم ٢٠ ديسمبر، والقول بأن الآراء المنشورة فى الصحيفة لا تعكس آراء الحكومة الفرنسية[٣]. وعلى هذا تثبت الوثائق البريطانية بأن الرفض المصرى لحلف بغداد كان أحد الأسباب الرئيسية للعدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦.

وتحت عنوان «التهديد الروسي لسوريا ومصر» أشارت وثيقة رابعة بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٥٧ إلى أن التهديد السوفياتي للمنطقة يأتي من سببين رئيسيين: الأول، أن الهدف من الكتلة السوفيتية هو إنهاء صلات المنطقة مع الغرب، وتضييق الخناق على إمدادات النفط لهم. وأنه لتحقيق تلك السياسة السوفيتية ينبغى إنهاء القواعد الغربية والعلاقات التعاهدية في منطقة الشرق الأوسط. خاصة وأن هدفهم لم يكن الحصول

---

(1) Fo. 407-E143-236: JE 1421/174 (4) United Kingdom Delegation to SEATO Canberra to Foreign Office (No. 234. Confidential) Canberra, (Telegraphic) March 14, 1957.

(2) Fo. 407-E143-236: No., 12 EGYPT: POLITICAL SITUATION, Foreign Office to certain of Her Majesty's Representatives (No. 52 Intel. Secret) March 28, 1957.

(3) Fo. 407-E143-236: No. 13 Allegations of Her Majesty's Governements fore Knowledge of Israel's Intention to Invade Sini (1) Foreign Office to certain of Her Majesty's Representatives (No. 23 Guidance. Confidential) March 29. 1957.

على الأراضي أو إنشاء الأنظمة الشيوعية في المنطقة. ثانيا، انتشار عاطفة القومية العربية التى تمقت التغريب، وتوفر للسوفيت الرافعة الجاهزة لهم فى المنطقة. وبالتالى كان لابد من تعزيز عملية التغريب مع الشرق الأوسط. وأنه لابد من احترام الاستقلال والكرامة لجميع دول المنطقة صغيرها وكبيرها. وأن حلف بغداد يجب أن يكون الحصن الحصين لمقاومة التهديد السوفيتي فى العالم العربي، بحيث يتم تشجيع جميع الدول الصديقة للغرب على تنظيم نفسها والانضمام للحلف. وتقطع الوثيقة بأن المراكز الرئيسية للنفوذ السوفيتي فى المنطقة يتمثل في سوريا ومصر. وأنه على الرغم من محاولة السوفيت إفشال عبور النفط عبر مصر وسوريا، إلا أنها لم تنجح مع الدول المنتجة للنفط نفسها. وهذا يرجع إلى سياسة حلف بغداد فى المحافظة على هذا الأمر، لكن الحقيقة أن الكتلة السوفيتية لا تملك سوقا بديلة للنفط. وتشير الوثيقة بأن سوريا كانت ذات أهمية حيوية للغرب بسبب عبور نفط العراق، وضمان وجود اتصالات بين حلف بغداد والبحر الأبيض المتوسط. وقالت بأن تعاون النظام الحاكم فى سوريا مع الاتحاد السوفياتي ومصر يهدد مصالح الغرب الحيوية، كما أنه معادي بقوة للعراق وغيره من أعضاء حلف بغداد. ومن ثم نصحت الوثيقة بأن يكون هدفهم الرئيسي هو إقامة حكومة سورية مستقرة متعاونة مع الغرب ودول حلف بغداد، حتى وإن لم تنضم رسميًا للحلف، وربط سوريا مع العراق بأى طريقة[1].

وتشرح الوثيقة المرسلة بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٥٧ الاعتبارات المتعارضة فى مسألتين: الأولى، المخاوف الأمريكية فى أن تتسبب تلك السياسة فى زيادة الغيرة السعودية من العراق. الثانية، سياسة تسليم سوريا للمملكة العربية السعودية لن تلقى الإشادة من قبل حلفاء بريطانيا في حلف بغداد. وبالتالي نصحت بأن تكون الخطوة الأولى في سياسة سوريا هو تأثير التقارب السعودى العراقى، بهدف أن تصبح سوريا أكثر موالاة للغرب. بل كانت بريطانيا تأمل فى تدخل أمريكا فى التقريب بين

(1) Fo. 407-E143-236: No. 17, The Russian Threat to Syria and Egypt, Foreign Office to certain of Her Majesty's Representatives (No. 68 Intel. Secret) April 15, 1957.

السعوديين والعراقيين والسوريين، حتى بغير اتحاد[١].

وبالنسبة لمصر عبد الناصر قالت بأنه لا يمكن كسبها فى حياد حقيقى عن طريق المساعدات الاقتصادية أو غيرها من الوسائل. لهذا فضلوا إقامة نظام بديل، سواء كان محايدا حقا أو كان خصما أقل كفاءة. فجغرافيا مصر في قلب العالم العربي، وامتلاكها نسبة كبيرة من المتعلمين الذين يعتبرون مصادر ثابتة للثروة، هى التى وفرت لها القيادة الثقافية والسياسية لغيرهم من العرب. لكن ما يضعف موقفها هو وجود السخط الاجتماعي والغيرة من الدول العربية المنتجة للنفط، وسخط الدول العربية من تصدير الميول الثورية لأنحاء العالم العربي. وأن هذه الروح الثورية تتجه بشكل طبيعي نحو روسيا، ولكن حتى أولئك الذين يعارضون الشيوعية داخليا يتبنون موقفا معاديا للسياسة الخارجية للغرب. ولما كان الجزء الأكبر من سكان مصر من الطبقات المهنية والتجارية، فإنهم سيرحبون بالتعاون مع الغرب على أساس من الحياد السياسي، شريطة ضخ ثروة جديدة في مصر. وقطعت الوثيقة بوجود قلق متزايد من القطيعة المتزايدة لناصر من قبل الدول العربية الأخرى، حتى في الدوائر العسكرية، كالسودان وليبيا والمملكة العربية السعودية، وأيضا من قبل الولايات المتحدة. ولما كان معظم قادة الغوغائية من الشعب، والقوات المسلحة تهيمن على الساحة السياسية، فإن سياسة التوسع كانت مصممة على الاحتفاظ بقيادتهم للعرب، واكتساب السيطرة على النفط العربي. لهذا كانوا جزئيا ولأسباب عاطفية أيضا، يفضلون سياسة القوة العسكرية ضد إسرائيل، لكنهم لا يحبذون وضعها على المحك. وهذا يعكس سياسة عبد الناصر، ولا يعكس رغبة الأغلبية، حيث لا توجد لا رغبات مدروسة أو عناصر مشتركة، تقول بوجود سياسة فى الأفق ستتبعها الحكومة المصرية. وتعترف الوثيقة بأن هدفهم هو تشكيل حكومة مصرية تكون على استعداد لعمل صفقة مع الغرب كان يرفضها عبد الناصر. ويمكن جعلها تتصرف من تلقاء نفسها، مقابل الحصول على

(1) Ibid.

مساعدات اقتصادية سخية[١]. وهذا يعنى أن التخلص من عبد الناصر كان أولوية أولى لدى البريطانيين حتى يستوى لهم الأمر فى الشرق الأوسط.

ويبدو أن الدعاية المصرية ضد حلف بغداد، وحصار الجهود العراقية التركية فى البلدان العربية، قد جعلت الأتراك يحاولون إصلاح ذات البين مع مصر. فتحت عنوان «التقارب التركي مع مصر» تشير إحدى الوثائق البريطانية بتاريخ الأول أغسطس ١٩٥٧ بأن الحكومة التركية قد شرعت في سياسة المصالحة مع مصر، لإزالة مواقف عبد الناصر الملتبسة حول حلف بغداد. وتعترف الوثيقة بأن التحركات التركية تتفق مع السياسة الغربية بالذهاب ببطء مع ناصر وإعطائه مساعدات بأقل قدر ممكن. وتعترف بأنها مربكة لعدة أسباب: أولها، أن مواءمة السياسة التركية نحو ناصر ينبغي أن تتوقف على وزارة الخارجية التركية. ثانيها، أن إعادة توجيه السياسة التركية تجاه مصر خضعت لضغوط معينة، بحيث يتم ضبط النفس تجاه السياسة الجديدة. ثالثها، أن تركيا ربما اكتسبت المزيد من تمديد التسهيلات الائتمانية لمصر، فكانت العديد من السلع التى تأتى لمصر تأتي من تركيا ومن الكتلة الشيوعية. لكن تشير الوثيقة لتغيير الموقف التركي تجاه مصر بسبب تبريد تعاملاتهم نحو حلف بغداد. وتشرح لنا بأن المسئولين البريطانيين هم السبب فى هذا التغيير. فقد كان لديهم اعتراض على التحركات التركية فى مصر، فقد شككوا فى ولاء بعض مسئوليهم لحلف بغداد، وقالوا بأن هناك خطورة لهذا الاتجاه في السياسة التركية، مستنكرين إبلاغ مندريس لزملاءه في الاجتماع الأخير لمجلس حلف بغداد في كراتشي من رغبة الحكومة المصرية فى إقامة مزيد من العلاقات الودية، داعيا البريطانيين للتعليق على هذا الأمر[٢]. وثمة نتائج ثلاث نخلص إليها: الأولى، أن الدعاية المصرية ضد الحلف

---

(1) Ibid.

(2) Fo. 407-E143-236: RK 10316/3 No. 34 Turkish Approchement With Egypt (1) Mr. Selwyn Lloyd to Sir James Bowker (Istanbul) (No. 68. Confidential) Foreign Office,, August I, 1957.

بلغت أوكلها، فتراجعت العراق وتدخلت بريطانيا فى الضغط على مصر. الثانية، أن الاقتراب التركى من مصر لا يدلل على خشية من الدعاية المصرية فقط، بل استثمارا للظروف القائمة، وعدم الارتماء فى حضن الغرب بصورة تجعلهم يفقدون مكانتهم فى العالم العربى. الثالثة، أن التدخل البريطانى فى صياغة علاقات دول حلف بغداد بمحيطهم الإقليمى كان قائما، فلم تسمح لتركيا بأن تستمر فى سياستها الودية مع مصر.

وتفضح لنا رسالة جيمس بوكر إلى سلوين لويد فى ٢٤ أغسطس ١٩٥٧ بأن مظاهر العلاقات الودية بين الحكومة التركية ومصر، كان فى إمكانها أن تنمو وتتطور. بل يلخص تلك الإمكانية فى ثلاثة ملامح: الأول، إقامة مباراة كرة قدم مصرية تركية في اسطنبول في مايو ١٩٥٧، وحضور مسئولى الدولتين المناسبات الوطنية لكلا البلدين. الثانى، مظاهر الود الأخرى التى أبدتها الحكومة التركية تجاه نظام عبد الناصر في مصر، ووجود عملية تطبيع فى العلاقات التركية المصرية. الثالث، إعلان مندريس عن استعداده للقاء عبد الناصر في أي وقت وفي أي مكان. غير أن الوثيقة عرضت لنا وجهة النظر البريطانية فى هذا التقارب فى مثالين: الأول، حين ذكرت بأن أى زيارة لمندريس فى الوقت الحالى سيكون لها تأثير مؤسف للغاية في المملكة العربية السعودية والأردن والعراق. الأمر الذى نراه فى إجابة مندريس على إحدى الاستفسارات «بأنه لن يجرؤ على اقتراح مثل هذه الزيارة، وأن عرض مثل هذه الدعوة سيحدث تغييرًا كبيرًا فى تركيا ومسؤولياتها تجاه الدول العربية، وسيقود إلى إمكانيات تحسين علاقاتها معهم». الثانى، ما أشار إليه مستشار الولايات المتحدة زميل مندريس بأن تركيا ترغب في أن تتوافق الولايات المتحدة مع تركيا فيما يتعلق بمصر. لكن لا يمكنها فضح نفسها فيما يتعلق ببقية العالم العربي بدحض المبادرات المصرية الودية. الثالث، أنه حين تم الاقتراب التركى من تأسيس علاقات طبيعية مع مصر، ووضحت رغبة تركيا فى أن تلعب دورا خاصا ورائدا في الشرق الشرق، تم التدخل فى صياغة تلك العلاقة. فقد اعتبروا ما يحدث تغييرا مهما فى علاقتها مع الغرب منذ سياسة أتاتورك، وقبولها فيما

بعد في منظمة حلف شمال الأطلسي، واعتبارها قوة غربية مرتبطة بالأسرة الغربية، والتزامات إرادية بواسطة اتفاق بغداد. فتم تحذير تركيا من مصيرها كدولة غربية في الشرق الأوسط، وأن دخولها حلف بغداد أقصاها عن العديد من الدول العربية، وخاصة مصر، على الرغم من جهود مندريس لإصلاحها مع الأخيرة. الرابع، أن دخول تركيا فى علاقات مع مصر كان بهدف جذب بقية الدول العربية الأخرى لحلف بغداد، لكنهم أصيبوا بخيبة أمل بعدم انضمام الأردن، وعدم إستجابة المملكة العربية السعودية للمبادرات المعروضة عليها. الخامس، أنه بالرغم من عدم وجود سبب لرفض تطور العلاقات التركية مع مصر، ومحاولة اظهار التقارب باستيراد بعض السلع الاستهلاكية المصرية للفوز بالانتخابات قد تساعده في الانتخابات، وشكوك زميل مندريس الأمريكى فى استمرار هذه العلاقة[1]، إلا أننا نخلص من ذلك بنتيجتين: الأولى، أنه حتى وإن كان هدف مندريس الفوز فى الانتخابات فهذا يعنى وجود مكانة كبيرة لمصر لدى الشعب التركى. الثانية، أن تخويف تركيا من التقارب مع مصر بالسعودية والأردن، بحكم الخلاف بين أنظمتها الملكية والنظام الثورى فى مصر، يعنى أن بريطانيا تلعب على استغلال كل نقطة خلاف لتأجيجها.

وتتضح صورة الدعاية المصرية ضد العراق فى المكانة التى حصل عليها عبد الناصر لدى شعوب المنطقة. وباستعرض صورته لدى شعوب المنطقة سندرك قوة التأثير المصرى فى العراق. فتحت عنوان «موقف الرئيس عبد الناصر في الشرق الأوسط» فى الأول من أكتوبر سنة ١٩٥٧ تشير إحدى المذكرات البريطانية لمكانة عبد الناصر لدى حكومات وشعوب العراق ولبنان وليبيا والمغرب والسودان وتونس والجزائر والخليج العربي وتركيا وإيران. فتقول بأنه باستثناء البحرين وتونس، قد وصلت كل التقارير. والصورة العامة هي أن ناصر مكروه من قبل حكومات البلدان العربية الأخرى، ولكنهم يترددون في الإساءة إليه بسبب قدراته العظيمة، وتأثير

---

(1) Fo. 407-E143-236: (2) Sir James Bowker to Mr. Selwyn Lloyd. (Received August 26) (No. 157. Confidential) British Embassy Residence, Istanbul, August 24, 1957.

الدعاية المصرية، حتى أن بعضهم يعتمد على الموظفين المصريين المدربين. لكن مكانته لدى شعوب الدول العربية لا تزال مكانة كبيرا جدا، حيث يعتبرونه رمزا للقومية العربية. وقالت بأن دعمه الرئيسى يأتى من شباب الجامعات والقوات المسلحة وسكان المناطق الحضرية الذين يعرفون القراءة والكتابة. لكن الحكومات تجد صعوبة كبيرة في ضم شعوبهم إليهم، ورفض أي سياسة لعبد الناصر علنا. وقالت بأن حكومة العراق تواجه استياء ملحوظ لموقفها من عبد الناصر، ولكنها فى السر سعيدة جدا عندما تسير الأمور تجاهه بشكل سيئ. لأنها تدرك بأن علاقاته مع الكتلة السوفيتية وأنشطته في البلدان العربية الأخرى تعمل ضد المصالح العراقية. وبالتالى هى ليست على استعداد لاتخاذ موقف لوحدها ضده. فسمعته لدى الناس كرمز للقومية العربية يجعلها تراه بطلها العظيم. لكنها تقول بأن شعبيته قد انخفضت إلى حد ما، نتيجة لسماحه بمرور السفن المتجهة إلى إسرائيل عبر القناة، وفشله في القيام بأي شيء تجاه خليج العقبة. وأيضا فإن قادة الحكومة اللبنانية الحالية لا يحبون عبد الناصر ولا يثقون به، ولكنهم أكثر ترددًا في الإساءة إليه. وغالبية المسلمين معجبون به كزعيم للقومية العربية، وبعض المسيحيين يشعرون بنفس الشعور(١).

ومضت الوثيقة تستعرض صورته فى شمال أفريقيا، تلك الدول التى حاولت تركيا والعراق ضمها لحلف بغداد، فتقول: فى ليبيا فإن الأمر ملتبس داخل الحكومة والقصر الملكى. فهناك تأثير مؤيد لمصر داخل الحاشية الملكية وبعض أفراد الحكومة. وإذا كان التأثير المصري القوى موجود بين الشعب، فإن الحكومة الليبية واعية جدا لقوة الدعاية المصرية بين الجماهير وليبيا المعتمدة على المدرسين المصرين المدربين. فالشعب، وخاصة أطفال المدارس، مستعدون دائما للتغنى بعبد الناصر. ونفس الأمر ينطبق على المغرب، فعامة الناس بتأثرون بقوة الدعاية المصرية وبالتالى يصعب على الحكومة جر الشعب لأى سياسة ترفض عبد الناصر. وبالنسبة للسودان فإن الحكومة السودانية

(1) Fo. 407-E143-236: JE 1022/51 (2) Memorandum on President Nasser's Present Standing in The Middleast, Foreign Office, October I, 1957.

ليست على استعداد للشجار مع مصر طالما أن الاستقلال والمصالح السودانية الرئيسية ليست في خطر. على الرغم من كراهية الحكومة الحالية لعبد الناصر باستثناء بعض الوزراء الاتحاديين. بالمقابل فإن أهالى السودان والطلاب وجميع الضباط الشباب يميلون لدعم ناصر. وفى الجزائر فإن تأثير عبد الناصر على الجزائريين قد تضاءل منذ تعطيل لجنة القاهرة لجبهة التحرير الوطني، باعتقال بن بيلا وتحول قادة جبهة التحرير الوطني إلى تونس. لكن يشعر الجزائريون بصفة عامة بأن مصر شقيقتهم[١].

أما فى بقية دول حلف بغداد، فتستعرض صورة الرجل داخلها، فتقول بأنه فيما يتعلق بتركيا فهناك علامات معينة للتقارب التركي المصري، وأن التحرك كان على قدم وساق لتبادل السفراء، لكنها توقفت الآن. وربما كان ذلك نتيجة الدعم الراسخ لناصر فى سوريا. لكن بشكل عام فإن الأتراك يحتقرونه باعتباره رمزا للقومية العربية، لا يروق لهم دعمه لليونان بشأن قبرص، ويثقون بأنه دمية في يد الشيوعية. خاصة وأن الرأي العام والمنظمات تتأثر لصالحه، ولكن من غير المحتمل تغيير سياسته بشأن سوريا وقبرص. أما فى إيران فيعتبرونه عدوًا لحلف بغداد وغوغائي خطير. وتنصح الوثيقة فى النهاية حكومة الشاه باستئناف العلاقات معه، ومحاولة توجيهه بعيدًا عن اليسار. لكن جموع الإيرانيين ليس لديهم مصلحة مع ناصر، مع الإقرار بوجود من هم معجبون بإنجازاته[٢]. وعلى هذا الأساس فإن وقوفه ضد حلف بغداد يعنى أن هؤلاء الحكام لا يمكنهم الانضمام للحلف. من ثم بقى منذ تأسيسه سنة ١٩٥٥ وحتى انهياره سنة ١٩٥٨ مقتصرا على العراق فقط من الدول العربية. وهذا يعد نجاحا كبيرا للسياسة المصرية ضده. وفى ظل الصورة التى رسمت لعبد الناصر فى كل الدول التى حاولت العراق ضمها لحلف بغداد، كان من الصعب عزله وعزل مصر عن التأثير فى المنطقة.

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.

وبلغت قوة الدعاية المصرية ضد العراق لدرجة عزلتها عن الدول العربية. وفي محاولة لكسر تلك العزلة تشير إحدى الوثائق البريطانية إلى محاولة تحفيز الأردن وسوريا ولبنان لدخول حلف بغداد، حيث استغلت رغبة البرلمان السورى فى التمويل فى هذا الإطار. وبدرجة أقل حاولت العراق مع الدول العربية الناشئة في شمال أفريقيا؛ السودان وليبيا والمغرب وتونس، مع أنه لم يوجه الانتباه لحصار إسرائيل. وتشير الوثيقة بأت العراق فقدت فرصتها فى إقامة علاقات ودية، بسبب الدعاية اليومية الموجهه ضدها من قبل القاهرة ودمشق، وبدرجة أقل من القدس ومكة المكرمة. وكان تأميم مصر لقناة السويس قد جلب بدوره موجه من المد والجزر. حيث لحقت الأضرار المصالح السعودية بسبب إغلاق القناة، وأخطار الشيوعية المتأصلة في قبول مصر وسوريا الأسلحة السوفيتية وتدخلهما، ولا سيما مصر، في الشؤون الداخلية للدول العربية الأخرى، الأمر الذى قاد الملك سعود للبحث عن بعض الأصدقاء. وبالتالى لم يدع نوري السعيد الفرصة تمر، فذهب الملك فيصل نفسه لزيارة الملك سعود في أواخر صيف عام ١٩٥٦، وعزز هذا زيارة الملك سعود لبغداد في شهر مايو سنة ١٩٥٧. بعدها ذهب الأردن ولبنان. وهو ما جعل نورى السعيد يصرح بعدم قدرة مصر على الفطام من الكتلة السوفيتية(١). لكن هذا، لا يعنى انضمام تلك الدول إلى حلف بغداد، فقد أفلحت الدعاية المصرية فى ضمان استمرار الرفض العربى لهذا الحلف حتى انهياره.

وتشير إحدى الوثائق بتاريخ ٤ يوليو ١٩٥٧ بتأثير التدخل الأنجلو فرنسى فى السويس على السياسة الخارجية العراقية. حيث شعرت حكومة نوري السعيد بأنها مقيدة عن دعم الحالة المصرية إلى أقصى حد. ووجدت نفسها مبعدة في الوقت نفسه بصورة متزايدة عن مصر وسوريا بسبب عنف الدعاية المصرية السورية ضدهم وضد

---

(1) F.O.481-11,(20974): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 11,January to December 1957, No. 7, The Achievements of Nuri Said, Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. (Received July 9, No. 176. Confidential) Bagdad, July 4, 1957, p.24.

المملكة المتحدة، حليفهم، وأضيرت مصالحها بسبب إغلاق القناة، وتفجير خط أنابيب شركة النفط العراقية من قبل الجيش السوري. وهذا ما أثر على الاقتصاد العراقى. والصراع بين هذين الاتجاهين دفع الحكومة العراقية إلى أحضان غير عربية من شركائهم في حلف بغداد. ففى الوقت الذى أدانوا فيه التدخل الأنجلو-فرنسي، سعوا للحفاظ على المشاركة البريطانية في حلف بغداد. الأمر الذى أتاح لنورى السعيد الحصول على الدعم الذي ساعده فى تجاوز الأزمة وعدم التفكير في تقديم استقالته. وهو ما مكنه من تكوين علاقات جيدة مع العالم بأسره، وحتى مع العالم العربي المعزول عنه لمدة عامين. لكنه كان يعتقد أن الحكومة المصرية إذا بقيت متشبثة بالكتلة السوفيتية، ستستعيد ما فقدته من دفعه من قلوب القوميين العرب، وهنا لن يحتاج لها العراق فقط، بل العالم الغربي ككل[١].

واستمرت الدعاية المصرية ضد العراق على أشدها، فنشرت صحيفة الشعب المصرية في ٣٠ يناير ١٩٥٧ بيانًا لدول حلف بغداد يحوى قرارات سرية، عدوا فيها تعاون بعض الأقطار العربية مع الكتلة الشرقية بمثابة قضاء مبرم على مصالح الدول الغربية في المنطقة. وأعطت الصحيفة أهمية للاقتراح العراقي بالقضاء على النظام الوطني في سوريا وحكومة سليمان النابلسي الوطنية في الأردن لعزل مصر وتعطيل دورها القيادي، متهمين فى البيان القيادتين السورية والمصرية بإحباط خطط حلف بغداد وعدوها دولا مُعادية، وبينوا بأنهم سيقفون ضد الأقطار العربية المناهضة للحلف بفضل ما أعطوه للولايات المتحدة الأمريكية من دور قيادي، وما سيقدمه الأميركان من مساعدات لحلف بغداد تمكنه من تحقيق غاياته ومراميه[٢]. ومما سبق يتضح لنا أمرين: الأول، الاختراق المصرى للعراق، فكيف وصل هذا البيان السرى للقيادة المصرية. الثانى، استمرار حرب الدعاية المصرية ضد الحلف وضد العراق بكل

(1) Ibid., pp.25,27.

(٢) إيمان عبد الله حمود: العلاقات المصرية التركية من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٠، مجلة كلية الآداب، العدد ١٠٢، جامعة بغداد، ص١٤٨.

السبل، وبالتالى ضمان استمرار المقاومة الشعبية ضد الحلف.

وفى نفس الإطار عقد اجتماع فى القاهرة في منتصف شهر يناير ١٩٥٧، تم فيه رفض مبدأ ايزنهاور، وعدم الاعتراف بوجود فرغ فى المنطقة. وهو الاجتماع الذى يؤكد على استمرار الدعاية المصرية ضد العراق وحلف بغداد، حيث حضره الرئيس السوري شكري القوتلي والملك حسين ملك الأردن والملك سعود ملك السعودية، وعلى إثره تم رفض البلدان العربية الأربع مبدأ أيزنهاور، ولم تعترف بوجود فراغ بالشرق الأوسط، معلنين بأن القومية العربية مدعوة لملء هذا الفراغ المزعوم(١).

المحور الرابع: إختلاف المواقف المصرية من العراق بعد العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦

اختلفت المواقف المصرية من العراق بعد حرب السويس اختلافًا بينًا، ففرقت ما بين النظام الحاكم والشعب العراقى. وكان العدوان الثلاثي الذي قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر في ٢٩ اكتوبر ١٩٥٦ قد أثار موجة استياء بين الأقطار العربية عموما، كان على رأسها العراق(٢). وبطبيعة الحال لم يكن العدوان على السويس، ولا قيام مصر بإبطال معاهدة سنة ١٩٥٤، وعدم اعتدادها بالمقولات البريطانية بضرورة وجودهم فى مصر(٣)، هو المحرض للشعب العراقى على رفض ما حدث فقط، بل كان إقدام عبد الناصر على تأميم قناة السويس، هو الذى جعل موقف الشعب العراقي وحكومة نوري السعيد على طرفي النقيض. حيث تشير إحدى المراجع بأن الملك العراقى فيصل ونورى السعيد كانا حاضرين فى لندن اجتماعا مع رئيس الوزراء البريطانى إيدن، حينما جاءه خبر تأميم القناة. فحين جن جنونه وطلب

---

(١) سيد محمد عبد العال: المرجع السابق، صص١٨٢-١٨٦.

(٢) إيمان عبد الله حمود: المرجع السابق، ص١٤٦.

(3) Fo. 407-E143-236: Further Correspondence Respecting, Egypt, Part 11, January to December 1957, Secret, JE 1191/1 No. 1, Egyptian Abrogation of The 1954 Suez Base Agrement (1) Sir Pierson Dixon to Mr. Selwyn Lloyd. (Received January 7)(No. 5 S. Confidential) New York, January 4, 1957.

مشورة السعيد وأجابه «اضربوا الآن.. اضربوه بشدة وإلا سيفوت الأوان، لأنه إذا ترك وشأنه فسيقضى علينا جميعا»(١)، كان هذا هو الخط الفاصل بين موقف مصر من النظام والشعب العراقى. فعلى أثر العدوان الثلاثى اتسم موقف حكومة السعيد بالتشفي من مصر وعبد الناصر، بشكل علني وصريح. وراحت الإذاعة العراقية تحاول صرف أنظار الشعب عن العدوان. بل راحت تبث الأغاني الممجوجة، التي كان التشفي ينبعث منها، مما أثار سخط الشعب العراقى واستنكاره منها ومن الحكومة المتواطئة مع العدوان. تلك الحكومة التي سخرت مطاراتها للطائرات البريطانية، ومستشفياتها لجرحى المعتدين، وضخت النفط إلى ميناء حيفا في إسرائيل لتجهيز طائرات المعتدين بالوقود وجيوشهم(٢).

وكما عرفنا من قبل بأن نوري السعيد كان في لندن حينما أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس، وأنه هو الذى حثه على ضرب مصر، برهنت الحوادث التالية أيضا بأنه كان على علم مسبق بقرار الهجوم على مصر. وعاد إلى بغداد مسرعًا، ليقوم بدوره المرسوم في دعم العدوان، وإحكام سيطرة الحكومة على الغليان الشعبي الذي اجتاح العراق من أقصاه إلى أقصاه. وما كاد العدوان الثلاثي يبدأ على مصر حتى عقد اجتماع لمجلس الوزراء في البلاط، لبحث الوضع في مصر. واعتقدت السلطة الحاكمة في بغداد أن النظام في مصر على وشك الزوال، وكانوا يتطلعون إلى الأخبار منتظرين استسلام مصر. وقد أتخذ مجلس الوزراء قرارًا بإعلان الأحكام العرفية في نوفمبر بتشكيل أربعة محاكم عسكرية، في محاولة لمنع الشعب من التحرك ضد النظام العراقى. فى حين كان الشعب العراقي برمته يغلي كالبركان، ويطالب حكومته بالوقوف إلى جانب مصر ومساعدتها في محنتها(٣). بل انتهجت الأحزاب الوطنية، حزب

(١) فواز حماد محمود: العلاقات العراقية المصرية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد الأول، مارس ٢٠١٢، ص١٧٠.

(٢) حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. المرجع السابق، صص٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) نفسه، صص٢٥٥- ٢٥٨.

الاستقلال والحزب الوطنى والمؤتمر الوطنى والجبهة الشعبية وغيرها، سياستها المؤيدة لمصر ضد العدوان الثلاثى، وأرسلت احتجاجات للملك العراقى وإلى إيدن والأمين العام للأمم المتحدة لإيقاف ما يجرى من انتهاكات لحقوق الشعوب. واستمرت داعمة لمصر، ضاغطة على الحكومة العراقية لبناء علاقات متطورة مع مصر. وهذا الضغط هو الذى اضطر الحكومة فيما بعد إلى تقديم دعمها لمصر، فشكرت الحكومة المصرية لها موقفها الداعم لها[١]. وقدم ٦١ أستاذًا جامعيًا مذكرة مسهبة إلى الملك، استنكروا فيها سياسة حكومة نوري السعيد المعادية لمصالح الأمة العربية. كما قدم ٣٥ شخصية سياسية ودينية ووطنية مذكرة مسهبة إلى الملك في ٢٠ نوفمبر، شرحوا فيها طعنه للأمة العربية في الصميم، داعين إياه لمعالجة الأمر قبل فوات الأوان. غير أن النظام أصرّ على السير في ركاب المستعمرين، وتحدي مشاعر الشعب. فاندفعت الجماهير لا تخشى من الحكومة ولا تعنتها. ففي بغداد اندفع أساتذة الكليات والمعاهد العالية والمدارس وطلابهم، الذين هزهم العدوان الثلاثي، وموقف حكومة نوري السعيد منه، يومي ٣، و٤ نوفمبر ١٩٥٦ في مظاهرات عارمة، متحدين الأحكام العرفية والقوات الحكومية. نتج عنها استشهاد طالبين وفتاة صغيرة، ووقوع عدد كبير من الجرحى، وتم اعتقال أعداد أخرى من الطلبة. الأمر الذى أدى إلى استمرار المظاهرات الطلابية دون توقف، وإلى انتشارها في معظم المدن العراقية. ووسط تحدي الشعب، قامت القوات القمع بإطلاق النار على المتظاهرين واشتبكت معهم فى عدة مناطق[٢].

ولعل خطاب السفارة المصرية بالرباط فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٦، والتى يبين فيها بأن زيارة نورى السعيد وفاضل الجمالى للمغرب كان غرضها الأساسى ضم المغرب

---

(١) فواز حماد محمود: العلاقات العراقية المصرية، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد الأول، مارس ٢٠١٢، صص١٧٢، ١٧٣.

(٢) حامد شريف سليمان الحمداني: نوري السعيد. المرجع السابق، صص٢٥٧-٢٦٢.

لحلف بغداد، خير مثال على وجود مسئولين عراقيين كانوا رافضين لتلك المحاولات. فغرض الزيارة للمغرب سربه أحد مسئولى السفارة العراقية فى المغرب(١). وهذا يعنى أن الجو العام أصبح محرجا حتى على الذين يعملون داخل الجهاز الرسمى للدولة العراقية. بل إن إشارة السفير المصرى فى تونس بتاريخ ١٠ يناير ١٩٥٧ وحديثه بأن القائم بالأعمال العراقى بالنيابة هناك قد أخبره بلهجة التهكم بأن الحكومة العراقية قد طلبت منه أن يسعى فى التأثير على الحكومة التونسية حتى تنضم لحلف بغداد(٢)، يثبت بأن كثير من الشخصيات الرسمية العراقية كانت رافضة للحلف ومؤيدة للموقف المصرى الرافض له.

إلى هنا، رصدت الدراسات العراقية والوثائق المصرية اختلاف الموقف المصرى من العراق بعد حرب السويس ١٩٥٧، لكن بالنظر للوثائق البريطانية سنجد تفاصيل مهمة حول المسألة. فتحت عنوان «ردود الأفعال العراقية على الأحداث التي أعقبت الهجوم الإسرائيلي على مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦» أرسل السير مايكل رايت للسيد سلوين لويد يخبره فى ٧ ديسمبر ١٩٥٦، بأنه أرسل العديد من البرقيات خلال الشهر الماضي تعبر عن موقف حكومة العراق نحو إسرائيل والأفعال الأنجلو فرنسية في منطقة قناة السويس، وإلى أي مدى أمكن الفكاك من هذا الموقف بشكل جيد تجاه الرأي العام العراقي المعادى للتدخل. حيث تعطينا الوثيقة جانبا مهما على الموقف العراقى الرسمى يخالف ما هو تناولته الدراسات من قبل. فتقول بأنه من أكثر النتائج وضوحا ليس قرار حكومة العراق من بيان طهران فى ٧ نوفمبر بقطع العلاقات

---

(١) تقرير طه الفرنوانى بسفارة مصر بالرباط، فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٦، ملف ٦ رقم ٧٤٥/ ٨١/ ٢ ج١ التقارير السياسية للسفارة المصرية فى الرباط عن مراكش، محفظة ٦٤، فيلم ٤٠ المغرب، أرشيف البلدان، خارجية.

(٢) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى أفريقيا. المرجع السابق، ص١٣١-١٣٣. وكذلك انظر، أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى شمال أفريقيا. المرجع السابق، صص٢٩٨-٣٠٢.

الدبلوماسية مع فرنسا، وتجميد حلف بغداد فقط، بل فى نشرها لبيان ١٣ نوفمبر دعت فيه إلى حل إسرائيل وعودة السكان الإسرائيليين إلى الأراضي التي أتوا منها. وذكر صاحب الرسالة بأنه حتى نهاية أكتوبر كانت العلاقات بين العراق والمملكة المتحدة ربما تكون أفضل مما كانت عليه طيلة السنة. حيث استطاعت التخلص من المعارضين لها في السلطة؛ وباتفاق خاص تم تنفيذ المتطلبات الاستراتيجية البريطانية في العراق بنجاح. وكان البلدان شركاء في تحالف ودي قوى ينمو في المنطقة. وبدا أن ميثاق بغداد قد أصبح فعالًا من خلال التعاون العسكرى وعبر النتائج الاقتصادية، فالتقنيات البريطانية والمهارة مطلوبة فى المشاريع الزراعية والتجارية العراقية، حيث يرتبط العراق ببرنامج واسع للتنمية بما يعد بمستقبل سعيد(١). لكن الأمر تغير كلية فيما بعد.

وإذا كان هذا على الجانب الرسمى فإن ما ذكرته الوثيقة السابقة على الجانب الشعبى يعد مميزا أيضًا. فقدم لنا صاحب الرسالة بعض التعليقات المهمة التى لا نجدها فى أى من الدراسات العربية على تطور الرأي العام العراقي تجاه التدخل البريطانى فى قناة السويس. فحينما هاجمت القوات الإسرائيلية مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ أعطانا تصورات الشعب العراقى فى تلك اللحظة تجاه المهاجمين، وتأثير ذلك على حلف بغداد. فذكر بأن الجمهور العراقي كان يعتقد بأن الإسرائيليين قد تشاوروا مع حليفهم البريطانى وصديقهم الفرنسى. فاعتبروا بأن هذا يعد مخالفة لمقررات إعلان الثلاثية لعام ١٩٥٠ تلك التى وضعت آلية أبطأ تتحرك من خلالها الأمم المتحدة للدفاع عن مصر ضد العدوان. واعتبروا أن ما حدث كان اختبارا لذلك الاعلان. مشيرا بأن العراقيين اعتبروا الهجوم الإسرائيلي أكثر من كونه توغلا فى

---

(1) F.O.481-10 (20225): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 10,January to December 1956, No. 12,Iraqi reactions to events following the Israeli attack on Egypt on October 29, 1956, Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. (Received December 11). No. 298. Confidential, Bagdad, December 7, 1956, p.27.

الأراضي العربية التي كبلتها معاهدة الهدنة تحت رعاية الأمم المتحدة. وأن الذعر الذى حدث للشعب العراقى قد تمثل فى سماعه للإنذار الأنجلو فرنسى لكلا الطرفين. فاعتبروا بأن هبوط القوات البريطانية والفرنسية في مصر لم يكن لمعاونة الجيش المصري ضد التدخل الإسرائيلي فى أراضيهم، ولكنهم عاملوا المصريين كأعداء وحرموهم من حقهم الأصيل فى الدفاع عن أنفسهم. وأن حجج البريطانيين بأن إعلان الثلاثية لا ينطبق على مصر، لأن كلا من مصر وإسرائيل قد اعترف به باعتباره مدافعا عنهم(١).

وكان الانزعاج الشعبى العراقى من مساواة بريطانيا بين الطرفين، وبأنها استخدمت حق النقض الفيتو ضد القرار الذي عرضه مجلس الأمن بإدانة الهجوم الإسرائيلى على مصر. حيث اقترح تدابير ضد إسرائيل ما لم توقف إطلاق النار وتسحب قواتها. وكان الافتراض بأن بريطانيا والولايات المتحدة من أقوى المؤيدين لإسرائيل، في حين بريطانيا ملزمة بمعاهدات التحالف مع العراق والأردن، وكان عليها على الأقل أن تكون أكثر تعاطفًا مع مصالح العرب. وكانت الصدمة شديدة بتصويت الاتحاد السوفياتي لصالح القرار، فزاد من أسهمهم على حساب الغرب. وختمت الوثيقة بنصح صانع القرار البريطانى، بأنه على الرغم من ذلك، لا يزال الشعب العراقى يتوقع بأن تقوم القوات البريطانية بدورها في وقف إطلاق النار، وتعمل على فتح قناة السويس، وتأمين إنسحاب القوات الإسرائيلية وراء خطوط الهدنة. وإذا ما اتخذت بريطانيا أي خطوة ضد القوات الإسرائيلية سيكون رد الفعل العراقى إيجابيا، وسيتم فهم دوافعهم، لكنه يتأسف على أن بلاده مضت فى اتخاذ الإجراءات المسلحة ضد مصر(٢).

وتأتى إحدى الوثائق المؤرخة بتاريخ ٧ ديسمبر ١٩٥٦ لتقدم لنا قناعات الشعب

(1) Ibid.
(2) Ibid.

العراقى فى خمس قناعات مهمة: الأولى، أن التدخل البريطانى كان جزءا من مؤامرة مع فرنسا وإسرائيل. الثانى، يعتقد معظم الناس أن القوات المصرية بعد الصدمة الأولية للهجوم الإسرائيلي منعت من رد الاعتداء بعد تدمير قوة الطيران المصري. الثالثة، كانوا ينظرون للتدخل المسلح البريطانى في مصر على أنه محاولة لعودة الاستعمار البريطانى مرة أخرى على عكس نظيرتها الفرنسية. الرابعة، كان الجمهور العراقي غير مهيأ تماما لسماع أي حجج تبرر تدخل الحلفاء، حيث كشفت حرب السويس بأن بريطانيا هى عدو للعرب وصديق لإسرائيل. الخامسة، أن مخزون الشعب العراقى عن الرئيس ناصر لا يزال يراه بطلا وضحية. وأن الضربة جاءته من أنتوني إيدن الذى يدعى أنه صديق الشعوب العربية. وأن الدعاية البريطانية كانت غير فعالة لإبعاد الناس عن هذا الاعتقاد[١].

وتشرح لنا الوثيقة السابقة كيفية تغيير صورة الروس بشكل أفضل لدى العراقيين. فتقول بأن بداية الحرب قد سببت كراهية العراقيين لحليفهم البريطانى، وأعطت الاتحاد السوفياتي الفرصة لتعزيز مكانته واستعادة حركته في العراق. فلفترة طويلة استمرت الدعاية للمساعدات السوفيتية لمصر، وعن توريدهم الأسلحة إليها. بل رسمت صورة روسيا الداعمة للعرب في نزاعهم مع إسرائيل. وهو ما جعل الناس فى العراق يتساءلون عندما تم الهجوم الإسرائيلي، وأعقبه هجوم الحلفاء على مصر: «أين الروس؟ ماذا سيفعلون؟ لماذا لا يساعدون أصدقائهم؟». حيث انتشرت الأحاديث بينهم بأن الأسطول السوفيتي قد مر من خلال مضيق الدردنيل، وأن الطائرات السوفيتية تقصف قبرص، إلا أن ذلك أدى فى وقت لاحق إلى خيبة الأمل. فعدم مساعدة عبد الناصر أدت إلى تقليل هيبة الروس ومكانتهم. لكن مع إنذار بولجانيين Bulganin مصاحبا للتهديد الروسى بالهجوم الصاروخى، مع مناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة، تحول الموقف السوفييتي شيئا فشيئا داخل العالم العربى. ولهذا

---

(1) Ibid., p.28.

تتحدث الوثيقة عن الدعاية بتوريد السلع الروسية لمصر وسوريا، وبأنها ساهمت فى تقوية الموقف الروسى، مقابل ضعف الموقف البريطانى بعد نزولهم بورسعيد، وفشلهم فى مساعدة أصدقائهم في الشرق الأوسط بنفس حجم مساعدات الروس(١).

ومثلما قدمت لنا الوثيقة صورة الروس لدى الشعب العراقى، قدمت لنا صورة الأمريكان فى نظرهم أيضا. فقالت بأن الموقف الأمريكي فى الموضوع المصرى قد أثار حفيظة الناس ضد البريطانيين. حيث نشرت خدمة المعلومات الأمريكية في بغداد وثيقة تحتوي على مقتطفات من الصحافة الأمريكية، وهى معارضة للعدوان الثلاثى، وبالتالى أصبح لديهم جمهور عراقى يُسمِي موقفهم «بالموقف الأمريكي النبيل»، معتبرينه آخر المظاهر الاستعمارية للإنجليز والفرنسيين. لكن الحكومة العراقية انتقدت الموقف الأمريكى مع أنها ستكون سعيدة لرؤية نهاية ناصر. وأثار موقف ممثلو الولايات المتحدة نحو الحلفاء الغربيين بفشل سفارة الولايات المتحدة، بأن تكون ممثلة لفرنسا بعد رحيل السفير الفرنسي وموظفيه. حيث قرأ بعض عناصر الشعب العراقى الموقف الأمريكي بأنه لتعزيز مكانتها فى المنطقة، واعتبرهم البعض بأنهم مجرد هواة غير ناضجين، متغيروا العواطف والميول. وعبر البعض بأنهم جاءوا فقط ليحلوا محل الغرب فى المنطقة، وأنه أمر متفق عليه بحجة أنه لا ينبغي شغل الفراغ من قبل روسيا. لكن الموقف العاطفى سرعان ما سيتغير ضد الأمريكان على مشكلة فلسطين، بسبب موقفها المؤيد لإسرائيل. وأنه غير مسموح لأنصارهم بالحديث، فالطابع الاستعمارى سيضعف مكانتهم في العالم(٢).

واستكملت الوثيقة تأثير العدوان الثلاثى على الشعب العراقى، فعرضت قيام فئات مختلفة بمشاكل خمسة: أولها، كانت هناك مشاكل قام بها التجار والعمال العراقيين

(1) Ibid., p.29.
(2) Ibid., p.29.

والطلاب. ففيما يتعلق بالمدارس الثانوية والتعليم العالي على سبيل المثال قالت بأن المدارس لا تزال مغلقة، وإن إعادة فتحها يمثل خطورة أمنية كبيرة. ثانيها، حدثت مشاكل في بغداد والبصرة والنجف والموصل. فكانت النجف مضطربة، وفي الموصل تم استدعاء الجيش على التدخل. حيث تعامل وزير الداخلية سعيد قزاز بنجاح كبير مع المظاهرات. وقالت بأن الشعور العام خلال النصف الأول من نوفمبر كان عفويا وعاطفيا فى مقاومة العدوان، وضد القوات البريطانية والعراقية بشكل خاص. وقالت بأن الاضطرابات في بغداد والموصل والنجف لم تكن موجهة ضد الحكومة بقدر ما هى موجهة ضد البريطانيين. ثالثها، استغل السياسيون الوضع سعيا وراء أهدافهم الخاصة، واعلنوا أن استمرار الدعم الحكومى لبريطانيا وحلف بغداد يمثل خيانة عظمى ضد الأمة العربية. رابعها، أن إثارة تعاطف الشعب العراقى كان للتبرؤ من عمل الحكومة السورية وجيشها من تفجير خط أنابيب شركة نفط العراق. بل إن غرس الغضب لدى النظام السورى في موقفه من مقاومة العراق قد تراكم في سوريا. فظل معظم السكان تحت تأثير السحر الناصرى، الذى يرى أن كل المصائب كانت للانتقام من الحكومة العراقية، بما يعنى وجود أزمة ثقة. خامسها، جاء تدهور الثقة بين المجتمع العراقي على كل المستويات، بداية من ولي العهد إلى بقية الأطراف الحاكمة[1].

لهذا نصحت الوثيقة، كخطوة أولى لاستعادة ثقة العراقيين فى بريطانيا، بإجراءات ثمانية: أولها، أن تثبت بريطانيا للشعب العراقى بأنه ليس لديها نية لدعم إسرائيل بشأن قضية فلسطين على حساب العرب. ثانيها، أن تذهب بريطانيا إلى أبعد مدى في معارضة إسرائيل لتثبيت هذه النقطة. ثالثها، أنه في وسع بريطانيا لاستعادة ثقة الحكومة والجيش، وبالتالى استعادة السكان، تقديم المساعدة فى حل مشاكل تسليحهم، لاسيما توفير طائرات هنتر. رابعها، أن بريطانيا تمتلك طرق أخرى من

---

(1) Ibid., pp.29, 30.

خلالها يمكن المساعدة فى تطوير السياسة العراقية في الداخل والخارج، ولا ينبغي التفريط فى تلك الفرصة. خامسها، أن حلف بغداد يوفر إطارا ممتازا، كونه يوفر للمشاركين فيه فوائد عديدة دون الشعور بالحرج فى الظهور بمظهر الدولة المقدمة للرشاوى المباشرة. سادسها، أن تقديم مساهمة كبيرة على النحو الموصى به من قبل السفير البريطانى في طهران، وبموجب العلاقات الشخصية للخبراء البريطانيين في العراق، ورجال الأعمال البريطانيين مع عملائهم، والمعلمون مع طلابهم، يمكن لبريطانيا أن تنجو من العاصفة، وتتمكن من استعادة الثقة. سابعها، أنه على الرغم من معاناة الاقتصاد العراقي نتيجة لانقطاع خط أنابيب النفط، فيجب أن تكون سياستهم تشجيع رجال الأعمال البريطانيين للحفاظ على مصالحهم في العراق وتمديد اتصالاتهم بها. ثامنها، أن يستمر المجلس الثقافي البريطاني في تقديم المنح الدراسية ومساعدة جميع العراقيين الذين يزورون المملكة المتحدة لأغراض الثقافية. لكن الوثيقة تعترف بوجود صعوبة فى تقديم هذا الدعم رغم مفاخرة المسئولين بوجود نورى السعيد كداعم لسياستهم على رأس السلطة، وتعترف بوجود مبالغة فى هذا التصور. فتشرح بأن الرجل وضعوه فى موقف الشخص الذى لا يطاق. وهو الأمر الذى يمثل صعوبة للبريطانيين مع زيادة الاستياء الشعبى وتهرب البعض من مقالبلتهم. وأنهم يجب أن يستعيدوا الثقة فى الساسة الأصغر سنا، لأنه من المحتمل أنهم سيخلفونه فى الحكم. وبالتالى نصحت بوجوب تحديد السياسة البريطانيا مع طموحات العراق في العالم بأسره وفي العالم العربي. واضعين فى الاعتبار موقع بريطانيا فى العلاقات السياسية مع هذا البلد، وفى حماية المصالح البريطانية وعلى رأسها البترول، وأنه لابد من بذل جهد كبير وطويل لاستعادة زمام الأمر(١).

المحور الخامس: أثر الموقف المصرى فى قيام ثورة العراق ١٩٥٨ وسقوط حلف بغداد

عرفنا من قبل بأن الشعب العراقي كان في مقدمة الشعوب العربية التي هبت في

(1) Ibid.

تظاهراتها الواسعة استنكارًا للعدوان الثلاثى فى حرب السويس ١٩٥٦. غير أن السلطة الحاكمة في بغداد بقيادة نوري السعيد، وقفت فى موقف مغاير لمشاعر الشعب العراقي، ومشاعر الأخوة العربية تمامًا. فكانت إذاعة بغداد تذيع الأغاني الممجوجة التي كانت تعبر عن التشفي بعبد الناصر. ولم تكتفِ السلطة الحاكمة بذلك، بل تصدت بعنف للتظاهرات الشعبية المؤيدة لمصر، مستخدمة كل وسائل القمع ضدها، مما أدى إلى استشهاد العديد من المواطنين، وجرح الكثيرين واعتقالهم. وبطبيعة الحال فإن موقف السلطة العراقية من حرب السويس هو الذى مثل استفزازًا لمشاعر الشعب وقواه الوطنية، وبالتالى أثار لديهم العزم والتصميم على تخليص بلدهم من تلك الزمرة المعادية لمصالح العراق والأمة العربية. كما كان دافعًا للعناصر الوطنية، ومحركا لصفوف الجيش العراقي للتحرك بهذا الاتجاه. حيث توسع نشاط هؤلاء الضباط الوطنيين، وتوسعت الخلايا التي شكلوها تحت قيادة اللجنة العليا لحركة الضباط الأحرار التي قادت ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ بنجاح[١].

ونتعرف من الوثائق البريطانية على بعض التفاصيل المهمة عن الدور الذى لعبته مصر فى إسقاط النظام الملكى وإقامة النظام الجمهورى. فتحت عنوان «إنجازات نوري السعيد» أرسل السير مايكل رايت للسيد سلوين لويد برقية فى ٤ يوليو ١٩٥٧، يشير فيها إلى أن الملك فيصل كان قد قبل استقالة حكومة نوري سعيد، وطلب من علي جودت تشكيل حكومة جديدة. ولعل استعراض الوثيقة للإنجازات التى حققتها حكومة نورى السعيد، سندرك بأن تلك الإنجازات كانت هى السبب الحقيقى فى الثورة[٢].

---

(١) فكان قيام اللجنة العليا لحركة الضباط الأحرار في عام ١٩٥٦ وجبهة الاتحاد الوطني عام ١٩٥٧، بحيث كان اللقاء ثم التنسيق بينهما العامل الحاسم في انتصار ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨. للمزيد انظر، حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز، فيشون ميديا - السويد، ٢٠٠٦، صص١٦-٦٥.

(2) F.O.481-11, (20974): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 11 ,January to December 1957, No. 7, The achievements of Nuri Said, Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. (Received July 9, No. 176. Confidential) Bagdad, July 4, 1957, p.23.

وإذا ما عرفنا بأن أهم هدف لثورة ١٩٥٨ هو إقامة أفضل الروابط مع الدول العربية المتحررة، وعلى رأسها مصر، في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وصولا لتحقيق أفضل ارتباط مع مصر بالخروج من حلف بغداد، وإتباع سياسة الحياد الإيجابي، سندرك الدور الذى لعبته مصر فى إحداث هذا التغيير. وإذا عرفنا بأن عبد السلام عارف كان يرى في عبد الناصر مثله الأعلى، حيث كان يركز في كل خطاباته على شخصيته، وكان يدعو إلى إقامة وحدة فورية مع الجمهورية العربية المتحدة، لأدركنا هذا الدور جيدًا وعرفنا أبعاده. وإذا علمنا أن الضباط العراقيين هم الذين أرسلوا صديق شنشل إلى القاهرة للالتقاء بالرئيس عبد الناصر، والتباحث معه حول ما يمكن أن يقدمه من دعم وإسناد للثورة، حيث وعده عبد الناصر بتقديم كل دعم ممكن، ستتأكد أكثر فأكثر من هذا الدور. وفى هذا الإطار تحدث عبد الناصر مع السفير السوفيتي حول ما يمكن أن يقدمه الاتحاد السوفيتي من دعم لأي تحرك في العراق، فجاء الرد بالإيجاب مبديًا استعداده لمنع أي اعتداء على العراق، في حالة قيام الثورة. فحين استطاع عبد الكريم قاسم آمر اللواء التاسع عشر، والعقيد عبد السلام عارف، والعقيد عبد اللطيف الدراجي، آمري الفوجين الثاني والثالث من اللواء العشرين، وهم من قادة اللجنة العليا للضباط الأحرار، تحريك قواتهم من جلولاء ليلة ١٣/ ١٤ يوليو ١٩٥٨م نحو الأردن، ووجهوا الضربة القاضية للنظام الملكي وللإمبريالية، وتوافق معه إعلان الرئيس عبد الناصر اعترافه بالجمهورية العراقية الوليدة فورًا، وتحذيره من أن أي اعتداء عليها سوف يعتبر اعتداء على الجمهورية العربية المتحدة نفسها، واضعًا كل الاستعدادات للدفاع عن ثورة العراق، لاتضح لنا هذا الدور وتأكدت ملامحه. فحينما كان يقوم الرجل بزيارة رسمية ليوغوسلافيا وسمع بنبأ قيام الثورة وهو فى طريقه إلى موسكو، اجتمع على الفور برئيس الوزراء السوفيتي، نيكيتا خرشوف، طالبًا منه الوقوف إلى جانب الثورة العراقية، ومنع الأمريكيين والبريطانيين وحلفائهم في حلف بغداد من محاولة الاعتداء على العراق وإجهاض الثورة الوليدة، الأمر الذى جعل روسيا تعترف بالحكومة التي شكلتها

الثورة، بعد يوم واحد من قيامها(١).

وفى هذا الإطار نتعرف من إحدى الوثائق البريطانية على إشارات مختلفة عن تلك الفترة وهذا الدور. فتحت عنوان «الوضع في العراق» كتب السيد كروفورد للسيد سلولين لويد فى ٩ سبتمبر ١٩٥٨ بأنه لا أحد يعرف ما هو القادم؟ أو كيف سيتم تنفيذه؟ ولكنه يعتقد بثقة أن أي تغيير لا بد أن يتمثل في مقاومة الغرب الاتجاه المؤيد لعبد الناصر. وإذا لم يحدث هذا فمن المشكوك فيه أن يحدث تغيير إلا من خلال الاضطراب في الجيش، وهذا ليس مستحيلًا. ففي بغداد يسود جو من التكهنات يجب أن يكون أعضاء الحكومة على علم بها، غير أن الجو العام يعزز عدم القدرة الواضحة للحكومة لاتخاذ القرارات الكبرى في مجال السياسة الخارجية، لأنه سيكون قرارا غير شعبيًا. وقالت الوثيقة بأن تنظيم حلف بغداد أو إعادة تنشيط سلاح الجو الملكي وتنظيمه في الحبانية، تكشف عن وجود مؤامرات حقيقية أو وهمية هدفها تطهير البلاد من أنصار النظام القديم. ولن تختلف التطورات التى ستحدث فى العراق عن تلك التي وقعت في مصر بعد الثورة، فهناك توسيع فى شبكة المخبرين، واعتقالات وترهيب السكان فى منتصف الليل، وبهذه الطرق سيكون النظام غير قادر على ترسيخ نفسه بالخوف لفترة. وإذا لم يحدث أى إتجاه إيجابي فى البلاد، ويأتى بشخص آخر يظن أنه يستطيع أن يقوم بدور أفضل، فربما يتصرف ضابط جيش آخر مع، أو من دون، دعم العقيد ناصر. لكن من وجهة نظر صاحب الوثيقة أن التغيير سيكون للأسوأ(٢). وفى هذا الإطار تعترف الوثيقة بتحركات مصرية واضحة فى العراق، وتقول بوجود أصابع لعبد الناصر داخل الجيش.

ويتأكد الدور المصرى بقوة عبر وثيقة أخرى، فتحت عنوان «الوضع الحالي في

(١) حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز. المرجع السابق، صص٦٤، ٦٥، ٧٣، ٨١، ٩٤، ١٠٦، ١٠٧.

(2) F.O.481-12, (21556): Further Correspondence Respecting Iraq, Part 12 ,January to December 1958,No. 17, The situation in Iraq, Mr. Crawford to Mr. Selwyn Lloyd. (Received September II) (No. 144. Confidential) Baghdad, September 9, 1958, p.56.

العراق والنظرة المستقبلية»، أرسل السير مايكل رايت للسيد سلوين لويد برقية فى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٨ يخبره فيها بأنه ليس هناك شك في أن الجيش سيعتزم السيطرة على البلاد والحفاظ عليها. وأن النقاش يجري لتشكيل مجلس ثوري سيتم اختياره من ثلاثة أفراد من الجيش، ومن رجال الدولة ومجلس الوزراء؛ قياسا على مجلس قيادة الثورة في مصر. ووفقا للمعلومات المتاحة، سيكون المجلس الجديد عبارة عن هيئة حكومية تصنع السياسات، وتتكون من حوالي عشرة أعضاء، كلهم أو معظم من الجيش. أما مجلس الوزراء ففي الغالب سيكون من المدنيين، وسيكون مسؤولا عن تنفيذ السياسة التي وضعها المجلس الثوري. وداخل الجيش تتعزز القيادة لعميد عبد الكريم قاسم، على الرغم من بعض الانتقادات الموجهه لمحسوبيته لبعض القائمين على الحكم ممن قامت عليهم الثورة. وتشير إلى تاكيده على الحد من صلاحيات نائبه العقيد عبد السلام عارف، وتقييد أنشطته الخطابية. والمتداول في بغداد قصص مختلفة عن طبيعة المواجهة بين الرجلين، بعضها مثير ومبالغ فيه بشكل واضح، لكن كان هناك إضعاف للعقيد. مع ذلك ظل متحدثا ويعد الأكثر نفوذا من بين أولئك الذين يفضلون اتحاد فوري مع الجمهورية العربية المتحدة. وفي الوقت نفسه هناك مناقشات تجري على التعيينات المتوقعة فى المجلس الثورى. خاصة وأن العديد من صغار الضباط هم الذين أيدوا خطة الثورة وشاركوا فيها، وكانوا مرتاحين للمكافآت الخاصة بهم، ولهذا كانوا يدعون بأن الحكومة لم تحظ بقاعدة شعبيه عريضة[1]. وعلى هذا اتبعت الثورة العراقية نفس خطوات الثورة المصرية، وبشكل مباشر وغير مباشر سارت على نفس المنوال.

ويبدو أن كل من بريطانيا ومصر قد صادفها النجاح فى مخططاتها ضد بعضهما البعض فى نفس التوقيت. فتحقق لبريطانيا إبعاد مصر عن تحالفاتها العربية الثنائية السابقة، وتحقق لمصر انهيار حلف بغداد أيضا. وما قالت به الوثائق البريطانية تؤكده

---

(1) F.O.481-12, (21556): Op.Cit., No. 18, The present situation in Iraq and future outlook, Sir Michael Wright to Mr. Selwyn Lloyd. (Received October 2) (No. 151. Confidential) Baghdad,, September 30, 1958, p.57.

الوثائق المصرية فى هذا الأمر. فبعد الرفض المصرى لمبدأ إيزنهاور والهجوم عليه صراحة فى المؤتمر الإفريقى الأسيوى المعقود فى القاهرة أواخر سنة ١٩٥٧ وبداية سنة ١٩٥٨، اعتبرت الولايات المتحدة أنها تواجه خطرين ؛ الخطر الشيوعى والخطر الناصرى، فشرعت فى إحداث تنافس بين السعودية ومصر عن طريق عقد المؤتمر الإسلامى واستغلال المكانة الدينية للسعودية كأداة لمواجهة الشيوعية، وإحداث تقارب فيما سمى بحلف الملوك، راح يصب جام غضبه على مصر(١) فتم تكوين ما سمى بحلف البحر الأحمر(٢)، وهو الذى أفلح فى ضرب التوافق المصرى السعودى حول مواجهة حلف بغداد. لكن حلف بغداد كان فى طريقه للانهيار عقب إعلان الوحدة المصرية مع سوريا، وقيام الثورة العراقية فى ١٤ يوليو ١٩٥٨(٣). فكان هذين الحدثين قد أجهزا عليه بالضربة القاضية. وبالتالى سقط حلف بغداد منذُ اليوم الأول لقيام الثورة، ولم يشترك العراق في أي اجتماع لذلك الحلف بعد هذا التاريخ. حيث قررت الحكومة الثورية في ٢٤ مارس سنة ١٩٥٩ الخروج من الحلف بصورة رسمية، وقام وزير الخارجية العراقى بإبلاغ سفراء بريطانيا وتركيا وإيران والباكستان بقرار العراق بالانسحاب من الحلف، وتحرير العراق من أي قيد أو معاهدة تمس سيادته

---

(١) كانت خطة مشروع ايزنهاور هى تقديم مساعدات اقتصادية وعسكرية للدول العربية قبلتها ليبيا ولبنان والعراق ورفضها عبدالناصر، أما بالنسبة لحلف الملوك فيضم ملك السعودية وليبيا والمغرب والعراق والأردن، للمزيد انظر، عبد الرؤوف أحمد عمرو: تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩-١٩٦٣، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١، صص ٤٤٠-٤٥٠.

(٢) عبد الحميد عبد الجليل شلبى: مصر فى العلاقات العراقية السودانية ١٩٥٥-١٩٥٨ «دراسة وثائقية»، مصر الحديثة، العدد الأول، مركز تاريخ مصر المعاصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٢٢٠-٢٢٢.

(٣) خطاب من عثمان توفيق سفير الجمهورية العربية المتحدة بأديس أبابا إلى السيد السفير وكيل الخارجية عن رد فعل أحداث الشرق الأوسط فى الصحافة الإثيوبية والرأى العام الإثيوبى، فى ٢١ يوليو ١٩٥٨، ملف ١ رقم ١٠٣٧/ ٣٠٠/ ٥ ج١ أحداث الشرق الأوسط ١٩٥٨، محفظة ٧٥، فيلم ٤٨ الشرق الأوسط، أرشيف البلدان، خارجية.

واستقلاله، وأن هذا القرار يعبر عن رغبة الشعب العراقي في التخلص من كل أشكال الهيمنة الإمبريالية. وبذلك أصبح حلف بغداد بدون بغداد، واضطر القائمون عليه إلى تغير اسمه إلى منظمة المعاهدة المركزية(١).

خاتمــة

بعد دراسة الموضوع دراسة مستفيضة خرج الباحث بعدة نتائج:

● أوضحت الدراسة بأنه بالرغم من قدم العلاقات المصرية العراقية وقوتها واستمراريتها، إلا أن البلدين كانا على طرفى نقيض من مشروع الشرق الأوسط، المعروض من بريطانيا لاستخدام المنطقة كنقطة مواجهة ضد الاتحاد السوفيتى منذ أواخر الأربعينيات. فما قبلت به العراق فى ذلك الوقت رفضته مصر رفضًا باتًا. وقالت بأن ذات النهج فى الرفض ورثته ثورة يوليو ١٩٥٢ واستمرت فيه حتى قيام حلف بغداد سنة ١٩٥٥. وأن الرفض المصرى لهذا المشروع منذ تقديمه وحتى قيام الحلف شكل ضغطا كبيرا على السلطات الحاكمة فى العراق بسبب التأثير المصرى على العراقيين.

● بينت الدراسة بأن تكوين حلف بغداد فى فبراير ١٩٥٥ كان سببًا رئيسيًا فى انقسام العالم العربى حول تشكيله والانضمام إليه. غير أن الرفض المصرى القاطع والسريع له، تسبب فى بقاء العراق معزولا عن بقية المنطقة. حيث نجحت الإدارة المصرية فى حصار العراق فى كل المناطق العربية التى حاول استقطابها للدخول فى الحلف. فأفشل مساعيها فى محيطها الإقليمى، وفى شمال أفريقيا. وقالت بأن الإدارة البريطانية كانت مدركة لقوة الدور المصرى فى العراق قبل تكوين حلف بغداد وبعده، وبالتالى رصدت مواقفها المختلفة من العراق بصورة كاشفة ودقيقة. بل استمرت هذه

(١) حامد الحمداني: ثورة ١٤ تموز. المرجع السابق، ص١٢٥.

المتابعة حتى بعد سقوط حلف بغداد سنة ١٩٥٨.

• أوضحت الدراسة بأن قراءة الوثائق البريطانية للموقف المصرى من العراق بعد تكوين حلف بغداد كانت جيدة ومستمرة، ونتيجة هذه القراءة يمكن اختزالها فى أربع: أولها، أن الرصيد الشعبى لمصر داخل العراق كان يتصاعد يومًا بعد يوم بعد تشكيل الحلف، وأن الرفض المصرى للحلف هو السبب الرئيسى فى هذا التصاعد. ثانيها، أن البريطانيين وقفوا وراء العراق فى محاولات الاستقطاب التى جرت فى سوريا ولبنان والأردن. غير أن اعترافها بالحصار المصرى للعراق داخل تلك الدول أجهض كل الجهود المبذولة لانجاح هذا الاستقطاب. ثالثها، أن الشعبية التى حظيت بها مصر وزعيمها فى العالم العربى، قد أزعجت الإدارة البريطانية والعراقية فعملت على وضع الكثير من العراقيل أمام مصر فى مختلف المجالات. لكنها أوضحت قدرة الإدارة المصرية على التعامل مع الموقف بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦. لدرجة جعلت الأتراك يعملون على التقارب مع مصر، وجعلت الأنظمة العربية تخشى منن تأثير النظام المصرى على شعوبها. رابعها، أن اجتماعات حلف بغداد بلجانه المختلفة كانت وسيلة مهمة للتقارب العراقى مع بقية الدول المشاركة فيه، وفرصة لتبادل وجهات النظر حول الموقف المصرى.

• أوضحت الدراسة بأن الدعاية المصرية ضد العراق وحلف بغداد، كانت على أشدها قبل حرب السويس وبعدها. غير أنها تصاعدت عقب العدوان الثلاثى حتى جعلت الموقف العراقى يتغير مؤيدًا لمصر فى الظاهر، ومعاديًا لها من تحت السطح، خشية زيادة الانتقاد الشعبى ضد نظامها. وما قالت به الوثائق من أن المسئولين البريطانيين كانوا يعملون على إقامة نظام بديل فى مصر، لم تتح الفرصة لتنفيذه على أرض الواقع. ففى نفس الوقت كانت الإدارة المصرية تعمل على إسقاط الحكم الملكى فى العراق، ودعم ضباط الجيش للقيام بثورة ضده، فكانت الثورة وانهار الحلف.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٣٥١-٣٨٥

حقوق مصر التاريخية في مياه النيل – دراسة وثائقية !

المُستشارة / هايدي فاروق عبد الحميد

ملخص

محاضرة تاريخية ألقيت في الجمعية المصرية بتاريخ١٦ يناير ٢٠١٦.

في تلك المحاضرة تحدثت أمام قامات المؤرخين المصريين عن محاور ومرتكزات عدة لتاريخي الحق المصري على مجرى نهر النيل وحيث:

نجد أننا أمام جولة تاريخية من أعالي النيل الأزرق.. مصر والحبشة: وهذه الجولة تأخذنا بدورها إلى أربعة محاور:

- بحيرة تانا. هيئتها وتاريخ نشأتها.

- حقوق مصر التاريخية علي مجري نهر النيل.. هل هو استحقاق الماضي؟ أم حق للمُستقبل!؟.

- حق مصر القانوني في مياه النيل- متي نشأ؟.. وكيف تأسس؟.

- الدور البريطاني في تحجيم المطامع الإيطالية والفرنسية في الوصول لمنابع النيل، وبالتالي تحكمها مع الحبشة في مُخصصات مصر المائية.

كما نجد أن المحاضرة قد تطرقت وبالوثائق لحقيقة حقوقنا المائية.. وحقوقنا الكنسية مع الحبشة.. كيف قامت؟.. وكيف ضاعت!؟: وقد شملت المحاضرة انفراد بعرض أصل قرار المجمع المُقدس الأرثوذكسي.. وهو وثيقة نادرة وغير مُتداولة صدرت عن المجمع المُقدس للكنيسة القبطية

الأرثوذكسية في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٣٧ ميلادية.

- وجاءت تأسيسًا علي رصيد الحق الكنسي المصري وقراراته في سنة ١٨٨١، وفي سنة ١٩٢٦، و٣١ مايو سنة ١٩٢٩ ميلادية.

ثم تطرقت المحاضرة للأحداث التي تَلَت توقيع إتفاق ١٩٠٢م الحدودي.. ومُمارسة مصر الفعلية لحقوقها علي مجري النهر:.. وماذا حدث من أمر ذلك الاتفاق الهام (١٩٠٢م) عقب توقيعه؟.

ومن محاور المحاضرة التاريخية كان: ويشمل أربعة محاور:

أولها - حقوق مصر في مياه النيل.

وثانيها - حقوق وإلتزامات الدُول المُشتركة في نهر دولي بصفة عامة.

وثالثها - حقوق مصر القانونية في مياه النيل.

ورابعها - النظرية العامة للإرتفاق الدولي وحق الارتفاق علي مجري نهر النيل.

Abstract

In the lecture:

I spoke in front of a great historians about several axes:,

-we find our self in front of historical tour of the Upper Blue Nile, Egypt and Abyssinia & takes us to four axes:

- Lake Tana: its appearance and the date of its establishment

- Egypt's historical rights over the course of the Nile River... Is it the entitlement of the past? Or a right for the future?

- Egypt's legal right over the course of the Nile river - when did it arise? how was it founded? And what are the documents of this rights ?

- the British role in curbing Italian and French ambitions in reaching the sources of the Nile, imposing them along with the waters in the allocations of Egypt.

And we found in some of the origins of the Holy Synod, and our ecclesiastical rights what do they look like?...

This rare document is located on 31 pages, in the Egyptian and Amharic languages,

Then what followed the signing of the 1902 border agreement... and Egypt's actual exercise of its rights over the course of the river.

*

* *

استحقاق الماضي... حق للمستقبل

كثيرًا ما تحدث الخبراء والساسة حول حق مصر «التاريخى» فى مياه النيل، تأسيسًا على ما تواتر لديهم من وجود ما سُمى باتفاقى عامى ١٩٢٩، و١٩٥٩، ولأن للتاريخ فى أعناقنا ذممًا لابد أن نؤديها، وإذا كان الاعتدال ميزة السياسى، فهو من باب أولى نهج للمؤرخ، لأن روح التاريخ والأسلوب العلمى والموضوعى يجب أن يهيمنا على أقلام المؤرخين وأفواههم، لكى يستطيع المؤرخ أن يسيطر على ما يسرده بموضوعيته وتوثيقه وفق مبدأ احترام الحدود الموروثة عن الاستعمار، وهو المبدأ الذى تأسس عليه الاتحاد الأفريقى، وقامت عليه دول القارة السمراء، فإن أزلية الحدود السياسية ترد على اتفاق عنتيبى، وهزلية الخروج عن هذا الإطار تقضى بألا حجية لكل ما يصدر عن دول المنبع التى منحتها مصر الأرض نظير الماء، وهذه الاتفاقات الحدودية ترد على المزايدين على حق دول المصب فى مياه النهر.

كانت بداية الحصول على اتفاق الحدود الذى وثق لحق مصر في الارتفاق على مجرى نهر النيل من المنبع إلى المصب، عندما وجدنا منذ ما يقرب من عشرة أعوام، أطلسًا يحمل اسم «أطلس خرط الدنيا»، وهو الأطلس الذى كان مقررًا على المرحلة الثانوية فى المدارس المصرية عام ١٩١٣، والصادر عن مصلحة عموم المساحة المصرية عام ١٩١١.

إذ ورد فى صفحته الخامسة فى خارطة السودان الحد المصرى الإنجليزى، عند حد السودان الشرقى مع الحبشة جملة تقول إن هذا الحد السياسى الذى انبنى عليه اتفاق المياه تحدد بموجب اتفاق ١٥ مايو عام ١٩٠٢، وبالرجوع إلى الوثائق الخاصة بالجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية، وجدنا مقتنيات تحدثت عن ظهور دولة كبرى فى وادى النيل فى العشرينيات من القرن التاسع عشر، تضم مصر والسودان، وتمتد بحدودها من البحر الأبيض المتوسط شمالا، إلى أعالى النيل جنوبا، لتحد هذه الدولة الكبرى الحبشة فى حدود مشتركة.

«حق مصر القانوني في مياه النيل – متي نشأ؟.. وكيف تأسس؟.. والدور البريطاني في تحجيم المطامع الإيطالية والألمانية في الوصول لمنابع النيل وبالتالي تحكمهما مع الحبشة في مُخصصات مصر المائية».

حينما اتسعت الدولة المصرية حتى أحاطت بالممتلكات الحبشية الوليدة، لم تنظر الحبشة بعين الارتياح لما تقوم به مصر من تأمين لحدودها وتعزيز لقواتها، تدعيمًا لحركة الإصلاح والعمران التى بدأت فى حقبة محمد على باشا، وتمكينًا لمصر من إدارة شؤونها على أسس إدارية سليمة، وعودًا لما وثقت له المصادر التاريخية من حجم الرقعة المصرية والسودانية أيضًا.

هذه المخاوف تزايدت بعد أن أشاعت الصحف الأوروبية آنذاك عزم محمد على باشا حاكم مصر فى هذا التوقيت، ضم الحبشة لممتلكاته، وهى المخاوف التى استمرت إلى ما بعد توقيع معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، وصدور فرمان سنة ١٨٤١م».

ووفقا للوثائق فلقد حاولت الحكومة المصرية فى عهد محمد التوصل إلى إتفاق مع الحبشة بشأن الحدود، دونت جدوى.. أما فى عهد الخديوي إسماعيل فقد حاولت أن تؤمن حدودها الجنوبية من ناحية الحبشة بوسيلتين:

الأولى:عن طريق تحصين الحدود وإيجاد عدد كاف من الجنود بها، بحيث تصبح مهاجمة الحدود المصرية من الأمور الصعبة التى تكبد المعتدى ثمنًا باهظًا، أما الوسيلة الثانية: فإنها تتمثل فى استمالة أكبر عدد من القبائل على حدود الحبشة وتشجيعها على اللجوء إلى الممتلكات المصرية، والتمتع بالحماية، مع منحها الامتيازات التى تُرّغبها فى البقاء تحت طاعة الحكومة المصرية

ورغم الأخذ بهاتين الطريقتين، فقد أخفقت مصر فى تحقيق ما تصبو إليه، لأن تحصين الحدود المصرية- الحبشية كان يستلزم استخدام عدد كبير من الضباط والجنود».

واستمر الوضع هكذا إلى أن أبدى ملك الحبشة الملك «ثيودورس» (Theodorus) رغبة فى إقامة سفارتين ببلاده إحداهما إنجليزية، والأخرى فرنسية، وقتها رفضت الدولتان تلبية رغبته مما أثار غضبه، وقام بالقبض على الرعايا الأوربيين المقيمين فى الحبشة وأودعهم السجن، وكان من بينهم القنصل الإنجليزى «كاميرون» .D)

(CAMERON ونتيجة لذلك لجأت إنجلترا إلى وإلى مصر الخديوي إسماعيل لاستخدام نفوذه فى التوسط لإقناع الملك الحبشى بالعدول عن موقفه، فأرسل الخديوي كتابًا بتاريخ أكتوبر ١٨٦٧م (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر عابدين ٢٤ من الجناب العالى إلى إمبراطور الحبشة، وثيقة رقم ٤٦٤ فى ٢ جماد آخر سنة ١٢٨٤ هجريًا، أكتوبر ١٨٦٧م)، ينصحه فيه بإطلاق سراح الرعايا الأوربيين حقنا للدماء، ويحذره فى نهايته مما قام به، ويهدده بأنه إذا لم يطلق سراح المعتقلين بالحُسنى فستسلط عليه الحكومة الإنجليزية جنودًا لا طاقة له بهم، وفق الخطاب، وسيمر هؤلاء الجنود من الأراضى المصرية، وأنه (أى إسماعيل) لن يستطيع الوقوف فى طريقها.

ورغم أن الخديوي لم يكن يريد التورط فى مساعدة الحملة الإنجليزية، إلا أنه كان مضطرا إلى ذلك لعدة عوامل تتلخص فى الاستجابة لأمر الباب العالى (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٢٤ عابدين من الجناب العالى إلى الباب العالى، وثيقة رقم ٤٤٤ فى ٢ جماد آخر سنة ١٢٨٤ هجريًا). وإرضاءا منه للحكومة الإنجليزية، إضافة إلى العمل على هزيمة الحبشة إنتقامًا منها لكثرة إغاراتها على حدود مصر الجنوبية حتى أن «موسى حمدى» باشا، حكمدار السودان آنذاك، اقترح على الخديوي إسماعيل إخلاء القرى الواقعة على الحدود المصرية – الحبشية حتى تبقى الحدود بعيدة عن بعضها مسافة تقرب من السبعة أيام للوصول إليها، وتصبح هذه المنطقة مجردة من العمران وخالية من المؤن (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى محفظة ٥٩، معية تركى، من موسى حمدى حكمدار السودان إلى صاحب السعادة المهردار، وثيقة رقم ٣٥٥ فى ٢٨ رجب سنة ١٢٧٩ هجري، يناير سنة ١٨٦٣م).

وعندما أيقنت الحكومة الإنجليزية أن تلك الأزمة لن تحل إلا باستخدام القوة، ويئست من الوصول إلى حل ودى، كلفت حكومة الهند بتجهيز جيش كبير تحت قيادة الجنرال روبرت «نابيير» (ROBERT NAPIER) فى نوفمبر ١٨٦٧م، كان قوامه ١٤ ألفًا ٦٨٣ جنديا، يتبعه ٢٨ ألفًا ١٦٠ من الخدمة، بالإضافة إلى ٣٦ ألفًا ٩٣٠ من حيوانات النقل والخيل، و٤٤ فيلًا، ونزلت تلك الحملة بميناء زولا، على ساحل البحر الأحمر.

صمويل بيكر

وقتها أصدر الخديوي إسماعيل أمره إلى «عبد القادر» باشا، محافظ «مصوع» بإمداد الجيش الإنجليزى بكل ما يحتاج إليه وعلى الرغم من انتهاء الحملة لصالح إنجلترا، إلا أنها أضرت بمصالح مصر ضررا بالغًا، حيث حركت عوامل العداوة والبغضاء التى يكنها ملك الحبشة الجديد يوحنا تجاه مصر، فى حين لم تعترف إنجلترا بما أسدته مصر لها، ولهذه الاعتبارات أرسلت بعثة السير صامويل بيكر إلى أعالى النيل أوائل عام ١٨٦٩م.

هنا أختار الخديوي اسماعيل لقيادة تلك العملية شخصا غير مصري وهو«صمويل بيكر» البريطاني، حيث لم يكن من المفروض أن تخضع عملية كهذه لرجل غير مصري، وخاصة أن المطامع البريطانية في إفريقيا لم تكن خافية عن الأبصار بعد محاولاتها المتعددة للتدخل في شؤون مصر، ولكن مع ذلك اختار الخديوي «صمويل بيكر» إرضاءا منه لبريطانيا التي ساندته في موقفه إزاء طلبات «ديليسبس» وإدعاءاته، كما أنها عاونته لدى الباب العالي في الحصول على فرمان عام ١٨٦٦م الخاص بانتقال العرش إلى أكبر أبنائه، وفي فرمان عام ١٨٦٧م أيضا الخاص بمنحه لقب خديوي، ولكن وإحقاقا منا للحق فإنه وفقا لوثائق ومذكرات الخديوي إسماعيل فإن من الاسباب الاخرى التي دعت بالخديوي لمثل هذا الاختيار باعتبار صمويل بيكر من الرواد الأوائل القلائل الذين وصلوا إلى منابع النيل في عام ١٨٦٣م،وتعرفوا على أحوالها وأحوال شعوبها وهو ما دونته بدقة (وثائق عابدين عربي – دفتر ٥٧٣ صادر المعية السنية ص ٢١٧ تحت رقم ٥٦ من الجناب العالي إلى ناظر الداخلية في ٤ صفر ١٢٨٦ الموافق ١٦ مايو سنة ١٨٦٩م).

وتمت حركة التوسع فى شرق أفريقيا وعلى طول ساحلى البحر الأحمر وأفريقيا الشرقى، وأسندت لـ«غوردون» باشا حكمدارية مديرية «خط الاستواء» ثم حكمدارية عموم السودان.

وإن كانت مسألة تعيين «غوردون» تحديدا قد تمت بضغط من الأخير مارسه على الإدارة في مصر وهو ما عكسته بوضوح الوثيقة الواردة (في دفتر ٥٠ – عابدين – وارد تلغرافات ص ٣٤ رقم ١٩ بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٧٨ الموافق ١٠ رجب ١٢٩٥ هجري – صورة التلغراف العربي الشفرة الوارد من غوردون إلى خيري باشا بالجيزة) والذي جاء فيه:

(حيث أن بالنظر لما هو معلوم لنا من أحوال جهات دارفور وخط الاستواء وبحر الغزال زشكا والرول باذلين جهدنا فيما يؤدي لإزالة وقوع الحوادث والمحاربات بتلك الجهات وحصول الأمن والهدوء بهم فلمساعدتنا على الحصول على المرغوب نرجو الترخيص لنا من طرف الأعتاب السنية في رفت وتعيين من نرى لزوم رفتهم وتعيينهم من مديريون ومأمورين هذه الجهات ويكون هذا الترخيص قاصر على مدة سنة واحدة كما وإذا نظرنا لزوم تعيين أحد من الأوريبون بالجهات المذكورة نجري تعيينه لأنه مع وجودهم بأحد الجهات المذكورة لا يمكن حصول محاربات ولا تعديات من أحد فالأمل بعد عرض ما ذكر على المسامع الزكية كلما وافق بصدر الأمر عنه أفندم).

غوردون باشا

ورغم «الضجة الكبيرة» التى أثارتها بعثة «بيكر» فإنها لم تنجح فى مهمتها سوى فى إقامة بعض «النقاط العسكرية» على طول الطريق الذى سلكته نحو الجنوب، منها

محطة «التوفيقية» عند ملتقى نهر السوباط بالنيل الأبيض، ومحطة «غوندكورو»، ومحطة «الإبراهيمية»، ومحطة «فويرا»، ومحطة «ماسنجى»، إلا أن هذه الحملة زادت من التوتر بين مصر والحبشة.

وتشير وثائقنا إلى ما يؤكد أن مصر استغلت فرصة انشغال الملك يوحنا فى قتال بعض قبائل «القالا» وحشدت قوة حربية قوامها ١٥٠٠ رجل سنة ١٨٧٤م تحت قيادة «منسنجر» لاسترداد إقليم «سنهت» أو «بوغوص» الذى كان تابعًا لها من قبل، تنفيذًا لمشروع ربط ميناء «مصوع بخط حديدى مع كسلا على النيل»، وقام «منسنجر» ببناء قلعة حصينة فى بلدة «قرن» عاصمة الإقليم، وفى نفس الوقت اشترى مقاطعة «آيلت» التى تقع بين منطقة «الحماسين» و«مصوع» من حاكمها، مما أثار الملك «يوحنا» الذى هاجم الحدود المصرية مرات متكررة.

ووفقا للوثائق فقد رأت مصر فى ذلك الوقت الدخول فى مفاوضات مع «يوحنا» لفض نزاعها معه بـ«الطرق الودية»، فأرسلت الأميرالاى «يوسف مسرور» لهذا الغرض إلا أن الضابط «كركهان» المستشار الخاص للملك «يوحنا» عمل على إحباط توصل الطرفين إلى اتفاق بالطرق السلمية.

وعلى الرغم من ميول الملك يوحنا إلى الصلح مع مصر أثناء غياب «كركهان» فى رحلته إلى أوروبا، إلا أنه قطع محادثاته فجأة بسبب الأنباء التى وردت إليه من «كركهان» حول تأييد الدول الأوروبية للحبشة فى نزاعها ضد مصر، ما أدى إلى فشل المفاوضات وبدأ الملك فى شن الغارات المتعاقبة على حدود مصر لنهب القرى وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال.

لم تجد الحكومة المصرية بدًا من اللجوء للقوة لصد غارات الأحباش، وأصر الخديوي إسماعيل على تسيير حملة حربية قوامها ٤ آلاف جندى إلى الحبشة، فى حين كان الجيش الحبشى قوامه ١٤ ألفا و٦٨٣ جنديا، وذلك بإيعاز من منسنجر الذى ذكر المؤرخ «فون تورنيزن» (Von) Thurneysse أنه كان متزوجًا من سيدة حبشية من

إقليم بوغوص، وكان لوالديها دخل كبير فى السياسة التى اتبعها منسنجر عقب ضم تلك البلاد إلى الممتلكات المصرية (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر٢٢٢٥ عابدين مذكرة خاصة من الجناب الخديو إلى الصدر الأعظم رشدى باشا، وثيقة رقم ٤٢٠ فى ١٢ محرم سنة ١٢٩٠ هجرية ١٢ مارس سنة ١٨٧٣م).

من هنا تعددت المعارك بين الطرفين، ومنها «أرندروب» (ARENDRUPP)، ثم معركة جندت، وكان الفشل من نصيب المصريين وأصبح مركز الخديو إسماعيل حرجًا، وكان لزامًا عليه إعداد حملة جديدة لمحو عار الهزيمة، فكانت حملة «أوسا» التى تعتبر الطرف الثانى للكماشة، التى كان طرفها الأول حملة أرندروب، حيث تم إعداد الحملتين فى وقت واحد على أن تهاجم حملة أرندروب الحبشة من الشمال، متخذة من مصوع نقطة ارتكاز لها، أما الأخرى فتزحف عليها من الجنوب عن طريق ميناء تاجورة على خليج عدن.

الوثائق تؤكد أن الهدف الرئيسى من هذه الحملة كان عقد اتفاق بشأن الحدود والمياه مع الملك منليك الثانى، ملك شوا آنذاك، استجابة للرغبة التى أبداها من قبل (جريدة الوقائع المصرية، العدد رقم ٦٣٧ فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢– ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥م)، لكن باءت هذه الحملة هى الأخرى بالفشل، لجهل القائمين على تدبير شؤونها بطبيعة تلك البلاد، وعدم الاعتماد على الخرائط التفصيلية التى كان يجب أن تتوافر لديهم قبل قيامهم بالحملة.

فكان أن بدات الحكومة المصرية بتدارك هذا الخطأ،فقامت برسم خارطة تفصيلية لأهم الطرق المؤدية إلى هذا الإقليم وطولها وما بها من آبار، وهذه الخريطة تعد اليوم أهم مستند يوثق حقيقة الحدود الحبشية قبل المنحة المصرية للأحباش التى سنعرضها لاحقًا (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى، دفتر ١١معية صادر وثيقة رقم ٢٣ ص٦٢ فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٩٢هجرية، يناير سنة ١٨٧٦م)، وبعدها قامت حملة راتب باشا، ومعركة قرع التى مُنِيَ فيها الأحباش بالهزيمة، وإن كانت الحملة قد فشلت فيما بعد.

وتقول الوثائق التي تحصلنا عليها أنه فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧م وقعت الحكومتان الإنجليزية والمصرية إتفاقًا بشأن الحدود المصرية، اعترفت إحدى الإتفاقيتين بسيادة مصر على الساحل الصومالى حتى رأس حافون.

كما اشترطت تلك المعاهدة عدم جواز منح الخديو إسماعيل أو من يخلفه من أبنائه أى أرض مملوكة لمصر للغير، ونتيجة لازدياد نفوذ إنجلترا فى ممتلكات مصر المجاورة للحبشة، فقد أدى ذلك إلى عدم تسوية مشكلة الحدود بين البلدين، وظلت هذه المسألة مثار مفاوضات طويلة إلى أن احتلت إنجلترا مصر فأمكنها بذلك أن تسوى نزاع الحدود على حساب مصر ولصالح الحبشة.

وتشير الوثائق إلى أن ملك الحبشة يوحنا بدأ يميل إلى حل النزاع بينه وبين مصر عن طريق المفاوضات، وذلك بعد الخسائر الفادحة التى منيت بها قواته فى محاولتها الثانية لاقتحام قلعة قرع، ولم يكن الخديو إسماعيل أقل رغبة منه فى ذلك، خاصة أن حالة مصر المالية لم تكن لتمكنه بأى حال من الأحوال من الدخول فى مغامرة أخرى مع الحبشة، أو مجرد الأحتفاظ بعدد كبير من قواته داخل حدود الحبشة، فاستغل الخديو فرصة الطلب الذى تقدم به يوحنا للدخول فى مفاوضات، ورحب بذلك لتبدأ المفاوضات برسالة من ملك الحبشة إلى السردار راتب باشا، يطلب فيها حل ما بينهما من خلاف عن طريق التفاوض، ووافق السردار على وجهة نظر الملك وطلب منه أن يرسل مندوبًا لوضع شروط الصلح (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى، دفتر عابدين وارد تلغرافات شفرة عربى، وثيقة رقم ٤٥٨ ص٩٤ فى ١٥ صفر ١٢٩٣ هجرية).

فكان أن طالبت مصر الملك يوحنا بأن تتسلم جرحاها حتى تتمكن من معالجتهم بمستشفياتها، وأبدت استعدادها لعلاج الأحباش أيضا، وهو ما أصاب يوحنا بالغرور، فبدأ يضع قيودًا وشروطًا لقبول الصلح، ورفض بدء المفاوضات ما لم تنسحب القوات المصرية من أراضيه، ولم يكن فى وسع مصر آنذاك أن تنسحب من

الأراضى الحبشية قبل أن تصل إلى اتفاق بشأن المنطقة المتنازع عليها، كى تضع حدا لمناوشات الحبشة فى المستقبل (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى، دفتر ٣٧ عابدين وارد تلغرافات من السردار راتب باشا إلى ناظر الجهادية، شفرة عربى ص ٩ فى ١٧ صفر سنة ١٢٩٣هجرية).

وكان سردار الجيش المصرى قد أخطر بأن المكان الذى يعسكر فيه الجنود المصريون هو «قورع»، وهو المكان الذى أصبح مجمعًا للسيول ولا يناسب إقامتهم، فاختار موقع «فياخور» البعيد عن مكان السيول، وهو ما اعتبره الملك يوحنا نزوحا للقوات المصرية عن مواقعها الأمامية وانسحابا منها من الأراضى الحبشية، وكان ذلك بمثابة رضوخ جزئى لمطالب يوحنا، وكلما سلمت مصر ببعض المطالب للجانب الحبشى كلما قل اهتمام الأخير بعقد الصلح... وهو ما نرجو أن نتذكره جيدا ونحن نتعاطيا مع الجانب الإثيوبي في مفاوضات سد النهضه.

ونعود لاستكمال حديثنا حيث: ظل الوضع على هذا الحد إلى أن انتهز الخديو إسماعيل فرصة نشوب الثورة فى صربيا ضد الدولة العثمانية، وطلب الباب العالى معونة مصر الحربية، ليستدعى قواته من الأراضى الحبشية فيما عدا أربعة آلاف جندى مصرى ظلوا باستحكاماتهم فى «فياخور» إلى أن تسلم جميع الأسرى المصريين، وفى شهر أغسطس سنة ١٨٧٦م تم الإنسحاب المصرى والعودة إلى مصوع، وحينما عاد الجنود المصريين عقب ذلك إلى مصر فرضت عليهم رقابة شديدة حتى لا يبوحوا بشىء من أخبار تلك الحملة إلى أصدقائهم أو ذوى أقربائهم.

وبعد أن تم جلاء القوات المصرية عن الأراضى الحبشية بعث يوحنا بخطاب شخصى إلى الملكة فيكتوريا يعرب فيه عن شكره وتقديره على ما أبدته نحوه من تعاطف ضد الجانب المصرى، ثم تطرق فى خطابه إلى الحديث عن الأعمال العدوانية التى قام بها الخديو إسماعيل ضد بلاده، وأنه يأمل من جلالة الملكة أن تعمل على فصل ممتلكات كل من مصر والحبشة عن الأخرى.

وبعد عزل الخديوي إسماعيل وتولى الخديوي توفيق الذى عُرف عنه ضعف فترة حكمه ما أثر بالسلب على مصر داخليا وامتد إلى ممتلكات الدولة فى الخارج، بدأ الأحباش يتحرشون بالمصريين المقيمين عند خط الحدود مع الحبشة، وبدأ ملك الحبشة يرسل قوات عسكرية إلى الحدود ويطالب العربان والأهالى التابعين للحكومة المصرية بالضرائب ويعاقب من لا يقوم بأدائها إليه.

إلا أن الخديوي توفيق رفض مقابلة القوة بالقوة وحرص على فض النزاع بالطرق السلمية الودية، حيث أوفد الجنرال غوردون باشا حاكم عام السودان، ليعمل على وقف الاعتداءات ويعقد صُلحا نهائيا مع الملك يوحنا، لكن الأخير أصر على ضم ميناء مصوع وإقليم بوغوص إلى الحبشة، إلا أن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية نصحتاه بالاعتدال وعدم التمسك بميناء مصوع المصرى، فى مقابل تأييد موقفه حول ضم إقليم بوغوص.

رغم ذلك طالب يوحنا أثناء المفاوضات مع غوردون، بأن تتنازل مصر عن منطقتى القلابات والقاش، وأن تدفع تعويضًا ماليًا لا يقل عن مليون جنيه ثمنًا لميناء مصوع، وقام بشن هجمات متكررة على حدود مصر للضغط عليها وإرغامها على التسليم، إلا أن الجانب المصرى رفض الرضوخ لتهديدات يوحنا، وساعدها على ذلك عدم استقرار حالة الجيش الحبشى، وعدم قدرته على اختراق الحدود المصرية والاستيلاء عليها.

وكنتيجة حتمية لمغالاة يوحنا فشلت المفاوضات اقترح غوردون على الحكومة المصرية كحل جزئى لهذا النزاع، ولتخفيف الضغط الواقع على حدود مصر، أن تقوم بمنح إيطاليا قطعة أرض بالقرب من مصوع، كى تواجه الحبشة عدوًا جديدًا تجد فيه ما يشغلها عن مناوءة مصر (المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى دفتر ٥٥ عابدين، وارد تلغرافات، تلغراف عربى الشفرة رقم ٩٣٠ من غوردون إلى خيرى باشا فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٧٩م).

وانتهت حكمدارية «غوردون» باشا دون التوصل إلى إتفاق مع الحبشة، وحرصت مصر على أن تزود «رؤوف» باشا الذى خلف «غوردون» على حكمدارية السودان فى مارس ١٨٨٠ بتعليمات صريحة بما يجب أن تكون عليه العلاقة مع الحبشة،

ولكن كانت الظروف المحيطة بالحكمدار الجديد سيئة للغاية، فالأحوال فى السودان كانت تنذر بشر مستطير، وكان الاحتلال الإنجليزى لمصر فى عام ١٨٨٢م، فلم تبد السلطات المحتلة أى اهتمامات بالشأن المصرى – الحبشى، حتى جاء الإخلاء المصرى المؤقت للسودان وهو موضوع حلقتنا الثانية.

وتوضح الوثائق أنه فى ٣ يونيو سنة ١٨٨٤ تمكنت الأطراف الثلاثة مصر وإنجلترا والحبشة (إثيوبيا) من عقد معاهدة عدوة، التى وقعها عن الجانب الإنجليزى الأدميرال ويليام هيوت قائد الجيش الإنجليزى فى الشرق الأوسط والهند، وعن الجانب المصرى مازون باشا محافظ مصوع، وعن الجانب الإثيوبى الملك يوحنا نفسه، وهى المعاهدة التى نصت فى مادتها الأولى على السماح للحبشة، بعد توقيع الاتفاق، بمباشرة أعمالها التجارية عن طريق ميناء مصوع عبر الأراضى المصرية، بما فى ذلك الاتجار بالأسلحة والذخائر.

ونصت المادة الثانية على أنه بدءًا من الأول من سبتمبر عام ١٨٨٤ ترد مصر إلى الحبشة بلاد بوغوص، وعند جلاء القوات المصرية عن كسلا وإميديب وسنهيت تؤول ملكيتها بما فيها من منشآت ومبان مصرية، وبما تشتمل عليه من مهمات وذخائر إلى ملك الحبشة، فيما تعهد ملك الحبشة فى المادة الثالثة بتقديم جميع التسهيلات الممكنة للقوات المصرية فى انسحابها من كسلا وإميديب وسنهيت عبر الحدود الحبشية لتعود إلى مصوع المصرية، فى حين نصت المادة الرابعة على أن يتعهد خديو مصر بأن يمنح ملك الحبشة جميع التسهيلات اللازمة فيما يختص بتعيين رجال الدين القساوسة فى الحبشة.

وتنص المادة الخامسة من الاتفاقية على أن يتعهد الطرفان، المصرى والحبشى، بتبادل تسليم المجرمين الفارين من العدالة، فى حين أوصت المادة السادسة بأنه فى حال

حدوث خلاف بين خديو مصر وملك الحبشة بعد التصديق على هذه المعاهدة، يقبل الطرفان بتحكيم ملكة إنجلترا».

وبنهاية القرن التاسع عشر بدأت إنجلترا تنظر بعين الارتياب لمحاولة بعض الدول الأوروبية التسلل إلى شرق أفريقيا والتقدم صوب أعالى النيل، على حساب الممتلكات المصرية السابقة فى السودان، وما جاوره، ولتهديد أمن مصر المائى، خاصة أن إنجلترا كانت تعتبر إخلاء مصر للسودان عملًا مؤقتًا لتستطيع الأولى تكوين جيش قوى لاستعادة السودان من جديد، وفى نفس الوقت فإن التمسك بهذا المنظور يفيد إنجلترا فى وضع يدها على السودان باسم مصر.

وفى المقابل كانت منطقة أعالى النيل على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لمشروعات إنجلترا التوسعية فى أفريقيا التى كانت تحلم بخلق إمبراطورية تمتد من سواحل البحر المتوسط شمالًا وصولًا إلى مدينة الكاب جنوبًا، لتشطر القارة الأفريقية إلى شطرين، إلا أن هذه الأحلام اصطدمت بالمعارضة الفرنسية للاحتلال البريطانى لمصر، وكانت إنجلترا تخشى أن تؤدى معارضة فرنسا إلى مهاجمتها لمنطقة أعالى النيل وتهديد مصر، ولهذا حرصت إنجلترا على الإسراع بمنع الوصول الفرنسى إلى تلك المنطقة، وفى نفس الوقت كان لزامًا على إنجلترا أن تحول بين إيطاليا والحبشة وألمانيا وبين الوصول إلى أعالى النيل بعد وضوح رغبة هذه الدول فى السيطرة عليه للتحكم فى مخصصات مصر المائية.

ووفقا للوثائق فقد حاولت إنجلترا استرضاء إيطاليا التى عارضت هى الأخرى الإحتلال البريطانى لمصر دون أن يكون لها نصيب فى تلك الغنيمة، وعندما أبدت إيطاليا اهتماما كبيرا بميناء عصب بعد أن اشترته من الشركة الإيطالية عام ١٨٨٢، وأرادت أن تتخذ منه منفذا لها على مياه البحر الأحمر، وجدت إنجلترا أنه من الحكمة تشجيع إيطاليا على فتح مجال لتوسعاتها فى المنطقة، فوقعت اتفاقًا معها عام ١٨٨٥ أعطت بموجبه الأخيرة ميناء مصوع المصرى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إنه

باحتلال إيطاليا للميناء المصرى، أوقفت مرور السلاح إلى «يوحنا» ملك الحبشة، وسمحت بإرساله لعدوه «منليك» ملك شوا.

وبهذا الإجراء خيبت إنجلترا آمال إثيوبيا ونقضت معاهدة عدوة، فاحتلت إيطاليا عُدوة، ورآها ملك الحبشة فرصة مناسبة حيث نازل القوات الإيطالية فى موقعة عُدوة فى الأول من مايو ١٨٩٦، وأرغمها على توقيع معاهدة أديس أبابا مع الملك منليك فى ٢٦ أكتوبر من نفس العام، التى اعترفت فيها إيطاليا باستقلال الحبشة وتحديد الحدود بينها وبين إريتريا.

وفى المقابل نجحت فرنسا فى تشجيع الحبشة على إرسال أربع حملات إلى أعالى النيل لاحتلاله، ورغم أنها لم تحرز نجاحا، إلا أنها أظهرت أطماع الحبشة فى الضفة اليمنى من نهر النيل، فوجدت إنجلترا نفسها مضطرة لأن تبذل نشاطًا مضادًا لنشاط فرنسا فى أديس أبابا، خاصة أن العلاقات بينها وبين الحبشة لم تكن مرضية، نظرًا لمساعدة إنجلترا إيطاليا فى حربها ضد الحبشة سنة ١٨٩٦.

فى هذه الأثناء بدأت القوات المصرية تتقدم تحت قيادة «كتشنر» صوب السودان لاستعادته، وفى يوليو سنة ١٨٩٨ وصل القائد الفرنسى «مارشان» إلى قرية فاشودة ورفع العلم الفرنسى فوق القرية، فتقدمت القوات المصرية صوب الجنوب، ووصلت فاشودة فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٩٨، ووجه كتشنر إنذارًا إلى «مارشان» بإخلاء القرية ورفع العلم المصرى فوقها ثانية، واضطرت فرنسا للرضوخ، وتم عقد اتفاقية ٣١ مارس ١٨٩٩ بين فرنسا وإنجلترا، التى أسدل بها الستار على مطامع فرنسا فى نهر النيل وواديه.

ورغم هذه الأحداث، ظلت مشكلة الحدود بين ممتلكات مصر والحبشة التى عجزت مصر عن حلها فى عهد الخديوي إسماعيل قائمة دون حل، ورأت إنجلترا فى ذلك فرصة عام ١٩٠٢ نتيجة خطأ وقعت فيه فرنسا، واستغلته إنجلترا لصالحها، بعد أن منح إمبراطور الحبشة أحد السويسريين عام ١٨٩٤ حق امتياز مد خط سكة حديد

الحبشة، وتكونت لهذا الغرض شركة فرنسية، أخذت على عاتقها تنفيذ هذا الخط، وعجزت الشركة الفرنسية عن القيام بالتزاماتها واحتاجت زيادة رأس المال، فوجدت الشركات الإنجليزية الفرصة سانحة للاشتراك فى زيادة رأس المال، لتحصل بذلك على فرصة لفرض نفوذها فى الحبشة بجوار النفوذ الفرنسى.

وتدخلت الحكومة الفرنسية لدى الشركة المنفذة للخط ومنحتها إعانة سنوية تقدر بنصف مليون فرنك لمدة ٥٠ عامًا، لزيادة رأس المال واستطاعت أن تسيطر على الشركة دون استشارة ملك الحبشة، بصفته صاحب الحق الأول فى منح ذلك الامتياز.

واستغلت إنجلترا هذا الخطأ، عندما أكد مبعوثها السير «جون هارنجتون» لدى «منليك الثانى» ملك الحبشة أن هناك سوء نوايا من الجانب الفرنسى حيال بلاده، ولذلك منحت إنجلترا الملك «منليك الثانى» أرضا من الممتلكات المصرية مساحتها ٣٦٠٠ كم مربع، تقع على الجنوب الشرقى من السودان وتتصل بنهر السوباط (جزء من إريتريا، وآخر من الشمال إثيوبى)، فبسطت إثيوبيا حدودها لتشمل هذا النهر، وتم الاعتراف لها بسيادتها على أراضٍ احتلتها من مصر وتشمل المسافة الواقعة بين نهرى «بارو» و«الجب».

وفى ١٥ مايو ١٩٠٢ تم توقيع معاهدة بشأن الحدود المصرية مع الحبشة (إثيوبيا) وهى الاتفاقية التى تحصلنا على صورتها الأصلية من الأرشيف البريطانى وفيها تعهد ملك الحبشة بعدم تشييد أو السماح بتشييد أى عمل على النيل الأزرق وبحيرة «تانا» أو نهر «السوباط» من شأنه منع جريان المياه إلى النيل إلا بالإتفاق مع حكومة جلالة الملكة البريطانية وحكومة مصر بالسودان، وفق ترجمة نصوص المعاهدة.

واتفق الطرفان خلال المعاهدة على أن خط الحدود بين السودان وإثيوبيا يسير من «أم حجر» إلى «القلابات»، فالنيل الأزرق فنهر «بارو» فنهر «بيبور» ثم نهر «أكوبو» حتى «مليلة»، ومنها إلى نقطة تقاطع خط عرض ٦ شمالا مع خط طول ٣٥ شرق جرينتش وتم رسم خط الحدود بالمداد الأحمر فى الخريطتين الملحقتين بالاتفاق.

وفى المادة الثالثة من الاتفاقية تعهد الإمبراطور «منليك الثانى» قبل حكومة صاحبة الجلالة البريطانية، بعدم تشييد أو السماح بتشييد أى عمل على النيل الأزرق وبحيرة «تانا» أو نهر «السوباط» يكون من شأنه منع جريان المياه إلى النيل إلا بالاتفاق مع حكومة جلالة الملكة البريطانية وحكومة مصر بالسودان.

ووفقا للإتفاق يتعهد الإمبراطور «منليك» ملك إثيوبيا، بأن يسمح لحكومة جلالة الملكة البريطانية فى السودان باختيار قطعة أرض بجوار «إيتانج» على نهر «بارو» لا يزيد طولها على ٢٠٠٠ متر ولا تزيد مساحتها على ٤٠ هكتارًا لاحتلالها وإدارتها كمحطة تجارية، طالما خضع السودان للحكم المصرى الإنجليزى، واتفق الطرفان المتعاقدان على أن الأرض المؤجرة لن تستخدم فى الأغراض السياسية أو الحربية.

وبمقتضى المادة الرابعة، من الاتفاق منح الإمبراطور «منليك» حكومتى الملكة البريطانية والسودان حق إنشاء خط حديدى عبر الأراضى الحبشية لربط السودان بأوغندا. وفى البند الثانى ورد اتفاق الحدود المحدد للحق المصرى والسودانى فى مياه النيل، والذى أكد أن العدول عنه يقتضى من أطرافه العدول عن الأرض المصرية التى تتسيدها إثيوبيا، والتى تحددت لها فى عام ١٩٠٢ بموجب المنحة المصرية، وهى ذات الأرض ونفس الاتفاقية التى تمسكت بها إثيوبيا فى ترسيم الحدود بينها وبين «إريتريا» قبل أعوام، مما يعنى إقرارها قانونا باتفاق ١٩٠٢. وهنا نورد ترجمتها كما أرفقنا صورة من الاتفاق الهام في ملحق الوثائق والاتفاقيات.

أولا: اتفق الطرفان المتعاقدان على أن خط الحدود بين السودان وإثيوبيا يسير من «أم حجر» إلى «القلابات» فـ«النيل الأزرق» فنهر «بارو» فنهر «بيبور» فنهر «أكوبو» إلى «مليلة»، ومنها إلى نقطة تقاطع خط عرض ٦ شمالا مع خط طول ٣٥ شرق جرينتش وقد رسم خط الحدود بالمداد الأحمر في الخريطتين الملحقتين بالاتفاق.

ثانيا: يتعهد جلالة الإمبراطور «منليك الثاني» قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعدم تشييد أو السماح بتشييد أي عمل على النيل الأزرق وبحيرة تسانا أو

نهر السوباط يكون من شأنه منع جريان المياه إلى النيل إلا بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك البريطانية وحكومة مصر بالسودان.

ثالثا: يتعهد جلالة الإمبراطور «منليك» ملك ملوك إثيوبيا بأن يسمح لحكومة جلالة الملك البريطانية في السودان باختيار قطعة أرض بجوار إيتانج على نهر بارو لا تزيد طولها عن ألفي متر ولا تزيد مساحتها عن ٤٠ هكتارا لاحتلالها وإدارتها كمحطة تجارية،طالما خضع السودان للحكم المصري الإنجليزي، وقد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن الأرض المؤجرة لن تستخدم في الأغراض السياسية أو الحربية.

رابعا: يمنح صاحب الجلالة الامبراطور «منليك» ملك ملوك أثيوبيا، حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وحكومة السودان الحق في إنشاء خط حديدي عبر الأراضي الحبشية لربط السودان بأوغندة.

منليك الثاني

إثيوبيا تفكر في سد...ومصر تضعه في طريق سد

عقب منحة الأرض المصرية وصل المستر ديبوي (C,E, DUPUIS) الذي كان يعمل ملحقا بمصلحة الري المصري عام ١٩٠٣ إلى بحيرة تانا لدراسة طبيعتها محليا، فأخذ على عاتقه جانبا من سياسة استكشاف أعالي النيل التي وضع أسسها «ويليام جارستن» (Sir,WM,GARSTIN)، ثم أعقب ذلك ايفاد بعثة أخرى في عام ١٩١٥م، مكونه من «مستر بيكلي» (A, BURTON, BUCKLEY) و«مستر براود» (O,I,PROWDE) عن مصر، والكولونيل «بيرسون» (C,H,D,PEARSON) عن حكومة مصر في السودان، مما ترتب عليه إيفاد بعثة تانا من قبل وزارة الاشغال العمومية المصرية إلى البحيرة عام ١٩٢٩، واستمرت أعمالها في إثيوبيا حتى عام ١٩٢٤، وذلك لإصدار مصر موافقه من عدمه على طلب إثيوبي لإنشاء سد عند مخرج البحيرة (بذات موقع سد النهضه الاثيوبي الحالي).

فقد عهدت اثيوبيا بموضوع انشاء هذا السد المقترح بين عامي ١٩٢٣-١٩٣٥الى مهندسين من شركة «وايت» بنيويورك (J,G,White Corporation).

فجاء رد مصر الرافض على لسان وزير الأشغال العمومية المصرية وقتها حسين بك سري في الخطاب المؤرخ في ٨ سبتمبر عام ١٩٣٥، الذي أرسله للجانب الاثيوبي مستخدما فيه حق الفيتو المصري الذي ضمنته لمصر اتفاقية ١٥ مايو ١٩٠٢م ورافضا لإقامة السد الإثيوبي الذي كان مقررا أن تبلغ سعته ١.٣ مليار متر مكعب، مؤكدا على حقيقة نرجو أن يعيها هذه الأيام المصريين جيدا قبل الإثيوبيين فقد جاء حرفيا في نص الخطاب الذي نحتفظ بأصله:

"s right in controlling the sources of the Nile.......' so as to maintain Egypt...."

فمصر لم تكن تتحدث يا سادة وقتها عن حصة في المياه......ولكن كانت تتكلم عن أحقية أزلية منحتها لها اتفاقات حدودية لا تقبل التبديل في التحكم في مصادر

ومنابع النهر... لأننا ببساطة منحنا أرضا مصرية خالصة فتحناها بدم جنودنا المصريين واشتريناها في الماضي من مال وأقوات الشعب المصري.. منحناها لإثيوبيا مقابل إتفاق حدودي راسخ تعدلت بموجبه حدود إثيوبيا على حساب الأملاك المصرية ورد في بنده الثالث حق مصر في الإرتفاق الأزلي على مجرى نهر النيل.

أملاكنا يتصارع عليها الغير

ذكرت جريدة الرأي العام السودانية في ١٥ سبتمبر عام ١٩٤٥م أن المناطق التي سلخها اتفاق ١٩٠٢ من أملاك مصر الخديوية هي الأقاليم التي يسكنها بنو عامر في أريتيريا (وقد رأينا أن نضع ضمن ملحقات الكتاب خارطة إيطالية لهيئة وشكل الحدود الحبشية قبيل المنحة المصرية وفيها منازل قبائل بنو عامر)، وشرق القلابات، ومنطقة المتمه، ومنطقة بني شنقول المعروفة، ومنطقة قوبا التي تعد أحد أهم الأسباب التي حدت بحكومة إثيوبيا الحالية إلى الإقدام على سد النهضة حيث عقدت اتفاقا على استخراج الذهب من منطقة «قوبا» (المصرية الأصل) التي يكثر بها هذا المعدن النفيس على امتداد البصر وإن كان وجود المياه بالموقع سببا في صعوبة استخراج الذهب لذا فإنه بتجفيف الموقع ونقل المياه سيسهل على القائمين على المسألة استخراج الذهب.

وبعد.

ماذا حدث من أمر ذلك الاتفاق الهام عقب توقيعه؟

كنا قد عرضنا اتفاق ١٩٠٢ وما سبقه من أحداث والذي نص بنده الثالث على (تعهد الإمبراطور منليك الثاني ملك الحبشة قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية بعدم تشييد أو السماح بتشييد أي عمل على النيل الأزرق وبحيرة تانا أو نهر السوباط يكون من شأنه منع جريان المياه إلى النيل إلا بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك البريطانية والحكومة بالسودان) ونتيجة للفظ (حكومة السودان) الذي تذيل البند ثالثًا، فإن السودان وحليفتها إثيوبيا قامتا في العامين الأخيرين بالتعاطي مع المسألة

بوصف السودان وفقًا لتفسيرها هو صاحب الحق وذلك رغم أن المُمارسة الفعلية المصرية لحق الرفض لأية أعمال كانت تقترحها أو تنتويها الحبشة عقب تاريخ ١٥ مايو ١٩٠٢ قد وثقت لحق مصر وحدها في ذلك.

ولكن لأن الاتفاقات والمعاهدات وخاصة تلك التي نشأت في حقب استعمارية لا تحاججها أو تقابلها في القوة الممارسات التي تتلوها وإن كانت تدعمها وتفسرها، فإننا بمراجعتنا لمصادري وعكفت عليها وقد أثمر ذلك عن الآتي:

• عقب وفاة «منليك الثاني» وتحديدا في ١٩٠٦م، عقدت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا اتفاقا بشأن وضعية اتفاق ١٩٠٢ عقب وفاة منليك، وأكدت الدول الثلاث مجتمعة على توارث الاتفاق لخلفه وأن سيادة إثيوبيا يجب ألا تأتي على حساب ما لمصر من حقوق على مجرى النهر... وهو الاتفاق الذي جلبناه وحفظناه وحافظنا عليه عقب قيام ثورة ٢٥ يناير.

• ثم جاءت مذكرة التفاهم الإيطالية البريطانية في عام ١٩٢٥م لتوثق لحق الارتفاق المصري على مجرى النهر.. وهذه المذكرة كان من الصعب التحصل عليها ولكن ورغم ذلك تمكنا من الوصول إلى رقم الحفظ الخاص بها وجلبناها وحفظناها وحافظنا عليه عقب قيام ثورة ٢٥ يناير.

• ثم هناك تقرير هام لـ«ويليام جارستن» في ضوء مهمه أوفدته فيها وزارة الأشغال العمومية المصرية لبحيرة تانا في أواخر عام ١٩٠٢م وحتى منتصف عام ١٩٠٣م لدراسة طلب منليك الثاني بإقامة سد، وهو الأمر الذي كان يتطلب موافقة مصر، وإعمالا لذلك رأت مصر أن تدرس الطلب بصورة علمية لترى مدى تأثرها بمثل هذا السد وحيث انتهت تقارير بعثة وزارة الأشغال العمومية المصرية إلى رفض المشروع وهو ما كان، وهذا التقرير كان محفوظا بالخارج، وجلبناه وحفظناه وحافظنا عليه عقب قيام ثورة ٢٥ يناير.

• ثم جاءت الدراسة التي قامت بها لجنة من العلماء أوفدتهم الحكومة المصرية

إلى الحبشة في الفترة من ١٩٢١-١٩٢٤ لدراسة طلب جديد للحكومة الإثيوبية بعمل سد سعته ١.٣ مليار متر مكعب عند مداخل بحيرة تانا والتي انتهت برفض مصر للمشروع برمته، وهذا التقرير محفوظ أصله... كما تقدم .

• وهناك دراسة لـ«الكسندر موريه» مؤرخة في عام ١٩٢٧م وردت بها وثائق مصرية غاية في الأهمية تصب في ذات السياق.

• وأيضا فإننا قد نسخنا مضبطة للأمم المتحدة مؤرخة في ٢٣ سبتمبر من عام ١٩٥٧م والذي تقدمت فيه كل من مصر والسودان برفض مشروع إثيوبي باقامة سد عند بني شنجول.

• وهناك مذكرة التفاهم الهامة جدا بين مصر وبريطانيا التي وثقت لأيلولة حق الارتفاق على مجرى النهر عند بحيرة تانا لمصر في ١٦ أبريل ١٩٣٨.

• وأخيرا وهو الأهم والمفاجأة أنه حينما بدأت بريطانيا تنادي وتضغط على مصر لفصل السودان عنها فإن الحكومة المصرية رأت بضرورة عقد اتفاق مصري/ سوداني يؤكد على أيلولة الحق في الارتفاق على مجرى النهر الذي تضمنته اتفاقية ١٩٠٢م لمصر وحدها فجاء اتفاق نذكره ولأول مرة والذي يعد مستغرب للجميع لكن الله وحده وفقنا إليه كما وفقنا منذ سنوات في الحصول على اتفاق ١٩٠٢ م، الذي كان مجهولا للكافة حتى أحضرناه في ديسمبر ٢٠٠٩م. والاتفاق المصري السوداني النهائي والقطعي هو اتفاق عقد في ٢٠ مايو١٩٣٥.

وأخيرا نقول هذا هو تاريخنا.. وتلك هي استحقاقاتنا.. فهل سيحتل التاريخ موقعه في مباحثات سد النهضة؟

بعض وثائق
والإتفاقات التاريخية التي
حولها المحاضرة

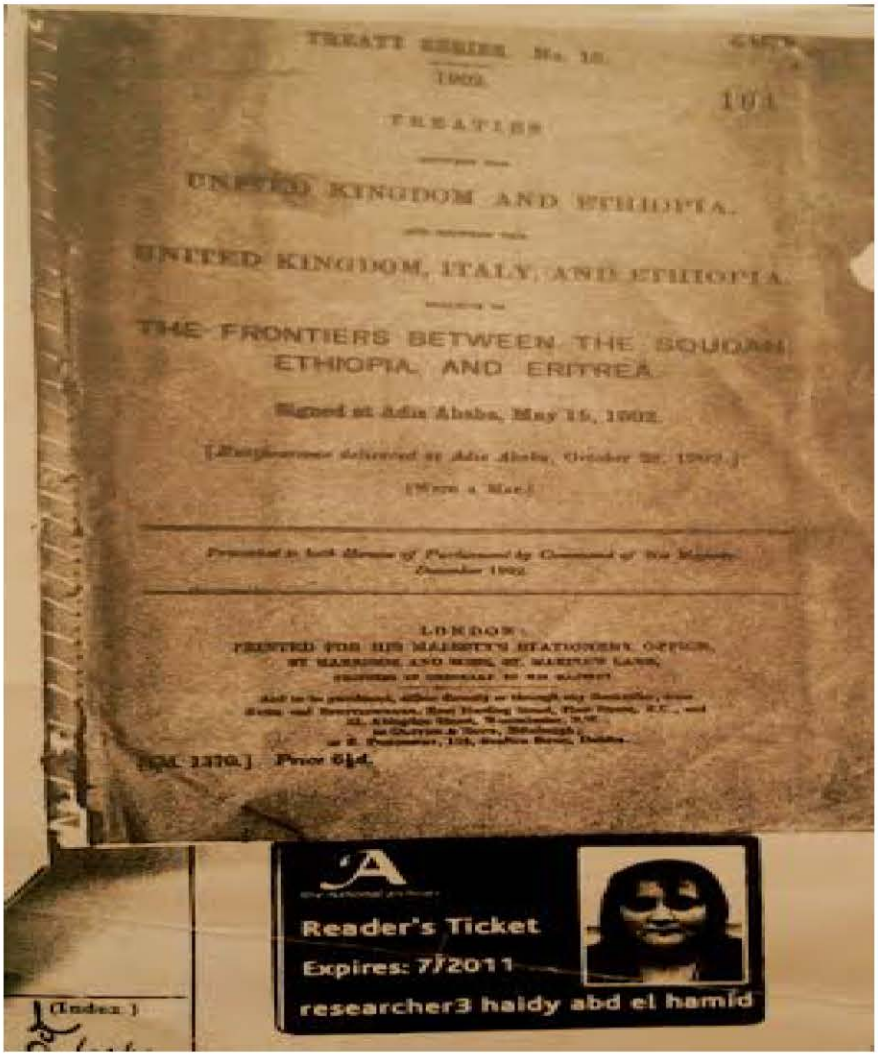

TREATY SERIES. No. 16.
1902.

101

TREATIES

UNITED KINGDOM AND ETHIOPIA,

UNITED KINGDOM, ITALY, AND ETHIOPIA,

THE FRONTIERS BETWEEN THE SOUDAN, ETHIOPIA, AND ERITREA.

Signed at Adis Ababa, May 15, 1902.

LONDON:

[Cd. 1370.] Price 6½d.

غلاف اتفاق عام ١٩٠٢ الحدودي

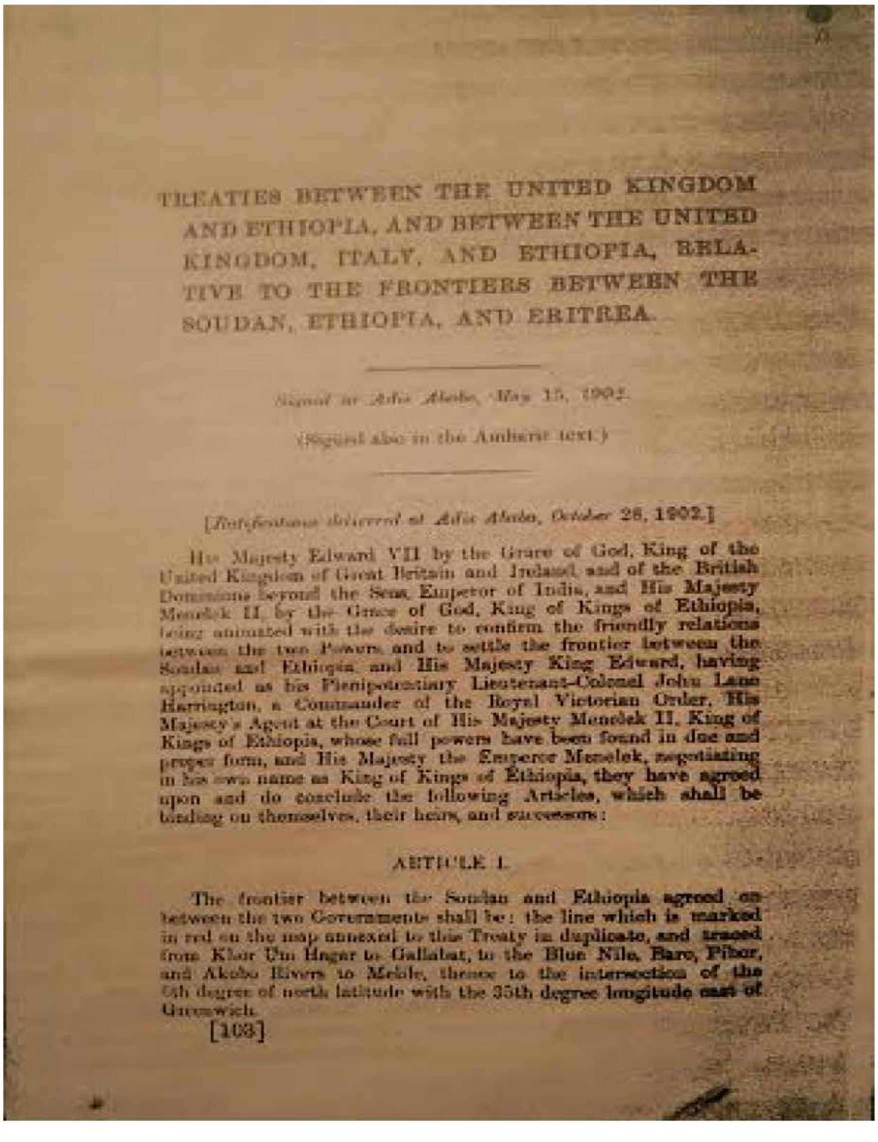

TREATIES BETWEEN THE UNITED KINGDOM AND ETHIOPIA, AND BETWEEN THE UNITED KINGDOM, ITALY, AND ETHIOPIA, RELATIVE TO THE FRONTIERS BETWEEN THE SOUDAN, ETHIOPIA, AND ERITREA.

Signed at Adis Ababa, May 15, 1902.

(Signed also in the Amharic text.)

[*Ratifications delivered at Adis Ababa, October* 28, 1902.]

His Majesty Edward VII by the Grace of God, King of the United Kingdom of Great Britain and Ireland, and of the British Dominions beyond the Seas, Emperor of India, and His Majesty Menelek II, by the Grace of God, King of Kings of Ethiopia, being animated with the desire to confirm the friendly relations between the two Powers and to settle the frontier between the Soudan and Ethiopia, and His Majesty King Edward, having appointed as his Plenipotentiary Lieutenant-Colonel John Lane Harrington, a Commander of the Royal Victorian Order, His Majesty's Agent at the Court of His Majesty Menelek II, King of Kings of Ethiopia, whose full powers have been found in due and proper form, and His Majesty the Emperor Menelek, negotiating in his own name as King of Kings of Ethiopia, they have agreed upon and do conclude the following Articles, which shall be binding on themselves, their heirs, and successors:

ARTICLE I.

The frontier between the Soudan and Ethiopia agreed on between the two Governments shall be: the line which is marked in red on the map annexed to this Treaty in duplicate, and traced from Khor Um Hagar to Gallabat, to the Blue Nile, Baro, Pibor, and Akobo Rivers to Melile, thence to the intersection of the 6th degree of north latitude with the 35th degree longitude east of Greenwich.

[103]

الصفحة الأولى من الاتفاق

ARTICLE II.

The boundary, as defined in Article I, shall be delimited and marked on the ground by a Joint Boundary Commission, which shall be nominated by the two High Contracting Parties, who shall notify the same to their subjects after delimitation.

ARTICLE III.

His Majesty the Emperor Menelek II, King of Kings of Ethiopia, engages himself towards the Government of His Britannic Majesty not to construct, or allow to be constructed, any work across the Blue Nile, Lake Tsana, or the Sobat which would arrest the flow of their waters into the Nile except in agreement with His Britannic Majesty's Government and the Government of the Soudan.

ARTICLE IV.

His Majesty the Emperor Menelek, King of Kings of Ethiopia, engages himself to allow His Britannic Majesty's Government and the Government of the Soudan to select in the neighbourhood of Itang, on the Baro River, a block of territory having a river frontage of not more than 2,000 metres, in area not exceeding 400 hectares, which shall be leased to the Government of the Soudan, to be administered and occupied as a commercial station, so long as the Soudan is under the Anglo-Egyptian Government. It is agreed between the two High Contracting Parties that the territory so leased shall not be used for any political or military purpose.

ARTICLE V.

His Majesty the Emperor Menelek, King of Kings of Ethiopia, grants His Britannic Majesty's Government and the Government of the Soudan the right to construct a railway through Abyssinian territory to connect the Soudan with Uganda.

A route for the railway will be selected by mutual agreement between the two High Contracting Parties.

The present Treaty shall come into force as soon as its ratification by His Britannic Majesty shall have been notified to the Emperor of Ethiopia.

In faith of which His Majesty Menelek II, King of Kings of Ethiopia, in his own name, and Lieutenant-Colonel John Lane Harrington, on behalf of His Majesty King Edward VII,

X

الصفحة الثانية من الاتفاق

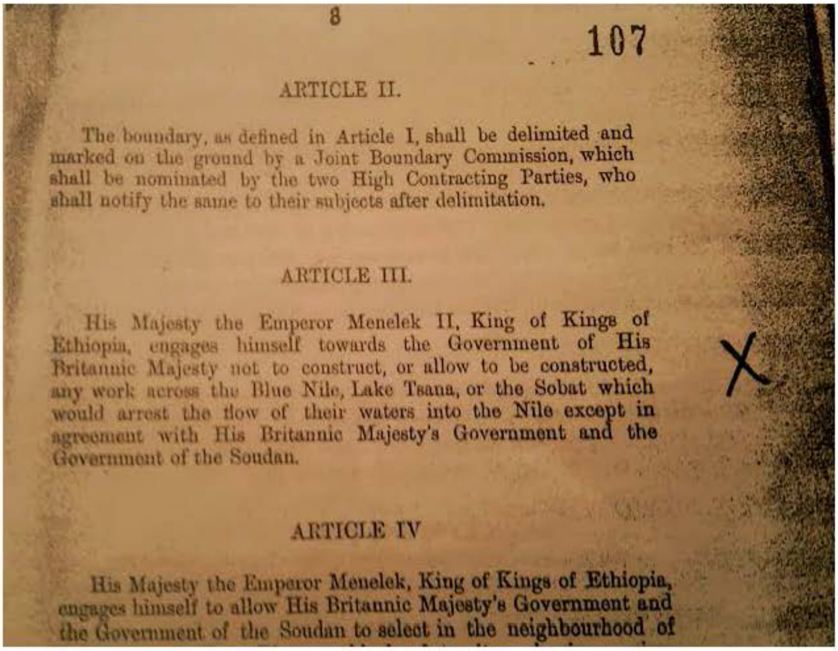

8

107

ARTICLE II.

The boundary, as defined in Article I, shall be delimited and marked on the ground by a Joint Boundary Commission, which shall be nominated by the two High Contracting Parties, who shall notify the same to their subjects after delimitation.

ARTICLE III.

His Majesty the Emperor Menelek II, King of Kings of Ethiopia, engages himself towards the Government of His Britannic Majesty not to construct, or allow to be constructed, any work across the Blue Nile, Lake Tsana, or the Sobat which would arrest the flow of their waters into the Nile except in agreement with His Britannic Majesty's Government and the Government of the Soudan.

ARTICLE IV

His Majesty the Emperor Menelek, King of Kings of Ethiopia, engages himself to allow His Britannic Majesty's Government and the Government of the Soudan to select in the neighbourhood of

النص الذي منح الحاكم المصري العام بالسودان حق الإرتفاق على مجرى النهر

4

King of the United Kingdom of Great Britain and Ireland and of the British Dominions beyond the Seas, Emperor of India, have signed the present Treaty, in duplicate, written in the English and Amharic languages, identically, both texts being official, and have thereto affixed their seals.

Done at Adis Ababa, the 15th day of May, 1902.

(L.S.) JOHN LANE HARRINGTON,
Lieutenant-Colonel.

(Seal of His Majesty the Emperor Menelek II.)

Note.

Annex to the Treaty of 10th July, 1900, regarding the frontier between Ethiopia and Eritrea, and the Treaty of 15th May, 1902, regarding the frontier between the Soudan and Ethiopia.

Nota.

Aggiunta al Trattato del 10 Luglio, 1900, per la frontiera fra Etiopia ed Eritrea ed al Trattato del 15 Maggio, 1902, per la frontiera fra Sudan ed Etiopia.

His Majesty the Emperor of Ethiopia, Menelek II, Major Ciccodicola, Italian Minister in Ethiopia, and Lieutenant-Colonel Harrington, His Britannic Majesty's Agent in Ethiopia, have mutually agreed that :

Di comune accordo fra S. M. l'Imperatore di Etiopia, Menelik II, il Maggiore Comm. Ciccodicola, Ministro d'Italia in Etiopia, ed il Tte. Colonnello Harrington, Agente Diplomatico del Governo Britannico in Etiopia, è stato convenuto quanto segue :

ARTICLE I.

The frontier Treaty between Ethiopia and Eritrea, previously determined by the line Tomat-Todluc, is mutually modified in the following manner :

Commencing from the junction of the Khor Um Hagar with the Setit, the new frontier

ARTICOLO I.

Il Trattato di frontiera fra l'Etiopia e la Colonia Eritrea, determinato finora dalla linea Tomat-Todluc, di comune accordo viene modificato nel seguente modo :

A cominciare dalla confluenza del Khor-Um-Hagar col Setit, la nuova frontiera segue questo

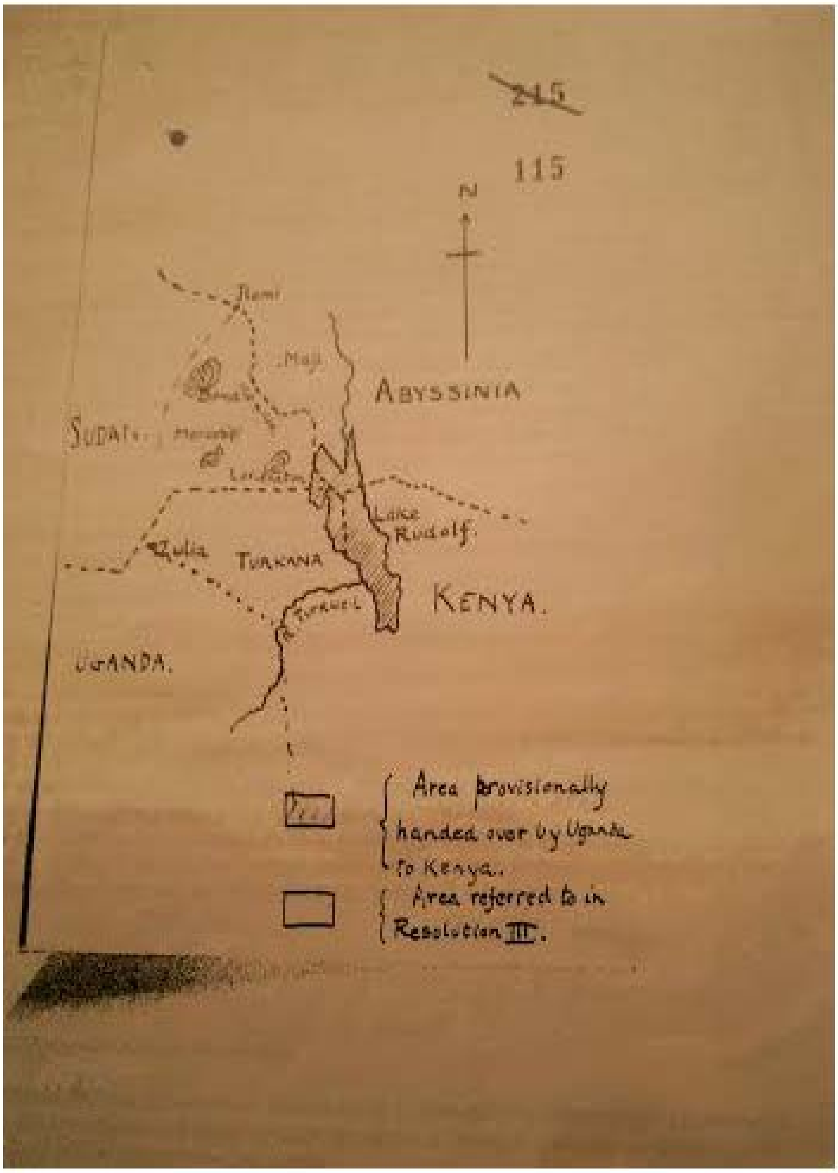
215
115
N
Maji
ABYSSINIA
SUDAN
TURKANA
Lake Rudolf
KENYA.
UGANDA.
Area provisionally handed over by Uganda to Kenya.
Area referred to in Resolution III.

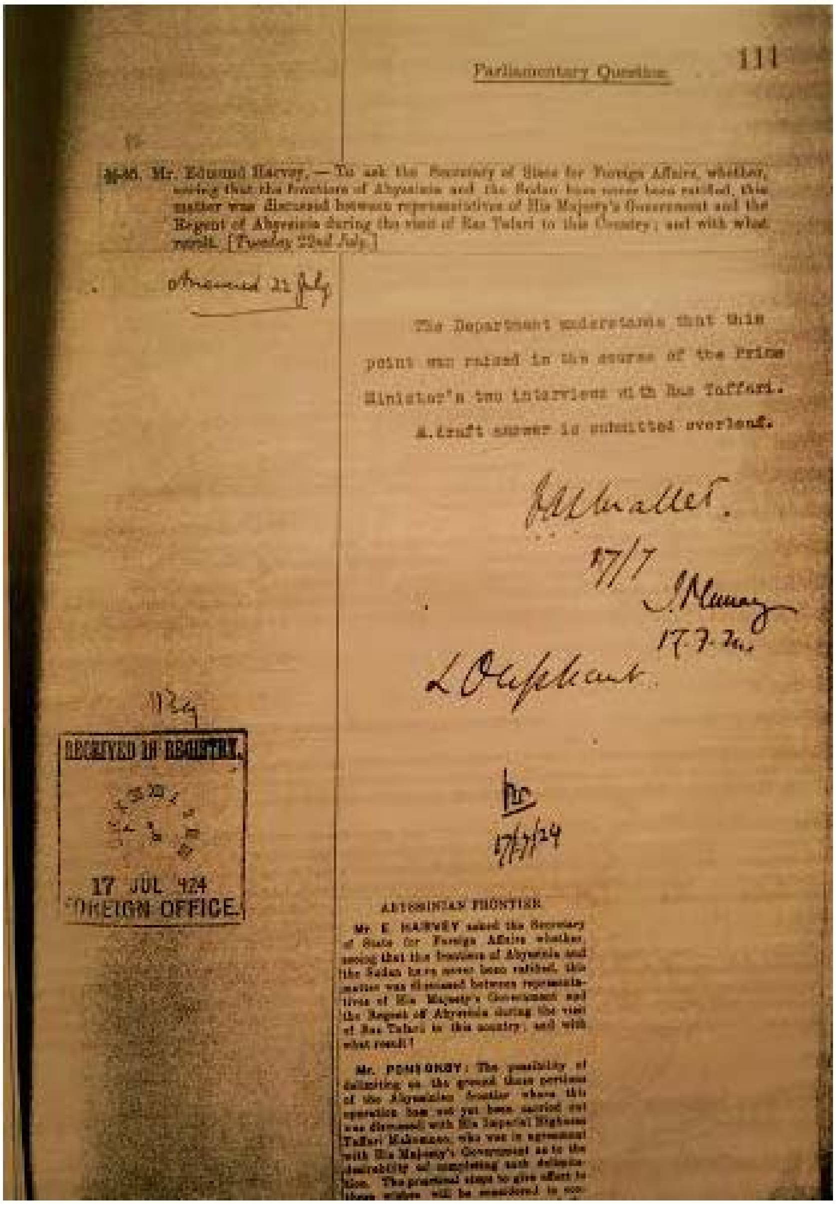

Parliamentary Question. 111

46. Mr. Edmund Harvey. — To ask the Secretary of State for Foreign Affairs, whether, seeing that the frontiers of Abyssinia and the Sudan have never been ratified, this matter was discussed between representatives of His Majesty's Government and the Regent of Abyssinia during the visit of Ras Tafari to this Country; and with what result. [Tuesday 22nd July.]

Answered 22 July

The Department understands that this point was raised in the course of the Prime Minister's two interviews with Ras Taffari.

A draft answer is submitted overleaf.

J. H. Walker.
17/7

J. Murray
17.7.24

L. Oliphant.

17/7/24

RECEIVED IN REGISTRY,
17 JUL 1924
FOREIGN OFFICE.

ABYSSINIAN FRONTIER

Mr. E. HARVEY asked the Secretary of State for Foreign Affairs whether, seeing that the frontiers of Abyssinia and the Sudan have never been ratified, this matter was discussed between representatives of His Majesty's Government and the Regent of Abyssinia during the visit of Ras Tafari to this country; and with what result?

Mr. PONSONBY: The possibility of delimiting on the ground those portions of the Abyssinian frontier where this operation has not yet been carried out was discussed with His Imperial Highness Taffari Makonnen, who was in agreement with His Majesty's Government as to the desirability of completing such delimitation. The practical steps to give effect to these wishes will be considered in con-

6

beyond the Seas, Emperor of India, and his successors, have signed the present Note in triplicate, written in the Italian, English, and Amharic languages identically, all texts being official, and have thereto affixed their seals.

Done at Adis Ababa, this 15th day of May, 1902.

delle Indie, per lui e pei suoi successori, hanno sottoscritta questa Nota, scritta in 3 copie, in lingua Inglese, Italiana, ed Amarica, identicamente e dello stesso valore, e vi hanno apposti i loro sigilli.

Scritta nella città di Addis Ababa, il 15 Maggio, 1902.

(L.S.) JOHN LANE HARRINGTON,
Lieutenant-Colonel.

(L.S.) MAGGIORE FEDERICO CICCODICOLA.

(Seal of His Majesty the Emperor Menelek II.)

212

112

Draft Annex.

The possibility of delimiting on the ground those portions of the Abyssinian frontier, where this operation has not yet been carried out, was discussed with His Imperial Highness Taffari Makonnen who was in agreement with H.M.G. as to the desirability of completing such delimitation. The practical steps to give effect to these wishes will be considered in consultation with the Governments of the territories concerned.

AP 17.VII.24

17/7/24

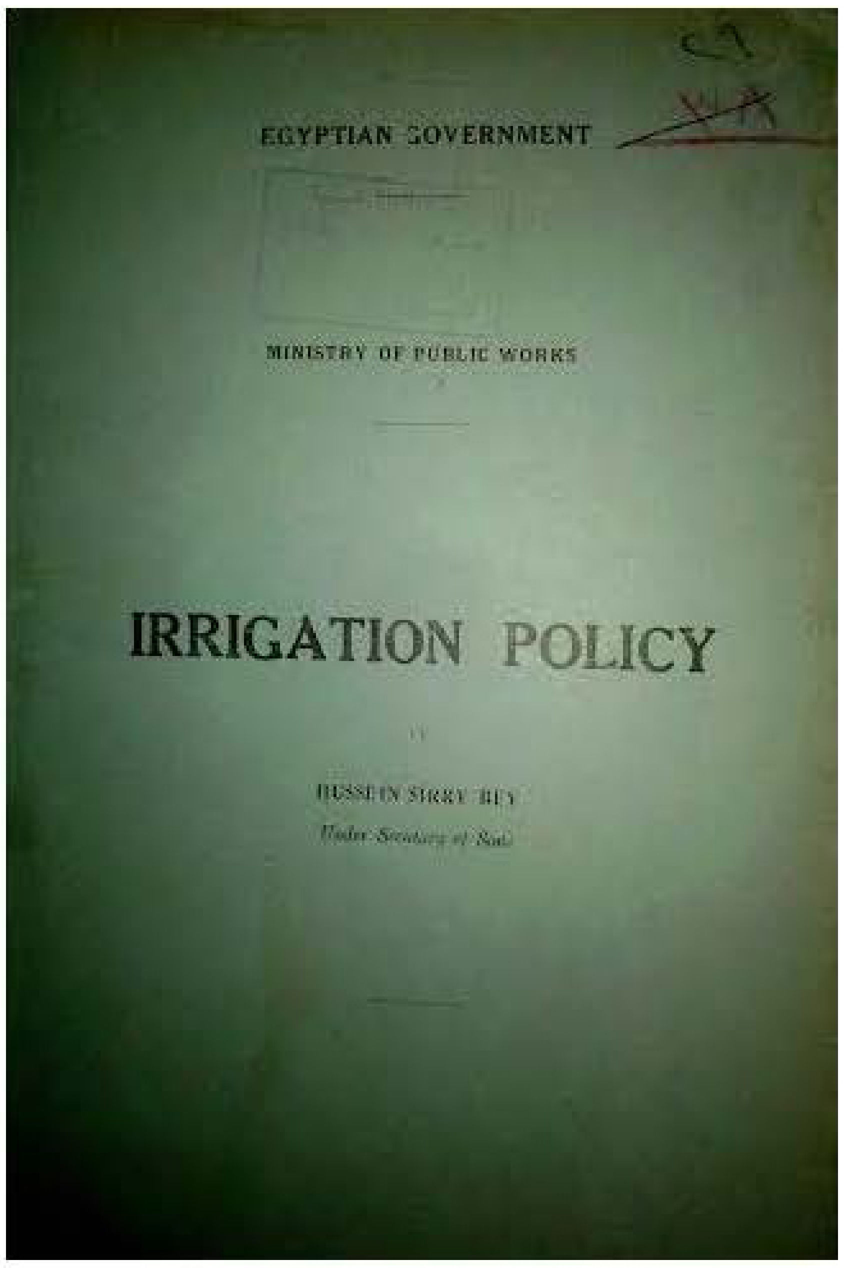

غلاف وثيقة وزير الأشغال العمومية المصرية حسين بك سري وهو
خطاب مؤرخ في ٨ سبتمبر عام ١٩٣٥، أرسله للجانب الإثيوبي مستخلصا
فيه حق الفيتو الذي ضمنته لمصر اتفاقية ١٥ مايو ١٩٠٢

تقرير لجنة مياه النيل والذي ورد بصفحاته أدلة ثبوتية قطعية بحق الارتفاق المصري على مجرى النهر

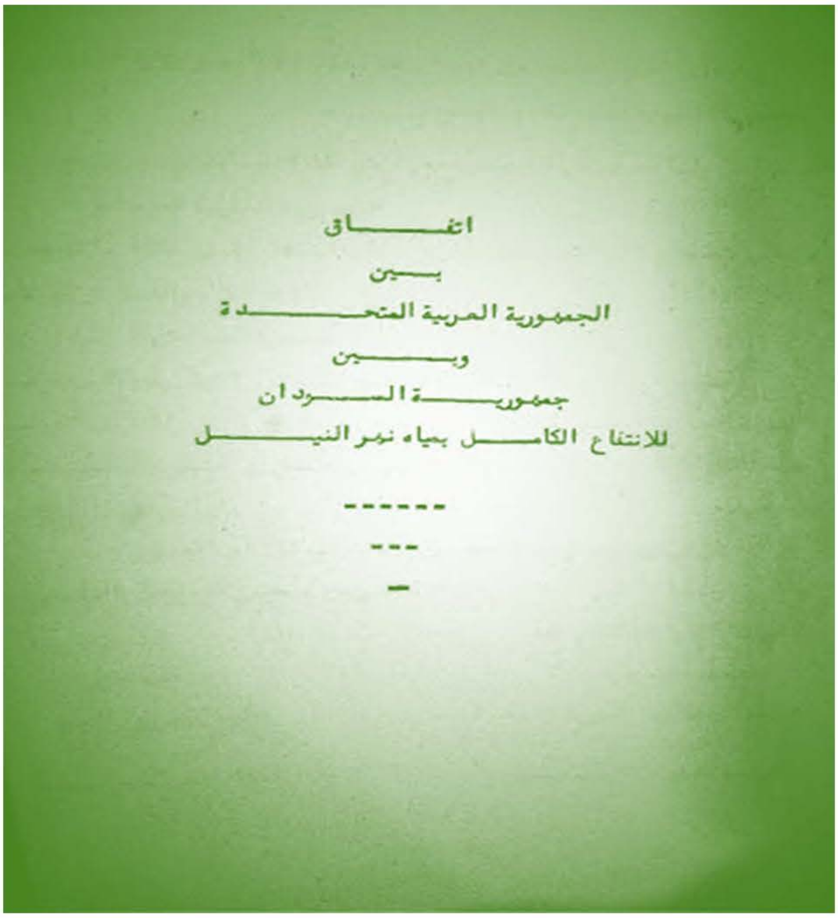

اتفاق

بين

الجمهورية العربية المتحدة

وبين

جمهورية السودان

للانتفاع الكامل بمياه نهر النيل

-

أصل غلاف اتفاق ١٩٥٩ بين مصر والسودان لتنظيم المياه بين الدولتي

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٣٨٧-٤٠٥

القَاهِرَةُ في كِتَابَاتِ المُسْتَشْرِقِين

أيمن فؤاد سَيِّد

مُلَخَّص

كان للمُسْتَشْرِقِين فَضْلُ السَّبْق في دِرَاسَة تَارِيخ القَاهِرَة ابْتِدَاءً من «وَصْفِ مِصْر»،وأعْمَالٍ ذَات قِيمَةٍ كَبِيرَةٍ كمُؤَلَّفات بُول رَافِيس P. RAVAISSE، وجُورْج سَالْمُون G. SALMON، وبُول كَازَانُوفا P. CASANOVA، وستانْلِي لِين بُول S. LANE-POOLE، ومَارْسِيل كِليرْجِيه MARCEL CLERGET، وجَاسْتُون فِييت GASTON WIET، ومُؤَخَّرًا دِرَاسَاتُ جَانِيت أبو اللُّغْد JANETTE ABOU LLUGHD، وأنْدْريه رِيمُون ANDRÉ RAYMOND، وسُوزَان اصْطَفَا SUZAN STAFFA، وجُون كلُود جَارْسَان JEAN-CLAUDE GARCIN، ودُورِيس بِهْرِن أبو سِيف DORIS-BEHRENS ABOUSEIF، وكارُولِين وِلْيَامْز CAROLINE WILLIAMS وفلادِسْلاف كُوبْيَاك WILADISLAV KUBIAK، وسِيلْفِي دينْوا SYLVIE DENOIX، ودِيزْمُونْت ستِيوَارْت DESMOND STEWART.

وسأتَنَاوَل في هذه الدِّرَاسَة قِيمَةَ وأهمِّيَّة هذه المُؤَلَّفَات ومَا أضَافَتْه لِدِرَاسَة تَارِيخ القَاهِرَة.

Abstract

The Orientalists had the advantage of taking the lead in studying the history of Cairo, starting with *La Description de l'*

Egypte and works of great value like the works of P. RAVAISSE, G. SALMON, P. CASANOVA, S. LANE-POOLE, MARCEL CLERGET, G.WIET, JANETTE ABOULLUGHD, ANDRE RAYMOND, JEAN – CLAUDE GARCIN, WILADISLAV KUBIAK, SUZAN STAFFA, DORIS-BEHRENS ABOUSEIF, CAROLINE WILLIAMS, SYLVIE DENOIX and DESMOND STEWART.

In this study I will deal with the value and importance of this books and what they have added to the stydy of the history of Cairo.

*
* *

ظَلَّ الوَصْفُ الطُّبُوغْرافي للمَدِينَة الإسْلامِيَّة يَعْتَمِدُ على الأوْصَافِ المَكْتُوبَة التي قَدَّمَها لنا مُؤَلِّفو الخِطَط والرَّحَّالَة، والتي تَتْرُكُ للقَارِئ أنْ يَتَخَيَّلَ تَخْطِيطَ المَدِينَة وأشْكَالَ عَمائِرها وصِفَة أزْيَاء سُكَّانِها ومَلابِسِهم، والتي يُمَثِّلُها في مِصْرمُؤَرِّخُون ومُؤَلِّفون عِظَام كابن عَبْد الحَكَم والكِنْديّ وابن زُولَاق والقُضَاعِي والشَّرِيف الجَوَّاني وابن جُبَيْر وابن سَعِيد المَغْرِبي وابن عبد الظَّاهِر وابن المُتَوَّج وابن دُقْماق والمَقْرِيزي والحَسَن الوَزَّان (جُون لِيُون الأفْرِيقِي) وابن أبي السُّرُور البَكْري والجَبَرْتي وعلي مُبارَك وسِواهِم(١).

وبَلَغَ هذا الفَنُّ ذُرْوَتَه مع مُؤَلَّف المَقْرِيزِي الرَّئِيس «المَوَاعِظ والاعْتِبَار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثَار» المعرُوف بـ «الخِطَط»، وهو أهَمُّ وأكْمَلُ نَصٍّ وَصَلَ إلينا عن تَارِيخ وطُبُوغْرافيَة مَدِينَةٍ إسْلامِيَّة. وهذا الكِتَابُ هو أسَاسُ جَمِيع الدِّرَاسَات التي تَنَاوَلَت تَارِيخَ مَدِينَة القَاهِرَة حتى مُنْتَصَف القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخَامِس عَشَر الميلادي(٢).

---

(١) أيمن فؤاد سيد: المقريزي وكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لندن – مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م، ١١ - ٣٤.

(٢) أحدث نَشْرَة للكتاب هي النشرة التي أصْدَرْتُها بتحقيقي مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن في سبعة مجلدات سنة ٢٠١٣م.

ثم حَدَثَ تَطَوُّرٌ مُهِمٌ في أسْلُوبِ هذا الوَصْفِ عند مُنْقَلَبِ القرن الثَّامِن عَشَر الميلادي مع وُصُولِ الحَمْلَة الفِرَنْسِيَّة (l'expedition française) إلى مِصْر والتي قَامَ العُلَماءُ المُصَاحِبُون لها برَسْم أوَّلِ خَرَائِط مِسَاحِيَّة لَمدِينَة القَاهِرَة وظَوَاهِرِها وتَصْوير ورَسْم العَدِيد من مَعالِمِها التَّارِيخِيَّة وهَيْئَة سُكَّانها في القِسْم المعروف بـ«الدَّوْلَة الحَدِيثَة» Etat Moderne من كِتَاب «وَصْف مِصْر» *La Description de l'Egypte*، الذي يُعَدُّ بحَقٍّ أهَمَّ إنْجَازَات المَجْمع العِلْمي المِصْري l'Institut d'Egypte الذي أسَّسَه بُونَابَرْت BONAPARTE في مِصْر وأهَمَّ كتابٍ في تَارِيخ مِصْر الحَدِيث. فلأوَّلِ مَرَّةٍ تَخْرُجُ في كِتَابٍ وَاحِد مُكَوَّن من عِدَّة مُجَلَّدات، العَدِيدُ من الدِّرَاسَات المُزَوَّدَة بالخَرَائِط والرُّسُوم التَّوْضِيحية (Gravures)، تُغَطِّي جَمِيعَ أرْض مِصْر وتَجْمَعُ وتَفْحَصُ كلَّ مُنْتجاتها الطَّبِيعِيَّة وتَدْرُسُ الأرْضَ والطَّقْسَ والجُغْرافيا الطَّبِيعِيَّة والسُّكَّانَ وعَادَاتِهم وتَقَالِيدِهِم، وكُلّ ما يَتَّصِلُ بتَارِيخ المُجْتَمَع وتَارِيخ العُلُوم والفُنُون، بحيث جَاءَ الكِتَابُ وَصْفًا مُخْلِصًا وتَامًّا للمَعَابِد والمُنْشَآت والصُّرُوح التي تَزْدَانُ بها مِصْر منذ قُرُونٍ والتي تَجْعَلُ منها أغْنَى مَتَاحِف الدُّنْيا.

وقَامَ عُلَماءُ الحَمْلَة بأخْذِ قِيَاسَات كلّ جُزْءٍ من هذه المُنْشَآت بدِقَّةٍ صَارِمَة، وقَدَّمُوا لنا كذلك لَوْحَةً عن حَالَةِ مِصْر في زَمَنِ الحَمْلَة، حيث وَضَعُوا لأوّل مَرَّةٍ خَرَائِطَ جُغْرافِيَّة تُحَدِّدُ بطَرِيقَةٍ دَقِيقَةٍ ومُفَصَّلَة، اعْتِمادًا على حِسَابَات ومُلاحَظَات فَلَكِيَّة عَدِيدَة، مَوَاقِع السَّوَاحِل والمَوَانئ والمُدُن الحَدِيثَة والقَدِيمَة، ومَوَاقِع النِّقَاط المُهِمَّة الأخْرَى. واشْتَرَكَ في إعْدَادِ وتَحْرِير هذه الدِّرَاسَة المُهِمَّة عُلَماءُ ورِيَاضِيُّون وفَلَكِيُّون ومُهَنْدِسُون وعُلَماءُ طَبِيعَة ومُسْتَشْرِقُون ورِجالُ أدَبٍ ومِعْمارِيُّون ورَسَّامُون ومُصَوِّرُون. وفَوْرَ عَوْدَة هؤلاء العُلَماء إلى فَرَنْسَا أنْفَقُوا سَبْعَة عَشَر عامًا في إعْدَادِ وتَصْنِيف المَوَادّ التي جَمَعُوها. وصَدَرَ هذا العَمَلُ الضَّخْمُ في طَبْعَتَيْن: الأُولَى في تِسْعَة مُجَلَّدَات من الحَجْم الكَبِير تَشْمَل النَّصّ وأحَدَ عَشَر مجلَّدًا ضَخْمًا للَّوْحَات والأطْلَس الجُغْرافي (خَمْسَة مجلَّدات للَوْحَات العُصُور القَدِيمَة ومُجَلَّدان للتَّاريخ الطَّبِيعي ومُجَلَّدان للعَصْر الحَدِيث، ومُجَلَّد يَشْتمِلُ على مُقَدِّمَة لفُورْييه FOURIER – سِكِرْتِير المَجْمَع العِلْمِي

المِصْرِي- مع شَرْحٍ للَّوْحَات، إضَافَةً إلى أطْلَسٍ جُغْرافي اشْتَمَلَ على خَرَائِط مُفَصَّلَة لمُدُن وأقَالِيم مِصْر، اسْتَغْرَقَ العَمَلُ فيها من سنة **١٨٠٩** إلى سنة **١٨٢٢**م، كُتِبَ على غُلافِ المجلَّدين الأوّل والثّاني أنّها طُبِعَت «بأمْرِ صَاحِبِ الجَلالَة الإمْبراطُور نابُلْيُون الأكْبَر»، وظَهَرَت بقيَّةُ الأجْزاء بعد عَزْلِ نابُلْيُون فكُتِبَ على غُلافِها أنّها طُبِعَت «بأمْرٍ من الحُكومَة». أمَّا الطَّبْعَةُ الثَّانية - المعروفة بطَبْعَة بانْكُوك PANCKOUKE -فصَدَرَت في سِتَّة وعِشْرين مجلَّدًا صَغِير الحَجْم للنَّصّ، إضَافَةً إلى مجلَّدات اللَّوْحَات والأطْلَس الجُغْرافي الإحْدَى عَشْر بُنَاءً على مَرْسُومٍ مَلَكِي من المَلِك لُويس الثَّامِن عَشَر بين سنتي **١٨٢١ - ١٩٢٩**م.

هكذا ظَهَرَت إلى الوُجُود للمرَّة الأولى في القِسْم المعروف بـ«الدَّوْلَة الحَدِيثَة» Etat Moderne أوَّلُ مَجْمُوعَة صُوَرٍ مَرْسُومَة (Gravures) أُخِذَت للقَاهِرَة تُقَدِّمُ أوَّلَ «وَصْفٍ مَرْئي» للمَدِينَة نَتَعَرَّفُ من خِلالِه على شَكْلِ وهَيْئَةِ أحْياء مثل بُولَاق وبِرْكَة الفِيل وبِرْكَة الأزْبَكِيَّة التي تَغَيَّرَت مَعالمُها تمامًا اليوم. واحْتَوَت هذه المَنَاظِرُ والمَشَاهِدُ كذلك على رُسُومِ أفْرادٍ يُؤَدُّون أنْشِطَةً مختلفَةً تُصَوِّرُ لنا نَمَطَ الحَيَاة القَاهِرِيَّة في نهاية القَرْنِ الثَّامِن عَشَر للميلاد. ورَغْم اكْتِظَاظ القَاهِرَة بالجَوَامِع والمَدَارِس والخَوَانِق والدُّور والقُصُور، فلم يَشْتَمِل الكِتَابُ إلَّا على رُسُومٍ لثلاثَةِ جَوَامِع قَاهِرِيَّة فقط: جَامِع ابن طُولُون بالصَّلِيبَة، وجَامِع الحَاكِم بأمْر الله المُلاصِق لبَابِ الفُتُوح شَمال القَاهِرَة، وجَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطَان حَسَن بمَيْدان الرُّمَيْلَة تحت القَلْعَة[١]. وكَتَبَ الأقْسَامَ الخَاصَّة بوَصْفِ العَاصِمَة المِصْرِيَّة زَمَن الحَمْلَةاثْنَان من العُلَمَاء المُصَاحِبِين لها، فكَتَب إدْم فرَنْسُوا جُومَار EDME FRANÇOIS JOMARD ما يَتَعَلَّقُ بالقَاهِرَة وقَلْعَة الجَبَل بعُنْوَان *Description de la ville et de la citadelle du Caire* (نَقَلَه إلى العَرَبِيَّة أيمن فؤاد سيِّد بعُنْوان «وَصْف مَدِينَة القَاهِرَة وقَلْعَة الجَبَل»، القاهرة - مكتبة الخانجي

(١) انظر أيمن فؤاد سيد: «دور علماء الحملة الفرنسية في دراسة خطط القاهرة»، المجلة التاريخية المصرية ٤٠ (١٩٩٧ - ١٩٩٩)، ٢٢٣ - ٢٣٦.

١٩٨٧م)، وجَاك مَارْسِيل Jacques Marcel ما يَتَعَلَّق بالقَطَائِع الطُّولُونِيَّة وجَزِيرَة الرَّوْضَة ومِقْيَاسِها في قِسْمَيْن: الأَوَّل بعُنْوَان *Mémoire sur la mosquée de Toulon et les inscriptions qu'elle renferme*، والثَّاني بعُنْوَان *Mémoire sur le Meqyas de l'Ile de Roudah*.

وثَمَّة مَيْزَة أُخْرَى لهذا الوَصْف، هي أَنَّه لأَوَّلِ مَرَّةٍ تَصْحَبُ الوَصْفَ الطُّبُوغْرافي خَرِيطَةٌ تَفْصِيلِيَّةٌ هي الأُولَى من نَوْعِها، مُثْبَتٌ عليها حُدُودُ المَدِينَة وشَوَارِعُها الرَّئِيسَة والجَانِبِيَّة ومَعَالِمُها الرَّئِيسَة سنة ١٨٠٠م مع شَرْحٍ لما جَاءَ على هذه الخَرِيطَة. وتَرْجِعُ أَهَمِّيَّةُ هذه الخَرِيطَة كذلك إلى أنَّ تَغْيِيرًا كبيرًا طَرَأَ على شَكْلِ المَدِينَة وعلى مَقَرِّ الحُكْم في القَلْعَة منذ وَصْفِ المَقْرِيزِي في القرن التَّاسِع الهجري/ الخَامِس عَشَر الميلادي. كما شَمِلَ المَدِينَةَومَقَرَّ الحُكْم تَغْيِيرًا آخَرَ في أَعْقَاب هذا الوَصْف، أوَّلًا على يَدِ الفِرَنْسِيِّين أَنْفُسِهُم الذين خَرَّبُوا وأَزَالُوا الكَثِيرَ من نِقَاطِ الاسْتِدْلال التي وَرَدَ ذِكْرُها في «وَصْفِ مِصْر»[1]، ثم على يَدِ محمَّد عَلِي بَاشَا وأَبْنَائِه- وخُصُوصًا إسْماعِيل بَاشَا- حيث فُتِحَت طُرُقٌ كثيرةٌ أَزَالَت منها العَدِيدَ من نِقَاطِ الاسْتِدْلال التي عَيَّنَها، سَوَاءٌ المَقْرِيزِي أو جُومَار، كما رُدِمَت بِرَكُ القاهِرَة الظَّاهِرَة على الخَرِيطَة.

كانت خَرِيطَةُ القاهِرَة المُصَاحِبَة لكتاب «وَصْف مِصْر»هي الأُولَى من نَوْعِها للقاهِرَة وكانت نُقْطَةَ الانْطِلاق لأَعْمال رَسَّامِي خَرَائِط القاهِرَة بعد ذلك. ولكن هل كانت هناك مُحَاوَلاتٌ لرَسْمِ خَرَائِط للقاهِرَة سابقَة على خَرِيطَة «وَصْف مِصْر»؟

لقد أَثْبَتَ جُون كلُود جَارْسَان J.-Cl. Garcin بأدِلَّةٍ قاطِعَةٍ أَنَّ أَوَّلَ خَرِيطَةٍ وُضِعَت للقَاهِرَة ووَصَلَت إِلَيْنا رَسَمَها شَخْصٌ يُرْمَزُ له بالحرفين D.R في زَمَنِ السُّلْطَان المَمْلُوكِي الأَشْرَف قَايِتْبَاي (٨٧٣ -٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)، ونُشِرَت هذه الخَرِيطَةُ المعروفة باسْم خَرِيطَة Matheo Pagano لأَوَّل مَرَّة في فِينِيسْيا سنة

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار (القاهرة – دار الكتب المصرية ١٩٩٧ – ١٩٩٨) ٣: ٢٩ – ٣٤، ٩٧، ١٠٤ – ١٠٥، ١٥٩ – ١٦٣.

١٥٤٩م، ثم أعِيدَ طَبْعُها مَرَّةً ثانيةً سنة **١٥٧٤**م. كما وَضَعَ الأبُ سِيكَار Sicard– في سنة **١٧١٥**م – أوّلَ خَرِيطَةٍ للقَاهِرَة العُثْمانِيَّة لم تُنْشَر للأسَف وما تَزَالُ مَحْفُوظَةً في المَكْتَبَة الأَهْلِيَّة في بَارِيس(١).

ولكن بعد وَضْعِ الخَرِيطَة المُصَاحِبَة لكِتَاب «وَصْف مِصْر» تَوَالَى رَسْمُ خَرَائِط القَاهِرَة التي اعْتَمَدَت على هذه الخَرِيطَة، وأهمّها خَرِيطَةٌ تُصَوِّرُ القَاهِرَة سنة **١٨٦٨**م نَشَرَها مَارْسِيل كِلِيرْجِيه Marcel Clerget في كِتَابِه عن القَاهِرَة، ثم الخَرِيطَة التي وَضَعَها بِيير جران بك Pierre Grandbey سنة **١٨٧٤**م بُنَاءً على تَكْلِيفٍ من الخِدِيو إسْماعِيل. وسَجَّلَت هذه الخَرِيطَة – التي اعْتَمَدَت في الأَسَاس على خَرِيطَة «وَصْف مصر» – التَّعْدِيلات الكَثِيرَة التي طَرَأَت على القَاهِرَة في السَّبْعِين عَامًا الأُولَى للقَرْنِ التَّاسِع عَشَر، وخُصُوصًا في مَنَاطِق الأَزْبَكِيَّة وعَابِدين وحَيّ الإسْماعِيلِيَّة وبُولاق وشُبْرَا والقَصْر العَالي (جَارْدن سِيتِي الآن)، بِمِقْيَاس رَسْم ١/ ٤٠٠٠. وهذه الخَرِيطَةُ هي الأَسَاس الذي بَنَى عليه هِرْتِس بَاشَا Herz Pacha – مُدِير لجْنَة حِفْظ الآثَار العَرَبِيَّة – خَرِيطَة الآثَار الإسْلامِيَّة بالقَاهِرَة في سنتي **١٩١٤** و**١٩١٦**م، وكذلك كِرِيزْوِيل K.A.C. Creswell لخَرِيطَتِه التي نُشِرَت مع كِتَاب «مَسَاجِد مِصْر» الذي أصْدَرَته وزَارَةُ الأَوْقَاف في جزءين سنة **١٩٤٨**م ومعها فهرسٌ للآثَار الإسْلامِيَّة بالقَاهِرَة.

وكان أوّلُ شَخْصٍ اكْتَشَفَ مَدِينَة القَاهِرَة وفُنُونَها العَرَبِيَّة الإسْلامِيَّة بعد ذلك المِعْمارِي الفِرنْسِي بَسْكَال كُوسْت Pascal Coste (**١٧٨٧ – ١٨٧٩**م) الذي أُتِيحَ له أنْ يَتَّصِلَ مُباشَرَةً بكِتَاب «وَصْف مِصْر» عن طريق Edme François Jomard (**١٧٧٧ – ١٨٦٢**م) الذي أشْرَفَ على نَشْرِ الدَّوْلَة الحَدِيثَة من الكِتَاب، وقَدَّمَه في الوَقْت نَفْسِه إلى محمَّد عَلِي بَاشَا كمِعْمارِي مُتَخَصِّص قَامَ بالإشْرَاف على تَنْفِيذ الكثير

---

(١) J.-Cl. Garcin, "Une carte du Caire vers la fin du sultanat de Qayitbay", *An. Isl.* XVII (1981), pp. 372 – 85 ; N. Warner, *The True Description of Cairo. A Sixteenth Century Venetian View*, I – III, Leiden – Brill 2006.

من مَشْرُوعَاتِه المِعْمَارِيَّة المُهِمَّة كما قَامَ بوَضْعِ التَّصْمِيم الأَوَّل لجَامِع محمَّد عَلِي بالقَلْعَة والتي حالَت ظُرُوفُ مُغَادَرَتِه المُفَاجِئَة لمِصْر دون تَنْفِيذه.

كان بَاسْكَال كُوسْت أَحَدَ أَوَائِل الأُورُوبيِّين الذين قَدَّرُوا خَصَائِصَ مَدِينَة القَاهِرَة باعْتِبَارِها المَدِينَة الوَحِيدَة في كُلِّ الشَّرْقِ الإسْلامِي التي احْتَفَظَت بالعَدِيد من الآثَار والمُنْشَآت الدِّينِيَّة والحَرْبِيَّة وذَاتِ الطَّابَع الاجْتِماعِي التي تَعُودُ إلى كُلِّ العُصُور الإسْلامِيَّة بَدْءًا من القَرْنِ الثَّالِث الهجري/التَّاسِع الميلادي وحَتَّى عَصْرِه في النِّصْف الأَوَّل من القَرْنِ التَّاسِع عَشَر للميلاد.

أَصْبَحَ كُوسْت Coste أَحَدَ أَهْلِ الثِّقَة عند محمَّد عَلِي بَاشَا وظَلَّ طَوَالَ الأَعْوَام السَّبْعَة التي أَمْضَاها في مِصْر (١٨١٨- ١٨٢٥م) كبيرَ مُهَنْدِسيه وحَصَلَ منه على تَصْرِيح يَسْمَحُ له بزِيَارَة أَهَمِّ جَوامِع القَاهِرَة حَتَّى يَتمَكَّن من تَسْجِيل تَفَاصِيل عِمَارَتِها الدَّاخِلِيَّة والخَارِجِيَّة، وهو العَمَلُ الذي نَتَجَ عنه كِتَابُه المهمّ: *Monuments du Kaire: Architecture Arabe ou Mesurés et Dessinnés de 1818-1825* والذي طُبِعَ في باريس بين سنتي ١٨٣٧ - ١٨٣٩م، ويُعَدُّ بذلك أَوَّلَ دِراسَةٍ مُنَظَّمَةٍ وتَفْصِيلِيَّةٍ عن عِمارَة القَاهِرَة الإسْلامِيَّة، وتَشْتَمِلُ لَوْحَاتُه الأَرْبَع والسِّتِّين الأُولَى على تَنَوُّعٍ وَاسِعٍ في نَوْعِيَّة الآثَار (جَوَامِع ووَكَالات ودُور وأَسْبِلَة وقَنَاطِر... إلخ).

واضطُرَّ كُوسْت إلى مُغادَرَة القَاهِرَة سنة ١٨٢٧م بسَبَبِ لَدْغَة عَقْرَب تَطَلَّبَت عِلاجًا طِبِّيًّا عَاجِلاً في فَرَنْسَا. وقبل مُغَادَرَتِه لها مَنَحَ رُسُومَه المِعْمَارِيَّة إلى بَاحِثٍ إسْكُتْلَنْدي مُفْعَم بالحَماس يُدْعَى رُوبِرْت هَاي Robert Hay (١٧٩٩ - ١٨٦٣م) جَاءَ إلى مِصْر ليَكْتَشِفَ ويُسَجِّلَ مَاضِيها الفِرْعَوْني القَدِيم، ومع ذلك فقد ذَاعَ اسْمُه بفَضْلِ كِتابِه *Illustrations of Cairo Drawn on Stone by J. C. Bourne* London 1840، الذي رَسَمَ لَوْحاتَه بين سنتي ١٨٢٩-١٨٣٠م (إلَّا أنَّه لم يُطْبَع إلَّا في نوفمبر سنة ١٨٤٠م). وفَتَحَ هاي Hay بهذا الكِتَاب مَجَالًا جَدِيدًا للاهْتِمام بالقَاهِرَة المُعَاصِرَة وعُمْرَانِها الإسْلَامِي الذي سَجَّلَه في لَوْحَاتِه التي بَلَغَت ثَلاثِين لَوْحَةً طُبِعَت

باللِّيتُوجْرَاف (الطِّبَاعَة الحَجَرِيَّة) أَغْلَبها من عَمَلِ مُصَمِّمٍ مِعْمَارِي من وِينْشِسْتَر Winchester في بريطانيا يُدعَى OWEN BROWNE CARTER (١٨٠٦ – ١٨٥٩م) (بينها سِتُّ لَوْحَات فَقَط من رَسْم HAY نفسه). واهْتَمَّ هاي HAY في كِتابِه بالرَّسْم التَّصْوِيرِي بحَيْثُ جَذَبَ اهْتِمامَه مُحِيطُ الأَثَر أكثر من تَفَاصِيلِه المِعْمَارِيَّة.

وتُعَدُّ بعضُ المَشَاهِد التَّصْوِيرِيَّة التي اشْتَمَلَ عليها الكِتَابُ التَّسْجِيلَ المَرْئي الوَحِيد الباقي لبعض آثَارِ القَاهِرَة الإسْلامِيَّة مثل: الإيوَان الكَبِير بالقَلْعَة الذي هُدِمَ سنة ١٨٣٧م ليَحِلَّ مَحَلَّه جَامِعُ محمَّد عَلِي، وبِرْكَة الفِيل والمَنَاظِر المُحِيطَة بها والتي رَدَمَها بعد ذلك مع بِرَكٍ أُخْرَى محمَّد عَلِي بَاشَا وخُلَفَاؤُه، ممَّا يَجْعَلُ من هذه الرُّسُوم مَصْدَرًا تَوْثِيقِيًّا مُهِمًّا للتَّسْجِيل التَّارِيخِي للقَاهِرَة(١).

وأَهْدَى HAY كِتابَه إلى إدْوَارْد وِلْيَم لِين EDWARD WILLIAM LANE (١٨٠١ – ١٨٧٦م) صَاحِبُ كِتَاب *The Manners and Customs of Modern Egyptians* «المِصْرِيُّون المُحْدَثُون عَادَاتُهم وتَقَالِيدُهُم» والذي لَعِبَ دَوْرًا مهمًّا في إبْرَازِ صُورَة القَاهِرَة في النِّصْفِ الأَوَّل للقَرْنِ التَّاسِع عَشَر. وكان لإدْوارْد لين الفَضْلُ في حَثِّ هَاي HAY على نَشْرِ لَوْحَاتِه الشَّخْصِيَّة آخِذًا في الاعْتِبَار أنَّ أَغْلَبَ مَنَاظِرِ كِتَاب «وَصْف مِصْر»، الذي كان حتى ذلك الوَقْتِ المَرْجِعَ الوَحِيدَ للوَصْفِ المَرْئي للقَاهِرَة، تَنْقُصُها الدِّقَّة إلى حَدٍّ بَعِيد.

ولاشَكَّ أنَّ الصُّوَرَ الأَكْثَر حَمِيمِيَّة بين هذه الأَوْصَاف المَرْئِيَّة المَعْرُوفَة للقَاهِرَة هي اللَّوْحَاتُ التي رَسَمَها بعد ذلك دِيفِيد رُوبِرْتس DAVID ROBERTS (١٧٩٦ –

---

(١) راجع C. WILLIAMS, "Nineteenth Century Images of Cairo from the Real to the Interpretation", in *Making Cairo Medieval*, edited by N. AL-SAYYAD, I. A. BIERMAN & N. RABBAT, New York- Lexington Book2005, pp.97 – 101؛ وانظر كذلك للمؤلفة نفسها "The Visual Image of Nineteenth Century Cairo: The British Discovery", in *Arab and Islamic Studies in Honor of Marsden Jones* , edited by THABIT ABDULLAH &BERNARDO'KANE, Cairo – AUC 1997, pp. 40 – 42.

١٨٥٤م)، أَحَدُ أعْضَاء الجَمْعِيَّة المَلَكِيَّة البريطَانِيَّة للفُنُون The Royal British Society of Arts، الذي يُعَدُّ أوَّلَ فَنَّانٍ مُحْتَرِفٍ يَزُورُ مِصْر بغَرَضٍ أنْ يَطْبَعَ بعد عَوْدَتِه إلى إنْجِلْتِرَا ألْبُومًا للصُّوَر(١). كان رُوبِرْتس مُتَعَايشًا مع كِتَاب «وَصْف مِصْر» وكان غَرَضُه إدْخَالَ تصْوِيبَات على رُسُومِه. وحَقِيقَة الأمْر فإنَّ عَمَلَ رُوبِرْتس يُعَدُّ بحَقٍّ آخِرَ وأجْمَلَ أعْمَالِ المُصَوِّرِين الفَنَّانين قَبْلَ عَصْرِ التَّصْوِير الفُوتُوغْرَافي.

وَصَلَ رُوبِرْتس إلى الشَّرْق في أُغُسْطُس سنة ١٨٣٨م وله من العُمْر اثْنَان وأرْبَعُون سنةً، وأمْضَى في القَاهِرَة سَبْعَة أسَابِيع سَجَّلَ فيها اسْكِتْشَاتًا Sketches لآثَارِهَا الإسْلَامِيَّة باعْتِبَارِهَا قِسْمًا من المُحِيط العُمْرَاني للمَدِينَة، كما اسْتَقْبَلَه محمَّد عَلِي بَاشَا في سَرَاي رَأْس التِّين بالإسْكَنْدَرِيَّة في ١٦ مايو سنة ١٨٣٩م. وعَادَ رُوبِرْتس إلى إنْجِلْتِرَا في يُولْيَة سنة ١٨٣٩م حَامِلاً مَجْمُوعَةً من الأوْرَاق سَجَّلَ فيها أهَمَّ مَعَالِم مِصْر والنُّوبَة نُشِرَت في مُنْتَصَف سنة ١٨٤٠م مُمَثِّلَةً آخِرَ مَجْمُوعٍ لفَنِّ الرَّسْم التَّصْوِيري Gravures الذي أُنْتِجَ خِلَالَ الحِقْبَة التَّوْثِيقِيَّة في بَوَاكِير القَرْنِ التَّاسِع عَشَر بعُنْوَان: *Egypt & Nubia from Drawing Made on the Spot by David Roberts R. A.*, London 1840.

ورَكَّزَ رُوبِرْتس ROBERTS لَوْحَاتَه على مَدِينَة القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة وظَوَاهِرِها المُبَاشِرَة التي تَكَوَّنَت خِلَال العَصْرِ المَمْلُوكِي، فلم يُضَمِّن كِتَابَه مَنَاظِرَ لميناء بُولَاق أو للأزْبَكِيَّة بحيث انْصَبَّ اهْتِمَامُه الأوَّل على أحْيَاء المَدِينَة التَّقْلِيدِيَّة التي جَذَبَت اهْتِمَامَه والمُنْتَشِرَة آثَارُها على امْتِدَاد الشَّارِع الأعْظَم أو قَصَبَة القَاهِرَة (شَارِع المُعِزّ لدِين الله الآن) وعلى المَنْطِقَة المُحِيطَة بقَلْعَة الجَبَل (بَابُ الوَزِير وسُوقُ السِّلاح - الرُّمَيْلَة - الصَّلِيبَة)، كما صَوَّرَت العَدِيدُ من رُسُومِه مَنَاظِرَ دَاخِلِيَّة للجَوَامِع (جَامِع السُّلْطَان حَسَن وجَامِع الغُورِي وجَامِع المُؤَيَّد شَيْخ) تُظْهِرُ رِجَالًا في وَضْع تأدِيَة الفَرَائِض، كما مَدَّ مَنَاظِرَه لتَشْمَل كذلك مَنْطِقَة المَقَابِر في سَفْحِ المُقَطَّم وقَرَافَة المَمَالِيك.

---

(١) راجع عنه – FABIO BORBONE, *The Works and Travels of David Roberts R. A.*, Cairo – AUC 1999.

ورَسَمَ رُوبِرتْس كذلك عَدَدًا من المَنَاظِرِ البَانُورَامِيَّة التي وَسَّعت مَنْظُورَ المَدِينَة بَعِيدًا عن الأَثَرِ الوَاحِد أُخِذَت جميعُها من شَرْقِ المَدِينَة، كما تُمَثِّل خَمْسَةٌ من رُسُومِه أَشْخَاصًا مُنْهَمِكِين في أَنْشِطَةٍ اعْتِيَادِيَّةٍ (كُتَّاب رَسَائِل – رَاقِصَات- مَقَاهِي- سُوق الرَّقِيق)[١].

هكذا وَفَّر النِّصْفُ الأَوَّل للقَرْنِ التَّاسِع عَشَر لأَوَّل مَرَّةٍ نَوْعًا جَدِيدًا من المَصَادِر، هي اللَّوْحات المُصَوَّرة بالرَّسْم Gravures – التي رَسَمَها المُسْتَشْرِقُون – والتي تُمَثِّلُ حالَة المَبَاني والمَعَالِم والشَّوارِع وأَزْيَاء النَّاس، كما كانت في النِّصْفِ الأَوَّل للقرن التَّاسِع عَشَر قَبْل أَنْ يَبْدأ محمَّد عَلِي بَاشَا ومن بَعْدِه إسماعِيل بَاشَا تَغْيِير مَظْهَر المَدِينَة وصَبْغ قِسْمٍ منها بالمَظْهَر الأُورُوبِي، وقَبْل اختِراع التَّصْوِير الفوتُوغْرافي. وهي تُمَثِّلُ بَقَايَا القَاهِرَة المَمْلُوكِيَّة والعُثْمانِيَّة أَصْدَق تَمْثِيلٍ، وتُعَدُّبالتَّالي وَثَائِق صَادِقَة لا يُمْكِن ضَحْضُها.

ومع نَجَاح الفِرنْسي لُويس جَاك دَاجِير LOUIS JACQUES DAGUÈRRE (١٧٨٧ – ١٨٥١م) سنة ١٨٤٠م، في اختِراعِ آلَة تَصْويرٍ يُمْكِنُها إِنْتاجُ صُورَةٍ قِيَاسِيَّةٍ دَائِمَة، بَدَأَ تَوَافُدُ المُصَوِّرِين الفُوتُوغْرافِيِّين على مِصْر- التي شَغَلَت أَنْظارَ الغَرْبِيين لاسِيَّما بعد طَبْع كِتَاب «وَصْف مِصْر»- والْتَقَطُوا صُوَرًا نَادِرَةً لمَعَالِم مِصْر والقَاهِرَة في زَمَنِ التَّغَيُّرات والتَّحَوُّلات المُهِمَّة التي شَهِدَتْها القَاهِرَة منذ نِهَايَة عَهْدِ محمَّد عَلِي بَاشَا. ويَحْتَفِظُ مَرْكَزُ الأَبْحَاث للتَّارِيخ والفُنُون والثَّقَافَة الإسْلامِيَّة (إرْسِيكَا IRCICA) بإسْتَانْبُول بمَجْمُوعَة أَلْبُومَات قَصْر يِلْدِز Yildiz Saray التي تُظْهِرُ المَعَالِمَ الحَضَارِيَّة في مِصْر من خِلالِ عَدَسَات القَرْنِ التَّاسِع عَشَر، حيث تَمَّ الْتِقاطُ صُوَرٍ للعَدِيد من الأَمَاكِن المُنْتَشِرَة في وِلَايَات الدَّوْلَة العُثْمانِيَّة المُخْتَلِفَة حُفِظَت في السَّرَايِ العُثْماني في عَهْدِ السُّلْطَان عَبْد الحَمِيد الثَّاني (١٨٧٦ –١٩٠٩م)، وهي وَثَائِق تَارِيخِيَّة مُهِمَّة تُسَجِّلُ مَرْحَلَةً لم يَرَها المُعَاصِرُون، وشَهِدَت في الوَقْتِ نفسه تَغَيُّرات مُتلاحِقَة أَزَالَت

(١) C. WILLIAMS, *op. cit.* pp. 101 –105 ; ID., *op. cit.*, pp, 42 - 45.

وحَوَّرَت الكَثِيرَ من المَعَالِمِ التي تُسَجِّلُها هذه الصُّوَر. وأصْدَرَ مَرْكَزُ إرْسِيكَا أَلْبُومًا يَحْوِي أَهَمَّ الصُّوَر الخَاصَّة بمِصْر في مَجْمُوعَة يِلْدِز بعُنْوَان «مِصْر في عَدَسَات القَرْنِ التَّاسِع عَشَر» (إستانبول ٢٠٠١م). كما تَحْتَفِظُ الكَثِيرُ من المَجْمُوعَات الخَاصَّة بالعَدِيد من الصُّوَر الفُوتُوغْرَافِيَّة التي تُسَجِّلُ حَالَةَ القَاهِرَة في نِهَايَة القَرْنِ التَّاسِع عَشَر والعُقُود الأُولَى للقَرْنِ العِشْرِين. ويأتي في مُقَدِّمَة ما يتعَلَّقُ بآثَار القَاهِرَة التَّارِيخِيَّة بين هذه الصُّوَر مَجْمُوعَةُ الصُّوَر المَحْفُوظَة في أرْشِيف لجْنَة حِفْظِ الآثَار العَرَبِيَّة التي أُنْشِئَت سنة ١٨٨١م، والمَجْمُوعَةُ التي تَضَمَّنَها كِتَابُ لُوِيس هُوتْكِير وجَاسْتُون فِييت عن «مَسَاجِد القَاهِرَة» L. HAUTECOEUR & GASTON WIET, *Les Mosquées du Caire*, Paris 1932، ثم المَجْمُوعَة المُهِمَّة التي الْتَقَطَها بعَدَسَتِه عَالِمُ الآثَار الإنْجلِيزِي المَعْرُوف كِيبَالْد أرْشِيبَالْد كَمِيرُون كريزْوِيل K.A.C. CRESWELL (١٨٧٩ – ١٩٧٤م) وضَمَّنَ قِسْمًا كَبِيرًا منها في كِتَابَيْه K.A.C. CRESWELL, *The Early Muslim Architecture*, I-II, Oxford 1932 – 40 , (نَقَلَه إلى العَرَبِيَّة عبد الهادي عَبْلَة بعُنْوَان« الآثَار الإسلامِيَّة الأولى » واسْتَخْرَجَ نُصُوصَه وعَلَّقَ علية أحمد غَسَّان سَبَانُو، دمشق – دار ابن قتيبة ١٩٨٤م) و ID., *The Muslim Architecture of Egypt*, I – II, Oxford 1952 – 58 (تَرْجَمَ عبد الوَهَّاب عَلُّوب جزءه الأَوَّل بعُنْوَان «العمارة الإسلامِيَّة في مَصْر – الإخْشِيدِيُّون والفَاطِمِيُّون» ورَاجَعَه واسْتَخْرَجَ نُصُوصَه محمَّد حَمْزَة إسْماعِيل الحَدَّاد ، القاهرة – مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٤م)؛ ونَقَل جمال محمَّد مِحْرِز ما كَتَبه في المجلَّد الثَّاني عن قَلْعَة الجَبَل *Archaelogical Researchs at the Citadel of Cairo*, ID. بعُنوان « وَصْف قَلْعَة الجَبَل»، القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م. وعند وَفاتِه سنة ١٩٧٤م بالقَاهِرَة تَرَكَ كِرِيزْوِيل مَكْتَبَتَه وأرْشيفَ صُوَرِه الخَاصّ وسَلْبِيَّاتِه إلى الجَامِعَة الأمْرِيكِيَّة بالقَاهِرَة AUC وإلى مَتْحَف أَشْمُولْيَان Ashmolean Museum بجَامِعَة أُكْسفُورْد(١).

---

(١) G. KARNOUK, "The Creswell Library A Legacy", *Muqarnas* VIII (1991), pp. 112 – 24. T. FITZHERBERT, "The Creswell Photographic Archive at the Ashmolean Museum, Oxford", *Muqarnas* VIII (1991), pp. 125-27: O'KANE, *Creswell Photographs Re–examind. New Perspectives on Islamic Architecture* (edited by), Cairo – AUC 2009.

ولا تَقِلُّ عنها أهَمِّيَّةً مَجْمُوعَةُ الصُّوَر الفُوتُوغْرَافِيَّة التي تَضَمَّنَها كِتَابُ «مَسَاجِد مِصْر» الذي أصْدَرَتْه وَزَارَةُ الأوْقَاف المِصْرِيَّة، سنة **١٩٤٨**م، في طَبْعَةٍ عَرَبِيَّةٍ وأُخْرَى إنْجِلِيزِيَّة، وطَبَعَتْه مَصْلَحَةُ المِسَاحَة المِصْرِيَّة.

*

* *

ورَغْمَ أنَّ القَاهِرَة تَمْتَلِكُ وَثَائِقَ وَمَصَادِرَ مَخْطُوطَة، ونَشَرَات جُزْئية لهذه المَصَادِر، وتَحْوي كذلك آثَارًا ذات حَجْمٍ يَفُوقُ ما تَمْلُكُه المُدُنُ الإسْلامِيَّة الأُخْرَى، فإنَّه يَنْقُصُها الدِّرَاسَاتُ التَّفْصِيلِيَّةُ لتَارِيخِها. وقد خَصَّصَت المُؤْتَمَرَاتُ والنَّدَوَاتُ التي عُقِدَت في النِّصْفِ قَرْنٍ الأخِير لدِرَاسَة المَدِينَة الإسْلامِيَّة، أبْحَاثًا حَوْلَ المُدُنِ الإسْلامِيَّة، وخَاصَّةً مُدُنِ الشَّمَال الأفْرِيقي والشَّام، ولكنَّها لم تُشِر إلى القَاهِرَة إلَّا تَلْمِيحًا واعْتِبَارًا من العَصْرِ المَمْلُوكي[١].

ومع ذلك فقد كان للمُسْتَشْرِقِين فَضْلُ السَّبْق في دِرَاسَة تَارِيخ القَاهِرَة ابْتِداءً من «وَصْفِ مِصْر»، وأعْمَالٍ ذَات قِيمَةٍ كَبِيرَةٍ كمُؤَلَّفات بُول رَافِيس P. RAVAISSE، وجُورْج سَالْمُون G. SALMON، وبُول كَازَانُوفا P. CASANOVA، وستانْلي لِين بُول S. LANE-POOLE، ومَارْسِيل كِليرْجِيه MARCEL CLERGET، وجَاسْتُون فِييت GASTON WIET، ومُؤَخَّرًا دِرَاسَاتُ جَانِيت أبو اللُّغْد JANETTE ABOULLUGHD، وأنْدْرِيه رِيمُون ANDRÉ RAYMOND، وسُوزَان اصْطَفَا SUZAN STAFFA، وجُون كلُود جَارْسَان JEAN-CLAUDE GARCIN، ودُورِيس بِهْرِن أبو سِيف DORIS BEHRENS – ABOUSEIF، وكارُولِين وِلْيَامْز CAROLINE WILLIAMS، وفلادِسْلاف كُوبْيَاك WILADISLAV KUBIAK، وسِيلْفِي دينْوا SYLVIE DENOIX، ودِيزْمُونْت ستِيوَارْت DESMOND

---

(١) راجع أيمن فؤاد سيد: «المدينة الإسلامية والدراسات الحديثة التي تناولتها»، المجلة التاريخية المصرية ٤٠ (١٩٩٧ – ١٩٩٩م)، ٤٥ – ٦٣.

STEWART، وكذلك دِرَاسَة صَمُوئِيل جُويْتَيْن S.D. GOITEIN عن «مُجْتَمع البَحْر المُتَوَسِّط *A Mediterranean Society*» من خِلال أَوْرَاق الجنِيزَة Cairo Geniza Documents. وسأَتَنَاوَل فيما يَلِي الدِّرَاسَات التي ظَهَرت في شَكْلِ كُتُب دُون المقَالات والبُحُوث التي نُشِرَت في الدَّوْرِيَّات الاسْتِشْرَاقِيَّة المُتَخَصِّصَة وهي تتَنَاوَل دِرَاسَات جُزْئِيَّة عن بَعْض مَلامِح القَاهِرَة ويَفُوق عَدَدُها عَدَد الكُتُب بكَثِير(١).

ومن بين هذه الدِّرَاسَات، التي تَنَاوَلَت بطَرِيقَةٍ مُعَمَّقَة تَارِيخ عَوَاصِم مِصْر الإِسْلامِيَّة، ما أَنْجَزَهُ فَرِيقٌ من العُلَماءِ الفِرَنْسِيين في نِهَايَة القَرْنِ التَّاسِع عَشَر ومَطْلَع القَرْنِ العِشْرِين، اعْتِمَادًا على النُّصُوصِ التَّارِيخية والمُعْطَيَاتِ الأَثَرِيَّة، مُتَمَثِّلاً في كِتَاب بُول رَافيس P. RAVAISSE عن «القَصْرِ الفَاطِمِي» P. RAVAISSE, *Essai sur l'histoire et la topographie du Caire d'après Makrizi (Palais des Khalifes fatimites)*, MMAFC III (1886 – 88), pp. 409 – 480؛ وكتابَيّ بُول كَازَانُوفَا P.CASANOVA عن«قَلْعَة القَاهِرَة»، و«تَخْطِيط مَدِينَة الفُسْطَاط» P. CASANOVA, *Histoire et description de la Citadelle du Caire*, MMAFC VII (1892), pp. 509 – 681 (نقله إلى العربية أحمد درَّاج بعنوان «تَارِيخ ووَصْف قَلْعَة الجَبَل»، القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م)؛ P. CASANOVA, *Essai de reconstitution topographique de la ville d'al-Foustat ou Misr*, MIFAO XXXV (1913 - 19). وكِتَاب جُورْج سَالْمُون G. SALMON عن «قَلْعَة الكَبْش وبِرْكَة الفِيل» G. SALMON, *Études sur la Topographie du Caire- la Kal'at al-Kabch et la Birkat al-Fil*, MIFAO VII (1902). أَضِف إلى ذلك الدِّرَاسَات التي كَتَبَها إِدْمُونْد بُوتي ونَشَرَها له المَعْهَد العِلْمِي الفِرَنْسِي للآثَار الشَّرْقِيَّة بالقَاهِرَة عن «حَمَّامَات القَاهِرَة» وعن « قُصُور وبيُوت القَاهِرَة في العَصْرِ الإِسْلامِي» وعن «جَامِع ابن طُولُون ومَا حَوْلَه» E. PAUTY, *Les Hammams du Caire*, MIFAO LXIV, Le Caire 1933; ID., *Les Palais et les*

(١) راجع أيمن فؤاد سيد: القاهرة خططها وتطورها العمراني، القاهرة –الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨م، ٥٠٣ – ٥٢٤.

Maisons d'époque musulmane au Caire, MIFAO LVII, Le Caire 1932 ; ID. , *La Mosquée d'Ibn Toulon et ses environs*, Le Caire – IFAO 1936.

وفيما عَدَا الدِّرَاسَةُ التي كَتَبَها ستانْلي لين بُول S. LANE-POOLE سنة **١٩٠٢** بعُنْوَان The Story of Cairo (نَقَلَها إلى العَرَبِيَّة حَسَن وعلي إبراهيم حَسَن وإدْوَارْد حليم بعُنْوان «سِيرَة القَاهِرَة»)لم تَظْهَر أيَّةُ دِرَاسَةٍ شَامِلَةٍ تَنَاوَلَت تَارِيخَ المَدِينَة منذ تَأْسِيسِ الفُسْطَاط إلى العَصْرِ الحَدِيث إلى أنْ نَشَرَ مَارْسِيل كِلِيرْجِيه M. CLERGET، في باريس سنة **١٩٣٤**، كِتَابَه « القَاهِرَة – دِرَاسَة في الجُغْرَافِيَة العُمْرانِيَّة والتَّارِيخ الاقْتِصَادِي» *Le Caire-Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*، وجَاسْتُون فِييت GASTON WIET كِتَاب *Cairo. City of Art and Commerce*, Oklahoma 1964 (نقله إلى العربية مصطفى العَبَّادِي بعُنْوَان «القَاهِرَة – مَدِينَة الفَنّ والتِّجَارَة»)، وجَانِيت أبو اللُّغْد J. L. ABU- LUGHOD كِتَاب «القاهرة – ألف عَام وعَام للمَدِينَة المُنْتَصِرَة» *Cairo – 1001 Years of the City Victorious*, New Jersy 1971 وأُولِيج فُولْكُوف O.V. VOLKOFF كِتَاب «القاهرة **٩٦٩** – **١٩٦٩** – تاريخ مدينة ألف ليلة وليلة » *Le Caire 969 – 1969 – Histoire de la ville des mille et une nuit*, Le Caire– IFAO 1971، وسُوزَان اصْطَفَا S. STAFFA كتاب «الفَتْح والانْدِمَاج – التَّطَوُّر الاجْتِمَاعِي – للقَاهِرَة **٦٤٣** – **١٨٥٠**» *Conquest and Fusion – The Social Evolution of Cairo 642 – 1850*, Leiden 1977؛ وكَارُولِين وِلْيَامز C. WILLIAMS كِتَاب «الآثَار الإسْلامِيَّة في القَاهِرَة» *Islamic Monuments in Cairo*, Cairo – AUC 1985؛وأنْدريه رِيمُون A. RAYMOND كِتَابَه *Le Caire*, Paris 1993 (نَقَلَه إلى العَرَبِيَّة لَطِيف فَرَج بعُنْوَان «القَاهِرَة – تَارِيخُ حَاضِرَة»)، ثم كتاب *Le Caire* الذي أشْرَفَ عليه ANDRÉ RAYMOND وحَرَّرَ فُصُولَه سِتَّةٌ من المُتَخَصِّصِين في تَارِيخ القَاهِرَة منذ بِدَايَاتِها إلى العَصْرِ الحَدِيث والمَصْحُوب بعَدَدٍ وَفِيرٍ من الصُّوَرِ الفُوتُوغْرَافِيَّة لأهَمِّ مَعَالِمِ القَاهِرَة (باريس سنة **٢٠٠٠**م) (صَدَرَت له كذلك تَرْجَمَةٌ إنْجِلِيزِيَّةٌ عن الجَامِعَة الأمْرِيكِيَّة في القَاهِرَة سنة **٢٠٠٥**م)، إضَافَةً إلى كِتَابِه «قَاهِرَة الانْكِشَارِيَّة: ذُرْوَة المَدِينَة العُثْمَانِيَّة في زَمَن

عبد الرَّحْمن كَتْخُدَا » *Le Caire des Janissaires: L'apogée de la ville ottomane sous 'Abd al – Rahman Katkhuda*, Paris 1995، كما كَتَبَ بالاشْتِرَاك مع جَاسْتُون فييت كِتَابًا عن «أَسْوَاق القَاهِرَة» اعْتِمادًا على ما سَجَّلَه المَقْرِيزِي *Les marchés du Caire*, Le Caire– IFAO 1979 (١).

وتُوجَدُ إلى جَانِب ذلك دِرَاسَاتٌ مُهِمَّةٌ باللُّغَات الأَجْنَبِيَّة شَارَكَ في كِتَابَتِها، إلى جَانِب المُسْتَشْرِقِين، بَاحِثُونَ عَرَب تَنَاوَلَت عُصُورًا مُحَدَّدَةً من تَارِيخ المَدِينَة الطَّوِيل أو تَارِيخ بَعْضِ أَحْيَائِها المُتَمَيِّزَة، مثل مَا كَتَبَه دِزْمُونْد ستِيوَارْت DESMOND STEWART, *Cairo* (*Cities of the World*), London 1965 (نَقَلَه إلى العربية يحيى حَقِّي بعُنْوَان «القَاهِرَة»، دار الهلال ١٩٦٧م)؛ وأَلِكْسَنْدَر لِيزِين بعُنْوَان «ثَلاثَة قُصُور بالقَاهِرَة من العَصْرِ العُثْمَانِي» – A. LEZINÉ. *Trois Palais d'époque ottoman au Caire*, Le Caire IFAO 1973؛ وجَاك رِيفُو وبِرْنَارْد مُورِي عن «قُصُور ومَنَازِل القَاهِرَة من القَرْن الرَّابع عَشَر إلى القَرْن الثَّامِن عَشَر» J. REVAULT & B. MAURY, *Palais et Maisons du Caire du XIV – XVIII siècle , I – IV*, Le Caire IFAO 1975 – 82، تَشْتَمِل هذه الدِّرَاسَات على عَمَلِيَّات رَفْع لعِمَارَة القُصُور والبُيُوت المَمْلُوكِيَّة والعُثْمَانِيَّة؛ ثم قَامَت بعد ذلك دِرَاسَاتٌ حرَصَت على وَضْع هذه المُنْشَآت في مَضْمُونِها التَّارِيخِي والاجْتِمَاعِي قَامَ بها جُون كلُود جَارْسَان وأَنْدرِيه رِيمُون J. – CL. GARCIN, *Palais et Maisons du Caire*, I- Époque mamelouke, Paris 1982; A. RAYMOND, *Palais et Maisons du Caire*, II- Époque ottomane, Paris 1983؛ ويُضَاف إلى هذه الدِّرَاسَات كِتَاب لَيْلَى عَلِي إِبْرَاهِيم «آثَار القَاهِرَة المَمْلُوكِيَّة» L. 'A. IBRAHIM, *Mamluk Monuments of Cairo*, Cairo – AUC 1976.

وتَطَوَّرَت بعد ذلك دِرَاسَاتُ المُسْتَشْرِقِين والبَاحِثِين العَرَب الذين كَتَبُوا بلُغَاتٍ

---

(١) راجع عن جهود أندريه ريمون مقال أيمن فؤاد سيد: «أندريه ريمون عاشق القاهرة» في كتاب المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني، تحرير عبادة كحيلة، القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م، ١٧ – ٢٦.

أجْنَبِيَّة، حيث كَتَبَ فلادِيسْلاف كُوبْيَاك دِرَاسَةً بعُنْوَان «الفُسْطَاط – تَأْسِيسُهَا وتَطَوُّرُهَا العُمْرَانِي المُبَكِّر» W. KUBIAK, Fustat. *Its Foundation and its Early Urban Development*, Cairo – AUC 1987؛ وأيْمَن فُؤَاد سَيِّد دِرَاسَةً بعُنْوَان «عَاصِمَة مِصْر حَتَّى نِهَايَة العَصْرِ الفَاطِمِي: القَاهِرَة والفُسْطَاط – دِرَاسَة في إعَادَة تَخْطِيطِهَا» A. FU'AD SAYYID, *La capitale de l'Eypte jusqu'à l'époque fatimide: al – Qahira et al –Fustat. Essai de reconstitution topographique*, Beirut. BTS 48, 1998.

وكَتَبَ نيل دي ماكِنْزِي N. D. MACKENZIE, *Ayyubide Cairo – A Topographical Study*, Cairo AUC 1992 (نقله إلى العربية عثمان مصطفى عثمان بعنوان «القَاهِرَة الأيُّوبِيَّة– دِرَاسَة طُبُوغْرَافِيَّة»، القاهرة ٢٠٠٧)؛ ونِزَار الصَّيَّاد «شَوَارِع القَاهِرَة الإسلامِيَّة- تكوين العَنَاصِر والأنْمَاط الحَضَرِيَّة» NEZAR AL – SAYYAD, *Streets of Islamic Cairo – A Configuration of Urban Thems and Patterns*, Chicago 1981؛ ودُورِيس بِهْرِن أبو سِيف «الأزْبَكِيَّة وضَوَاحِيهَا من أزْبَك إلى إسْمَاعِيل ١٤٧٦- ١٨٧٩م» D. BEHRENS ABOUSEIF, *Azbakiyya and its Environs from Azbak to Ism'il 1467 – 1879*, SAI cahier n. 6 (1985) وكِتَابهَا «قَاهِرَة المَمَالِيك: تَارِيخ العِمَارَة وثَقَافَتِهَا» *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and its Culture*, Cairo – AUC 2007، وكِتَاب «مَآذِن القَاهِرَة – العِمَارَة الإسْلامِيَّة من الفَتْح العَرَبِي إلى نِهَايَة العَصْر العُثْمَانِي» *The Minarets of Cairo. Islamic Architecture from the Arab Conquest to the End of Ottoman Period*, Cairo – AUC 2010.

أضِف إلى ذلك دِرَاسَة نِلْلي حَنَّا «التَّارِيخ العُمْرَانِي لبُولاق في العَصْرَيْن المَمْلُوكِي والعُثْمَانِي» N. HANNA, *An Urban History of Bulaq in the Mamluk and Ottoman Periods*, SAI cahier n. 3, Le Caire–IFAO 1983 وكِتَابهَا *Habiter au Caire. La Maison Moyenne et ses Habitants aux XVII et XVIII siècles*, Le Caire– IFAO 1991 (نَقَله إلى العربية حَلِيم طُوسُون بعُنْوَان «بُيُوت القَاهِرَة في القَرْنَيْن السَّابع عَشَر والثَّامِن عَشَر – دِرَاسَة اجْتِمَاعِيَّة مِعْمَارِيَّة»، القاهرة ١٩٩٣)؛ ودِرَاسَة سِيلْفِي دِينُوَا

«وَصْف القَاهِرَة: فُسْطَاط مِصْر تَبَعًا لابن دُقْماق والمَقْرِيزِي – تَارِيخُ قِسْمٍ من مَدِينَة القَاهِرَة من خِلالِ مُؤَرِّخَيْن مِصْرِيَيْن من القَرْنَيْن الرَّابع عَشَر والخَامِس عَشَر» S. DENOIX, *Decrire le Caire: Fustat Misr d'après Ibn Duqmaq et Maqrizi. L'histoire d'une partie de la ville du Caire d'après deux historiens egyptiens des XIV – XV siècles*, Le Caire – IFAO 1992؛ ودِرَاسَة نَاصِر رَبَّاط «قَلْعَة القَاهِرَة – تَفْسِيرٌ جَدِيد للعِمَارَة المَلَكِيَّة المَمْلُوكِيَّة» N. RABBAT, *The Citadel of Cairo – A New Interpretation of Royal Mamluk Architrcture*, Leiden – Brill 1995؛ وكذلك كِتَاب جَان – لوك آرنو J.- L. ARNAUD, *Le Caire. mise au point d'une ville moderne 1867 – 1907*, Paris 1998 (نَقَلَه إلى العربية حَلِيم طُوسُون وفؤاد الدَّهَّان بعُنْوَان «القَاهِرَة – إقَامَة مَدِينَة جَدِيدَة ١٨٦٧ – ١٩٠٧ من تَدَابِير الخِديوِي إلى الشَّرِكات الخَاصَّة»، القاهرة ٢٠٠٢م)؛ وكِتَاب نِهَال تَمْرَاز عن«بُيُوت وقُصُور قاهِرِيَّة من القَرْن التَّاسِع عَشَر» N. TAMRAZ , *Nineteenth – Century Cairene Houses and Palaces*, Cairo – AUC 1998.

وشَهِدَ القَرْن الحَادِي والعِشْرين كذلك تَوَالي الدِّرَاسَات باللُغَات الأَجْنَبِيَّة عن القَاهِرَة ومنها كِتَاب هَانِي حَمْزَة «مَقْبَرَة القَاهِرَة الشَّمَالِيَّة» H. HAMZA, *The Northern Cemetry of Cairo*, Cairo – AUC 2001؛ وكِتَاب مَابْكِل هُوج «القَاهِرَة بالصُّوَر» M. HOAG, *Cairo Illustrated*, Cairo – AUC 2006 وكِتَابَا نِقُولا وَارْنَر «آثَار القَاهِرَة الإِسْلامِيَّة. خَرِيطَة وكَتالُوج وَصْفِي» و«الوَصْف الحَقِيقِي للقَاهِرَة – رُؤْيَة من البُنْدُقِيَّة من القَرْن السَّادِس عَشَر» N. WARNER, *The Monuments of Islamic Cairo. A Map and Descriptive Catalogue*, Cairo – AUC 2004 ; ID., *The True Description of Cairo. A Sixteenth Century Venetian View*, I – III, Leiden – Brill 2006؛ وكِتَاب رِيتْشَارْد يؤمانْز «فَنّ وعِمَارَة القَاهِرَة الإسْلامِيَّة» R. YEOMANS, *The Art and Architecture of Islamic Cairo*, London 2006؛ وكِتَابَا أَجْنِيسْكَا دُوبْرُوفْلُوسْكَا «الحِرَفُ الإِنْشَائِيَّة بالقَاهِرَة – تَقْلِيد حَيّ» A. DOBROWLSKA, *The Building Crafts of Cairo. A Living Tradition*, Cairo – AUC 2007; ID.,

(نقله إلى العربية *Heliopolis Rebirth of the City of the Sun,* Cairo – AUC 2005,
محمد عناني بعُنْوَان « هِلْيُوبُولِيس مَدِينَة الشَّمْس تُولَد من جَدِيد»، القاهرة – الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٨م)؛ وكِتَاب لِيزْلِي لَبَابِيدِي «قِصَص شَوَارِع القَاهِرَة واسْتِعْرَاض تَماثِيل مَيَادِين المَدِينَة وجُسُورُها وحَدَائقها ومَقَاهِي الأَرْصِفَة» L. LABABIDI, *Cairo's Streets Stories. Exploring the City's Statues Square. Bridges , Gardens and Sidewalk Cafes.* Cairo – AUC 2009 وبالاشْتِرَاك مع هِمْفرِي دِيفِيدز « دَلِيل مَيْدَاني لأسْماء وشَوَارِع وَسَط القَاهِرَة » L. LABABIDI & H. DAVIDS, *A Field Guid to the Street Names of Central Cairo,* Cairo – AUC 2019؛ وكِتَاب جِيم أَنْطُونْيُو « القَاهِرَة التَّارِيخِيَّة. جَوْلَة خِلال المَدِينَة الإسْلامِيَّة» J. ANTONIOU, *Historic Cairo A Walk through the Islamic City,* Cairo – AUC 2009؛ وذلك إضَافَةً إلى دِرَاسَة نِزَار الصَّيَّاد NEZAR AL – SAYYAD, *Cairo Histories of City,* Harvard University 2011 (نَقَلَها إلى العَرَبِيَّة يَعْقُوب عبد الرَّحْمَن بعُنْوَان «القَاهِرَة تَوَارِيخ مَدِينَة»، القاهرة ٢٠١٧م)، ودِرَاسَة طَارِق سوِيلَم «ابن طُولُون. مَدِينَتُه المَفْقُودَة وجَامِعُه الكَبِير» T. SWELIM, *Ibn Tulun his Lost City and Great Mosque,* Cairo – AUC 2015.

ونَذْكُرُ إضَافَةً إلى ذلك دِرَاسَة بَوْلا سُونْدَرْز «إحْيَاء قَاهِرَة العُصُور الوُسْطَى – الإمْبراطُورِيَّة والدِّين وحِفْظ الآثَار في مِصْر القَرْن التَّاسِع عَشَر» P. SANDERS, *Creating Medieval Cairo . Empire, Religion and Architectural Preservation in Nineteenth – Century Egypt, Cairo* – AUC 2008 ؛ وكِتَاب مِرْسِيدِس فُولِيه «رَسْم وتَصْوِير القَاهِرَة في القَرْن التَّاسِع عَشَر» M. VOLAIT, *Le Caire dessiné et photographié au XIX^{eme} siècle,* Paris – Picard 2013 ؛
وأخِيرًا ، وليس آخِرًا ، كِتَاب اسْتِيفَان أُرْمُوس «القَاهِرَة في شِيكاغُو – شَوَارِع القَاهِرَة في المَعْرَض الكُولُومبي العَالَمِي سنة ١٨٩٣» S. ORMOS, *Cairo in Chicago . Cairo street at the World's Colombian Exposation of 1893,* Cairo – IFAO 2021. [بمناسبة مرور أربع مئة سنة على اكتشاف كولومبس للأمريكتين].

أمَّا أعْمَالُ مَاكْس فَان بِرْشِم فتَقُومُ في الأسَاسِ على دِرَاسَةِ النُّقُوشِ والكِتَابَات الأثَرِيَّة المَنْقُوشَة على الآثَار الإسْلامِيَّة MAX VAN BERCHEM, *CIA =Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum,* I partie - Egypte, Le Caire– IFAO 1894 – 1903، وهي الأعْمَال التي اسْتَكْمَلَها بعد ذلك جَاسْتُون فييت وإتْيَان كُومْب وجَاك سُوفَاجِيه وظَهَرَت في سِتَّة عَشَر مُجَلَّدًا بعُنْوَان « الجَامِع التَّارِيخِي للنُّقُوش العَرَبِيَّة» G. WIET, E. COMBE & J. SAUVAJET, *RCEA = Repertoire chronologique d'épigraphie arabe*, I – XVI, Le Caire – IFAO 1931 – 1964.

ومن خِلال اسْتِعْرَاض هذه الدِّرَاسَات يَتَّضِحُ لنا اسْتِئْثَار مُؤَسَّسَتَيْن عِلْمِيَّتَيْن كَبِيرَتَيْن بإصْدَار القَسْم الأكْبَر منها : المَعْهَد العِلْمِي الفِرَنْسِي للآثَار الشَّرْقِيَّة بالقَاهِرَة IFAO والجَامِعَة الأمْرِيكِيَّة بالقَاهِرَة AUC نَتِيجَةً لمَنْهَج عِلْمِي اضْطَلَعَ به الأسَاتِذَةُ والبَاحِثُون المُلْحَقُون بهاتين المُؤَسَّسَتَيْن ، وهو ما لا يَتَوَافَر للمُؤَسَّسَات المِصْرِيَّة رَغْم تَوَافُر الكَثِير من الدِّرَاسَات والرَّسَائِل التي قَامَ بها بَاحِثُون مِصْرِيُّون ولكنها لم تَرَى النُّور.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٤٠٧-٤٢٦

«التجار الفرنسيون في مصر في العصر العثماني»

حمادة جمال ناجي عرفان(*)

ملخص

تتمتعُ مصرُ وعاصمتها القاهرة بمكانةٍ مرموقةٍ بين أقرانها في المنطقة، وتلك المكانةُ جعلتها تكتسبُ شهرةً عالميةً واسعةً على مرِّ العصور، وجذبتْ إليها أنظارَ الكثيرِ من الأجانب، سواء بهدفِ التجارةِ أو الرحلة، وكان من ضمنِ هؤلاءِ الأجانب الكثيرُ من الأوروبيين الذين زاد عددُهم في المنطقةِ العربيةِ عقب تأسيسِهم لبعضِ الشركاتِ التجارية، والتي هدفتْ إلى جلبِ السلعِ الآسيويةِ إلى أوروبا، وكان على رأسِ هؤلاء الأوروبيين «الانجليزُ والفرنسيون» الذين سارعوا في إبرامِ الكثيرِ من المعاهدات التجارية مع الدولة العثمانية؛ للتسهيل على رعاياهم في عمليةِ التنقلِ بين أقطارِ الدولةِ العثمانيةِ بحريةٍ تامة، وعلى إثر ذلك زادتْ أعدادُ الجاليات الأجنبيةِ في القاهرة، والمدن الساحلية المصرية، وكان لهم دورٌ مؤثرٌ في الجوانبِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ المصرية.

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر المساعد - بقسم التاريخ - كلية الآداب- جامعة حلوان.

الكلمات المفتاحية: القاهرة العثمانية، التجار الفرنسيون، العصر العثماني، الجاليات الأجنبية.

Abstract

Egypt and its Capital Cairo enjoys great prestige among its peers in the region, and that prestige made her gain wide international fame Throughout the ages, and it has attracted the attention of a lot of foreigners to, Whether for the purpose of trade or travel, and Among these foreigners were many Europeans who have increased number in the Arab region after their founding for some commercial companies, and which was aimed at bringing Asian goods to Europe, and was at the head of these Europeans were the "the English and the French" Whose hastened at conclusion many trade treaties with the Ottoman Empire, to facilitate the process of moving between the counties of the Ottoman Empire completely freely, As a result, the number of foreign communities increased in Cairo, and Egyptian coastal cities, And it was them an influential role in the Egyptian economic and social aspects.

Key-words: Ottoman Cairo, the French merchants, the Ottoman era, foreign communities.

*

* *

مقدمة

لموقع مصر الاستراتيجي في قلب العالم الإسلامي دورٌ كبيرٌ في جذب الكثير من الأجانب إليها على مر العصور، وتُعد عاصمتها «القاهرة» إحدى أهم مُدن المشرق

العربي حتى وقتنا هذا؛ فمنذ تأسيس هذه المدينة، فإنها باتت مُلتقى العديد من الثقافات والحضارات المختلفة، وكما وصفها المستشرق الفرنسي جاستون فييت GASTON WIET (١٨٨٧-١٩٧١م) في مقدمة كتابه «**القاهرة مدينة الفن والتجارة**» أن هذه المدينة الإسلامية حيّرت المؤرخين أكثر من غيرها، وخاصة أنها تحتل مركزًا مرموقًا في المشرق العربي بأكمله، حتى إن الكثير من الرحالة الأوروبيين وصفوها بمصطلح «القاهرة العُظمى»، لدرجة أنها أصبحت عاصمة عالمية، ومركزًا إسلاميًا كبيرًا جذب أنظار الأوروبيين إليها؛ بسبب رخاءها التجاري، وخاصة مع الحكم المملوكي.

وعلى الرغم من أن مصر في العصر العثماني أصبحت مجرد ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، بداية من عام ١٥١٧م، إلا أن مكانتها استمرت كموضع جذب الكثير من التجار والرحالة الأوروبيين، حتى إن الدول الأوروبية سارعت بعقد العديد من الاتفاقيات التجارية مع الدولة العثمانية؛ للسماح بممارسة رعاياهم للتجارة بحرية في أقاليم مصر المختلفة، وكان من نتاج ذلك زيادة عدد الجاليات الأجنبية بالقاهرة، والمدن الساحلية المصرية، والبعض منهم أقام في مصر إقامة شبه كاملة.

وعلى ذلك تأتي أهمية الدراسة التي نحن بصددها «**التجار الفرنسيون في مصر في العصر العثماني**»، وذلك للوقوف على طبيعة المعاملات التي كانت تتم بين المصريين والتجار الفرنسيين آنذاك، ودور هؤلاء التجار في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وكيف كانت حياتهم في المدن المصرية كجالية أوروبية؟، وكيف نظر المصريون إليهم؟، وما القانون الذي حدد العلاقة بين المصريين والتجار الفرنسيين في تلك الفترة؟

وفي هذا الإطار تنقسم الدراسة إلى محورين رئيسيين:

- المحور الأول بعنوان (**طبيعة المعاملات التجارية بين المصريين والفرنسيين في**

العصر العثماني): ويُناقش العلاقات التجارية بين المصريين والتجار الفرنسيين في العصر العثماني، بداية من اتفاقية عام ١٥٣٥م التي عُقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا، وحصلت فرنسا من خلالها على الكثير من الحقوق والمزايا لرعاياها في صورة امتيازات كثيرة على أرض مصر، وعلى إثرها زاد الوجود الفرنسي في الأحياء التجارية المصرية بشكل ملحوظ، وتعايش المصريون معهم، وتعاقد الطرفان على الكثير من المعاملات التجارية.

- أما المحور الثاني بعنوان **(التجار الفرنسيون والمجتمع المصري)**: فيتعرض لنظرة المجتمع المصري لهؤلاء التجار، كأجانب غرباء، لهم عادات وتقاليد خاصة بهم، وكذلك الصور والرؤى التي حددت طبيعة العلاقة بين المصريين وهؤلاء التجار الأوروبيين، وخاصة أنهم كانوا يترددون على المدن التجارية المصرية، كالقاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد، بشكل دائم، حتى أن بعض هؤلاء التجار استقروا بمصر، وتزوجوا من مصريات، وتحول بعضهم أيضًا للديانة الإسلامية.

طبيعة المعاملات التجارية بين المصريين والفرنسيين في العصر العثماني

زاد الوجود الفرنسي في مصر في العصر العثماني عقب اتفاقية عام ١٥٣٥م التي عُقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا، ومع أن هذه المعاهدة كانت في أحد أشكالها معاهدة تحالف، فإن فرنسا استطاعت من خلالها الحصول على الكثير من الحقوق والمزايا لرعاياها الفرنسيين في صورة (امتيازات)[١]، ومن هذه الحقوق والامتيازات التي تمتع بها الرعايا الفرنسيون ما جاء في البند الأول من هذه المعاهدة عن حرية الانتقال إلى الموانئ بحرية تامة، وممارسة التجارة في جميع المناطق

(١) روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: بشير السباعي، الجزء الأول، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢٢٦. أنظر أيضًا: صلاح أحمد هريدي علي: الجاليات الأوروبية في الإسكندرية في العصر العثماني، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٢١.

الخاضعة للدولة العثمانية[١]، كما تم تحديد الرسوم الجمركية لهم وإعفائهم من دفع أي ضريبة أخرى[٢]، ونتيجة لذلك زاد عدد التجار الفرنسيين في مصر، وأقاموا في البداية بالمناطق الساحلية المصرية، لاسيما في مدينة الإسكندرية في حي عُرف باسم (حي الإفرنج/ الحي الأوروبي)[٣] الذي خُصص لجميع التجار الأوروبيين سواء من الفرنسيين أو الانجليز أو البنادقة أو الجنويين وغيرهم من أبناء الدول الأوروبية[٤].

---

(١) البند الأول من معاهدة الصداقة والتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا الموقعة في فبراير ١٥٣٥م، نقلًا عن:

J.C.HUREWITZ: Diplomacy in the Near and Middle East A Documentary Record (1535 -1914), Vol(1), New York, 1956, p2.

(٢) البند الثاني من معاهدة ١٥٣٥م، نقلًا عن: J.C. HUREWITZ, Op.Cit. 2.

(٣) أ. ب. كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ترجمة: محمد مسعود، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١١م، ص٢١٤.

(٤) عقدت الدولة العثمانية عِدة اتفاقيات مع دول أوروبية بغرض تنظيم وتحديد وضع رعايا هذه الدول وأحوالهم المعيشية، وللتأكيد على التسهيلات الممنوحة لهم في أنحاء الدولة العثمانية، وكانت أولى الدول التي حصلت على امتيازات من الدولة العثمانية هي البندقية عام ١٤٥٤م، كما كانت أول دولة يكون لها قنصل في استانبول. كما وقعت انجلترا معاهدة عام ١٥٧٩م في عهد الملكة إليزابيث الأولى والسلطان مراد الثالث حصلت بمقتضاها على امتيازات كثيرة للرعايا الانجليز في الأراضي العثمانية، ثم تلى ذلك عدة معاهدات وقعتها الدولة العثمانية مع الكثير من دول أوروبا مثل هولندا والنمسا وجنوا وفلورنسا والسويد والدانمرك وبروسيا والمجر وبلجيكا وغيرهم من الدول. أما فرنسا فقد عقدت عِدة معاهدات مع الدولة العثمانية حصلت بمقتضاها على حرية التجارة في الأراضي العثمانية، وكانت أولى هذه المعاهدات معاهدة عام ١٥١٧م التي كانت بمثابة تجديدٍ لمعاهدة سنة ١٥٠٧م بين فرنسا ومصر في عهد دولة المماليك، ثم معاهدة عام ١٥٣٥م التي تُعد أساسًا للمعاهدات اللاحقة، ثم معاهدة ١٥٩٧م، ثم معاهدة ١٦٠٤م، والتي عُقدت بين السلطان أحمد وهنري الأكبر ملك فرنسا، ثم معاهدة عام ١٦٧٣م، ثم معاهدة ١٧٤٠م التي عُقدت بين السلطان محمود الأول والملك لويس الخامس عشر، ثم استطاعت فرنسا الحصول على معاهدات تجارية بعد ذلك من أمراء المماليك في مصر مثل معاهدة ١٧٨٥م والتي عقدت بين «تروجين» مبعوث وزير البحرية الفرنسية وسفير فرنسا لدى السلطان العثماني ومراد بك، وهي معاهدة تجارية ملاحية حصلت فرنسا بمقتضاها على حرية مرور بضائعها من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر مع ضمان سلامة مراكبها في ميناء السويس وتنظيم الرسوم=

وقد كان التجار الفرنسيون من أكثر الأوروبيين الذين نجحوا في إقامة علاقات تجارية متنوعة مع مصر، وتمتع الكثير منهم بمكانة كبيرة لدى المصريين بخلاف غيرهم من التجار الأوروبيين عامة، حيث تم تمييزهم في المكاتبات والمبايعات بكثير من العبارات الراقية - بعض الشيء - مثل استخدام عبارة (فخر الملة المسيحية)، والتي استخدمت بصورة كبيرة في دفاتر المحاكم الشرعية، وخاصة في حالة تسوية النزاعات بين الفرنسيين واليهود المصريين[١].

كما لعبت القنصلية الفرنسية دورًا كبيرًا في توطيد العلاقات التجارية بين المصريين والفرنسيين، بسبب الحرية التي تمتع بها قناصل فرنسا في إدارة الشئون التجارية والمدنية لرعايا دولتهم، وذلك في ضوء الامتيازات والاتفاقيات المبرمة مع الدولة العثمانية، والتي كانت تُنفذ بحذافيرها على يد باشا مصر (نائب السلطان في الولاية) حيث كان يتسلم تعليمات من استانبول توصيه بحسن معاملة قناصل الدول ومنحهم كل الحقوق اللازمة وعدم إلحاق أي أذى بهم، وإعطائهم الحصانة الكاملة في إدارة شئون القنصليات[٢]، الأمر الذي يوضح ظهور الكثير من العبارات التفخيمية في سجلات المحاكم الشرعية المصرية لقناصل فرنسا بالتحديد، مثل عبارة «افتخار الملة المسيحية» و«عين أعيان الملة العيسوية»[٣].

=الجمركية، وجُددت هذه المعاهدة بين ملتزم الجمارك ومراد بك، وتعهد فيها مراد بك بمراعاة التجار الفرنسيين وحسن معاملتهم. زينب محمد حسين الغنام: الجاليات الأجنبية ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر إبان العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، ١٩٨٨م، ص٣٣-٥٢.

(١) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات، ٥ ربيع أول ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م - ٢٥ جمادي الأول ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م، ص٩٨، كود أرشيفي (١٠٥٨-٠٠١٠٥٨-١٠٢٩).

(٢) سيد محمد السيد: الإسكندرية ومكانتها الاستراتيجية في العصر العثماني(دراسة وثائقية للمكانة الإدارية والاقتصادية والأمنية لثغر الإسكندرية)، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٤٦.

(٣) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات، من ١٥ ذي الحجة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م إلى ٢ ربيع آخر ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م، ص١٣٣، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٤-١٠٢٩).

ثم جاءت معاهدة عام ١٧٤٠م التي عُقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا لتعطي مزيدًا من الصلاحيات والمزايا للقناصل الفرنسيين في الأراضي المصرية، حيث جاءت بنود هذه المعاهدة لتؤكد على ذلك، وخاصة في أحقية فصل النزاعات بين الفرنسيين مع عدم تدخل القضاء في مصر(١).

كل هذه الامتيازات ساعدت التجارة الفرنسية على غزو السوق المصري بشكل كبير، وتتضمن سجلات المحاكم الشرعية أعدادًا يصعب حصرها من المعاملات التجارية بين المصريين والتجار الفرنسيين، والأوروبيين بشكل عام، طوال العصر العثماني، حيث أقام الفرنسيون علاقات تجارية متنوعة مع المصريين مثل تجارة الأرز(٢) والكتان والشعير والحصير(٣) والبهار بأنواعه مثل الفلفل(٤) والزنجبيل والقرنفل(٥)

---

(١) ومما ورد في هذه المعاهدة: «القناصل الذين ترسلهم فرنسا لينوبوا عنها في إسكندرية وطرابلس الشام عوضًا عن قناصل سابقين لا يجوز معارضتهم ولا إلزامهم بالرسوم المعروفة بالتكاليف العُرفية»، إذا وقع خلاف بين أحد رعايانا وأحد تجار الفرنساويين، وتم حضورهما أمام القاضي فالقاضي لا يسمع الدعوى إلا بحضور ترجمان القنسولاتو، وإذا لم يحضر هذا لعذر قوي فتؤجل الدعوى إلى حين حضوره، ولا يجب أن يكون غيابه حجة للفرنساويين لعدم حضورهم. وإذا حصلت مشاجرة بين فرنساويين فسفراؤهم وقناصلهم يفصلون فيما بينهم بدون معارضة ولا دخل لرجال الضبط والربط»، كل الامتيازات الملوكية الممنوحة إلى أهالي فينتسيا(فينسيا) تُعطي للفرنساويين، ونأمر بعدم معارضتهم، ويَلزم تخويلهم حقوقهم العادلة». انظر بنود ٢٥، ٢٦، ٢٩ من معاهدة عام ١٧٤٠م بين فرنسا والباب العالي. نقلًا عن: يوسف آصاف: المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية ومصر مع الدول الأوروباوية، المطبعة العمومية، مصر، ١٨٩١م، ص٢٧، ٢٨.

(٢) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر مضبطة الإشهادات من ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م إلى ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م، وثيقة رقم (١٩٥)، كود أرشيفي (١٨٢١٣٠-١٠٢٩).

(٣) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ٥ جمادي الأول ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م إلى ١٤ محرم ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، وثيقة رقم (٧٧٧)، كود أرشيفي (٠٠١٦٥٤-١٠٢٩).

(٤) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٥ ربيع آخر ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م إلى ٣٠ رمضان ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م، ص١٠٧، كود أرشيفي (٠٠١٠٦٢-١٠٢٩).

(٥) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٧ محرم ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م إلى ١٩ جماد الآخر ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، ص ٢٦٧، كود أرشيفي (٠٠١١٥٣-١٠٢٩).

وتجارة القهوة (قهوة الزنجبيل) والنشادر والجلود[١] والصمغ[٢] وتجارة القماش بأنواعه[٣] وتجارة القوارب ومعداتها مثل المجاديف والمرامي والآلات والمدافع والبنادق[٤] وكذلك تجارة الرقيق[٥].

وعلى الرغم من أن التجار البنادقة والجنويين كانت كفتهم راجحة في السيطرة على التجارة الشرقية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين إلا أن التجار الفرنسيين والإنجليز نافسوهم في تجارة الأقمشة منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي، كما احتلت تجارة الورق مكانة كبيرة بين الواردات الفرنسية لمصر، وذلك لعدم تصنيعه محليًا، وكان التجار الفرنسيون يجلبون من مرسيليا إلى مصر قرابة ١٠٠٠ بالة سنويًا[٦]، وبشكل تدريجي زادت قوة التجارة الفرنسية في مصر خلال القرن

---

(١) نفسه: دفتر مضبطة الإشهادات من ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م إلى ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م، وثيقة رقم (٨٠٧)، كود أرشيفي (١٨٢١٣٠-١٠٢٩).

(٢) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٤ ذي القعدة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م إلى غرة شوال ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م، ص ١٢١، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٨-١٠٢٩).

(٣) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م إلى ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، ص٤٣٤، وثيقة رقم (١١١٧)، كود أرشيفي (٠٠١٢٦٦-١٠٢٩).

(٤) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٥ ذي الحجة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م إلى ٢ ربيع آخر ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م، ص ٨٩، وثيقة رقم (١٠٥)، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٤-١٠٢٩).

(٥) تولى اليهود المصريون عملية تجارة الرقيق بمصر، في أغلب الأحيان، حيث لعبوا دورًا كبيرًا في عملية الوساطة التجارية في هذا المجال، وكانت وثائق المبايعات تصف بالتفصيل المملوك أو العبد المجلوب وديانته وبلده، مثل ما جاء في إحدى وثائق المبايعات حول عملية بيع وشراء مملوك رومي ووصفته بـ«مملوك نصراني يُدعى تسبيلو بن أنطونيو، ربع القامة، معتدل، أبيض اللون، غنمي العينين، واير اللحية، أشقر، من بلاد رومية... (وتم شراؤه) بثمن قدره من الذهب السلطاني الجديد معاملة تاريخه بالديار المصرية ثلاثة وثلاثون دينار...». دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ٤ رجب ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م، إلى ١٨ رجب ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م، ص٤٧٥، كود أرشيفي (٠٠١١٦٠-١٠٢٩).

(٦) زينب محمد حسين الغنام: الجاليات الأجنبية ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر إبان العصر العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الدراسات الانسانية، جامعة الأزهر (فرع البنات)، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٠٦.

الثامن عشر، حتى أصبحت فرنسا تُصدر بمفردها أكثر من ليفورنيو[١] والبندقية[٢].

وهو الأمر الذي يُشير إليه الباحث الفرنسي **(أندريه ريمون)** في كتابه «**الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر**»، حيث ذكر أن الأقمشة الفرنسية كانت تُطلب في مصر بشكل مستمر، مثل الجوخ[٣] الفرنسي، نظرًا لجودته وتنوع ألوانه بين الأخضر والأزرق والأحمر، وكان من جراء ذلك ثبات سعر الجوخ الفرنسي في مصر إلى حد كبير[٤].

ومع بداية **القرن الثامن عشر** الميلادي لعب التجار الفرنسيون دورًا كبيرًا في نقل الكثير من السلع الشرقية إلى فرنسا، وخاصة البن والتوابل[٥]، حيث شهدت هذه السلع أزهارًا كبيرًا في الاقتصاد المصري منذ السنوات الأخيرة للقرن السابع عشر الميلادي، وعلى إثرها حقق التجار المصريون ثروات هائلة، وخاصة مع ارتفاع أسعار البن المُصدر لأوروبا[٦].

وقد كان التجار الفرنسيون يستوردون لفرنسا في السنة الواحدة حوالي ٣٠٠٠

---

(١) ليفورنيو: ميناء فلورانسا على البحر الأدرياتيكي بجوار جزيرة كورسيكا. زينب محمد حسين الغنام: مرجع سابق، ص٩٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠٢.

(٣) الجوخ: هو نوع من الصوف كان يُعرف أيضًا باسم «الندران درجة ثانية»، وكان من أهم الأقمشة وأكثرها تداولًا في مصر والمشرق العربي، حتى أنه كان يرتديه الغني والفقير، وقد سيطرت الجالية الفرنسية في مصر على تجارة الجوخ بشكل كبير منذ أواخر القرن السابع عشر الميلادي، والنصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي. أندريه ريمون: الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم، باتسي جمال الدين عباس، الجزء الأول، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ١٧٩. حمدي محمود محمد الحسيني: الفرنسيون في مصر في العصر العثماني (١٥٣٥-١٧٩٨م)، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة حلوان، القاهرة، ٢٠١٣م، ص١٢٨.

(٤) أندريه ريمون: مرجع سابق، ص٢٥٤.

(٥) نفسه، ص٢٧٣.

(٦) حمدي محمود محمد الحسيني: مرجع سابق، ص ٢٧٢، ٢٧٣.

فردة بن، أو أكثر من ذلك، لدرجة أنه مع زيادة الطلب الفرنسي على البن كان التجار الفرنسيون يشترون أكثر من نصف كمية البن التي كانت تُصدر إلى أوروبا، أي حوالي ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ فردة بن، وهو ما يُعادل سدس أو خمس الواردات المصرية من البن اليمني في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي[١].

وظلت تجارة البن هي السلعة الرائدة بين المنتجات الشرقية التي يستوردها التجار الفرنسيون حتى بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر، عندما عزف التجار الفرنسيون عن شراء البن الوارد للقاهرة، وخاصة بعدما تحكم التجار المصريون في أسعار البن بصورة كبيرة، وما بين عامي ١٧٧٦ و١٧٨١م لم يعد البن يتمتع بمكانته المميزة التي كان يتمتع بها في الصادرات المصرية إلى البندقية ومرسيليا، حيث يُشير أندريه ريمون أن إجمالي الصادرات منه وصلت إلى حوالي ١٧.٨٪، وهذه النسبة تُمثل أقل من ضعفي ما كان يصدره التجار الفرنسيون إلى فرنسا بين عامي ١٧١٠-١٧١٩م[٢].

وعلى الرغم من أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي كان يسوده الفوضى والإضرابات الاقتصادية والسياسية بمصر، إلا أن الحكومة الفرنسية كانت تُرسل مندوبًا رسميًا من قبلها لتفقد أحوال التجار الفرنسيين، ولعقد صفقات تجارية مع بكوات المماليك، حتى أن الفرنسيين حاولوا إقامة علاقات تجارية مباشرة مع الهند عبر طريق البحر الأحمر بداية من عام ١٧٧٧م، ولم يُمانع بكوات المماليك بهدف الاستفادة من أرباح هذه الصفقات التجارية، ومن أشكال ذلك أن الفرنسيين نجحوا في عقد اتفاق مع مراد بك وإبراهيم بك يسمح لهم بالتجارة عبر البحر الأحمر والسويس[٣].

---

(١) أندريه ريمون: مرجع سابق، ص٣١٤.

(٢) نفسه، ص٢٦٢، ٣٢٠.

(٣) زينب محمد حسين الغنام: مرجع سابق، ص٦٠. أندريه ريمون: مرجع سابق، ص٢٨٥.

ومع زيادة تشجيع الحكومة الفرنسية على توزيع منتجاتها على المشرق العربي أدى ذلك إلى اعتلاء فرنسا لقائمة الدول المُصدرة والمستوردة من مصر وإليها، لدرجة أن السلع التي وردت من فرنسا لمصر عام ١٧٧٦م بلغت حوالي ١٥٩٩٠٠٠ قرش، والصادرات المصرية لفرنسا بلغت حوالي ١٢٣٠٠٠٠ قرش(١)، وعلى حد قول جون مارلو في كتابه «تاريخ النهب الاستعماري لمصر» أن التجارة الأوروبية كانت واقعة بدرجة كبيرة في يد الفرنسيين قبل احتلالهم لمصر عام ١٧٩٨م(٢).

وكان أيضًا من أهم العوامل التي ساعدت التجار الفرنسيين على احتكار السوق المصري أنهم نجحوا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في تعويض تراجع تجارة البن بالكثير من السلع الأخرى، مثل التوابل والعقاقير والصمغ، وكذلك المنسوجات التي بلغ إجمالي الصادرات المصرية منها لفرنسا نسبة تُعادل تسعة أعشار ما كان يُنتج منها، وخاصة المنسوجات من النوع الدمياطي المصنوعة في مدينة رشيد، وهذا الأمر ساعد على استقرار مكانتهم التجارية في مصر إلى حد كبير(٣).

ويُشير أيضًا أندريه ريمون إلى أنه يُمكن ملاحظة سيطرة التجارة الفرنسية على السوق المصري أواخر القرن الثامن عشر الميلادي من أعداد السفن التجارية الفرنسية التي وصلت إلى مدينة الإسكندرية، والتي بلغ عددها في الفترة ما بين عامي ١٧٨٧-١٧٨٩م إلى حوالي ١٥٣ سفينة تجارية، وقد ساعد على ذلك تنظيم عملية الرسوم الجمركية للرعايا الفرنسيين بشكل كبير، بالإضافة إلى الحصانة الكبيرة التي تمتعت بها هذه السفن، وعملت على حمايتها من الاعتداءات المحلية(٤).

---

(١) حمدي محمود محمد الحسيني: مرجع سابق، ص١٥٨.

(٢) جون مارلو: تاريخ النهب الاستعماري لمصر من الحملة الفرنسية ١٧٩٨م إلى الاحتلال البريطاني ١٨٨٢م، ترجمة: عبد العظيم رمضان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٧.

(٣) أندريه ريمون: مرجع سابق، ص٣٢٠، ٣٢٣.

(٤) نفسه، ص٣٠٨.

كل هذه العوامل أدت إلى زيادة حجم التجارة الفرنسية بمصر إلى حد كبير، ومعها زادت أعداد أبناء الجالية الفرنسية من التجار والحرفيين في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي[١].

التجار الفرنسيون والمجتمع المصري

رغم تنوع العلاقات التجارية بين المصريين والفرنسيين على أرض مصر، إلا أن التعامل بين الطرفين كان يتم بشكل حذر لاختلاف العقيدة الدينية، سواء في حالة تعامل الفرنسي مع مسلم أو يهودي، أو حتى مع مسيحي يختلف عنه في المذهب، فقد كان يحدث في كثير من الأحيان منازعات بين التجار الفرنسيين والمصريين لأسباب متعددة؛ إما في حالة عدم سداد مبالغ مستحقة[٢]، أو عدم رد شيء مرهون بعد سداد المبلغ المستحق[٣]، أو في حالة تعدي تاجر فرنسي على شخص مصري بالسرقة[٤]، أو

(١) حمدي محمود محمد الحسيني: مرجع سابق، ص٢٣٥.

(٢) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ١٥ ذي الحجة ١٠١٧هـ/١٦٠٨م إلى ٢ ربيع آخر ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، ص ٨٩، وثيقة رقم (١٠٥)، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٤–١٠٢٩).

(٣) استعمل اليهود المصريون أسلوب الرهن للحصول على مكاسب مالية عن طريق الربا، وضمت وثائق الإشهادات بالمحكمة الشرعية الكثير من هذه الصور منها مثلًا ادعاء «الذمي فرانسيس (يقصد الذمي الفرنسي) يُدعى جامكوا ولد نكوله على حييم ولد موسي اليهودي بأن المدعي المرقوم أرسل فروة إلى المدعى عليه ليرهن ذلك عنده على ثمانية عشر قرش فسلمها له، وأخذ منه الثمانية عشر قرش وأبقي عنده الفروة المذكورة... وأمهله إلى أن يُسافر رشيد وجعل عليه الثمانية عشر قرشًا بقرشين زيادة ثم حضر بعد سفره إلى الثغر وأحضر له الدراهم وطلب منه الفروة المذكورة ويدفع له مبلغ الثمانية عشر قرش فرفض». دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر مضبطة الإشهادات من ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م إلى ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م، كود أرشيفي (٠١٨٢١٣–١٠٢٩).

(٤) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ١٠ رجب ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م إلى ٦ ذي الحجة ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م، ص ٢٨١، وثيقة رقم (٨٢٩)، كود أرشيفي (٠٠١٢٦١–١٠٢٩).

التعدي بالسب والشتائم، ومن ذلك على سبيل المثال اعتداء أحد الفرنسيين، ويُدعى (فرنسيسكو بن برتلميو)، على أحد النصارى المصريين وسبه باللغة العربية، وشهد على ذلك أحد المسلمين المصريين(١).

وفي كل هذه الحالات كان لابد من حضور الأطراف المتخاصمة أمام المحكمة المصرية، وحضور القنصل العام أو وكيله، والمترجم (الترجمان) الخاص بالقنصلية، والذي كان في الغالب من اليهود المصريين المتقنين للغة الفرنسية، وقد لمع منهم أسماء كثيرة مثل «المعلم باروخ بن موسي اليهودي الربان ترجمان طايفة الفرنج الفرانسة»(٢)، و«المعلم أصلان بن إسرايل (إسرائيل) اليهودي الربان الترجمان بخدمة المذكور (أي قنصل الفرنسيين)»(٣)، وفي حالات كثيرة كان المترجم اليهودي يؤدي دور الوكيل الشرعي عن أحد التجار الفرنسيين مثل «الذمي موسي بن يوسف اليهودي الترجمان»(٤)، وغيرهم من المترجمين الذين كانوا حلقة وصل بين اللغة العربية واللغات الأوروبية.

ولكن على الرغم من ذلك كانت العلاقات تصل بين المصريين والفرنسيين إلى حد تأجير الحوانيت (الدكاكين)(٥) أو السفن(٦) أو حتى تأجير المنازل بهدف الإقامة

---

(١) نفسه: دفتر سجل مبايعات من جمادي الأول ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م إلى ربيع أول ١٠١٥هـ/ ١٦٠٦م، ص٥٤، كود أرشيفي (١٠٦٥-٠٠١-١٠٢٩).

(٢) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ٤ رجب ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م إلى ١٨ رجب ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م، ص٤٧٥، كود أرشيفي (١١٦٠-٠٠١-١٠٢٩).

(٣) دار الوثائق القومية: محكمة باب الشعرية الشرعية، سجل تحت تاريخ ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م إلى ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م، ص٢٩٣، كود أرشيفي (٠٠٠٠١٦-١٠١٤).

(٤) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ٢٥ ربيع أول ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م إلى ٨ ربيع آخر ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م، ص٥٠، وثيقة رقم (٢٢٧)، كود أرشيفي (٠٠٠٢٥٥-١٠٠١).

(٥) نفسه: دفتر بتاريخ ٢ صفر ١١٢٠هـ/١٧٠٨م إلى ٢ ذي الحجة ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م، ص١٢٤، وثيقة رقم (٤٤٦)، كود أرشيفي (٠٠٠٤٠٦-١٠٠١).

(٦) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ٥ جمادي الأول=

المؤقتة(١)، وتزوج بعض هؤلاء التجار من نساء مصريات(٢)، وتعامل المصريون معهم بالود في أغلب الأوقات؛ وهنا يمكننا الاستدلال بكلام الرحالة الألماني «كارستن نيبور» الذي زار مصر عام **١٧٦١م** وأشار إلى معاملة بعض المصريين للتجار الأوروبيين عامة بشكل طيب، حيث كتب : «ويقيم في رشيد قنصل فرنسي وقنصل بندقي، كذلك يقيم فيها بعض التجار الأوروبيين؛ ليشرفوا على نقل بضائع أصحابهم بين القاهرة والإسكندرية، ونزلنا في رشيد عند الفرنسيسكان، وأهل هذه المدينة مشهورون أبعد الشهرة بأدبهم الجم حيال الأوروبيين..»(٣).

وفي أحيان أخرى كان المصريون ينظرون إلى هؤلاء التجار نظره عدائية، حتى تعرض الكثير منهم للضرب والإهانة باعتبارهم «إفرنج غرباء»، وهذا ما ذكره بعض الرحالة الأوروبيين في كتاباتهم(٤)، وتُشير بعض وثائق المحاكم الشرعية - وبشهادة الشهود، وبحضور القنصل المختص- تعرض بعض التجار الفرنسيين، وغيرهم من

=١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م إلى ١٤ محرم ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م، وثيقة رقم (٧٥٦)، كود أرشيفي (٠٠١٦٥٤- ١٠٢٩).

(١) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ١٤ ربيع الآخر ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م إلى ١٣ ربيع الأول ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، ص٢٠٥، وثيقة رقم (٦٣٨)، كود أرشيفي (٠٠٠٢٥٣-١٠٠١).

(٢) «لدي القاضي عطا الله المالكي، تزوج اسيدون لوارنو النصراني الفرنسي بامرأة سمت نفسها أورشا المرأة ابنه عبد الله النصرانية الكنديوتية الخلية من نكاح... وحلفت على صداق جملته خمسة عشر قرشًا من القروش الفضة الكبار الريال المتعامل بها الآن بالديار المصرية، اعترفت بقبض ذلك جميعه الاعتراف الشرعي... وعقد نكاحها عليه به مولانا الحاكم الشرعي المالكي المشار إليه أعلاه بإذنها له بذلك... وورد في يوم الثلاث المبارك سادس عشر من شهر رجب الفرد الأصب سنة أحد وثلاثين وألف». دار الوثائق القومية: دفتر سجل مبايعات بمحكمة الإسكندرية الشرعية، من ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م إلى ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م، ص٣١٣، وثيقة رقم (٦٥٢)، كود أرشيفي (٠٠١٢٦٢-١٠٢٩).

(٣) كارستن نيبور: رحلة إلى بلاد العرب وما حولها، ترجمة: مصطفي ماهر، الجزء الأول (رحلة إلى مصر ١٧٦١: ١٧٦٢م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ١٣٥.

(٤) جوفني ميكيله فنسليبو: تقرير الحالة الحاضرة لمصر ١٦٧١م، ترجمة: وديع عوض، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦م، ص٥٣. كارستن نيبور: مصدر سابق، ص٣٢٣.

الأوروبيين، للضرب والاعتداء من الأهالي بسبب سلوك هؤلاء التجار التي رفضها المصريون، حيث أشارت إحدى وثائق المحكمة في أواخر **القرن السابع عشر الميلادي** لوجود «رجل نصراني فرنسيس يُسمي بيدوا، وهو بالشارع يعانق امرأة مصرية مسلمة ويقبلها، فأدركه بعض أولاد المسلمين وأرادوا ضربه ورموه ببعض الحجارة»[١].

كما ذكر الرحالة الألماني كارستن نيبور حادثة أخرى تعود إلى عام **١٧٦٢م** توضح سبب اعتداء بعض الأهالي المصريين على التجار الفرنسيين قائلًا: «وكان للفرنسيين فيما مضى قنصل في دمياط وتجار، حتى أشاع الأهالي أنهم لاحظوا أن هؤلاء الأوروبيين مالوا إلى نساء المسلمين ميلًا مفرطًا، فقتلوهم جميعًا إلا من استطاع الفرار، ولم يعد منذ ذلك الحين لأحد من الفرنسيين - طبقًا لأمر من ملك فرنسا- أن ينزل المدينة حتى البحارة أنفسهم، وعلى من له أعمال منهم في دمياط أن ينجزها عن طريق وكيل، وأن يدبر أمر التجارة على سطح السفينة في الميناء»[٢].

وتتضح أيضًا النظرة الدينية لهؤلاء التجار في وثائق المحاكم الشرعية بمجرد ذكر وفاة أي شخص منهم. ففي حالة ذكر اسم مسلم متوفى يُطلق عليه مثلًا (المرحوم)[٣]، أما في حالة ذكر أي شخص فرنسي أو أوروبي فيُطلق عليه كلمة (النصراني الهالك)[٤]، أو(النصراني الفرانسي الهالك)[٥]، أو(الهالكون بالثغر)[١]،

---

(١) عبد الرازق عيسي: المرأة المصرية قبل الحداثة مختارات من وثائق العصر العثماني، وثيقة رقم (١٧١) ، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٢م، ص٣٦٥.

(٢) كارستن نيبور: مصدر سابق، ص١٤٨، ١٤٩.

(٣) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ٢٣ شعبان ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م إلى ١٤ جماد أول ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م، ص ٢١، كود أرشيفي (١٢٥١٠٠-١٠٢٩).

(٤) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ٨ ربيع الثاني ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م إلى ١٢ ربيع الثاني ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م، ص ٢٠٢، وثيقة رقم (٨٣٣)، كود أرشيفي (٠٠٠٢٥٦-١٠٠١).

(٥) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ١٤ ذي القعدة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م إلى غرة شوال ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م، ص١٥٧، وثيقة رقم (٤١٧)، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٨-١٠٢٩).

ولكن الثابت في هذه النقطة أن مثل تلك المصطلحات لم تكن تُطلق على الفرنسيين أو الأوروبيين فحسب، بل كانت تُطلق أيضًا على المصريين غير المسلمين(٢).

ويُمكن تفسير الرؤية العدائية التي كونها المصريون تجاه هؤلاء التجار بإعادتها لأكثر من سبب. من هذه الأسباب الصورة المتوارثة والراسخة في أذهان المصريين عن هؤلاء الإفرنج «الصليبيين»، أو وضع هؤلاء الأوروبيين في الولايات التابعة للدولة العثمانية. فعلى الرغم من المزايا التجارية التي حصلوا عليها، إلا أنهم مُنعوا من أشياء كثيرة، باعتبارهم إفرنج، مثل ركوب الحمير إلا في مدينة القاهرة، وكان عليهم أن ينزلوا من فوق الحمار إذا مر عليهم أي شخص من وجهاء القاهرة، وخاصة من المماليك(٣)، كما أنهم أُجبروا على ارتداء ملابس معينة، وإن ارتدوا في كثير من الأحيان ملابس تشبه ملابس المصريين حتى لا يتم التعرف عليهم(٤).

أما معلومات المصريين عن بلاد التجار الفرنسيين، أو الأوروبيين بشكل عام، فقد كانت ضئيلة إلى حد كبير. فالأوروبيون بالنسبة للمصريين كانوا (إفرنج) بشكل عام،

---

(١) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م إلى ١٠١٩هـ/ ١٦١٠م، ص١٥، كود أرشيفي (٠٠١٢٦١-١٠٢٩).

(٢) «لدى مولانا أفندي... ادعت الحرمة «انا» المرأة النصرانية ابنة بنت باكموا النصراني العزبا يومئذ على الخواجا جورجي النصراني الفرانس القاطن بالثغر المرقوم، أن زوج المدعية المذكورة هوغبريال النصراني المقيم داخل الفندق الكائن داخل الثغر بباب البحر يتعاطى صناعة الخبز من مدة ثلاث سنوات تقدمت على تاريخه وأنه أخذ منه خبزًا في أيام متعددة، وأوقات متفرقة بمبلغ قدره ستون قرشًا ريالًا واستمر ذلك بذمة الخواجا جورجي المدعى عليه المذكور إلى تاريخه، وهلك زوجها المذكور سابقًا وتطالبه بالمبلغ المذكور». دار الوثائق القومية: دفتر سجل مبايعات بمحكمة الإسكندرية الشرعية، من ٢١ جمادي الثاني ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م إلى ٢٩ ذي القعدة ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٨م، ص٢٨٥، كود أرشيفي (٠٠١٢٦٨-١٠٢٩).

(٣) س. ف. فولني: ثلاثة أعوام في بر مصر والشام، ترجمة: إدوار البستاني، الجزء الأول، منشورات دار المكشوف، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٤٩م، ص١٤٨.

(٤) كارستن نيبور: مصدر سابق، ص ٢٨٦.

دون تمييز للغتهم أو عقيدتهم الدينية[١]، ومن هنا انحصرت معرفة عامة المصريين بهم في كون التاجر (فرنجي انكليزي)[٢]، أو (فرنجي بندقي)[٣] أو (فرنجي فرنسي)[٤] أو (نصراني جُنوي)[٥] أو (نصراني فلمنكي)[٦]، وبالنسبة لأوطانهم فإنها كانت شبه مجهولة في الثقافة المصرية خلف ما عُرف بـ(البحر المالح تجاه الإسكندرية)[٧] وهذا ما يُفسر ظهور بعض البلاد الأوروبية في الوثائق على أنها «بلاد الكفر دمرها الله»[٨].

ولقلة معرفة المصريين ببلاد أوروبا آنذاك، جاء ذكرهم العابر والسطحي لبعض المناطق المشهورة في فرنسا، وهذا ما يتضح من معرفتهم بالتجار الفرنسيين المشهورين مثل «جوانريناو» الذي تم تعريفه بأنه «من بلدة تُدعى مرسيليا تحت حكم سلطان الفرانسة، ومن أعيان تجار النصارى الفرانسة المعتمدين والمترددين على الثغر(أي ثغر

(١) جوفني ميكيله فنسلبيو: مصدر سابق، ص ١٠٩.

(٢) دار الوثائق القومية: محكمة الأحوال الشخصية (الصالحية النجمية)، من ٧ شوال ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م إلى ١٦ رمضان ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م، ص٤٦، وثيقة رقم (٢٣١)، كود أرشيفي (١٠٠١-٠٠٠١٥٥).

(٣) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ١٥ شعبان ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م إلى ٨ ذي القعدة ١١٩٦هـ/ ١٧٨١م، وثيقة رقم (٧٥)، كود أرشيفي (١٠٠١-٠٠٠٦٦٦).

(٤) دار الوثائق القومية: محكمة باب الشعرية، دفتر تحت تاريخ ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م إلى ١١١٣هـ/ ١٧٠١م، ص١٧٥، وثيقة رقم (٤٦٥)، كود أرشيفي (١٠١٤-٠٠٢٠٨).

(٥) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م إلى ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، ص٨٤، وثيقة رقم (٢٢١)، كود أرشيفي (١٠٢٩-٠٠١٢٦٦).

(٦) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ٢٨ ربيع الأول ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م إلى ٣ ربيع الآخر ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م، ص ١٧، وثيقة رقم (٦٧)، كود أرشيفي (١٠٠١-٠٠٠٢١٣).

(٧) دار الوثائق القومية: محكمة رشيد، دفتر تحت تاريخ ١ ربيع الثاني ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م إلى ١١ رمضان ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م، ص٣٤٢، وثيقة رقم (٤٨٨)، كود أرشيفي (١٠٨٩-٠٠٠٨٥١).

(٨) دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م إلى ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، ص٣٥٩، وثيقة رقم (٨٩٩)، كود أرشيفي (١٠٢٩-٠٠١٢٦٦).

الإسكندرية)»[١]، أو تعريف بعضهم بأنه من (بلاد مرسيله)[٢]، أو ذكر هذه المناطق بنوع من التجاهل مثل (ولاية فرنسيس)[٣]، أو الإشارة إليها بـ(بلاده)[٤].

كما تعامل المصريون أيضًا مع اللغات التي يتحدث بها هؤلاء التجار بنوع من التجاهل بعض الشيء، ولم يهتموا بتعلم تلك اللغات الإفرنجية، ومما يدل على ذلك تعميم كل هذه اللغات ووصفها بمصطلح واحد فقط مثل (اللغة الإفرنجية أو بلسان الإفرنجية)[٥]، ولكن يُستثنى من ذلك أهل الإسكندرية الذين أتقنوا أكثر من لغة، وهذا ما أشار إليه الرحالة الألماني كارستن نيبور قائلًا: «ولقد التقيت هنا بأناس من أهل الإسكندرية يتحدثون لهجة جنوب فرنسا، ولغة الدانمرك، ولغة السويد، وكأنهم من أهل فرنسا والدانمرك والسويد..»[٦]، ويمكن تفسير ذلك بسبب كثرة الاحتكاك بين الأوروبيين وأهالي مدينة الإسكندرية أكثر من أي مدينة أخرى.

---

(١) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ذي القعدة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م إلى شوال ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م، ص١٤٩، وثيقة رقم (٣٩٣)، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٨–١٠٢٩).

(٢) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م إلى ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م، ص٣٧٠، وثيقة رقم (٩٣٤)، كود أرشيفي (٠٠١٢٦٦–١٠٢٩).

(٣) نفسه: دفتر سجل مبايعات من ٢٣ شعبان ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م إلى ١٤ جماد أول ١٠٢٧هـ/ ١٦١٧م، ص١٣، كود أرشيفي (٠٠١٢٥١–١٠٢٩).

(٤) «لدى مولانا أفندي عبد الرحمن دام مجده بترجمة المعلم إسرائيل بن باروخ اليهودي ترجمان طايفة النصارى الفرانسة ادعى بابتدرو ولد بيان النصراني الفرانسي.. أن هارون بن حاييم اليهودي قال بأن المدعي المذكور كان سابقًا نصب عنه بالثغر المذكور شخصًا يدعي بابتدرو النصراني الفرانسي ليتلقي ما يأتي له بالثغر المذكور من بلاده...» دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات من ذي القعدة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م إلى شوال ١٠٣١هـ/ ١٦٢١م، ص١٢١، وثيقة رقم (٣١٧)، كود أرشيفي (٠٠١٢٥٨–١٠٢٩).

(٥) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ٨ ربيع الثاني ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م إلى ١٢ ربيع الثاني ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م، ص٢٠٢، وثيقة رقم (٨٣٣)، كود أرشيفي (٠٠٠٢٥٦–١٠٠١).

(٦) كارستن نيبور: مصدر سابق، ص١٢٨.

وبالنسبة لتأثر بعض الفرنسيين بالحياة الاجتماعية المصرية، فيُشير المؤرخ والمستشرق الفرنسي **هنري لورنس** في كتابه «**الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر الاستشراق المتأسلم في فرنسا ١٦٩٨-١٧٩٨م**» بأن مصر كانت موضع جذب لخيال الكثير من الأوروبيين «بحكم ماضيها البالغ الثراء»(١)، وهذا الأمر جعل بعض من الأوروبيين يرغبون في الإقامة بها، وتحول بعض التجار الفرنسيين، وغيرهم من الأوروبيين، للديانة الإسلامية(٢)، وتزوج بعضهم من مصريات، وعمل بعضهم الآخر في الصناعات الحرفية المصرية مثل صياغة الذهب وصقل الأحجار الكريمة، وصباغة الجلود(٣).

خاتمة

كان للامتيازات التي حصلت عليها فرنسا من الدولة العثمانية دورٌ كبيرٌ في زيادة عدد التجار وأبناء الجالية الفرنسية، بشكل عام، في القاهرة والمدن الساحلية المصرية، وعلى الرغم من أنهم سكنوا في حي خاص بهم، مثل باقي أبناء الجاليات الأوروبية، إلا أنهم لم يكونوا منعزلين داخل هذه الأحياء، بل كان لهم دورٌ كبيرٌ في الحياة

---

(١) هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر «الاستشراق المتأسلم في فرنسا ١٦٩٨-١٧٩٨م»، ترجمة: بشير السباعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥م، ص٩٧.

(٢) «في ليلة الخميس المبارك ثاني عشر شهر ربيع أول من تاريخه ١١٨٧هـ: حضر إلى مجلس الشرع الشريف رجل من طايفة النصارى الفرنسيس (بسينسو) ولد النصراني أيولج الفرنسي، وطلب الدخول في دين الإسلام طالبًا مختارًا ونطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وتبرأ من كل دين يُخالف دين محمد بن عبد الله وسمي نفسه أحمد...». دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر مضبطة الإشهادات من ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م، ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، وثيقة رقم (٦١٣)، كود أرشيفي (١٨٢٠٩٠-١٠٢٩).

(٣) دار الوثائق القومية: محكمة الباب العالي، دفتر تحت تاريخ ١٢ ربيع الأول ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م إلى ٢٧ شوال ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م، ص ٢٨، وثيقة رقم (١١٣)، كود أرشيفي (١٠٠٠٠٠١-١٠٠١). حمدي محمود محمد الحسيني: مرجع سابق، ص١٦١.

الاقتصادية المصرية، حتى أنهم دخلوا في تجارة أشهر السلع الموجودة آنذاك، وتمتعوا بشهرة واسعة في مقابل الجاليات الأخرى، ووصلت هذه الشهرة إلى بروز أسماء معينة من التجار الفرنسيين بالقاهرة والإسكندرية ورشيد.

كما تسبب التجار الفرنسيون في إنعاش حركة التجارة الداخلية والخارجية، ومعها نشط السوق المصري ببعض المنتجات والسلعة المهمة كالبن والتوابل، وهي السلع نفسها التي تسببت في ثراء الكثير من التجار المصريين، بعد تحكمهم في أسعار هذه السلع مدة زمنية كبيرًا وصلت لنصف قرن، ومع هذا الوضع نشطت القاهرة كإحدى أهم الأسواق القومية والدولية في المشرق العربي، وأصبحت مركزًا رئيسيًا لعبور الكثير من المنتجات، وصارت نقطة مهمة للتبادل التجاري الذي امتدت فروعه من البحر الأحمر حتى الجزيرة العربية والهند، ومن البحر المتوسط إلى أوروبا، وعن طريق الصعيد والنوبة إلى الحبشة وداخل إفريقيا، بل ارتفعت مكانتها لدرجة أن جميع الصفقات والمعاملات التجارية الرئيسية كانت تتم بها.

أما عن علاقة المصريين بالتجار الفرنسيين فقد أدى التبادل التجاري وعمليات البيع والشراء إلى تكوين علاقات طيبة بين الطرفين وصلت إلى حد الاقتراض من بعضهم البعض، أو تأجير المساكن والحوانيت، أو الاستعانة ببعضهم كشهود على عقود البيع والشراء، ومن الناحية الاجتماعية فقد تعامل المصريون مع التجار الفرنسيين بشكل ودي، في بعض الأحيان، وخاصة مع تحول البعض منهم للديانة الإسلامية، وكان يتم توثيق ذلك في المحكمة الشرعية بشهادة شهود مصريين، وإن اختلفت هذه العلاقة الودية في حالات معينة تعارضت فيها سلوكيات هؤلاء التجار مع سلوك وتقاليد المصريين.

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٤٢٧-٤٨٥

أثر تطور وسائل النقل والمواصلات على شوارع القاهرة فى عهد أسرة محمد على

شيماء عبد الفتاح محمد الجرم

ملخص

لقد صاحب رغبة محمد على وأبنائه من بعده فى عمل نقلة نوعية وتطوير فى وسائل النقل والمواصلات بالقاهرة تطوير شامل فى أسلوب الحياة وقد ظهر ذلك جليًا فى إعادة التخطيط العمرانى لمدينة القاهرة والذى تمثّل فى شق شوارع جديدة اتسمت بعرضها واتساعها إضافة إلى إقامة مدن جديدة بأكملها تمثّل فى مشروع القاهرة الخديوية الذى أطلق عليه باريس الشرق أثناء فترة حكم الخديو إسماعيل، كما تجلّى ذلك التطور ظاهرًا فى توسيع الشوارع بالمدينة القديمة لتتناسب مع حجم تلك العربات التى جلبت من أوروبا، تلك الشوارع التى كانت تتسم بضيقها الشديد وتعرجها والذى لم يشكل أى عائق قديمًا لتناسبه مع مرور دواب النقل التى كانت تستخدم قبل حكم الأسرة العلوية.

أيضًا ظهر هذا التطور جليًا فيما تم إقامته من كبارى لتسهل عملية مرور تلك العربات بين ضفتى النيل مثل كوبرى إمبابة وكوبرى قصر النيل وكوبرى عباس... الخ.

وعليه فقد تناول هذا البحث الحديث عن أنواع وسائل النقل والمواصلات التى استخدمت فترة حكم أسرة محمد على والتى تنوعت ما بين الدواب والمحفة والعربات المجرورة التى تنوعت بين عربات خاصة بالأسرة الحاكمة وأخرى خاصة بملوك وأمراء وسفراء الدول وأخرى استخدمت لتنقل العامة وغيرها لحمل صهاريج المياه أو لحمل الحقائب والأثاث أو لحمل الخضراوات... الخ.

Abstract

When Mohamed Ali needed to make a new development in the transportations in Cairo, this development was reflected on the life style in Cairo and made a new big change which appeared on the urban planning in Cairo, like establishment a new wide streets, and addition to those built a new cities as khedive Cairo "Paris of the East" during khedive Ismail period, or expansion the streets in the old Cairo and that is to fit the size of carts, those streets which it was very narrow and curvy

Also, this development was appeared on bridges building to facilitate the passing between the Nile sides like Imbab's bridge, Kasr El-Nile's bridge.... etc.

The carts varied with many types like carts of the ruling family those of Kings, princes and ambassadors of other countries and others used to transport the public and others to carry water tanks or to carry bags and furniture or to carry vegetables..... etc.

*
* *

المقدمــة

إن تطور وسائل النقل والمواصلات يعد أحد أهم العوامل التى على أساسها يقاس مدى تقدم الدول والبلدان ولما كان لوسائل النقل والمواصلات أثرها البالغ على كافة نواحى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمصر هذا ما شجعنى على انجاز ذلك البحث الذى يلقى الضوء على مدى تأثير تطور النقل والمواصلات على شوارع القاهرة ذلك التأثير الذى ظهر جليًا فى توسيع شوارع أو شق شوارع جديدة إضافة إلى ما تم انشاؤه من كبارى تسهل حركة مرور تلك العربات، وفى هذا الصدد لا يمكن إغفال الدور الحيوى الذى لعبته السكة الحديد والترام ومدى تأثير ذلك على شوارع القاهرة.

وعليه فقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى عدد من النقاط كالتالى:

أنواع وسائل النقل والمواصلات وتطورها فى مصر: استمر استعمال الدواب كما استعملت المحفة التى غالبًا ما تم استخدامها لنساء الطبقة العليا، وظهر إلى جوارها العربات المجرورة بأنواعها المختلفة.

حرفة صناعة العربات والمركبات وتطورها: اعتمدت مصر فى بادئ الأمر على الاستيراد من الخارج سواء بالشراء أو الإهداء ثم ظهر ورش لتصليح تلك العربات وتم تدريب المصريين على ذلك.

الأثر الحضارى لظهور العربات والمركبات: ظهر فى شق شوارع جديدة أو توسيع الشوارع القديمة إضافة إلى إنشاء عدد من الكبارى لتسهل مرور تلك العربات بين ضفتى النيل.

الأثر الحضارى لنشأة خطوط السكك الحديدية - الترام: ظهر في إلغاء عدد من

الشوارع التى أنشأت بها محطات السكك الحديدية وإنشاء شوارع أخرى استعاضة عنها.

الخلاصة.

أنواع وسائل النقل والمواصلات وتطورها فى مصر

لقد تعددت وسائل النقل الحضرى المستخدمة فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين فتطورت من أسلوب الترجل والنقل الحيوانى إلى العربة المجرورة ثم أدخلت السكك الحديدية واكتملت شبكتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وأدخل الترام كأول وسيلة للنقل الآلى المشترك داخل العاصمة عام ١٨٩٦م ثم بدأت تظهر العربات ذات الموتورات بعد الحرب العالمية الأولى ثم ظهرت شبكة الأوتوبيس فى بداية الثلاثينات وأصبح الأوتوبيس ثانى وسيلة للنقل الآلى المشترك ثم الترولى باص فى الخمسينات والمتروهات(١).

وعليه فإن تطور وسائل النقل فى المراحل المتعاقبة كان دائمًا مواكبًا للتطور الذى يحدث فى الطرق من ناحية التخطيط والإنشاء(٢) فقد اختلف اتساع الطرق وتخطيطها منذ أن كانت الدواب هى وسيلة النقل الوحيدة عن استخدام العربات واستمر التطور فى الطرق يسير جنبًا إلى جنب مع تطور وسائل النقل والتى سنستعرضها فيما يلى:

---

(١) فتحى محمد مصيلحى: النمو العمرانى للقاهرة الكبرى فى القرن العشرين، مخطوط رسالة دكتوراة، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م، ٩١.

(٢) مها محمد مصطفى عبد الوارث: ركائب الخديوي إسماعيل وأسرته من خلال الركائب المحفوظة بمتحف الركائب بالقاهرة (دراسة أثرية حضارية)، رسالة ماجستير، كلية الآثار – قسم الآثار الإسلامية – جامعة القاهرة، ٢٠٠٧م، ٦.

١- **دواب النقل**: كانت الدواب[١] هى وسيلة النقل فى مدينة القاهرة قبل القرن الثامن عشر لذا كانت الشوارع والحارات ضيقة جدا ومتعرجة ومسدودة فى أغلب الأحيان[٢].

٢- **المحفة**: كان الأثرياء من القوم وكبار التجار والحكام يستخدمون المحفة فى انتقالاتهم، وهى عبارة عن مقعدين متقابلين تحمل بواسطة زوج من البغال يربط واحد فى الأمام، والآخر فى الخلف إلى مدادين، مثبتين على كل من جانبي المحفة، وتعتبر المحفة من أقدم وسائل النقل التى كانت تستعمل بكثرة فى مصر القديمة، وقد اكتسب هذا النوع من وسائل النقل والمواصلات شهرته فى ذلك الوقت حيث كان يتيح السفر والتنقل بسهولة فى طرق المدينة القديمة والملتوية، وفى مسافات طويلة على الطرق غير الممهدة، وظلت المحفة تستخدم فى مصر إلى فترات طويلة[٣]، وكان الأشراف من الرجال والنساء فى الدولة القديمة فى مصر الفرعونية يستخدمون المحفات بينما يستخدم عامة الشعب الحمير فى تنقلاتهم[٤].

٣- **العربات المجرورة ذات العجل**: لقد استخدم قدماء المصريين العربة ذات العجل، وتحكى لنا الرسوم على جدران المعابد القديمة صورًا لنماذج من هذه العربات كانت تستعمل فى النقل والحروب، ويوجد بالمتحف المصرى عربة حربية تنسب

---

(١) للمزيد من المعلومات عن أنواع الدواب التى كانت تستخدم انظر (إبراهيم صبحى السيد غندر ثابت:أعمال المنافع العامة بالقاهرة منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين (دراسة حضارية آثرية)، مخطوط رسالة دكتوراة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م،٧٧- ٧٩.

(٢) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى للقاهرة، ٢٣.

(٣) مها عبد الوارث: ركائب الخديوي إسماعيل، ٦.

(٤) محمد أمين حسونه: مصر والطرق الحديدية، القاهرة ١٩٣٨، ١: ٣٨-٤٣، مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٧، ١٨.

للملك توت عنخ آمون[١]، وعلى الرغم من هذا إلا أنها لم تظهر طيلة العصور الإسلامية واختفى أثرها ثم بدأت فى الظهور مع بداية القرن التاسع عشر حيث كانت أول مركبة من المركبات الفخمة عرفتها مصر الحديثة مركبة إبراهيم بك أحد أمراء المماليك أما الثانية فهى مركبة نابليون أثناء حملته على مصر وكانتا ذات ستة جياد والثالثة هى مركبة محمد على ذات العجلات الأربع التى أهدتها له الحكومة الفرنسية عام ١٨٢٤م وقد كانت هذه المركبات أولى المركبات التى شهدتها القاهرة فى بداية القرن التاسع عشر[٢].

ولم يكن فى مصر من المركبات الفخمة إذ ذاك إلا العدد اليسير يستعمله الوالي وأفراد أسرته وكبار الموظفين والقناصل وكبار التجار الأوربيين وقد بلغ عددها ثلاثين مركبة فى القاهرة، وأكثر من ذلك فى الإسكندرية عام ١٨٤٠م، وكانت حالة الطريق يومئذ لا تسمح بزيادة هذا العدد حتى أنه كان من المتعذر على هذه العربات الثلاثين أن تسير خارج بعض الطرق الممهدة، ومع الاهتمام بتمهيد الطرق تزايد عددها لنقل الناس داخل المدينة وبلغ عددها الذروة فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واستمرت فى التناقص التدريجى عبر القرن العشرين[٣].

وكان ظهور العربات الفخمة التى تجرها الخيول أمرًا مدهشًا ومثيرًا للفضول، وقد كتب الرحالة «جوزيف ديستورميل» كان جميع المارة يقفون للتعبير عن إعجابهم

---

(١) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ٨.

(٢) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى للقاهرة، ٢٣، كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٣ أجزاء، ترجمة. محمد مسعود، ط٢، القاهرة - دار الموقف العربى ١٩٨١م، ٢: ٣١٦، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٧٧.

(٣) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى للقاهرة، ٢٣، مها عبد الوارث: ركائب الخديوي إسماعيل وأسرته، ٢٠.

الصامت بعربة الباشا التى بدت لهم أكثر إعجابًا من الأهرامات(١).

وقد تنوعت تلك العربات ما بين الخاصة بالباشاوات وتلك الخاصة بنقل العامة أو نقل البضائع وأخرى خاصة بنقل المياه وغيرها خاصة بنقل الخضار وسنستعرضها فيما يلى:

العربة الكارو: لفظ «كارو» مشتق من اللفظ الإنجليزي "Cart"، تعتبر من وسائل النقل الهامة فى مصر وتستخدم فى حمل الأثقال والمتاع، وهى مازالت تستعمل حتى الآن، وتتكون هذه العربة من ألواح مسطحة مجموعة ومربوطة بمسامير إلى حوامل عرضية لتكون الإطار الخارجي الذى يرتكز على محور العجلات(٢).

العربة شاريوت: "Chariot" ظهر طراز تلك العربات فى مصر القديمة، وكانت كثيرة الاستعمال كما شاع ظهورها فى الآثار القديمة فى نقوش محفوظة من نينوي وبابل كانت تستعمل فى الصيد وفى الحرب وهى عربة خفيفة يقف فيها المحارب مع السائق.

وجسم العربة قد يكون مجدولا من فروع لينة، ومفتوحًا من الظهر، ومحميًا من الأمام بلوحة عالية تربط بها جعبة الرماح والبلط والسياط، وأرضية العربة كانت عبارة عن لوحًا يثبت فوق محور العجل وكان العريش مثبتًا بعرض الأرضية المنخفضة وترتفع مقدمته حتى النير (وهو أعلى كاهل الحيوان)(٣).

عربات أمنيبوس: ذات عجلتين مرتفعتين قليلًا عن الأرض بمقاعد على الجانبين تجرها أربعة من الجياد وكانت سرعتها شديدة جدًا(٤)، وقد أطلق على هذا النوع من العربات "Vans" وكانت تستخدم فى السفر، وقد استخدمها المسافرون للانتقال من

---

(١) إلهام محمد على ذهنى – مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر – سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥٢، القاهرة – الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢، ٢٩٢.

(٢) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٠.

(٣) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٤.

(٤) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٨٢.

بولاق إلى السويس وكان طريقها ممهدًا تتخلله محطات للاستراحة واستبدال الجياد كما كان يوجد به اسطبلات وفنادق للركاب، وقد ذكرت السيدة «أراندل باركر» فى مذكراتها عن رحلة قامت بها إلى الهند فى يناير ١٨٤٦م أنه عندما وصلت إلى بولاق عن طريق ترعة المحمودية كان هناك عربات أمينوبوس لنقلهم إلى الفندق(١).

العربة الحنطور: وكان كبار التجار والأثرياء يستعملون فى تنقلاتهم العربة «الحنطور» وهى عربة صغيرة ذات عجلتين، ولها غطاء من الجلد منطبق، ويجرها غالبًا حصان أو أكثر وبها مقعد يتسع لراكبين، ويقودها سائق يجلس على مقعد مرتفع قليلا، وقد تفنن كبار التجار والأثرياء بالقاهرة والمدن فى تجميلها وربطها بأفخم وأجمل أنواع الخيول المطهمه، وكانوا يزودونها بمصابيح الأستيلين، ويزخرفونها بأحسن طلاء، وقد تمسك بعض الأمراء وأصحاب الثراء بالعربة «الحنطور» وأصبحت فى فخامتها عنوانًا لمكانة صاحبها وميدانا للتباري فى إبراز الأبهة.

عربات نقل البضائع والمواد والحاصلات: استخدمت عجلات نقل البضائع كثيرًا فى العصور الفرعونية وتدلنا على ذلك رسوم ونقوشات المعابد خاصة فى عصر الدولة الحديثة وعصر البطالمة(٢).

وقد استورد محمد على عددًا وافرا منها من فرنسا لنقل المواد اللازمة لإنشاء المصانع والمباني ورفع أتربة الآكام الحافة بمدينة القاهرة(٣)، وكان منها عربات نقل الأحجار لأشغال البناء وكانت ذات صندوق كبير وعجلات كبيرة القطر (سبعة أقدام تقريبًا) حتى تتمكن من المرور بسهولة على الأراضي غير الممهدة(٤).

---

(١) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ٢١.

(٢) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٢: ٦٨٥.

(٣) أحمد الحتة: تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، ٢٢٣. كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٢: ٦٨٥.

(٤) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٠.

وقد شاع استعمال هذه العربات حتى صارت وسيلة النقل الوحيدة فى الورش والمعامل[١] فألفها المصريون ونتيجة الإقبال عليها قام بعض المصريين بصناعة عربات عديدة لنقل البضائع والحاصلات[٢] أيضًا ظهرت عربات نقل المياه وكان مركب عليها صهريج لنقل المياه، وهى أيضا ذات عجلات كبيرة، وهذه العربات جميعها مصنوعة من الخشب[٣]. وقد اتخذها آخرون وسيلة للسفر والانتقال من مكان لآخر ولكن فى حدود ضيقة إذ إنه على الرغم من استعمال المركبات وعجلات النقل فإن الوسائل الشائعة فى النقل آنذاك هى الحيوانات[٤].

وقد كان لانتشار هذا النوع من المركبات فى مصر باعثًا رئيسيًا للحكومة على الاهتمام بتمهيد وشق الطرقات التى تصلح لسير هذه العجلات[٥].

حرفة صناعة العربات والمركبات وتطورها

اعتمدت مصر فى بداية الأمر على العربات التى كانت تهدى إليها أو الاستيراد من الدول الأوروبية وكانت إدارة الإسطبلات الملكية تحتوى على مجموعة نادرة ومتنوعة من هذه العربات، ومع ذلك لم يكن أسلوب الاستيراد أو الهدايا المصدر الرئيسي لجلب العربات إلى مصر فقد كان هناك مصدر آخر وهو اللجان المتخصصة التى تقوم بعمل جولات بالمرور على ورش مشاهير التجار المصريين وانتقاء العربات ذات المواصفات المحددة، وتقوم بتحديد سعر الشراء المناسب وبعد الشراء تسحب العربة داخل ورش إدارة الإسطبلات الملكية فيتم تعديل الهيكل وتنجيد الفرش وتدهن بالطلاء اللازم ثم توضع عليها التيجان الملكية البارزة أو ترسم عليها، وتصبح بعد

---

(١) محمد عارف: خلاصة الأفكار فى فن المعمار، ١: ٢٣، كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٢: ٦٨٥.

(٢) زكي الرشيدي: تطور الصناعات فى مصر، ٢: ٢٧٨.

(٣) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٠.

(٤) زكي الرشيدي: تطور الصناعات فى مصر، ٢٠: ٢٧٨.

(٥) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٢: ٦٨٥.

ذلك معدة للاستعمال.

وفى عهد السلطان فؤاد أمر بإعادة تنظيم الركائب الملكية وزودها بأحدث العربات الفخمة والخيول العربية، كما أمر أن يتولى أمر إصلاح العربات وتجديدها والإشراف عليها بعض العمال المصريين بعد أن كان هذا العمل يحتكره الأجانب[1] الذى لا يمكن لأحد أن ينكر فضلهم فى التطورات المستمرة التى كانت تحدث فى تلك المركبات بحيث تكون أكثر راحة وأمانًا.

ومع التطورات المستمرة فى تلك الحرفة بحيث تكون العربة أكثر راحة وأمانًا كما سبق الذكر فقد تم تزويد أركان جسم العربة بسوست حديدية "Springs" تتصل بها حوامل التعليق مما يساعد على امتصاص الصدمات وتقليل تأرجح العربة، أيضًا كان لاستعمال اليايات فى العربات كوسيلة لحمل جسم العربة أثره الكبير فى تقليل اهتزاز العربة، وساعد على بناء عربات أكثر خفة كما عمل على راحة الركاب عندما تمر العربة على المطبات أو فى طرق وعرة.

وفى عام ١٨٠٤م سجل "Obadiah Elliot" براءة فكرته فى حمل جسم العربة على يايات بيضاوية؛ مما يؤدي إلى الاستغناء عن العمود الخشبي الثقيل أو العمود الحديدي الذى يربط بين العجلات الأمامية والخلفية أسفل جسم العربة ذات الأربع عجلات والذى كان متبعا فى ذلك الوقت.

كما نجح "Sir Joseph White Worth" من خلال دراسته العلمية لتطوير سلاح المدفعية فى إنتاج حديد صلب فائق النقاء وتام التجانس ويمتاز بقوته الفائقة الذى عرف بالحديد المائى المضغوط "Fluid Compressed Steel" وعلى الفور تمكنت صناعة العربات من الاستفادة بنتائج هذا المنتج فى العربات المحمولة على يايات؛ مما أدى إلى خفتها وجمالها.

---

(١) مها عبد الوارث: ركائب الخديوي إسماعيل، ٢٢.

وهناك تطور آخر تميزت به هذه الفترة ذلك أنه فى عام ١٨٥٢م تم إدخال عنصر المطاط Rubber فى صناعة العربات بحيث ساعدت على بناء منشأ يتكون من الخشب والحديد والزجاج وفى الوقت ذاته خاليًا من الأصوات المزعجة حيث وضعت مادة المطاط حول إطار العجلات.

وفى عام ١٨٩٠م بدأ استعمال الإطارات المملوءة بالهواء فى عجلات العربة، وانتشر استعمال الإطارات الهوائية فى العربات العامة والخاصة.

وهناك اختراع آخر ابتكره "Uriah Scott" حدث به تطور بعد ذلك عرف باسم المحور ذي الوسادة المطاطية Rubber cushioned axle وذلك بإدخال جوانات دائرية بين محور العجلة وصرتها، وبذلك تم عزل جسم العربة عن وعورة الطريق، وبعد بضع سنوات تمكن صانع عربات فرنسي من استخدام وسادات من المطاط بين محور العجل والبايات، وبذلك اكتسبت وسائل النقل التى تجرها الخيول على الطرق بعد هذه التحسينات المتتالية أكبر حدود السرعة والراحة، وتوافر فى عربات السفر للنبلاء والأغنياء أقصى وسائل الراحة والأمان.

ولم يكن التطور على ذلك بل شمل أيضا الجمال فى الخطوط الخارجية للعربة والإتقان من حيث البناء والتكوين؛ مما تطلب قدرات ومهارة خاصة عند صناع العربات.

كما نشط الفنانون فى تزيين العربة وزخرفتها من الداخل والخارج وأصبحت العربة ميدانا يتنافس فيه الفنانون ومجالا تظهر فيه براعتهم؛ فقد رسم على الجوانب الخارجية للعربة لوحات فنية ذات ألوان جذابة ويوضع عليها الشعارات والأباليك المذهبة والحليات المجسمة، وكانت حوائط العربة من الداخل والأسقف تكسى بالأقمشة الفاخرة، ويستعمل الستان والحرير والقطيفة فى تنجيد المقاعد المريحة، وفى عمل الستائر التي تنسدل على النوافذ، ويغطى السجاد أرضية العربة، كما امتدت يد الفنان تعمل فى تزيين وزخرفة كل جزء فى العربة مثل الفوانيس والمقابض، حتى عجلات

العربة كانت تطلى وتزين بألوان مختلفة عن جسم العربة[١].

الأثر الحضارى لظهور المركبات والعربات

لقد اهتم محمد على بإنشاء الطرق البرية التى أطلق عليها اسم الطرق السلطانية[٢] تمييزًا لها عن غيرها ومن أهمها الطرق الموصلة من القاهرة إلى شبرا وقد غرست على حافتيها الأشجار فصارت من أفخم المسالك وأطولها.

وقد كانت رعاية محمد على واهتمامه بتلك الطرق فى تزايد مستمر سواء من ناحية تمهيدها أو توفير الأمن والأمان لها لتؤدى مهمتها على أكمل وجه، وفى ذلك الوقت كانت الدواب وكذا العجلات التى تجرها الدواب والخيول هى وسيلة النقل البرى المستخدمة فى نقل الركاب أو البضائع[٣].

وكما كان للتطور الملحوظ الذى حدث فى النقل والمواصلات فى عهد أسرة محمد على أثره الكبير فى تزايد الإهتمام بتربية الخيول وإقامة العديد من الاسطبلات لها حيث كانت تلك الخيول هى التى تستخدم فى جر عربات الأسرة المالكة[٤] فقد كان له أثره أيضًا فى تطور الشوارع سواء بتوسيعها أو شق شوارع جديدة.

وقد كان لارتباطات إسماعيل السياسية والدبلوماسية بدول أوروبا وأنشطة قناصل هذه الدول واستقبال الملوك عند زيارتهم مصر تدعوه إلى إعداد الركائب المناسبة التى تخدم هذه الأغراض بما يليق بمكانة مصر، ولاستخدام تلك الركائب كان لابد من تطوير القاهرة وإعادة تخطيط الأحياء القديمة، وتمهيد الطرق الموجودة بها واستحداث طرق جديدة مستقيمة وطويلة وهو ما قام به إسماعيل ضمن مشروع شامل قام بتطوير المدينة القديمة وانشاء القاهرة الحديثة ضمن مشروع أطلق عليه

---

(١) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل،٢٣، ٢٤.

(٢) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٢: ٦٨٢.

(٣) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٧٦، ٧٧.

(٤) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، ٢: ٦٨٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٧٧.

باريس الشرق، وقد كان لتلك التطورات التى قام بها إسماعيل أثرها الكبير الذى شجعه على اقتناء العربات الملكية – بعد أن أصبحت الطرق تسمح بتوفير الراحة التامة للركاب.

ونستطيع أن نقول إن حلم إسماعيل باقتناء العربات الملكية الفخمة التى تحاكي العربات التى شاهدها فى باريس، وكذلك العربة التى أهداها إليه الإمبراطور نابليون الثالث بمناسبة افتتاح قناة السويس هذا الحلم لم يكن ليتحقق لولا نشاط إسماعيل وحرصه على توفير الشوارع المستقيمة المرصوفة، والتى كانت تمثل نقلة حضارية بالنسبة للقاهرة، ذلك أن القاهرة كانت تفتقر إلى مثل هذه الشوارع ولم يكن يوجد بها سوى شارع واحد طويل وهو شارع الحسينية، وقد ساعدت مشروعات إنشاء الطرق ورصفها على توفير الشرايين اللازمة لتسيير العربات الملكية التى تخدم طموحات إسماعيل فى مظاهر العظمة والأبهة فضلًا عن كونها كانت سببًا مباشرًا فى تحسين البيئة وإزالة الأتربة وردم البرك ونشر النظافة فى هذه المناطق التى تخترقها هذه الطرق(١).

أولًا: توسيع الشوارع القديمة: لقد اتفق أكثر الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج وكان أطولها الشارع الموصل من باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وكان طوله يبلغ حوالى أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشرمترًا، ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة هى ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميلة بجواره وميدان بركة الفيل (بركة الفيل نفسها) وميدان الأزبكية (بركة الأزبكية نفسها)(٢) وقد كانت القاهرة فى ذلك الوقت بإستثناء ضاحيتى بولاق ومصر القديمة يبلغ محيطها ٤ آلاف متر بينما تبلغ مساحتها

---

(١) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ص١٥١، ١٥٢.

(٢) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها، ٢٤٩، محمد الششتاوى: متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، ط١، القاهرة – دار الآفاق العربية ١٩٩٩م، ١٢.

٧٩٣.٠٤هكتارا[١] وإذا أضيفت إليها مصر القديمة وبولاق تصل مساحتها إلى ٨٨٣.٨هكتارا وكانت القاهرة مضافة إلى منائيها تفوق فى الحجم كل العواصم الأوروبية فيما عدا لندن وباريس[٢].

وأثناء الحملة الفرنسية قام الفرنسيون بإدخال بعض التنظيمات الإدارية على القاهرة بتقسيمها إلى ثمانية أقسام وتوسيع بعض شوارعها وشق شوارع جديدة وإدخال العادات الصحية للمدينة من نظافة وتجميل[٣].

وقد اهتم الفرنسيون بتوسيع الشوارع وذلك لأمنهم أولًا ولسهولة سير مركباتهم ثانيًا حيث قاموا فى ربيع الثانى ١٢١٣هـ/ سبتمبر – أكتوبر ١٧٩٨م بهدم عدة جوامع ومبانى فى بركة الأزبكية لتوسيع الطرقات[٤].

وبعد الحملة الفرنسية وتولى محمد على حكم مصر كان أول ما عنى به هو إزالة كيمان الأنقاض ومخلفات الحملة الفرنسية من خرائب وأمر بإزالتها خارج المدينة[٥]،

---

(١) الهكتار هو وحدة مساحة فرنسية تساوى عشرة آلاف متر (محمد الششتاوى: متنزهات القاهرة، ١٣، حاشية ١).

(٢) جومار: وصف مصر (وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل) مع مقدمة عن التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ إنشائها حتى سنة ١٨٠٠م، ترجمة وتعليق. أيمن فؤاد سيد، القاهرة - مكتبة الخانجى ١٩٨٨م/ ١٤٠٨هـ، ٧٥، محمد الششتاوى: متنزهات، ١٢، ١٣.

(٣) جومار: وصف مدينة القاهرة، ٩٠، محمد الششتاوى: متنزهات، ١٣.

(٤) محمد حسام الدين إسماعيل: مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل (١٨٠٥-١٨٧٩م)، القاهرة - دار الآفاق العربية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ١٨، الجبرتى، عبد الرحمن بن حسن (المتوفى ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م): عجائب الأثار فى التراجم والأخبار، (الصدمة الفرنسية غزوة الغرب)، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ، ٤: ٣٠٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٣٩، أمين سامى: تقويم النيل، ٢: ١٢١.

(٥) على باشا مبارك (المتوفى ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م): الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ٢٠ جزء، طبعة بولاق،١: ٢١٠، محمود محمد فتحى: العمارة الإسلامية فى مصر خلال القرن الـ١٩ (أسرة محمد على بالقاهرة ١٨٠٥- ١٨٩٩م)، رسالة دكتوراة، كلية الهندسة- قسم العمارة- جامعة القاهرة، ١٩٨٥م، ٥١٢.

كما عمل على استكمال ما بدئه الفرنسيين بتوسيع الشوارع مما أدى معه إلى تغيير معالم وجه مدينة القاهرة ذلك التغيير الذى كان من متطلبات ذلك العصر[١] حتى يتناسب اتساع تلك الشوارع مع مرور العربات ولإحكام السيطرة على المدينة[٢].

وفى ديسمبر ١٨١٣م طاف رجال الشرطة ومعهم مجموعة من القياسين قبل زفاف ابنة محمد على بشوارع القاهرة وكلما مروا بطريق يضيق عن القياس هدموا ما عارضهم من مساطب الدكاكين أو غيرها من الجهتين لإتساع الطريق لمرور العربات فأتلفوا كثير من المبانى وذلك استعدادا لمرور العربات فى حفل الزفاف[٣].

وفى عام ١٢٣١هـ/ ١٨١٥م أصدر محمد على أمرا عاليًا بإعداد حملة من المهندسين للكشف عن منازل القاهرة وتقرير حالتها فإن وجدوا بها أو ببعضها خللًا أمروا أصحابها بهدمها وتعميرها، فإن عجزوا عن ذلك أمروا بالخروج منها وإخلائها ويعاد بناؤها على حساب الميري وتعتبر من حقوق الدولة[٤].

واستمر هذا التغيير والتطوير طيلة حكم محمد على فقد أمر مصطفى أغا المحتسب فى أغسطس ١٨١٨م الناس بقطع أرضية الطرقات والأزقة حتى العطف والحارات الغير نافذة فإضطر الناس إلى العمل بأنفسهم فى قطع الأتربة أمام بيوتهم وحوانيتهم

(١) أشرف مسيحة عزيز مسيحة: التطور العمرانى لمدينة القاهرة منذ النشأة وحتى أوائل القرن العشرين، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الهندسة، قسم العمارة، جامعة القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٢م، ١٦٢.

(٢) شحاته إبراهيم عيسى: القاهرة، مكتبة الأسرة، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م،٢٩٤.

(٣) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وآخرون، القاهرة - مطبعة لجنة البيان العربى ١٩٦٧، ٤: ٢١١ - ٢١٢، أشرف مسيحة: التطور، ١٦٢.

(٤) محمد حسام إسماعيل: مدينة القاهرة من عهد محمد على إلى إسماعيل، ٦٥، أحمد سعيد عثمان: التطور المعماري والعمراني بالقاهرة من عهد محمد على إلى عهد إسماعيل، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٩٩، ٥٠.

ونقل الأتربة الناتجة عن ذلك خوفا من البطش بهم(١).

وبالاضافة إلى اهتمام محمد على بتوسيع الشوارع القديمة فقد اهتم أيضًا بشق شوارع جديدة مثل شارع شبرا ١٨٠٨م وشارع محمد على عام ١٨٤٥م كما أعاد العمران إلى جزيرة الروضة، وتم تمهيد بعض الطرق والجسور من المدينة إلى خارجها إلى قصور الطبقة الحاكمة الموجودة فى ضواحى القاهرة مثل قصر محمد على فى شبرا.

وقد وصل اهتمام محمد على بالطرق البرية أن أنشأ لها إدارة خاصة تتناول الأعمال المتعلقة بها وتتولى الإشراف على حركة نقل السائحين والبريد والبضائع وجعل مقر هذا الديوان بالعتبة الخضراء مكان سوق الخضار القديم بأول شارع الأمير فاروق (الجيش حاليًا) وكان من ضمن اختصاصاته الإشراف على استراحات ونزل الصحراء وحظائر الخيول وعربات الأمينبوس وطعام السائحين وراحتهم ثم أضيفت له شئون السفن والمراكب وما لبث محمد علي الباشا أن اشترى شركات النقل البرى كلها سنة ١٨٤٥م(٢).

واستكمالًا لهذا التطوير المستمر فقد بدأ فى عام ١٨٤٧م بترقيم شوارع القاهرة تحت إشراف أربعة من ضباط المدفعية(٣)، وقد ظل محمد على طيلة حكمه مهتمًا بالطرق اهتمامًا كبيرًا حيث كتب كتخدا باشا إلى لينان باشا فى ١١ أبريل عام ١٨٤٨ يقول: «إنه من الضرورى إرسال الكشوف اللازمة لتخصيص عدد الأنفار الواجب إرسالها من كل مديرية للعمل فى شق وتمهيد الطرق...» وهو مما يدل على العناية بالطرق البرية آنذاك(٤).

---

(١) أشرف مسيحة: التطور العمرانى لمدينة القاهرة، ١٦٢.

(٢) على مبارك: الخطط التوفيقية، ١: ٢١٠، محمود فتحى: العمارة الإسلامية، ٥١٢، فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ٢٣.

(٣) آندريه ريمون: القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة. لطيف فرج، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩٤م،٢٦٤.

(٤) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع، ٨٢، ٨٣.

وقد استكمل خلفائه ما بدئه من تطوير سواء بتوسيع الشوارع أو شقها وخاصة فى عهد الخديو إسماعيل وهو ما ستتحدث عنه لاحقًا.

شق شوارع جديدة: على الرغم من التطور السياسى والإقتصادى التى شهدته فترة حكم محمد على إلا أن عمران القاهرة لم يطرأ عليه أى امتداد حيث تركز الاهتمام الأكبر فى تلك الفترة على شق الطرق وتيسير النقل والمرور داخل المدينة المصمتة(١).

هذا وكما لقيت الأحياء القديمة اهتماما فإن الأحياء الجديدة تأثرت أيضا بالنماذج الأوربية فى التخطيط وفق أسلوب التخطيط الشبكي؛ حيث يتكون النسيج العمراني من شبكة من الطرق الطولية والعرضية مستقيمة ومتعامدة وتحصر فيما بينها الكتل السكنية(٢).

وقد استمر تجديد وتطوير القاهرة فى عهد الخديوى إسماعيل وبدأت موجة الإصلاح بإزالة جزء كبير من الأطلال التى كانت مكدسة فى القاهرة وحول أسوارها القديمة وانتفع بالقدر الذى أزيل منها فى ردم البرك والمستنقعات التى كانت مباءة لكثير من الأمراض الفتاكة، وقد رأى بعد ذلك بثاقب بصره أن الحاجة ماسة إلى تنظيم الأحياء وإنشاء الميادين وشق الشوارع والحارات فأنجز ذلك كله بطريقة هندسية دقيقة تشهد له بالبراعة فى هذا المضمار، وبعد أن قام بإصلاح أحياء المدينة القديمة اتجه بعنايته وإهتمامه إلى استحداث أحياء صحية جديدة على الضفة الغربية للنيل وغيرها لمواجهة الزيادة المضطردة فى السكان(٣).

وتعتبر قاهرة إسماعيل فى نظر علماء تخطيط المدن وتاريخ تطورها من أعظم المشروعات العالمية التى تمت فى ذلك العصر لما اشتملت عليه من دراسات فى

---

(١) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى للقاهرة، ٢٣.

(٢) كلوت بك – لمحة عامة إلى مصر – القاهرة- مطبعة دار الموقف العربى، القاهرة ١٩٨٢-١٩٨٤، ١: ٣٥.

(٣) مصطفى بك فهمى: «عصر إسماعيل (القصور والمنشآت العامة والمتنزهات)»، مجلة العمارة، مجـ٥، العدد ٦، ٧، ١٩٤٥م، ٨.

التخطيط والتعمير الشامل ومعجزات فى إخراجها إلى حيز الوجود، فقد كانت القاهرة عندما تولى إسماعيل باشا عرش مصر تمتد من منطقة القلعة إلى ميدان العتبة والأزبكية وكان يفصلها عن النيل مجموعة من البرك والمستنقعات والتلال والمقابر، وكان الإنحلال العمرانى قد بدأ يدب فى كثير من أحيائها السكنية المقفلة وقد كان الحافز الأساسى لإهتمام إسماعيل باشا بتخطيط مدينته الجديدة حملة الدعاية التى قام بها كتاب الغرب عندما تولى إسماعيل باشا الحكم ونادى بأن القاهرة قطعة من أوروبا فوصفوا القاهرة بقولهم (خير لك أن تسمع عن القاهرة من أن تراها)، كما وصفها البعض بأنها (عاصمة البعوض التى يعيش زائرها طوال العام تحت الناموسية)، (ومن يشرب من ماء النيل مرة يعود إلى بلاده ليعالج مما حمله معه من أمراض) وقد اتفق ذلك مع انتشار حمى الملاريا التى فتكت بالمئات من سكان القاهرة وانتشار الحمى المعوية كما كانت مياه خزانات المجارى تطفح فى الشوارع والميادين فيضع الجمهور قوالب الطوب ليمروا فوقها، فقام إسماعيل بوضع تخطيط القاهرة الجديدة التى أطلق عليها كتّاب الغرب اسم (باريس الشرق) وذلك لتأثر تخطيطها فى كثير من نواحيه بالتخطيط الجديد الذى وضعه المهندس هاوسمان لباريس وقضى فيها إسماعيل باشا أيام شبابه ودراسته لذا فقد قام المهندس النمساوى الذى كلف بتخطيط القاهرة بنقل الكثير من عناصر تخطيط باريس ومعالم تعميرها إلى مشروع تخطيط القاهرة وذلك بناء على طلب إسماعيل باشا نفسه(١).

وقد جعل فى تخطيطها جميع شوارعها وحاراتها على خطوط مستقيمة أغلبها متقاطع على زوايا قائمة وجعلت منازلها منفردة عن بعضها ودكت أرض شوارعها وحاراتها بالدقشوم **وجعل فى جانب كل شارع وحارة استطراق للمشاة وجعل الوسط للعربات والحيوانات** ومدت فى جميعها مواسير الماء للشرب ولرش أرضها

---

(١) سيد كريم: القاهرة عمرها ٥٠ ألف سنة، القاهرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م، ١٤، ١٥.

وسقى بساتينها ونصبت بها فنارات الغاز لإضاءتها وتنويرها كما امتدت شبكة المجارى العمومية فيها والتى ضمت فى عهده جميع الأنحاء مما كان له أثر ظاهر فى الحالة الصحية فأصبحت من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها وسكنها الأمراء والأعيان[١].

وقد أطلق على هذا الحر الجديد الذى أقامه الخديو إسماعيل اسم حى الإسماعيلية ذلك الحى الذى كان موقعه قديمًا محله أرض اللوق وميدان الصالح نجم الدين والناصر محمد بن قلاوون وبستان الفاضل، وقبيل عهد الخديو إسماعيل كانت عبارة كثبان أتربة وبرك مياه وأراضى سباخ[٢].

وفى عهد الخديو إسماعيل خطت شوارع كلوت بك بين باب الحديد والأزبكية وتم فتح الطريق بين العتبة الخضراء وقلعة صلاح الدين وجعل من بركة الأزبكية حديقة غناء وافتتحت رسميًا فى عام ١٨٧٢م[٣]، كما شقت العديد من الشوارع سواء فى عهده أو عهد من سبقوه كما سبق وذكرنا عندما دعت الحاجة إليها تمهيدًا لسير المركبات عليها وسهولة استخدامها حتى تؤدى الهدف المرجو منها وهو سرعة الوصول للأماكن المختلفة بأقل وقت ممكن نذكر من هذه الشوارع ما يلى:

١ - **شارع شبرا:** يبدأ من ميدان رمسيس وينتهى فى شبرا الخيمة، وقد فتح فى سنة ١٨٠٨م حينما أنشأ محمد على قصر شبرا بقرية شبرا الخيمة فى شمال فم الترعة الإسماعيلية ليكون طريقًا بين اقاهرة وهذا القصر الذى اشتهر بحدائقه ونافوراته[٤]،

---

(١) عبد الرحمن زكى: «قاهرة إسماعيل العظيم»، مجلة العمارة، مجـ٥، العدد ٦ - ٧، ١٩٤٥م ٢٧، ٢٨، مصطفى فهمى: «عصر إسماعيل (القصور والمنشآت العامة والمتنزهات)»، مجلة العمارة- المجلد ٥- العدد ٦، ٧، ٨؛ محمد حسام إسماعيل، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل، ٢٥١.

(٢) عبد الرحمن زكى: «قاهرة إسماعيل العظيم»، ٢٧، ٢٨.

(٣) عبد الرحمن زكى: «قاهرة إسماعيل العظيم»، ٢٧، محمود فتحى: العمارة الإسلامية، ٥١٢، ٥١٣.

(٤) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٣٩.

وفى عام ١٨٨١ تم تمهيد شارع شبرا بالحجر الجيري، وتمت إنارته فى العام التالي بمصابيح الغاز[١].

٢- شارع الموسكى: فتح فى عهد محمد على[٢]، وهو يبدأ من آخر شارع السكة الجديدة بجوار القره قول (قسم الشرطة حاليًا) وآخره شارع العتبة الخضراء[٣] بين شارعى الأزهر والجيش (الأمير فاروق سابقًا) وهو يخترق حيا تجاريًا ويقطعه شارع الخليج المصرى (بورسعيد حاليًا)، ويسمى امتداده شارع السكة الجديدة حتى ميدان الأزهر ومسجد الحسين، وقد أطلق عليه فيما بعد شارع جوهر القائد[٤].

٣- شارع السكة الجديدة: افتتح فى زمن محمد على باشا سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٤م وكان يبدأ من عند ترب الغريب وينتهى بأول شارع الموسكى ويرجع السبب فى شقه إلى اتساع التجارة وكثرة سكن الاجانب ناحية الموسكى والأزبكية إضافة إلى زيادة عدد العربات والتى كان يصعب سيرها داخل الأزقة القديمة ومع كثرة شكوى التجار وغيرهم من ضيق الحارات وتعطل حركة التجارة فصدر أمرًا بشراء كافة الأملاك التى تقابل الشارع وشرع فى فتحه منذ عام ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٤م، وجعل عرضه ٨م تقريبًا بحيث يمر به جملان محملان دون مشقة، وذلك حتى ييسر دخول وخروج العربات وييسر حركة التجارة، وقد واستمر العمل به إلى عهد عباس باشا ثم إلى عهد الخديو إسماعيل صار ممتدا جهة الغريب ثم فى عهد الخديو توفيق عمل له رصيف حجرى ودكت أرضه[٥].

٤- شارع عبد العزيز: أنشئ فى عهد الخديو إسماعيل وسمى باسم الخليفة

---

(١) مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٥٢.

(٢) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤٢.

(٣) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ٣: ٨٤.

(٤) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤٢.

(٥) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ٣: ٨٢، ٨٣

السلطان عبد العزيز حينما زار مصر فى عهد الخديوي إسماعيل وهو يمتد من ميدان العتبة الخضراء وينتهى بميدان الجمهورية (عابدين سابقًا)(١).

٥- **شارع القلعة (محمد على سابقًا):** فتح عام ١٨٧٢م ويبدأ من ميدان العتبة الخضراء وينتهى عند مدرسة السلطان حسن وكان بأوله ترب الأزبكية وترب المناصرة، والتى أزيلت عند شقه حيث اخترق الشارع وسطها كما أزيلت عدة مساجد ومبان قديمة كان تحيط بتلك المقابر(٢)، وهو يمر بعدة أحياء قديمة وقد أقيمت واجهات المنازل التى تشرف عليه فوق بوائك مازال بعضها قائم للآن(٣)، ويشير المهندس والمؤرخ على باشا مبارك(٤) إلى إنشاء شارع محمد على البالغ طوله نحو ٢٠٠٠م، ويقول فى وصفه «إن هذا الشارع من أعظم ما عمل بمدينة مصر القاهرة إذ بوجوده حصل نفع كبير وفوائد جمة للعامة. وذلك كتنقية الهواء من الروائح الكريهة التى كانت توجب توالى الأمراض والأسقام على سكان الحارات والعطف التى قطعها – وبعد أن كانت جميع الجهات التى مر بها قليلة القيمة مشحونة بالقاذورات أصبحت بمروره منها عالية القيمة مرغوبة السكن».

٦- **شارع كلوت بك:** تم افتتاحه عام ١٨٧٢م فى عهد الخديو إسماعيل وسمى باسم الطبيب كلوت بك مؤسس مدرسة الطب بقصر العينى أيام محمد على، وهو يبدأ من ميدان رمسيس عند بداية شارع الفجالة (كامل صدقى اليوم) وينتهى بميدان الخازندار عند الطرف الشمالى الغربى لحديقة الأزبكية، وقد أقيمت واجهات منازله

---

(١) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٣٩.

(٢) على مبارك: الخطط التوفيقية لمصر، القاهرة – طبعة بولاق ١٣٠٥هـ، ٣: ٦٥، ٦٦، عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤٠، مها عبد الوارث: ركائب الخديو إسماعيل، ١٥٢.

(٣) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤٠، مها عبد الوارث: ركائب الخديوي إسماعيل، ١٥٢.

(٤) على مبارك باشا: الخطط التوفيقية لمصر، ٣: ٦٥، ٦٦.

فوق بوائك جميلة وكان به عدد من الفنادق الصغيرة[١]، وقد ذكر على باشا مبارك أن طوله يبلغ ٨٥٠م[٢].

٧- **شارع ٢٦ يوليو:** كان يعرف بشارع بولاق ثم عرف بشارع فؤاد الأول وأخيرًا عرف بشارع ٢٦ يوليو، وهذا الشارع يبدأ من ميدان الخازندار ثم حديقة الأزبكية ويمتد مارًا بدار القضاء العالى فجمعية الإسعاف فمسجد أبى العلاء فكوبرى ٢٦ يوليو ثم يخترق حى الزمالك مارًا بنادى ضباط الجيش وينتهى عند كوبرى الزمالك[٣].

٨- **شارع العباسية:** أحد شوارع القاهرة التى فتحت فى أواخر القرن ١٩م، وهو يبدأ من ميدان الجيش عند الحسينية وينتهى عند نفق العباسية حيث يبدأ شارع ٢٣ يوليو، ويتفرع منه عدة شوارع هامة تؤدى إلى العباسية الشرقية ويحتوى هذا الشارع على العديد من المدارس والمستشفيات[٤].

٩- **شارع قصر العينى:** يبدأ من ميدان التحرير وينتهى عند فم الخليج، وقد فتح فى القرن ١٩م ويتفرع منه عدة شوارع جانبية كما يطل عليه العديد من المبانى الحكومية[٥].

١٠- **شارع قصر النيل:** يبدأ من ميدان التحرير ويقطع ميدان طلعت حرب (سليمان باشا سابقًا) ومصطفى كامل (سوارس سابقًا) وينتهى بميدان الأوبرا عند مسجد الكيخيا وبه عدد من المحلات التجارية والبنوك والمؤسسات الحكومية ومن أشهر مبانيه عمارة الايموبيليا[٦]، وكان أول من فكّر فى تعمير هذا الشارع القائد

---

(١) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤١.

(٢) على باشا مبارك: الخطط التوفيقية، ٣:.١١٢

(٣) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٣٧.

(٤) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٣٩.

(٥) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤٠.

(٦) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤٠.

إبراهيم باشا الأول، ويبلغ طول هذا الشارع ١٢٥٠م[١].

١١- شارع محمد فريد (عماد الدين سابقًا): يمتد من شارع رمسيس وينتهى عند الناصرية مارًا بميدان مصطفى كامل وحى عابدين، وهذا الشارع شق محل الشاطئ الشرقى الأصلى للنيل، وينسب إلى عماد الدين غلام صلاح الدين الأيوبى، أما محمد فريد فهو السياسى المصرى الذى خلف مصطفى كامل فى رئاسة الحزب الوطنى[٢]، ويبلغ طول هذا الشارع ١٧٢٠م[٣].

١٢- شارع الخليج المصرى: كان محله الخليج المصرى الذى كان يمد القاهرة بالماء حتى القرن ١٩م حتى أنشئت شركة مياه القاهرة، وفى عام ١٨٩٦م اشتركت شركة ترام القاهرة مع الحكومة فى ردمه ومد به خط الترام الذى يصل ما بين غمرة وباب الشعرية وميدان أحمد ماهر وعابدين والسيدة زينب إلى المدبح، وفى ٢٦ أغسطس ١٩٣٧م صدر مرسوم بتوسيع شارع الخليج المصرى وتم العمل على عدة مراحل انتهت عام ١٩٥٣م[٤] وهو يعد من أطول شوارع القاهرة ويبدأ من ميدان أبو الريش بالسيدة زينب وينتهى فى غمرة.

١٣- شارع الجيش: فتح فى أول الثلاثينات وكان يسمى شارع الأمير فاروق ثم استبدل فى الأيام الأولى لثورة ٢٣ يوليو بشارع الجيش، وهو يبدأ من شمال ميدان العتبة الخضراء ويخترق حى باب الشعرية إلى أن يصل إلى مسجد الشعرانى عند الميدان ملتقيًا شارع الخليج المصرى ثم يستكمل امتداده إلى ميدان الجيش فى أول حى العباسية[٥].

---

(١) عباس الطرابيلى، شوارع لها تاريخ، طبعة خاصة أصدرتها الدار المصرية اللبنانية ضمن مشروع مكتبة الأسرة، ٥٣، ٥٥.

(٢) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٤١.

(٣) عباس الطرابيلى، شوارع لها تاريخ، ٥٥.

(٤) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٣٨.

(٥) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ١٣٧، ١٣٨.

إنشاء الكبارى والجسور

كانت القناطر قديمًا تمثل الكبارى فى العصر الحديث وقد ارتبطت ارتباط وثيق بالشوارع فى القاهرة إبان القرن التاسع عشر وما قبله حيث كان يمكن من خلالها المرور من شارع إلى آخر أو من حى إلى آخر إذا اعترضت ذَلِكَ مجارى المياه، وهو نفس السبب ذاته الذى من أجله أنشئت الكبارى فى العصر الحديث، وقد كان المجريين الرئيسيين فى القاهرة إضافة إلى النيل الخليج المصرى (خليج أمير المؤمنين) والخليج الناصرى، وقد فضَل الناس السكنى طول ضفاف هذين الخليجين الذين كانا يشقان القاهرة ويحيطانها فى ذات الوقت حَتَّى يتلاقيا عند منطقة الأميرية بالقرب من باب الشعرية وكان للطف هوائهما ولجمال منظرهما ورحابة البساتين التى تحف بهما أثر كبير فى تكدس العمران حولهما وهو ما انعكس بالتالى على ضرورة بناء وتشييد القناطر على هذه المجارى بداية من العصر الأموى وحتى ردمهما على العصر الحديث ومن أهم أمثلة القناطر كانت قنطرة عبد العزيز بن مروان وقنطرة السد وقناطر السباع.... الخ[١].

كما كانت الجسور قديمًا تقوم بنفس مهمة الكبارى أيضًا حيث أقيمت لسهولة الاتصال بين شاطئي النيل وبين الجزر وشاطئ النيل أو أى موقع آخر، وقد وجدت هذه الجسور منذ زمن الفتح العربى بين جزيرة الروضة وموقع بابليون، وبين الجزيرة وشاطئ النهر الأيسر وكان الروم قد قطعوا هذين الجسرين ثم أعاد العرب بناءهما زمن الخليفة المأمون فى سنة (٢١٠هـ/ ٨٢٥م) كما أصلحهما المعز لدين الله فى سنة (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م) والسلطان الظاهر بيبرس فى سنة (٦٦٤هـ-١٢٦٥م)[٢] وقد أعيد استخدام هذه الجسور زمن الحملة الفرنسية حيث وجد هذين الجسرين موقعين على

---

(١) إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣١.

(٢) جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ٣٣٤، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٥، ٨٣٦.

خريطة الحملة الفرنسية لجزيرة الروضة ومصر القديمة، وقد قام الفرنسيون فى شهر شوال سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٧م بعمل جسرًا من مراكب مصطفة وعليها أخشاب مسمرة من بر مصر بالقرب من قصر العينى إلى الروضة قريبًا من موضع طاحون الهوا تسير عليه الناس بدوابهم وأنفسهم إلى البر الآخر كما عملوا جسرا عظيمًا من الروضة إلى الجيزة(١).

وفى القرن التاسع عشر وبالتحديد فى عهد الخديو إسماعيل تم عمل الكبارى الجسيمة على النيل والجزر التى تتخلله وهذه الكبارى كانت حديثة بكل معنى الكلمة وكانت تهدف إلى تحقيق أكبر قدر من خدمة الناس ومنفعتهم(٢)، فقد كانت الكبارى ذات أهمية كبيرة فى تسهيل طرق النقل والمواصلات وجعلها سهلة وميسرة بما تسببه من خفض مستوى تكدس العربات بالشوارع وكانت معظمها أنشئ على النيل لتسهيل عبور المشاة والمركبات من وإلى شاطئي النيل ولولا تطور وسائل النقل والمواصلات ما دعت الحاجة إلى التفكير فى إنشاء تلك الكبارى والتى نذكر منها على سبيل المثال:

١- **كوبرى قصر النيل**: أنشئ فى عهد الخديو إسماعيل فى الفترة من سنة ١٨٦٩- ١٨٧٢م ليصل القاهرة بشرق الجزيرة الوسطى(٣)، حيث عهد إلى شركة " Fives lille" الفرنسية بتنفيذ هذه الفكرة(٤) بشأن أعمال كوبرى على بحر النيل ليصل بين الجيزة وقصر النيل بمبلغ وقدره مليونان وسبعمائة وخمسون ألف فرنك(٥)، وقد

---

(١) الجبرتى: عجائب الآثار، ٤: ٢١٩، ٢٢٠، إبراهيم صبحى:أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦.

(٢) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة،٨٣٦.

(٣) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧م، ٣٢٥.

(٤) أمين سامى: تقويم النيل، ٣/ ٢:٨١٥، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦، ٨٣٧، عباس الطرابيلى، شوارع لها تاريخ، ٦٠.

(٥) أمين سامى: تقويم النيل، ٣/ ٢: ٨١٥، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦، ٨٣٧.

تكلَف نحو ١٠٥ آلاف من الجنيهات على[1].

ويعد هذا الكوبرى هو أول كوبرى يشيد على نيل القاهرة فمع إنشاء سراى الجيزة لم يعد من اللائق إبقاء العبور من شاطئ إلى شاطئ على صف من المراكب المربوطة بعضها إلى بعض ممدود عليها ألواح من الخشب فأصبح من الضرورى إنشاء كوبرى يتناسب مع فخامة الأحياء التى سيربط[2].

وقد افتتح الكوبرى رسميًا فى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٢ وبلغ طوله ٤٠٦ مترًا[3] وعرضه ١٠ متر ونصف المتر منها ٣ متر للأفاريز وله فتحتان ملاحيتان ويدار الجزء المتحرك منه باليد.

وقد صنعت الأربعة أسود لوضعهم على رأس الكوبرى من البرونز فى إيطاليا[4]، وقد بلغت أثمانهم ومصاريفهم بلغت ١٢٨٦ كيسة[5].

وفى عام ١٩٢٠ تمت عملية ترميم شامل لجسم الكوبرى وفى أول سنة ١٩٣١ توقف المرور من على هذا الكوبرى واقتضت الضرورة وضع مشروع الكوبرى الجديد فى إطار التنفيذ ووضع الملك فؤاد حجر الأساس فى ٤ فبراير سنة ١٩٣١ وافتتح فى مارس سنة ١٩٣٣[6]، وكان هذا المشروع يهدف إلى توسعت الكوبرى بما

---

(١) إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عصر الخديوى إسماعيل باشا، ١٥٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦.

(٢) إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عصر الخديوى إسماعيل باشا، ١٥٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦.

(٣) أمين سامى: تقويم النيل، ٣/ ٢: ١٢٧٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٧، عباس الطرابيلى، شوارع لها تاريخ، ٦٠.

(٤) أمين سامى: تقويم النيل، ٣ / ٣: ١٢٧٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٧.

(٥) كانت كل كيسة تحتوى تقريبًا على خمسة جنيهات (إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٧).

(٦) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧م، ٣٢٥، إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عصر الخديوى إسماعيل باشا، ١٥٣، إبراهيم صبحى=

يتناسب مع ظهور السيارات ووسائل المواصلات الأخرى، وقد سهَل هذا الجسر الذهاب إلى النادى الخديوى (نادى الجزيرة)[١]، وقد أصبح طوله بعد التجديد حوالى ٣٨٢م و ٢٠سم وعرضه ٢٠م[٢].

٢- كوبرى الزعفرانى: أنشئ على الخليج الزعفرانى ليربط منطقة غمرة بمنطقة الظاهر وكان يعلو خطوط السكك الحديدية المتجهة نحو المطرية وكان هذا الخليج يسير محازيًا لخطوط السكك الحديدية فى هذه المنطقة ولذلك كان الكوبرى يسمى أحيانًا بكوبرى الخليج الزعفرانى[٣]، وكان ينحصر بين محطتى كوبرى الليمون ومحطة الدمرداش وقد بلغ طوله ٣٠ متر وعرضه حوالى ١٠ متر بخلاف الإفريزين وكان من المعدن وقد تم عمله فى الفترة ما بين سنتى ١٨٨٠ – ١٨٨٥م[٤].

٣- كوبرى إمبابة: يقع شمال كوبرى بولاق أبو العلا (٢٦ يوليو) ليصل القاهرة بمحافظات الوجه القبلى، أنشئ بين عامى ١٨٨٨ – ١٨٩٠م[٥]، وهو أحد الإنشاءات المرتبطة بالسكك الحديدية حيث أنشأ لربط خطوط سكك حديد الوجه البحرى بخطوط سكك حديد الوجه القبلى حيث تم استحضار اثنين من المتضلعين فى الحسابات الرياضية من أوربا للمساعدة فى رسم الكوبرى واختيار أفضل العطاءات المقدمة من الدول الأوربية من أجل إقامة هذا الكوبرى للمنافع العمومية وتم

=السيد غندر ثابت: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦، ٨٣٧، غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة، القاهرة – دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١٦ م، ٢٦١، ٢٦٠.

(١) إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عصر الخديوى إسماعيل باشا،١٥٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٦.

(٢) عباس الطرابيلى، شوارع لها تاريخ، ٦٢.

(٣) دار الوثائق القومية: وزارة الأشغال العمومية، محفظة ٨/ ٨/ أ أشغال، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٨٣٩.

(٤) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ص٨٣٩.

(٥) دار الوثائق القومية: محفظة ٣/ ب سكك حديد، عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ٣٢٥، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٨٣٨، ٨٣٩.

الاستغناء بهذا الكوبرى عن المعدية البخارية التى كانت تعبر القطارات النيل من خلالها وتكلف إنشاء الكوبرى وبعض الأعمال المكملة لذلك مبلغ ٣٠٠.٠٠٠ جنيه تم اقتراضه من أوربا وتم تخصيص مساحة من الأرض قدرت بنحو ٣٢٦ مترًا وذلك من أجل إتمام الأعمال الإنشائية للكوبرى تم نزع ملكيتها من أصحابها للمنافع العمومية وتم تعويضهم عنها وصنع هذا الكوبرى بأكمله من الحديد وهو الكوبرى الوحيد الذى تدار فتحاته الملاحية بالكهرباء(١)، وقد أعيد إنشائه ١٩١٢-١٩٢٥م، ويمر بأسفله شارع كورنيش النيل(٢)، وكان طوله يصل إلى ٤٩٠م وعرضه ٩م وحمولته ٣٠ طن وخصص الدور العلوى منه للمشاه والنقل البطئ، وكان هذا الكوبرى يصل القاهرة بمحافظات الوجه القبلى(٣).

٤- **كوبرى محمد على:** وهو من ضمن الكبارى التى أنشأت فى مطلع القرن العشرين وقد أنشأ لوصل القاهرة بجزيرة الروضة عند القصر العينى، وبلغ طول هذا الكوبرى ٦٧ متر على ثلاث فتحات وأسسه عبارة عن اسطوانات عملت بطريقة الضغط الجوى ويصل هذا الكوبرى الآن مستشفى قصر العينى بمستشفى فؤاد الأول وقد سمى بكوبرى محمد على نسبة إلى الأمير محمد على ابن الخديوى توفيق الذى بنى قصره هناك وقد أنشأ هذا الكوبرى فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى سنة ١٩٠٨ ويبلغ عرض الكوبرى ١٥ مترًا منها ١٢ متر لبحر الطريق و١.٥ متر عرض كل إفريز من الإفريزين وقد بلغت تكاليفه ١٦.٥٠٠ جنيه(٤).

٥- **كوبرى عباس:** أقيم عام ١٩٠٨م فى عهد الخديوى عباس باشا حلمى

---

(١) دار الوثائق القومية: محفظة ٣/ ب سكك حديد، إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة، ٨٣٨، ٨٣٩.

(٢) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ٣٢٥.

(٣) غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة، ٢٦٠.

(٤) دار الوثائق القومية: محفظة ٨/ ٨/ ب أشغال، إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة، ٨٣٩.

الثانى[١] على النيل لوصل جزيرة الروضة بالجيزة، وقد بلغ طول الكوبرى ٥٣٥ وله ثمان فتحات ثابتة طول كل منها ٤٢.٧٦ مترًا وله أيضًا فتحتان طول كل منهما ٤٣.٥٣ مترًا وفتحتان أخريان طول كل منهما ٢٠.٥٧١متر ثم له بعد ذَلِكَ فتحة ملاحية متحركة طولها ٦٥.٦٤ متر ويبلغ عرض هذا الكوبرى ٣٠ مترًا منها ١٥ متر لبحر الطريق ومتران ونصف عرض كل إفريز من الإفريزين ويمر عليه شريط مزدوج من أشرطة الترمواى الموصلة للجيزة وقد تكلفت عملية إنشائه ١٨٠.٠٠٠ جنيه[٢]، وقد رمم سنة ١٩٦٠ ثم هدم عام ١٩٦٦ لإقامة كوبرى آخر جديد مكانه[٣].

٦- **كوبرى الملك الصالح**: أنشئ لوصل القاهرة عند دير النحاس بالقرب من منطقة مصر القديمة بجزيرة الروضة وصار تسلمه من السير ويليام أورل فى عهد سمو الخديوى عباس باشا حلمى الثانى سنة ١٩٠٨ وبلغ طوله ٨٣ متر ويتكون من ثلاث فتحات واسعة عبارة عن اسطوانات خرسانية عملت بطريقة الضغط الجوى وكان عليه شريط مزدوج من أشرطة الترامواى الموصلة للجيزة عبر كوبرى عباس، وقد بلغ عرضه ١٥م منها ١٢ لبحر الطريق وثلاثة أمتار لكل إفريز من الإفريزين وبلغت تكاليف إنشاءه ١٩٥ ألف جنيه[٤].

٧- **كوبرى بولاق أبو العلا (٢٦ يوليو)**: كان يسمى أحيانًا كوبرى الساحل وأنشئ فى سنة ١٩٠٦ وكان بهدف الربط بين منطقة بولاق أبو العلاء وجزيرتها (الزمالك) وكان هذا الكوبرى يمتد من آخر شارع بولاق أبو العلا (فؤاد سابقًا)

---

(١) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ٣٢٦، فرج، فؤاد: القاهرة، تاريخ المدن القديمة ودليل المدينة الحديثة، القاهرة: مطبعة المعارف بمصر ١٩٤٤م، ٢: ٣٨٨: ٣٨٩، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ٨٤٠.

(٢) فؤاد فرج: القاهرة، جـ٢، ص٣٨٨: ٣٨٩، إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة، ص٨٤٠.

(٣) عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٧م، ٣٢٦.

(٤) إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة، ٨٤٠.

ويعبر النيل ليصل إلى الزمالك وقد راعت مصلحة التنظيم فى ذَلِكَ توسيع آخر الشارع وجعله ميدانًا واسعًا حَتَّى يتمكن من استغلال هذا الكوبرى على أكمل وجه[١] كما تم إنشاء رصيف على ساحل النيل ببولاق أيضًا لموافقة ذَلِكَ الأعمال الإنشائية التى تتم فى الكوبرى وقد تم نزع الأملاك اللازمة لهذه الأعمال وبلغت مساحتها ٩١٣٢ متر تقريبًا وصمم هذا الكوبرى مسيو لسنى وساعده كل من رابوت مهندس الجسور والكبارى بباريس والمهندس بنيامين باكر وتم إنشاء الكوبرى بالفعل وافتتح للجمهور وكانت تمر عليه إضافة إلى المشاة خطوط الترمواى التى تصل بولاق بالقاهرة والزمالك وكان بكوبرى أبو العلا فتحتان ملاحيتان يستعملان وقت الحاجة لعبور المراكب فى النيل بهذه المنطقة[٢]، وكانت حمولته ٢٠ طن، طوله ٢٧٥م، عرضه ١٢م، وكان له ٦ فتحات ثابتة[٣].

٨- **كوبرى الزمالك:** أقامته شركة فيف - ليل سنة ١٩١٢م على فرع النيل الغربى، كانت حمولته ٢٠ طن، طوله ١٢٥م، وعرضه ١٢م، طول كلا من فتحتيه الملاحيتين ٢٠م والثابتتين ٢٨م وسمك الأرضية الخرسانية ٢٨سم[٤].

٩- **كوبرى الجلاء (كوبرى البحر الأعمى):** أنشئ هذا الكوبرى عام ١٨٧٢[٥] وهو يقابل كوبرى قصر النيل على الفرع الغربى للنيل ويصل الجزيرة بالجيزة، وقد أنشأه مسيو غازة مهندس القومبانية الفرنساوية المعروفة فيف ليل[٦]، وقد أعيد بناء

---

(١) دار الوثائق القومية: محفظة ٨/ ٨/ د أشغال، إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة، ٨٣٨.

(٢) دار الوثائق القومية: محفظة ٨/ ٨/ و أشغال، إبراهيم صبحى، أعمال المنافع العامة، ٨٣٨.

(٣) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ٣٢٥.

(٤) عبد الرحمن زكى: موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام، ٣٢٦.

(٥) إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عصر الخديوى إسماعيل باشا، ١: ١٥٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٨.

(٦) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٨.

هذا الكوبرى بمعرفة شركة كليفلا الهندسية سنة ١٩١٤م[١] وسمى كوبرى الإنجليز[٢]، وقد كان طوله يبلغ حوالى ١٢٠م وعرضه ١١.٩م ويتكون من حارتين لكل اتجاه وعرض رصيف المشاه ٣.٦م وحمولته ٣٠ طن[٣]، وقد اشتهر بكوبرى بديعة حيث كان كازينو بديعة مصابنى فى موقع شيراتون القاهرة وعقب ثورة يوليو أطلق عليه كوبرى الجلاء[٤].

الفصل الرابع: الأثر الحضارى لنشأة خطوط السكك الحديدية والترام

مع تطور القاهرة العمرانى بداية القرن العشرين تم نشأة الخطوط الأساسية للشبكة الحديدية المصرية ثم تم إدخال شبكة الترام ذلك أن العلاقة وثيقة بين وسائل النقل والمواصلات ونمو المدن، وقد كان للتطور الهائل فى وسائل المواصلات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أثره الكبير فى تحديد ورسم خريطة النمو العمرانى واتجاهاته فى القرن العشرين خاصة شبكة حديد الضواحى التى امتدت من القاهرة[٥].

وقد عرفت مصر السكك الحديدية فى بدايتها الأولى واستفادت منها بشكل كبير حيث ساعدت على زيادة النمو العمرانى والإقتصادى بالمناطق التى مرت بها[٦]، وقد

(١) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٨، عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة، ٣٢٥.

(٢) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٨.

(٣) غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة، القاهرة - دار الكتب والوثائق القومية ٢٠١٦ م، ٢٦٠.

(٤) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ٨٣٨.

(٥) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ٢٥، ٢٦.

(٦) عبد الرحمن محمد عبد القادر موسى: عمارة السكك الحديدية فى مصر (دراسة توثيقية)، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الهندسة، قسم العمارة، جامعة القاهرة، مارس٢٠٠٧م، ٨٨، محمد أمين حسونة: مصر والطرق الحديدية، ١٩٣٨م، ١٤٨.

أنشئ أول خط للسكك الحديدية سنة ١٨٥٤م[١] وبهذا تعتبر مصر أول دولة فى الشرق الأوسط تدخل نظام النقل بالسكك الحديدية كما تعتبر أول مملكة إفريقية استخدمت السكك الحديدية[٢].

وقد كان للتطور الهائل الذى حدث فى وسائل النقل والمواصلات وما صاحبه من تطور فى الطرق المختلفة التى مهدت لأجل إنشاء وسائل النقل الحديثة أثره الكبير فى نمو المدن وتطورها ويمكن القول أن النقل أحدث إنقلابا كبيرًا فى المجتمع وأثر فى نموه المعمارى والعمرانى وأصبحت المدينة تقاس فى كل مكان بمدى سهولة المواصلات وإنتشارها، كما أن خدمات النقل والمرور لا يمكن لها أن تتحقق دون وجود تكامل بين وسائل النقل والمرور المختلفة داخل المدينة[٣].

هذا وإنه لا يمكن نكران فضل الخديوى إسماعيل باشا على النقل والمواصلات فى مصر بصفة عامة والسكك الحديدية بصفة خاصة حيث كان بداية عهده فى الحقيقة هو البداية الفعلية للتطور الذى تتمتع به مصر الآن فى وسائل النقل والمواصلات حتى ليمكن القول بأن ما أنشأه من خطوط حديدية كانت الأسس التى بنيت عليها الخطوط فى العهود التالية وخاصة فى عهد الإحتلال البريطانى والتى كانت غالبيتها

---

(١) عبد الرحمن موسى: عمارة السكك الحديدية فى مصر، ٤٣، ٤٤، أبو الفتوح قطامش: حول السكك الحديدية والبلاد العربية، مجلة سكك حديد الحكومة المصرية، يناير ١٩٥٦م، ١٣.

(٢) عبد الرحمن موسى: عمارة السكك الحديدية فى مصر، ٤٤، لبيب أفندى عبد الله أمين: تطور النقل والمواصلات، مجلة سكك حديد الحكومة المصرية، يناير ١٩٣٨م/ ٤٦.

(٣) على فهمى الداغستانى: النقل، مجلة سكك حديد الحكومة المصرية، عدد إبريل ١٩٥٧م، ٩، للمزيد من المعلومات عن السكك الحديدية انظر (كتاب جغرافية النقل فى مصر، مجموعة من العلماء من بينهم أ.د محمود عبد اللطيف عصفور،ود. سعيد أحمد عبده، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦م)، عبد الرحمن موسى: عمارة السكك الحديدية فى مصر، ١، إسراء أسامة محمد: العلاقة بين شبكة مسارات المشاة وشبكة مترو الأنفاق (دراسة حالة منطقة شبرا- القاهرة)، رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة، جامعة حلوان، قسم العمارة، ٢٠٠٢م، ١٣، C.S papacortas & P.D. prevedouros- Transportation Engineering and planning. 1993, p251

تفرعات من خطوط إسماعيل[١].

فقد أمر بإنشاء سكة حديد حلوان فى شوال ١٢٨٨هـ/ ١٨٧٢م[٢]، ثم أصدر أمرا إلى ناظر الجهادية ومحافظة مصر فى ٢ جمادى الأول ١٢٩٣هـ/ ٢٦ مايو ١٨٧٦م بالإسراع فى إنشاء محطة لها بميدان محمد على واستعملت وجرى عليها الوابور فى ٦ محرم ١٢٩٤هـ/ ٢١ يناير ١٨٧٧م، كان أولها ميدان محمد على بقرة ميدان تجاه مصطبة المحمل، فمقابر سيدى جلال إلى شرق الإمام الشافعى إلى محطة البساتين فمحطة طرا شرقى المبانى العسكرية التى أنشأها إسماعيل فمقابر منطقة طرا الأسمنت الحالية التى كانت لعمال المحاجر المجاورة فى العصر المصرى القديم ثم محطة المعصرة فمحطة حلوان[٣]، وفى ٣٠ إبريل ١٨٨٨م أصدر الخديوى إسماعيل أمرا بإنشاء خط يوصل فرع عين الصيرة بسكة الميدان القديمة وإعتبار هذا الفرع من المنافع العمومية كما أمر بنزع ملكية الآراضى اللازمة لعمل هذه الوصلة[٤].

كما صدر أمر آخر فى ٣سبتمبر ١٨٩٠م يتضمن وصل نهاية الفرع الموصل بين محطة السيدة زينب ومحاجر عين الصيرة بسكة الميدان القديمة[٥].

ويعتبر خط سكة حديد حلوان من أهم الخطوط حيث يصل هذا الخط ما بين

---

(١) فاطمة علم الدين عبد الواحد: تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الإحتلال البريطانى (١٨٨٢-١٩١٤م)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (مصر النهضة)، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م، ٤٧.

(٢) تم مد خط حلوان ١٨٧٣م (فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ص٢٥)، مصطفى فهمى:عصر إسماعيل،مجلة العمارة، ٩.

(٣) على مبارك: الخطط التوفيقية، ٣: ١٠٦، ١٠: ٨٠، ٨٢، أمين سامى: تقويم النيل، ٣/ ٣: ١٣٣٨، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٥٨، حسام إسماعيل، مدينة القاهرة من ولاية محمد على إلى إسماعيل، ٣١٨.

(٤) دار الوثائق القومية: منافع عامة، القاهرة، مجلس وزراء نظارة أشغال، رقم المحفظة (٨/ ٨/ أ)/ رقم المجموعة(٣٨١ أشغال)، التاريخ (٢/ ١٠/ ١٨٩٠م).

(٥) دار الوثائق القومية: رقم المحفظة (٨/ ٨/ أ).

القاهرة وحلوان مبتدئا من محطة الميدان بجوار القلعة، وكان طول هذا الخط ٢٥كم.

وينحصر تاريخ الخط فى خمس فترات مختلفة بيانها كالتالى:

الفترة الأولى: وهى من سنة ١٨٧٣: ١٨٧٩م وهى فترة الخط الحربى وسمى بذلك لأن الخديوى إسماعيل مد هذا الخط لخدمة المصانع الحربية بالقلعة وطرة مارا بالبساتين عن طريق المعادى[١] وقد اقتصر استعماله على خدمة الجيش ثم أنشأت السلطة المحلية محطة الجبخانة حيث يتفرع خط معمل البارود خلف القلعة ومحطة البساتين ومحطة المعادى الأولى على النيل ثم محطة طرة البلد، ولما اتضحت للحكومة فوائد منطقة حلوان سنة ١٨٦٨م رأى الخديوى تسهيلا لإستغلالها مد هذا الخط إلى حلوان الحمامات وتم ذلك سنة ١٨٧٥م بمعرفة الجيش وبدئ فى استغلاله سنة ١٨٧٧م وجعلت محطته الرئيسية بميدان القلعة حيث محطة الميدان وخصص قطاران للركاب أحدهما يسير من محطة الميدان إلى حلوان والآخر يسير من محطة مصر إلى حلوان عن طريق العباسية[٢] وقد ألغى خط سير القطار الثانى بعد ثلاثة شهور لعدم الإقبال عليه واقتصر دوره على خدمة الجيش بمنطقة العباسية[٣].

الفترة الثانية: من سنة ١٨٧٩: ١٨٨٨م وفيها حدثت الأزمة المالية وتنازل إسماعيل باشا عن العرش فقررت الحكومة وقف الإنفاق على هذا الخط وسلمت إدارته لنظارة الأشغال العمومية ولقد كان للإدارة الحربية التى تولت مد الخط إلى حلوان فضل إنشاء مبانى محطات الميدان وطرة وحلوان المستعملة إلى اليوم ويوجد فى محطة الميدان أثر ورشة للوابورات ومعالم صينية لتدويرها قطرها ١٣م وقد أحيطت المحطة بسور أقيم جزءه الغربى فوق سور مصر القديم وقد تفرع من هذا الخط عند

---

(١) دار الوثائق القومية: محفوظات مجلس الوزراء، محفظة (٣/ى)/ وثيقة ٣، ٤، ٦، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة بالقاهرة، ١١٧.

(٢) فؤاد فرج: القاهرة، ١: ١٤٠، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١١٧.

(٣) دار الوثائق القومية: محفوظات مجلس الوزراء، محفظة (٣/ أ)، وثيقة ٣.

محطة الجبخانة والمواصلة خطوط موصلة للمحاجر يقطعها عند محطة طرة والمعصرة خطوط حديدية واصلة بين محاجر طرة والمعصرة وبين النيل وقد كانت القضبان المستعملة فى هذا الخط من الحديد ومركبة على القصع(١).

أما الفترة الثالثة: فى ٣٠ إبريل سنة ١٨٨٨م إلى ١٠ يونيو ١٩٠٤م وفيها أصدر مجلس النظار قرارًا بمنح إمتياز خط حلوان الممتد من محطة الميدان إلى محطة حلوان الحمامات مع إنشاء خط حديد بين المعادى وباب اللوق مارا بالبساتين أو بالقرب منها وبمصر القديمة وبمدافن الإفرنج (فم الخليج) إلى بعض رجال الأعمال(٢) وعلى رأسهم قطاوى وولده وأولاد منشة وإخوان سوارس واحتفظت الحكومة بالحق فى إلزام هذه الشركة بإيصال الخط اسلجديد المطلوب تنفيذه بين المعادى وباب اللوق فى أى وقت تشاء لغاية باب الحديد على أن يمر فى المناطق التى تعينها الحكومة بمعرفتها على حساب الشركة الخاص وهو الحق الذى لم تستعمله الحكومة وبالتالى لم يتصل خط حلوان بمحطة مصر وسلمت الحكومة للشركة محطات الميدان والبساتين والمعادى وطرة والمعصرة وحلوان واحتفظت لنفسها بخطوط مخازن معامل البارود المتفرعة عند محطة الجبخانة وبالخطوط الواصلة بين المحاجر والنيل والمتقاطعة مع خط حلوان بالقرب من طرة وبالقرب من محطة التحويلة المعروفة الآن بطرة الأسمنت وفى أول مايو سنة ١٨٩٦م تنازل أصحاب الإلتزام عن استغلال خط حلوان وملحقاته إلى شركة أسسوها هم أنفسهم تحت اسم شركة سكة حديد القاهرة حلوان وصدر بذلك مرسوم خديوى فى سنة ١٨٩٠م برأس مال قدره ١٢٠.٠٠٠جنيه وكانت مدة الإمتياز ٥٠ سنة تتم الشركة فيها فندق حلوان والحمامات الكبريتية وتوابعها بحلوان وتبقى كل هذه الأعمال ملكا للحكومة بعد انتهاء فترة الإمتياز(٣) وقد قامت هذه

---

(١) إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١١٨.

(٢) فؤاد فرج: القاهرة، ١: ١٤١، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة.

(٣) فؤاد فرج: القاهرة، ١: ١٤٢، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١١٨.

الشركة بمجموعة من الأعمال وهى:

١- مدت الخط بين محطة المعادى وباب اللوق.

٢- تم إنشاء محطات مارجرجس ومصر القديمة واسمها الآن محطة المدابغ ومحطة البساتين والتى سميت محطة الساحل القبلى فيما بعد ومحطة المدافن واسمها الآن محطة فم الخليج[1]. ص١١٨

٣- تم مد الخط من المعادى إلى طرة وتم مد الخط من البساتين إلى طرة.

٤- تم مد الخط بين محطة السيدة زينب ومحطة المواصلة مارا بعين الصيرة وترتب على ذلك اختراق سور مجرى العيون عند مخزن سلخانة القاهرة.

٥- عدلت تخطيط خط حلوان فى المسافة بين محطة المعصرة وحلوان.

٦- مدت الشركة الخط بين محطة حلوان والنيل وهو الخط المسمى بخط كفر العلو.

وقد بدأت الشركة فى مد الخط بين باب اللوق والمعادى سنة ١٨٨٩م وجعلته مفردا بين باب اللوق والسيدة زينب ومزدوجا بين السيدة زينب ومحطة الساحل القبلى (عند الكيلو ٦) ثم مفردا إلى طرة وحلوان وشيدت المحطات الآتية:

١- محطة باب اللوق والتى هدمت وكانت مبدأ الخط وشغلت جزءا من شارع القاصد بعد إلغائه بأمر عال صدر فى ٥/ ٢/ ١٨٨٩م.

٢- محطة السيدة زينب القديمة وبها ورشة للقطارات البخارية وحوش لتخزين العربات وتنظيفها ومنها يتفرع خط عين الصيرة المواصلة فالميدان.

٣- محطة فم الخليج وكانت تسمى فى الأصل محطة المدافن.

٤- محطة مارجرجس.

٥-محطة المدابغ وكانت تسمى فى الأصل محطة مصر القديمة.

٦- محطة الساحل القبلى (البساتين) وقد ألغيت الآن.

(١) دار الوثائق القومية: محافظ عابدين، محفظة ٣١٩، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١١٨، ١١٩.

٧- محطة المعادى القديمة.

وكانت تسير على الخط بين باب اللوق والسيدة زينب وعين الصيرة بعض القطارات للركاب فى أيام الأعياد والمواسم أما فى باقى الأيام فكان استعمال هذا الخط قاصرا على البضائع ونقل القطارات إلى العنابر ببولاق لإصلاحها عن طريق خط المحاجر المار بالعباسية وأحاطت الشركة الخط من باب اللوق إلى محطة المدابغ وهو الجزء الواقع داخل الحيز العمرانى بأسوار من الخشب أو البناء وكان بين محطة باب اللوق ومحطة حلوان مجازات (مزلقانات) مخفورة بخفراء يحملون الإشارات الحمراء والخضراء لمنع التصادم بين القطارات والمارة وبيانها كالتالى:

(مزلقان شارع الشيخ ريحان- شارع مدرسة المبتديان- شارع مدرسة الطب- شارع فم الخليج- أرض السادات- مزلقان جامع عمرو- مزلقان مارجرجس- مزلقان المدابغ- مزلقان الساحل القبلى- مزلقان المعادى- مزلقان طرة- مزلقان المعصرة- مزلقان حلوان)(١).

أما الفترة الرابعة: وهى من ١٠ يونيو سنة ١٩٠٤م إلى يناير ١٩١٥م وفيها تنازلت شركة سكة حديد القاهرة حلوان عن حق امتيازها فى استغلال خط حلوان وتوابعه وفى استغلال الحمامات الكبريتية والفندق والكازينو وميدان سعيد إلى شركة سكة حديد الدلتا ووافقت على ذلك الحكومة بقرار مجلس النظار فى ٢٦/ ١١/ ١٩٠٤م وقد قامت الشركة الجديدة بالعديد من الأعمال أهمها إنشاء ضاحية المعادى و تخطيطها

أما الفترة الخامسة: وهى من سنة ١٩١٥م إلى الآن وفيها استلمت مصلحة السكة الحديد الخط بصفة نهائية من الشركة، وفى الفترة من سنة ١٩١٥: ١٩٣٨م أنشأت المصلحة عدد من الخطوط الفرعية بالمعادى والمعصرة وطره وحلوان كما ألغت محطة البساتين ويرجع لها الفضل فى وضع كبارى علوية يتنقل بواسطتها الركاب بين الأرصفة داخل المحطات وخارجها كما أنها قامت فى سنة ١٩٣٧م بقطع الإتصال بين

(١) فؤاد فرج: القاهرة، ١: ١٤٥، ١٤٦، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١١٩، ١٢٠.

خط عين الصيرة وخط حلوان بالسيدة زينب وجعلت نهاية خط عين الصيرة عند سلخانة مصر[١].

وقد كان وجود خط حلوان من أهم العوامل التى ساعدت فى نمو حركة العمران وتسهيل استغلال المحاجر والعيون المعدنية حيث تأسست ضاحية المعادى الجميلة وضاحية أخرى بالمعصرة سميت بالمعصرة الجديدة وفى سنة ١٩٣٨م رأت الحكومة استبدال العربات العادية بعربات الديزل[٢] وهو ما ترتب عليه هدم محطة باب اللوق القديمة وإنشاء أخرى حديثة وضعت بشارع منصور بحيث أمكن إعادة فتح شارع القاصد بعد أن سد منذ سنة ١٨٨٩م لإنشاء المحطة القديمة وازدواج الخط بين باب اللوق والسيدة زينب وفتحت جميع الشوارع التى كان يقطعها هذا الخط ووضعت بها علامات كهربائية للتحذير واتفقت مصلحة السكة الحديد مع مصلحة التنظيم على إنشاء أنفاق سفلية فى النقط التالية وتم إنشائها فعلا سنة ١٩٣٩م وهى: ممر سفلى أمام كوبرى الملك الصالح بدير النحاس بقسم مصر القديمة وممر سفلى بمحطة طرة وممر سفلى بطرة البلد ثم أعادت المصلحة بناء محطة السيدة زينب وإنشاء ورشة لعربات الديزل بحلوان ووصلت خط كفر العلو بخط حلوان عند وادى حوف[٣].

وبالطبع لكى يتم إنشاء تلك النفاق كان لابد من الغاء شوارع لإقامة أنفاق بها وتحويل مسار المرور من تلك إلى شوارع أخرى سواء كانت قائمة بالفعل أو تم استحداثها.

وفى هذه الفترة التى أنشئ فيها محور خط حديد حلوان إكتملت تقاسيم جاردن سيتى وشغل العمران أجزاء محدودة فى جزئها الجنوبى،كما امتد العمران على طول

---

(١) فؤاد فرج: القاهرة، ١: ١٤٨، ١٤٩.

(٢) محمد أمين حسونه: المواصلات والطرق، ٢٣٢، ٢٣٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١٢١.

(٣) فؤاد فرج: القاهرة، ١: ١٢٢، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١٢١، ١٢٢.

شارع قصر العينى فى ضفته اليمنى من كلية دار العلوم (حديقة دار العلوم حاليًا) حتى فم الخليج كما امتد العمران فى أول شارع مجرى العيون فى ضفته اليمنى الجنوبية متمثلا فى المدابغ وتتمثل فى ضفته اليسرى الشمالية على المناطق السكنية شرق المذبح وأجزاء متفرقة غرب زين العابدين والبغالة[١].

وقد كان لهذه الخطوط تأثيرًا كبيرًا فى النمو العمرانى ذلك النمو الذى ظهر فى استحداث شوارع بل مناطق وأحياء كاملة بشوارعها مثل ما حدث فى ضاحية المعادى وكذا جاردن سيتى أى أنها ساعدت على تكوين محاور للنمو العمرانى مثل خط حديد المطرية وخط حديد حلوان، بالرغم من ذلك إلا أن باقى الخطوط قد عرقل الإمتداد العمرانى وهذا يرجع إلى مدى إستغلالها فى النقل العاصمى فعدا الخطين السابقين نجد أن كل الخطوط قومية مركزية لا تخدم النقل الداخلى للعاصمة[٢].

أيضًا كان للسكك الحديدية عامة أثرها السلبى على المناطق التى تحيطها فقد حزمت المناطق الواقعة جنوب مصر القديمة والسيدة زينب مثل عين الصيرة حتى المعادى والبساتين فى الجنوب وبالتالى لم يصل إليها الإمتداد العمرانى الحديث إلا متأخرًا[٣].

الترام

فى سنة ١٨٩٤م عقد إتفاق إدخال الترام كوسيلة للنقل والمواصلات داخل القاهرة[٤]، حيث منحت الحكومة امتيازًا لشركة بلجيكية باسم «شركة ترامواى القاهرة» لتسير عرباتها فى شوارع العاصمة بالكهرباء[٥]، وأنشئ أول خط للترام عام

(١) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ٥٦.

(٢) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ٣٤، ٣٥.

(٣) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ١٠٢، ١٠٣.

(٤) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ٢٥.

(٥) غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة، ٢٢٨.

١٨٩٦م وكان هذا الخط يصل ميدان العتبة الخضراء بميدان المنشية مارًا بشارع محمد على(١).

هذا ويعتبر الترام الكهربائى أول وسيلة نقل سيرت داخل المدن بإستخدام القوى الكهربية، وكان فى البداية عبارة عن عربيتين خشبيتين، وكان يسير على خط سكة حديد له أبعاد قياسية وقد زادت أهمية الترام منذ أواخر القرن الـ١٩ الميلادى حيث أصبح وسيلة نقل رئيسية داخل المدن(٢)، وكان فى بداية الأمر يعتمد على طريقة الجر عن طريق المواشى وقد ظهر بالفعل الترام الذى تجره المواشى يسير فى بعض شوارع القاهرة بين محطة كوبرى الليمون وشارع بولاق وبعض المناطق الأخرى(٣)، كما ظهر هذا الترام بشارع بورسعيد الذى كان يطلق عليه شارع الخليج المصرى وكان محله خليج القاهرة الذى ردم سنة ١٨٩٦م فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى بمعرفة شركة البارون امبان البلجيكية ومدت خط للترام الذى تجره الحيول وبالفعل تم وسيرت عربات الترام عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م(٤).

---

(١) فتحى مصيلحى: النمو العمرانى، ٢٥.

(٢) إسراء محمد: العلاقة بين شبكة مسارات المشاة وشبكة مترو الأنفاق، ٦، ٧.

(٣) دار الوثائق القومية: دفاتر المعية السنية، دفتر ١٩٤٧، ٧٧، أمين سامى، تقويم النيل، ٣ / ٢:١١٥٣، إبراهيم صبحى: أعمال المنافع العامة، ١٢٢.

(٤) عبد الرحمن زكى: حواضر العالم الإسلامى فى ألف وأربعمائة عام (القاهرة منارة الحضارة الإسلامية)، القاهرة – مكتبة الأنجلو المصرية، دار الأمل للطباعة والنشر ١٩٧٩م، ١٤٣، أحمد سعيد بدر، التطور المعمارى والعمرانى بالقاهرة،٢٨، تعليقات محمد رمزى بالنجوم الزاهرة، ٤: ص٤٣، (وقد ورد فى الـ جـ٦ من النجوم الزاهرة ٣٨١) أن الصحيح أنه بدئ فى ردمه من جهة قنطرة غمرة عام ١٣١٥هـ/ أول إبريل ١٨٩٧م، وأتم ردمه من جهة فم الخليج عام ١٣١٧هـ/ يونيه ١٨٩٩م، WILLIAMS, CAROLINE, Islamic monumentsin Cairo. Apractical Guide FourthEdition, the American university in cairo press, cairo 1993 p.143، عماد محمد محمد أحمد عجوة: أثر البيئة الطبيعية على عمارة القاهرة منذ نشأتها حتى نهاية العصر المملوكى (دراسة تطبيقية على مصادر المياه)، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ١٨٣- ١٨٤.

وقد ظل هذا الشارع يؤدى دورًا وظيفيًا فى النقل والمواصلات لخدمة القاهرة ونظرًا لتطور حركة النقل والمواصلات أصبح ضيقًا فصدر مرسوم ملكى فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٧م بتوسيعه إلى ٤٠م فى المسافة بين ميدان السيدة زينب وشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقًا)(١) فتم توسيعه حتى مبنى المحافظة (مديرية أمن القاهرة حاليًا) سنة ١٩٤٥م، وظل كذلك حتى سنة ١٩٥٦م، والجزء الباقى كما هو يزداد سوءً بسبب كثرة المنازل التى تنهار فيه مع حظر البناء حتى أصبح الشارع أطلالًا وألغى منه الترام، وقد أعيد تسيير الترام بالشارع مرة أخرى سنة ١٩٥٩م بعد إصلاحه(٢)، وهو الآن خالٍ من هذا الترام.

قد عقدت شركة سكة حديد مصر الكهربائية وواحات عين شمس مع بوغوص نوبار باشا فى ٢٣ مايو سنة ١٩٠٥م اتفاقا بإنشاء خط ترام حديدى يصل كوبرى الليمون بالأراضى التى كانت معروفة باسم واحة العباسية وحددت مدة الإمتياز بسبعين سنة يعود الخط بعدها للحكومة وصرحت الحكومة للشركة بأن تستغل مجانا فى محازاة ترعة الإسماعيلية من كوبرى الليمون إلى غمرة قطعة أرض عرضها ثمانية أمتار على آلا تشيد فيها مبان وآلا تنشئ محطات صغيرة إلا بعد ٥٠٠م من غمرة(٣).

---

(١) عبد الرحمن زكى، القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى المؤرخ (٩٦٩-١٨٢٥م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص١٧١، أمل حسين على نافع: الخليج المصرى منذ العصر الفاطمى وحتى نهاية العصر العثمانى (٣٥٨-١٢٢٠هـ/ ٩٦٩-١٨٠٥م) دراسة حضارية آثرية، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ٥٠.

(٢) فتحى حافظ أحمد الحديدى، دراسات فى مدينة القاهرة، منطقة قسمى الجمالية ومنشأة ناصر بين الماضى والحاضر، القاهرة - الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٩٨٢م، ١٥٦، أمل نافع: الخليج المصرى منذ العصر الفاطمى، ٥٠، ٥١.

(٣) دار الوثائق القومية: محافظ عابدين، محفظة ٣١٩.

كما قامت شركة تراموای هيليوبوليس بانشاء خط للمترو بدأ سيره فى عام ١٩١٠م وذلك حتى يتم اكتمال تعمير حى مصر الجديدة (هليوبوليس) عن طريق توفير وسيلة مواصلات سهلة منه وإليه.

ومما لا يدع مجالًا للشك فإن وجود الترام وانتشاره وتوسعه بتلك الصورة ساعد بشكل كبير على الامتداد العمرانى للقاهرة فقد كان لتوسع الترام فى أماكن مختلفة خارج المدينة أثره الكبير فى تحول الأماكن التى كانت عبارة عن آراضى زراعية إلى آراضى تصلح للبناء والعمران بها واستثمارها على أكمل كما تضاعفت أسعار الآراضى بالمناطق القريبة من خطوط الترام.

وبمرور الوقت انتشرت خطوط الترام فى كافة أنحاء القاهرة مما أثَّر بشكل كبير على عمارة وتعمير تلك المناطق ذلك أنه فى عام ١٩١٧م توسعت خطوط الترام وأصبح هناك خط يمتد بين الجيزة ومصر القديمة وخط بين السيدة زينب ومدافن الخليفة وخط بين كوبرى قصر النيل وميدان عابدين وخط بين ميدان قراقول بالقرب من باب الحديد والسكاكينى عن طريق شارع الفجالة، وخط بين السيدة زينب والنصرية وآخر بين السيدة زينب والمدبح، وخط بين بولاق والجزيرة وخط بين الجزيرة وقرية إمبابة فى شمال غرب المدينة، وخط بين الامتداد الشمالى للخط الموصل. إلى روض الفرج وساحل روض الفرج والخط بين القلعة وضريح الإمام الشافعى، وامتداد خط مصر القديمة حتى أثر النبى خارج حدود المدينة.

ومما سبق ذكره يتضح أنه كانت هناك ميادين هامة تتفرع منها خطوط الترام مثل ميدان العتبة الخضراء وميدان المحطة (رمسيس) وبذلك كان الناس يستطيعون الوصول لأى مكان يرغبونه فى وقت قليل، كما عمرت الأماكن التى لم تكن عامرة بحيث أصبحت سهلة الوصول منها واليها كما أنه وبالطبع ليتم مد خطوط تلك الترام كان لابد من الغاء شوارع ليمر بها الترام والاستعاضة عنها بشوارع أخرى جديدة.

وفى عام ١٩٣١م افتتح خطان ترام بامتداد شارع الأزهر، ويعتبر هذان الخطان

آخر امتداد للمترو بحيث أصبحت الخطوط ٢٤ خطًا عام ١٩٣١م وظلت شبكة الترام تقوم بمهامها حتى عام ١٩٥٥م(١).

الأتوبيس والتروللى باص

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أرسلت شركة ترام القاهرة خطابًا إلى وزير الأشغال عرضت فيه على الحكومة مشروعًا لتوحيد وسائل النقل المشترك بالعاصمة بهدف اعادة تنظيم وسائل النقل لجعلها أنسب لروح العصر وذلك بالغاء بعض خطوط الترام والاستعاضة عنها بالأتوبيسات أو التروللى باصاتوذلك على أن تمنح الشركة المصرية التزامًا بجميع وسائل النقل المشترك فى العاصمة (ترام- أتوبيس، تروللى باص) ابتداء من أول يناير ١٩٤٩م.

وقد عرفت أوروبا الأتوبيس أو الأمنيبوس واستعملتها لنقل الجنود والمعدات فيه، أما فى القاهرة أثناء الحرب العالمية الأولى سيرت خطوط مواصلات بين جميع الجهات وهى عبارة عن مركبات آليه وبعد انتهاء الحرب تحولت تلك الآلات إليمركبات نقل فى الشوارع واقتصر استعمالها فى البداية على نقل الفلاحين والعمال ومواد البناء والخضار والفاكهة واستعمل بعضها فى النقل العام للأهالى وكان فى البداية الأهالى يقومون بتسييرها إلى أن قامت الحكومة بتقنين ذلك الوضع ووضعت ضوابط صارمة من أجل تحسين تلك الخدمة(٢).

السيارات (الأتومبيلات)

لقد ساهمت الحرب العالمية الأولى فى ظهور ذلك النوع من المواصلات الذى كان له الفضل الكبير فى تمهيد الطرق وتخفيض أجور السكك الحديدية، ذلك أن الشوارع لم تكن ممهدة لتتحمل سرعة الاتومبيل ومع تزايد أعداد السيارات مع نهاية

---

(١) غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة،٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة، ٢٣١- ٢٣٩.

الأربعينيات كان لابد من الاهتمام بتمهيد الطرق والشوارع لتتناسب مع تلك الزيادة مع السرعة فى السير.

كما وجهت (المقتطف) دعوة لانشاء شركات تقوم برصف الطرق الكبيرة لتسير عليها السيارات لنقل البضائع والركاب، وعقب الحرب العالمية الأولى ظهر التاكسى وتزايد أعداده بكثرة فى شوارع القاهرة(١).

مترو الأنفاق

ومع تطور أدوات وأساليب الإنشاء بصفة عامة وإنشاء الأنفاق بصفة خاصة بدأ العالم يخطو خطوة أخرى لحل مشكلات النقل الجماعى للأفراد داخل المدن وذلك عن طريق إنشاء (مترو الأنفاق) الذى لم يكن الغرض منه تجنب المشاكل الطبوغرافية والمناخية فقط بل أيضًا نقل أكبر عدد ممكن من الأفراد فى أقل وقت ممكن(٢) هذا وقد زادت الحاجة الفعلية لمترو الأنفاق مع زيادة التطور العمرانى للمدن فى أواخر القرن الـ١٩ وأوائل القرن العشرين حيث عانى النقل السطحى من إختلاط وسائل النقل بمختلف أنواعها وأحجامها وسرعاتها مما تسبب عنه الكثير من حوادث المشاة بالإضافة إلى الضوضاء والتلوث، ويعتبر مترو الأنفاق وسيلة نقل جماعية إقتصادية على المدى الطويل فضلا عن أن له مزايا إجتماعية أهمها توفير الوقت لمستخدميه وهو ماله عائدا إقتصاديًا فى الوقت نفسه هذا وقد تم إفتتاح أول جزء من الخط الأول لمترو الأنفاق بالقاهرة عام ١٩٨٧م واكتمل الخط عام ١٩٨٩م(٣).

---

(١) غادة فاروق أبو الفتوح: الخروج من الأسوار تحديث مدينة القاهرة، ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) إسراء محمد: العلاقة بين شبكة، ٩، JOHN CARMODY AND RAYMOND L. STERLING, Underground Space Design, 1993 , P. 97

(٣) إسراء محمد: العلاقة بين شبكة، ٩، ١٠، ١٢.

الخلاصة

أن تجربة استخدام العربات لم تكن لتنجح لو ما شقت لها الشوارع الواسعة، وأن تطور وسائل النقل والمواصلات كان يعد أحد أهم الأسباب الرئيسية التى من أجلها اهتم حكام الأسرة العلوية بشق الطرق وتمهيدها بل وإقامة أحياء كاملة كما فعل الخديو إسماعيل فى مدينته الجديدة التى أطلق عليها الإسماعيلية.

كما أن وسائل النقل والمواصلات كانت حافزًا أساسيًا للنهضة العمرانية التى شهدتها مصر فى تلك الفترة فلولاها ما كنا فى حاجة إلى إنشاء كبارى تسهل سير تلك المركبات وعبورها بين ضفتى النيل بسهولة ويسر.

أيضًا كان للتطور التى شهدته مصر فى النقل والمواصلات ابلغ الأثر فى ازدياد نشاط حركة التجارة حيث سهلت تلك المركبات عملية النقل من وإلى الأسواق المختلفة.

كان لدخول شبكة السكك الحديدية والترام أثره الكبير على الشوارع حيث سدت بعض الشوارع التى أنشأت بها محطات السكك الحديدية وشقت شوارع أخرى استعاضة عنها، كما كان لها أثرها البالغ فى توفير الوقت والجهد على سكان العاصمة.

المصادر والمراجع

*** دار الوثائق القومية**

- وزارة الأشغال العمومية، محفظة ٨/ ٨/ أ.
- محفظة ٨/ ٨/ ب أشغال.
- وزارة الأشغال العمومية – محفظة ٣/ ب – سكك حديد.
- وزارة الأشغال العمومية – محفظة ٨/ ٨/ د.
- وزارة الأشغال العمومية – محفظة ٨/ ٨/ و.
- وزارة الأشغال العمومية – منافع عامة، القاهرة، مجلس وزراء نظارة أشغال، رقم المحفظة(٨/ ٨/ أ) / رقم المجموعة(٣٨١ أشغال)، التاريخ(٢/ ١٠/ ١٨٩٠م).
- محفوظات مجلس الوزراء، محفظة (٣/ ى)/ وثيقة ٣، ٤، ٦.
- محفوظات مجلس الوزراء، محفظة (٣/ أ)، وثيقة ٣.
- محافظ عابدين، محفظة ٣١٩.
- دفاتر المعية السنية، دفتر ١٩٤٧.

*** المصادر**

- الجبرتى، عبد الرحمن بن حسن (ت١٢٤١هـ،١٨٢٥م): عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، إعداد وتحقيق.عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٧م، جـ٤(الصدمة الفرنسية غزوة الغرب)، مطبعة بولاق، ١٢٩٧هـ.
- على باشا مبارك، (ت١٣١١هـ،١٨٩٣م): الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ٢٠ جزء، طبعة بولاق، ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م.

*** المراجع العربية والمعربة**

- آندريه ريمون: القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة. لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر – سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥٢ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢.
- جومار: وصف مصر (وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل) مع مقدمة عن التطور العمرانى لمدينة

المجلة التاريخية المصرية ٥٥ (٢٠٢١) ٤٨٧-٥٠٨

ضاحية مصر الجديدة
أنموذج فريد للتنوع والتجانس الاجتماعي

علي عبد العزيز سليمان(*)

ملخص

الغرض من هذا البحث هو دراسة بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية لضاحية مصر الجديدة التى تم إنشائها بموجب عقد امتياز فى ١٩٠٦. وعلى عكس الأنماط الإستعمارية السائدة فى أوائل القرن العشرين، لم تحاول شركة مصر الجديدة (شركة سكك حديد وواحات عين شمس)، ذات الملكية الأجنبية، خلق ضاحية منعزلة للأجانب المقيمين، بل سعت منذ البداية إلى خلق مجتمع متنوع يشمل المصريين والأجانب باختلاف طوائفهم.

وتقدم الورقة تمهيدا تاريخيا لسياسات التوسع العمراني فى القاهرة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وتذكر القاريء بأنماط التنمية العمرانية فى ظل الإحتلال البريطاني. وكذلك يتناول البحث مجموعة من الصفات الفريدة التى تستحق الدراسة في انشاء ضاحية مصر الجديدة. ومنها كيفية تمويل الضاحية، والتخطيط العمراني، ونظام المواصلات وربطها بالقاهرة، ومعدل نمو السكان بالمقارنة بضواحي

(*) أستاذ اقتصاد زائر بجامعة القاهرة.

القاهرة الأخرى مثل المعادي والزيتون.

وأخيرا نحلل في هذه الورقة التركيبة السكانية للضاحية فى أوائل النصف الثاني من القرن العشرين، وتحديدا فى الفترة من ١٩٤٧-١٩٥٤. ونبين أن هذه الضاحية الفريدة كانت مثالا للتعددية والتوائم العرقي قبل انطلاق ما نسميه بالعولمة بعد ذلك بنصف قرن.

كلمات دالة: مدن مصرية، ضاحية مصر الجديدة، التنمية العمرانية فى أوائل القرن العشرين، التعددية العرقية، التخطيط العمراني.

Abstract

The purpose of this research is to study some of the social and economic aspects of the Heliopolis suburb that was established under a concession contract in 1906. Contrary to the colonial patterns prevailing in the early twentieth century, the Heliopolis Company (The Railroads and Heliopolis Oases Company), despite its foreign ownership, did not attempt to create a secluded suburb for resident foreigners, but rather sought from the beginning to the creation of a diverse society that includes Egyptians and foreigners of different sects. The paper provides a historical introduction to the policies of urban expansion in Cairo in the late nineteenth and early twentieth centuries. It reminds the reader of urban development patterns under the British occupation. The research also deals with a set of unique characteristics that deserve study in the establishment of the Heliopolis suburb; including its unique urban design, how to finance the suburb, the transportation system and linking it to Cairo, and the rate of population growth compared to other Cairo suburbs such as Maadi and Zaytoun. Finally, in this paper we analyze the demographic structure of the suburb in the early second half of the twentieth century,

specifically in the period from 1947-1954. We show that this unique suburb was an example of pluralism and ethnic harmony before the launch of what is called Globalization, half a century later.

Key words: Egyptian cities, Heliopolis suburb, urban development in the early twentieth century, ethnic pluralism, urban planning.

*

* *

مقدمــــة

الغرض من هذا البحث هو دراسة تجربة إنشاء حي أو مدينة **مصر الجديدة** فى النصف الأول من القرن العشرين. وقد تميزت هذه «المدينة» الجديدة بعدة صفات تخطيطية والاجتماعية والاقتصادية جعلتها نموذجا فريدا للتخطيط العمراني غير مسبوق فى مصر، ولم يتكرر سوى بعد ذلك بسبعين عاما عند تبنى الحكومة لفكرة المدن الجديدة فى عصر الرئيس السادات. وتهم تجربة **مصر الجديدة** ليس فقط المخطط العمراني، ولكن أيضًا الدارس الاجتماعي والاقتصادي وبالذات نتيجة التوسع العمراني الكبير للقاهرة، والأخذ بسياسة عمرانية جديدة تتضمن الخروج من وادي النيل الضيق، وكذلك خلق محاور جديدة للتنمية فى الساحل الشمالي، والبحر الأحمر. ذلك أن مدينة «**مصر الجديدة**» كان لها صفات تميزها عن غيرها من المدن المصرية والأجنبية(١). فالمدينة لم تكن نتيجة للنمو الطبيعي لمدينة القاهرة، بل تم بنائها فى الصحراء على بعد ١٠ كيلومترات من وسط البلد. كذلك استفادت من التقدم فى مجال المواصلات بأن بنت خط تراماواي كهربائي خاص بها (المترو)، كذلك اتصفت المدينة بمواصفات معمارية

(١) توقع السفير البلجيكي فى القاهرة فشل هذا المشروع الذي تبناه مواطنه البارون امبان لأنه لم يتبع النمو الطبيعي للقاهرة، (Ilbert, 1987).

خاصة وهدفت لإستضافة تركيبة سكانية متنوعة. وسنتناول فى هذا البحث التطور التاريخي لهذه المدينة، ونقارن نموها وتركيبتها السكانية بغيرها من أحياء القاهرة ذات العلاقة، ثم نقيم نتائج هذه التجربة فى أعلى مراحل تقدمها عند قيام ثورة يولية ١٩٥٢. وبرغم اهتمام الباحثين بالنواحي العمرانية لهذه المدينة إلا أن البحث الاجتماعي والاقتصادي لسكان الضاحية قليل.

١- إنشاء شركة مصر الجديدة

يعتبر مشروع شركة مصر الجديدة **أحد النماذج الناجحة للمشروع الخاص فى مصر تحت الاحتلال. أما كونها مشروعا خاصا فيرجع إلى إحجام سلطات الاحتلال البريطاني وخصوصا فى عهد** المعتمد البريطاني اللورد كرومر الذي حكم مصر لفترة طويلة منذ العام الثاني للاحتلال (١٨٨٣-١٩٠٧) (Owen, 2004) ، عن القيام بأي استثمار فى البنية الأساسية للمدن (Abu-Lughod, 1971). ذلك أن الهدف الأول للاحتلال كان فى ضمان سداد مصر لمديونتها الخارجية وضم مصر إلى الإقتصاد العالمي كمزرعة للقطن، وكسوق للمنتجات الصناعية البريطانية. وعلى ذلك صب جل اهتمامه على التوسع الزراعي والإهتمام بمشاريع الري، ومنها بناء المرحلة الأولى من سد أسوان. وفتحت الباب لدخول الأجانب فى تمويل خدمات المدن بما فى ذلك إدخال المياه الجارية والكهرباء للقاهرة والإسكندرية. ولم تمانع السلطات البريطانية في منح امتياز إنشاء الضاحية إلى السيد إدوارد إمبان EDOUARD EMPAIN، البلجيكي، وشريكه بوغوس نوبار، حفيد نوبار باشا، رئيس وزراء مصر الأسبق، الأرمنى التبعية[1]. وعلى ذلك أنشئت الشركة عام ١٩٠٦ باسم **شركة سكك حديد مصر الكهربائية وواحات عين شمس** Cairo Electric Railways & Heliopolis Oases Company، وكان على مروجو الشركة القيام بتوفير كافة المرافق اللازمة من ماء

(١) من الملفت أن كلا الرجلين كانت لهم علاقة قديمة بالسكك الحديدية فالسيد امبان كانت له تجربة فى إنشاء مترو باريس، ونوبار كان مديرا لسكك حديد مصر. (Volait M. 2006).

وكهرباء إلى جانب توفير المواصلات لربطها بالقاهرة[١]. وحصلت الشركة على حق امتياز تضمن شراء ٢٥ كم مربع أو ٢٥ مليون متر مربع (أو حوالي ٦٠٠٠ فدان بسعر الفدان جنيها واحد) لإقامة ضاحية سكنية متكاملة، وأضيفت أراضي الشركة إلى جانب حق إنشاء خط سكك حديدة بمسار خاص بينها وبين وسط القاهرة (Ilbert, 1985).

٢- اختيار موقع مصر الجديدة

كانت القاهرة قد بدأت تعاني من الزحام وعدم توفر التوسع الصحي المطلوب، فالقاهرة القديمة وحي وسط البلد الجديد الذي أضافه إسماعيل باشا حسب مخططات المهندس الفرنسي هاوسمان HAUSSMAN (Abu-Lughod, 1971) لم تعد كافية لمقابلة الزيادة السكانية الكبيرة، وكانت المدينة يحدها من الشرق تلال المقطم العالية، وإلى الغرب نهر النيل (Ilbert, 1987)، وإلى الشمال مزارع شبرا الخصبة، وكذلك فإن الجنوب كانت تحده مزارع المعادي، ويقلل من جاذبيته بعد المسافة. لم يكن النقل الجماعي قد تطور بعد، ولم ترغب الإدارة الاستعمارية فى الإنفاق على مرافق المدن (Volait M. , 2003)، وعلى ذلك عهد بمشروعات النقل الجماعي إلى القطاع الخاص. وبالرغم من أن القاهرة قد سبقت نيويورك فى إدخال الترام الكهربائي إلا أن التوسع فى النقل العام تطلب مبالغ طائلة (Abu-Lughod, 1971).

وكان اختيار الموقع الحالي لضاحية **مصر الجديدة** بالقرب من واحات عين شمس، الموقع القديم لعاصمة مصر الفرعونية، أو «أون» مدينة الشمس، اختيارا عبقريا (Dobrowolska & Dobrowolska, 2006)، (Abu-Lughod, 1971) فهو من ناحية لا يزاحم الأحياء القديمة، ويستفيد من أرض رخيصة ومنبسطة، مرتفعة قليلا عن

---

(١) سبقت المعادي مصر الجديدة فى الإنشاء، وتولى إنشاءها عائلة سواريس ذات الأصول الأسبانية (من اليهود الإشكناز)، وارتبط إنشائها أيضًا بخط باب اللوق - حلوان الذي مكن من توسع القاهرة إلى الجنوب، كما سنرى.

القاهرة القديمة، وتوفر مناخا صحيا قليل الرطوبة. وعلى ذلك، ارتبطت الضاحية الجديدة ارتباطا عضويا بالمترو. هو يلزم لربطها بالقاهرة، بينمت توفر أرباح أراضي الضاحية التمويل اللازم لتشغيل المترو وإنشاء المرافق الأخرى[١].

وهكذا نرى أن اختيار موقع **مصر الجديدة** كان ضمن توجه للخروج إلى الشمال الشرقي من العاصمة. وسنبين فى جزء لاحق أنه بالرغم من نمو ضواحي مجاورة أخرى مثل الزيتون والمطرية وعين شمس، فى الشمال الشرقي، وكذلك من خطط التوسع إلى الجنوب فى المعادي، إلا أن نمو **مصر الجديدة** كان إسرع، وأكثر تنظيما وتنوعا.

٣- العمل على خلق مجتمع متنوع ومتجانس فى آن واحد

تستمد المدن حيوتها ونجاحها من تنوع سكانها اقتصاديا واجتماعيا. وفى البداية، كان السيد إدوارد إمبان (البارون فيما بعد) يريد أن تختص الضاحية بالسكان ذوي الدخل المرتفع، مع ذلك تسببت الأزمة الاقتصادية التى عصفت بالعالم عام ١٩٠٧ فى تغيير فكره، وغير من تصميم الضاحية وزاد من حصة إسكان متوسطي الدخل (Ilbert, 1985). وبرغم من أن الأجانب كانوا فى مقدمة العملاء التى تسعى الشركة إلى استقطابهم، إلا أن الضاحية الجديدة خالفت الأنماط الاستعمارية السائدة فى المستعمرات من حيث خلق ضاحية منعزلة، أحيانا ذات أسوار، للأجانب المقيمين فى البلد، كما كان الحال فى الهند وبعض دول شمال وغرب أفريقيا (Njoh, 2007)، (Home, 1990)، لرجال الإدارة الاستعمارية وعائلاتهم (Willem, 2015).

وفى الواقع إن مصر من عدة نواح لم تكن ينطبق عليها النمط الاستعماري السائد فى دول أخري. ذلك أن الجيش البريطاني تم دعوته للتدخل بواسطة الخديوي توفيق

(١) كان هذا هو النمط المستخدم فى التوسع الكبير إلى الغرب فى الولايات المتحدة، حيث ارتبطت توسعات السكك الحديدية بمنح كبيرة من الأراضي.

وهوالسلطة الشرعية فى ذلك الوقت، ١٨٨٢، للقضاء على ثورة عرابي. كذلك لم تصرح قوى الاحتلال بأن مصر مستعمرة بريطانية طوال الفترة ١٨٨٢-١٩١٤، حتى أعلنت الحماية مع بداية الحرب العالمية الأولى. وبالعكس كانت بريطانيا تعترف بإنتماء مصر إلى السيادة العثمانية وتطبق فيها القوانين العثمانية والفرمانات الخاصة بحقوق أسرة محمد علي. مع ذلك تجمعت كل القوى الفعلية فى يد المعتمد البريطاني، الذي عمل على كبح أي نزعة لاستقلال القرار المصري. أما السبب الثاني الذي منع ظهور المدينة الاستعمارية(١) على الساحة فهو أن المصريين كانوا قد حققوا خطوات هامة فى التقدم الاجتماعي والاقتصادي نتيجة مقاومتهم للاحتلال الفرنسي فى أوائل القرن ١٩، وقيامهم باختيار «**محمد علي باشا**» واليا على مصر (١٨٠٥). وأيضا لجهود هذا العاهل العظيم، وخلفائه، فى خلق طبقة اجتماعية متعلمة ولديها القدرة الاقتصادية سواء فى زراعة القطن، أو فى المدن (الرافعي، عصر محمد علي، الطبعة الخامسة، ١٩٨٩). ومنذ اتفاقية لندن ١٩٤١، والعالم وحتى العثمانيين يعاملون مصر كدولة شبه مستقلة (Arthur Goldschmidt, 2008) كذلك، وحتى فى ظل الاحتلال، تمتع الخديوي بحقوق مطلقة فى بعض المجالات ومنها الشئون الدينية والأحوال الشخصية. وتزامن خلق **مصر الجديدة** مع تنامي الحركة الوطنية التى قادها الزعيم الشاب مصطفى كامل (الرافعي، ١٩٨٤). وهكذا تطورت الضاحية كمدينة متعددة الأعراق من مصريين، ويونان، وأوروبيين، وشوام، وأرمن، ويهود.

٤- الطراز المعماري الفريد يعكس الواقع الاجتماعي والسياسي

صممت الشركة المدينة الجديدة مستوحية أفكار «المدينة الحديقة»، التى انتشرت فى انجلتره فى ذلك الوقت. مع ذلك أضافت طراز معماري فريد اختصت به (Farid &

---

(١) يتحدث (Willem, 2015) عن حادثة ذات دلالة ألا وهو رفض إدارة الشركة حضور مؤتمر فى باريس عن تطور المدينة الأجنبية فى ظل الحكم الإستعماري، عام ١٩٣١. وكانت مبررات الشركة أن **مصر الجديدة** ليست للأجانب فقط، وأن مصر ليست مستعمرة.

(Abdellhady, 2014)، ويعكس بعبقرية الواقع الاجتماعي والسياسي. فالمدينة أنشأت أساسا على يد الأجانب، الذين كانوا يتمتعون بمستوى اقتصادي أفضل من عموم المصريين، ولهم احتياجات ترفيهية وثقافية مختلفة. ولذلك ساعدت الشركة الجاليات الأجنبية والدينية على بناء مدارسها ومعابدها بتقديم الأرض مجانا وحتى بأن تقوم الشركة بالبناء بنفسها (Ilbert, 1985). ولعل المثل الأفضل لذلك هو كنيسة السيدة العذراء التى بناها البارون على رأس أهم شوارع الضاحية، شارع الأهرام، والمسماة بكنيسة البازيليك (عربية، ٨ فبراير ٢٠٢١). ومع ذلك تفادت الشركة السماح بسيطرة المباني الكنسية على الضاحية الجديدة التى كون المسلمين فى النهاية أكثر من ٧٥٪ من قاطنيها كما جرى الحال فى بعض مدن شمال أفريقيا التى تعرضت للإحتلال مثل طرابلس الغرب وتونس. وعلى ذلك نشرت القباب والمآذن على المباني السكنية. بل أضيفت مئذنتين إلى المباني وراء كاتدرائية البازيليك لتعطى الإنطباع أنك داخل على مدينة إسلامية. ويؤكد الباحثان (Dobrowolska و Dobrowolska، ٢٠٠٦) هذا الاستخدام التمويهي للمآذن فى الضاحية. ومن ناحية أخري اعترفت قيادة الشركة ولو ضمنا بأنها تبني ضاحية تضم مستويات مختلفة من السكان الأجانب والمسلمين. وعلى ذلك وفرت الشركة أربعة أنواع من الإسكان. إولها إسكان فاخر فى فلل وأحيانا قصور كبيرة وذلك فى المثلث السكاني شرق فندق مصر الجديدة، بما فى ذلك الطريق المؤدي للمطار واسمه ببساطة شارع السرايات، والذي عرف بعد ذلك بطريق العروبة (صلاح سالم). وحول هذا الطريق بنى البارون قصره المنيف المستوحى من المعابد البوذية فى كامبوديا، وبنى شريكه «باغوص نوبار باشا» قصرا آخر على الطراز العربي، وبنى «السلطان حسين» قصرا لزوجته السلطانه ملك ومسجدا فاخرا، ١٩٣١، أصبح قبلة السكان الجدد من المسلمين الأثرياء[١].

(١) للمزيد عن الطراز المعماري للضاحية ودور المهندسين الفرنسيين البلجيكيين الذين ساهموا فى تطوير الضاحية. انظر (Dobrowolska و Dobrowolska, 2006)، (Volait M. , 2006)

أما النمط الثاني فهو الفيلات الصغيرة التى تواجدت فى الشوارع الجانبية غرب وشمال «**فندق مصر الجديدة**» «قصر الاتحادية حاليا»، ومقر الشركة المقابل.

أما النمط الثالث والذي أعطى للضاحية الجديدة رونقها الخاص، فكان الإسكان المتوسط الذي حوته عمارات من دورين أو ثلاثة أطباق بنيت على الطراز شبه العربي Morisco، وزود بعضها برواق ظليل (بواكي) على نسق مستعار من إيطاليا. وامتازت «الشقق» فى هذه العمارات بالإتساع وحوت من أربعة إلى خمس غرف، وبلكونات هائلة. واحتوت بعض هذه العمارات على غرف بالسطح لإسكان الخدم. (DOBROWOLSKA و DOBROWOLSKA، ٢٠٠٦)، (Volait M. , 2006).

ومع التوسع فى المدينة زادت العمارت ارتفاعا، واستغنت عن النمط المعماري النمطي، وإن أكدت التفرد المعماري الخاص بها. وفي جميع الأحوال التزم الجميع بقيود الشركة المعمارية (بلال، ٢٠٠٨).

أما النمط الرابع لإسكان منخفضي الدخل، فقد خلقت الشركة منطقتين «شعبيتين»، واحدة شمال منطقة «ميدان الجامع» (الذي ضمت المسجد الوحيد فى بداية الضاحية) وذلك لإسكان الحرفيين والعاملين فى أسواق الخضار والفاكهة ومحلات الجزارة والأسماك وغيرهم من عمال الخدمات. سميت هذه المنطقة جزافا «**عزبة المسلمين**»، وتم تصميم مساكن يشار اليها بـ«النموذج المسلم» (Volait M. 2003)، ولعل الغرض كان هو تسميتها بـ«المدينة الوطنية» على نسق التقسيم الإستعماري الذي يفرق بين الأحياء الحديثة و«المدينة» Medina وكانت الوحدات السكنية فى هذا الجزء من المدينة على نسق نظام «الرَبع» الذي كان متوافرا فى المناطق القديمة من القاهرة مثل الخليفة والموسكي، وهي غرف متجاورة تطل على رواق وتشترك في منافع مشتركة. ولم يعجب هذا النمط من الإسكان حتى العائلات العربية الفقيرة، وإن كان مناسبا للحرفيين العزاب بما فيهم الأجانب من يونان وأرمن وشوام (سوريون ولبنانيون). (Ilbert 1985). أما التجمع العمالي الثاني الذي أنشأته الشركة

أساسا لموظفيها الصغار وبالذات من العاملين فى مرفق المترو من سائقين ومحصلي تذاكر وكهربائية وعمال صيانة فكان فى منطقة ألماظة بالقرب من مستودعات عربات المترو، وكان يشار إليه ببساطة بلقب «العزبة». وهنا راعت الشركة، بعد تجارب وتصاميم عدة، احتياج العائلات العمالية القادمة من الريف إلى الخصوصية، فخلقت منازل صغيرة (مساحة الوحدة من ٢٥– ٤٥ مترا مربعا) متجاورة وبها غرفتان تطل على أحواش داخلية لتربية الطيور المنزلية أو الاستمتاع بالجلوس فى الهواء الطلق (Ilbert, 1987). والطريف أن شوارع الأجزاء العمالية من الضاحية سميت بأسماء أحياء وطنية مثل أبوقير، المكس، والواسطى، والروضة، وهذا بالمقارنة بالأسماء فى الحي الراقي (شياخة المنتزة) التى أخذت أسماء الملوك والحكام: إسماعيل وسعيد وعباس ومحمد علي، إلى جانب بعض الأسماء الفرعونية، لملوك أيضا، مثل خوفو، رمسيس، وسيزوستريس، ومنيس، أو علماء مصريات مثل شامبليون وماريت. وفي منطقة الإسكان المتوسط (شياخة البستان، وألماظة) استخدمت أسماء المدن المصرية مثل المحلة، دمنهور، وطنطا. والملفت، فى الفترة الأولى، لم تنتشر الأسماء الأجنبية سوى أسماء بعض مهندسي الضاحية الكبار واسم المؤسسين (نوبار والبارون إمبان).

كيف نمت مصر الجديدة

بعد بداية متعثرة بدأت مغامرة البارون امبان تعطي أكلها، وبدأ البناء الفعلي عام ١٩٠٧، وشمل هذا الفندق الكبير ومقر الشركة وبعض الكنائس والمدارس..وتوصلت الشركة إلى اتفاقية مع الحكومة لإسكان الموظفين فى الضاحية بتخفيض معين، وتوضح الخريطة التالية الضاحية وقد اكتملت بعض ملامحها الأولية عام ١٩٣٠. ويلاحظ الأحياء العمالية المزدحمة فى شمال شرق الضاحية بالمقارنة بالفندق الفخم والنادي الاجتماعي والشوارع المتسعة فى النصف الأسفل من الصورة.

خريطة رقم ١

حي مصر الجديدة عام ١٩٣٠

خريطة مقتطعة من خريطة أكبر للقاهرة ١٩٣٠

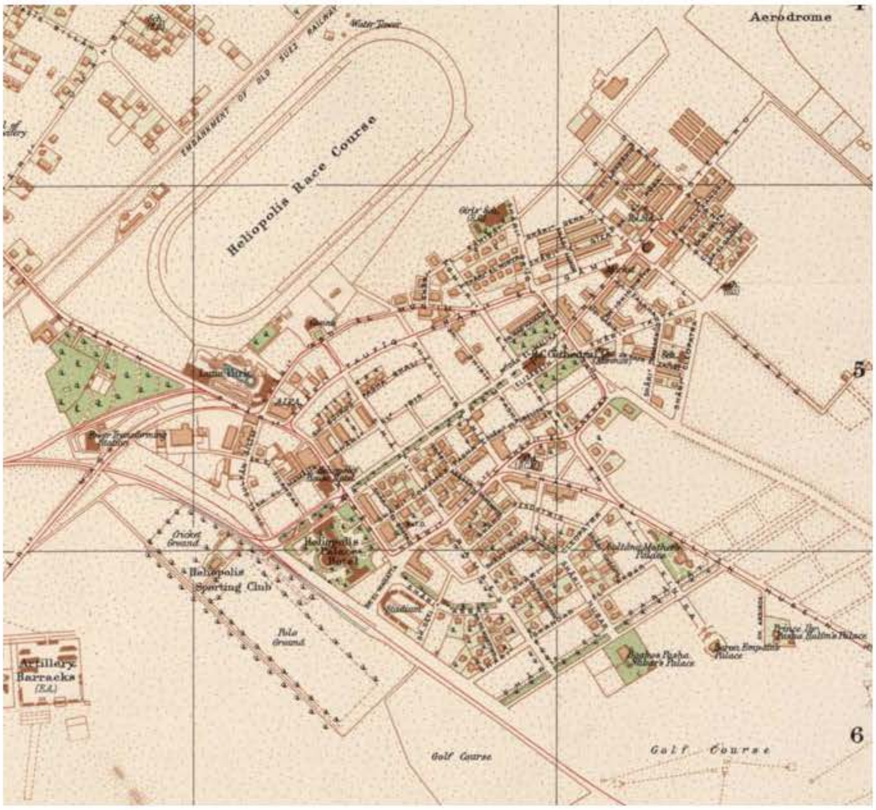

وكذلك ومع نهاية الحرب الأولى وعودة الاقتصاد إلى الإنتعاش تسارعت عملية البناء فى الضاحية وأيضا فى الأحياء المجاورة حيث خدم المترو توسعا إضافيا فى منطقة سراي القبة ومنشية الصدر، وخدم خط قطارات موازي يعمل على خط السويس القديم (ما يسمى بخط كبري الليمون) التوسع فى منطقة الزيتون والمطرية والحلمية. وساعد على التوسع السريع بداية تعاون نفعي بين الشركة والحكومة، حيث عرضت الشركة بناء ٦٠٠ مسكن (فيلا و شقة) لموظفي الحكومة بإيجار مخفض، وبالفعل تم

توقيع إتفاق بهذا الشكل عام ١٩٢١ (Volait M., 2006)، ورحبت الحكومة بالعرض الذي قد يساعدها على استيفاء الاحتياجات السكنية لبعض موظفيها الكبار (ومنهم رجال البوليس والجيش وقضاة وأساتذة جامعة، وحتى خبراء أجانب يعملون لحساب الحكومة وقد تلتزم الحكومة بتوفير السكن لهم). كذلك استفادت الحكومة من توفر سكن عمالي شغله بعض موظفي البريد والتلغراف، وبعض رجال الشرطة والجيش الصغار.

كذلك بدأت **شركة مصر الجديدة** تبيع الأراضي بسعر معقول (٤٥ قرشا للمتر المربع) والتقسيط على ١٥ سنة، بل راحت تساعد المطورين في البناء بشرط الإلتزام بقواعد البناء المقررة (بلال، ٢٠٠٨). وسهل موضوع البيع بالتقسيط فى حل مشكلة عويصة فى مجال التمويل المصرفي حيث كان توفر التمويل مشكلة تعاني منها القاهرة عموما. وربما ساعد فى تخفيف هذه المشكلة إنشاء البنك العقاري المصري (١٨٨٠)، Credit Foncierوبنك التسليف العقاري. Land Mortgage Bank، (Abu-Lughod, 1971). مع ذلك لم يكون التمويل من خلال هذه البنوك متاحا بصورة واسعة للطبقة الوسطى المصرية التى تحلم بملكية مسكن فى القاهرة أو للطوائف الوافدة إلى مصر وخصوصا من المهاجرين الأرمن وغيرهم من الهاربين من مناطق النزاع (Volait M., 2006).

ونتناول فيما يلي تطور سكان ضاحية **مصر الجديدة والأحياء** الشمالية الشرقية الأخرى ونقارن ذلك بنمو القاهرة عموما، وكذلك الضواحي الجنوبية.

النمو السكاني لمدينة مصر الجديدة

يبين الجدول التالي نمو سكان الضواحي الشمالية الشرقية لمدينة القاهرة المجمعة تحت مسمى «**قسم مصر الجديدة**»، وهو يشمل **مصر الجديدة** الحالية بالإضافة إلى منشية البكري والحلمية والزيتون والمطرية وعزبة النخل وغيرها من التجمعات البدوية فى واحات عين شمس. واتصف النصف الأول من القرن العشرين

بمعدلات نمو كبيرة فى هذه المنطقة بالمقارنة بباقى أحياء القاهرة. ففي فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى وصل معدل نمو السكان السنوي إلى ١١.٤٪ بينما لم يتعدى فى القاهرة ١.٧٪، وفى الضواحي المنافسة فى جنوب القاهرة، مثل «مصر القديمة»، نصف فى المائة (٠.٤٪).

واستمر النمو العفي لسكان **مصر الجديدة** وساعد على ذلك بناء خط المترو إلى وسط البلد، كذلك استفادت مناطق الزيتون والحلمية والمطرية بتشغيل خط سكك حديد «الزيتون» الذي ينطلق من «كبرى الليمون» بمحطة مصر على نفس خط سكك حديد السويس. مع ذلك لم تتمتع هذه الأحياء الجديدة بنفس الدقة فى التخطيط، ولا بمواصفات البناء الذي تمتعت بها جارتهم الغنية.

جدول رقم ١

النمو السنوي للسكان فى منطقة مصر الجديدة الكبرى، مصر القديمة، والقاهرة

المنطقة/سنة التعداد	1897	1907	1917	1927	1937	1947
قسم **مصر الجديدة** ويشمل الزيتون والمطرية	8138	12831	27513	53532	87771	164919
نسبة النمو السنوي للسكان	0	5.8	11.4	9.5	6.4	8.8
قسم مصر القديمة، منيل الروضة، والمعادي	32995	33748	34968	49495	66713	116843
نسبة النمو السنوي للسكان	3.1	0.2	0.4	4.2	3.5	7.5
إجمالي سكان القاهرة	589572	678433	790939	1064567	1312096	2090654
نسبة النمو السنوي للسكان	3.2	1.5	1.7	3.5	2.3	5.9

المصدر، مصلحة التعداد والإحصاء،١٩٥٢، بيانات تعداد ١٩٤٧، وزارة المالية والإقتصاد، القاهرة.

وفي ضوء هذه البيانات يمكن استخلاص الملاحظات التالية:

١ – شهدت السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى طفرة كبيرة فى نمو السكان فى المنطقة الواقعة شمال شرق العاصمة والتى تشمل **مصر الجديدة** الحالية بالإضافة إلى

الحلمية، والزيتون، والمطرية، ويرجع ذلك أساسا لتطوير وسائل النقل وبالذات خط سكك حديد الزيتون وأيضا «**مترو**» مصر الجديدة. هذا بالإضافة إلى التنمية المنظمة فى ضاحية **مصر الجديدة** تحت رعاية مشروع البارون إمبان. وكما أشرنا فقد تغير التصميم الأصلي لهذه المشروع أو الضاحية من كونه موجها أساسا إلى الطبقات العليا وللمقيم الأجنبي فى مصر، كما كان الحال فى ضاحية المعادي الجنوبية، إلى تصميم أكثر تنوعا ويشمل المصريين ومتوسطى الدخل.

٢- فى السنوات العشر السابقة لتعداد ١٩١٧، وصل معدل النمو فى «قسم **مصر الجديدة** الكبرى» إلى ١١٪، وفى العقود التالية استمرت **مصر الجديدة** فى النمو السريع على حساب باقي أحياء القاهرة مع ملاحظة بداية تضخم سكان القاهرة الكبرى ككل بسبب الهجرة الداخلية من الريف إلى الحضر. وينعكس هذا فى نمو سكان القاهرة بضعف معدل النمو السنوي لسكان القطر فى الفترة ١٩١٨-١٩٢٧، ثم استمرار هذا النمو فى سكان القاهرة والضواحي الشمالية الشرقية والجنوبية، وإن كان بمعدلات أقل بسبب الكساد العالمي الكبير (١٩٢٩-١٩٣٦). وأخيرا عاد معدل نمو القاهرة، وايضا **مصر الجديدة إلى** التسارع بسبب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥).

٣- وبمراجعة بيانات الشياخات التى يضمها تعداد ١٩٤٧ يتضح أن «**مصر الجديدة** الكبرى» تشمل الأحياء التى نعرفها اليوم بإسم مصر الجديدة، الحلمية، الزيتون، المطرية، وعين شمس وتضم ١٧ شياخة[(١)]. وبلغ سكانها فى تعداد ١٩٤٧ إجمالي ١٦٤.٩١٩ نسمه. مع ذلك فإن منطقة امتياز «**شركة مصر الجديدة**» كانت تشمل فقط ثلاثة من هذه الشياخات هي المنتزه، البستان، وألماظه. وتوضح الخريطة الحديثة التالية منطقة الإمتياز الأصلية لشركة مصر الجديدة. وبمراجعة تعداد السكان

(١) الشياخات هي بالترتيب: البستان، الحلمية، الزيتون شرق، الزيتون غرب، الزيتون القبلية، العزب، ألماظة، المطرية، المنتزة، تل الحصن، خارجة المطرية، عرب الطوايله، عزبة النخل، عين شمس الشرقية، عين شمس الغربية، كفر فاروق، منشية البكرى.

فى هذه الشياخات الثلاث يتضح ان سكان «مصر الجديدة» بتعريفها الضيق، أي القاطنين فى **منطقة امتياز الشركة**، وصلوا فقط إلى ٦٥.٦٤٠ نسمة، أي ٤٠٪ تقريبا من **مصر الجديدة** الكبرى التى تضم الحلمية والزيتون والمطرية. وسيقتصر حديثنا فى باقي هذه الورقة على «**مصر الجديدة**» الصغرى.

خريطة رقم ٢

النطاق العمراني لامتياز **شركة مصر الجديدة** فى منتصف القرن ٢٠

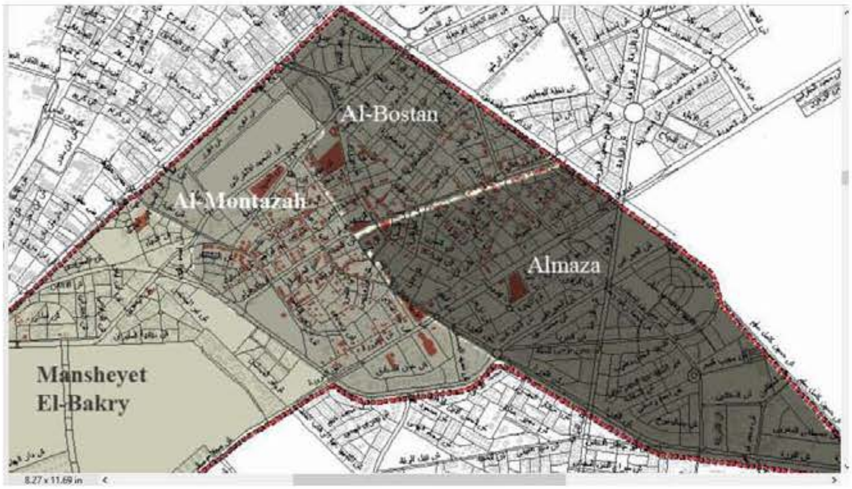

المصدر: (Abdellhady و Farid, 2014).

التركيبة السكانية لمصر الجديدة حسب الديانة والجنسية

بلغ إجمالي عدد سكان مدينة القاهرة عام ١٩٤٧ ٢.١ مليون (حسب بيانات التعداد العام للسكان ٢.٩٠.٦٥٤ نسمه)، وبلغ عدد الأجانب بجنسياتهم المختلفة ما يربو على ٥٦ ألف نسمة، أي فقط ٢.٧٪ من مجموع سكان العاصمة. وتوضح البيانات أن **مصر الجديدة** كانت الحي المفضل للأجانب فى القاهرة حيث وصلت نسبتهم إلى أربعة أمثالها فى القاهرة الكبرى، أو ١٠.٥٪ من سكان مصر الجديدة.

كذلك كان الحي هو المفضل أيضًا للأقليات المسيحية بطوائفها المختلفة، ولليهود. ويبين الجدول التالي هذا التوزيع:

جدول رقم ٣

توزيع سكان شياخات مصر الجديدة حسب الديانة، ١٩٤٧

الشياخة	مسلم	مسيحي	يهودي	إجمالي
البستان	15669	8653	1468	25790
الماظه	18695	5902	545	25142
المنتزه	6463	6520	1725	14708
إجمالي	40827	21075	3738	65640

المصدر السابق.

وبينما كان عدد سكان المسيحيين قد وصل إلى ١٣.٨٪ من سكان القاهرة، واليهود إلى ٢٪؛ يتضح من هذا الجدول أن هذه النسب كانت أعلى بكثير في **مصر الجديدة**. حيث وصلت نسبة المسيحين بطوائفهم المختلفة إلى ٣٢.١٪ في المتوسط، واليهود إلى ٥.٧٪. وتزيد هذه النسبة بصورة واضحة في شياخة المنتزه التى تتمتع بمستوى دخل أعلى، حيث وصلت نسبة المسيحيين إلى ٤٤.٣٪، وإلى نسبة أقل في حي الماظة العمالي، ٢٣.٥٪. وهكذا كون المسلمين فقط ٦٢.٢٪ من سكان الضاحية واليهود ٥.٧٪. وسنتناول حصص اليهود والأجانب في هذه الضاحية الفريدة فيما يلي.

اليهود في مصر الجديدة

سكن اليهود في مصر منذ العصور القديمة، وكان العصر الذهبي لهم في العصور الوسطى، بالمقارنة بأحوالهم السيئة في أوروبا[1]، حيث انشغلوا بالتجارة والحرف

---

(١) يشير البروفيسور جوتين إلى مقولة البروفيسور جرايز GRAEZ (مؤلف موسوعة من عشرة مجلدات عن تاريخ اليهود) بأن اليهود في الأندلس، وتحت الحكم الإسلامي، تمتعوا بعصرهم الذهبي=

(Cohen, 2014). وتبين وثائق الجنيزه التى اكتشفت فى جبانة اليهود أن المجتمع اليهودي فى مصر مارس حياة اجتماعية وتجارية تشابه كثيرا جيرانه المسلمين والمسيحيين (Goitein, 2005)، وإن امتازت الطائفة بعلاقات دولية ممتدة لم تتوفر لعناصر الشعب التقليدية. وفى منتصف القرن التاسع عشر قدر السكان اليهود بين ٥٠٠٠ إلى ٧٠٠٠. مع ذلك زاد هؤلاء السكان زيادة كبيرة مع افتتاح قناة السويس وانفتاح الاقتصاد المصري على العالم وكذلك بعد الاحتلال البريطاني حتى وصل عددهم إلى ٢٥ ألف نسمة فى تعداد ١٨٩٧ ثم ارتفع الرقم إلى ٦٥.٧٣٩ في تعداد ١٩٤٧ منهم ٤١.٩٠٠ فى القاهرة، (Miccoli, 2015).

ومن جدول رقم ٢ عاليه يتضح أن سكان **مصر الجديدة** من اليهود قد بلغ ٣٧٣٨ أي حوالى ٩٪ من إجمالي يهود القاهرة، ونسبة ٥.٦٪ من سكان الضاحية، بالمقارنة بنسبة تمثيلهم فى القاهرة الكبرى (حوالي ٢.١٪).

الأجانب فى مصر الجديدة

شهدت الفترة منذ بداية العمل فى قناة السويس، ثم بداية مشروعات التعمير الكبرى التى تبناها الخديوي إسماعيل، مع الرواج الذي سببه ارتفاع أسعار القطن أبان الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥)، زيادة مطردة فى أعداد الأجانب القانطين فى مصر. وبالطبع زادت أعداد الأجانب مع الاحتلال البريطاني للبلاد (١٨٨٢) واطمئنانهم للنظام القضائي في ظل الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة (Deeb, 1978)، (Tignor, 1980)، (هريدي، ٢٠٠٢).

وتبين بيانات تعداد السكان لعام ١٩٤٧ أن مجموع الأجانب فى القاهرة وصل إلى ٥٦.١٨٣ أجنبي من إجمالي سكان العاصمة أي حوالى ٢.١٪ من مجموع سكانها. أما فى **مصر الجديدة** فقد كانت نسبة الأجانب ١٠٪ من السكان، أي خمسة أضعاف

=فى القرون الوسطى. أنظر (Goitein, 2005)، ص ٦-٨.

نسبتهم فى القاهرة. ويجب ملاحظة أن الجنسية قد لا تعني بالضرورة الثقافة أو التبعية العرقية (الإثنية) حيث سمح المرسوم بقانون الجنسية المصرية رقم ١٩ لسنة ١٩٢٩ لرعايا الدولة العثمانية المقيمين فى مصر قبل هذا التاريخ بالحصول على الجنسية المصرية (Hanley, 2017). وسمح هذا لاعداد كبيرة من الشوام، وحتى اليونان والأرمن بالحصول على الجنسية المصرية. وتظهر بيانات التعداد المشار إليها أن الأجانب توزعوا فى القاهرة حسب الجدول التالي:

جدول رقم ٤

توزيع سكان القاهرة من الأجانب حسب الجنسية، ١٩٤٧

الجنسية	العدد	النسبة
سوري	1150	2.0
لبناني	840	1.5
فلسطيني	723	1.3
عرب آخرون	935	1.7
إيطالي	12347	22.0
بريطاني	11508	20.5
تركي	2817	5.0
فرنسي	4515	8.0
يوناني	15673	27.9
أخرى	5630	10.0
إجمالي	56138	100.0

المصدر السابق.

وللأسف لا تسجل بيانات التعداد توزيع السكان داخل شياخات **مصر الجديدة** حسب الجنسية. ولعل التوزيع حسب الجنسيات قد اختلف فى **مصر الجديدة** عنه فى

القاهرة الكبرى. وقد تتاح بيانات اضافية من واقع سجلات الشركة، ومن المصادر والإنطباعات الشخصية[١]. ومع وجود نسب عالية من الإيطاليين واليونان والشوام والأرمن، وكانت الفرنسية هي اللغة الجامعة للطبقة الراقية فى الضاحية من المصريين والأجانب. ويرجع هذا ليس فقط لكون الشركة المطورة بلجيكية فى الأساس، وتستخدم الفرنسية فى معاملاتها الداخلية، ولكن أيضًا لانتشار المدارس والثقافة الفرنسية.

الأرمن فى مصر الجديدة

تكاد تتطابق تجربة الأرمن مع تجربة اليهود الذين نزحوا لمصر خلال القرن التاسع عشر. ولقد دخل الكثير منهم فى خدمة محمد على باشا، وذريته (Habib, 2002). ووصل أحدهم، نوبار نوباريان، إلى رئاسة الوزراة مرتين فى عهد الخديوي إسماعيل، وكانت له مساهمات جليلة فى الدفاع عن مصالح مصر، وإدخال نظام المحاكم المختلطة بدلا من نظام المحاكم التابعة للقنصليات الأجنبية. وزادت أعداد الأرمن فى مصر بعد المجازر التى تعرضوا لها فى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقدر عددهم فى ١٩١٧ بحوالي ١٧ ألف نسمة، وفى ١٩٥٢ بحوالي ٤٠ ألف نسمة (Zohny, 2005). ومع تقلص أعداد الأرمن إلى حوالى ٧ الآف نسمة فى القطر المصري، مازالت مصر الجديدة تعتبر التجمع الثقافي والاجتماعي الأكبر لهم.

خاتمـــة

كانت أحد الصفات المميزة لتجربة مصر الجديدة هي خلق نموذج للمعيشة الحضرية المتنوعة التي ضمت ثقافات وجنسيات ومستويات دخل متعددة. وبعكس التجربة فى المدن الخاصة بالأجانب التى اقيمت فى دول أفريقيا وآسيا المستعمرة، كان

---

(١) أنظر مثلا تقديرات الروائي المصري/ الفرتسي روبرت سوليه فى الكتاب التذكاري بمناسبة مئوية الضاحية (الجديدة، ٢٠٠٧).

فضاء مصر الجديدة يتسع للجميع (Willem, 2015). وشارك الكل تقريبا فى ما تقدمه المدينة فى فرص الترفيه والحياة الحديثة بما فى ذلك الحدائق، والمدينة الترفيهية (اللونا بارك)، ولبعض الناس حلقة السباق، ونادي هليوبوليس الرياضي. كذلك اشترك الجميع فى ركوب المترو (الذي حوى على درجتين: أولى وثانية)، والسينمات المنتشرة فى الضاحية، وخصص منها اثنين للأفلام العربية «فريال» (فيما بعد الحرية) و«كشمير»، بينما اختصت العشرة الباقية، ذات الأسماء الأجنبية (نورماندي، بالاس، روكسي، فرجينيا، كريستال..) بالأفلام الأجنبية. وربما تقارن هذه التجربة بما تبناه القطاع الخاص منذ تسعينيات القرن العشرين من خلق أحياء جديدة، أو منتجعات للصفوة تناقض فى فكرتها المفهوم الإحتوائي الذي مثلته ضاحية مصر الجديدة إلى مفهوم المعزل الخاص بالأغنياء، وتختار هذه المنتجعات الجديدة أسماءًا أجنبية تأكيدا لتفردها.

ولم يستمر الحال بهذه المدينة المتناسقة والمندمجة على حالها، إذ سرعان ماعصفت تطورات الشرق الأوسط ومتغيرات السياسة الداخلية بهذه التجربة الطموحة. فمن ناحية أدى انشاء دولة إسرائيل والمصادمات مع الغرب مع تأميم قناة السويس وتمصير الملكيات الفرنسية والإنجليزية واليهودية بعد حرب السوييس (١٩٥٦) إلى نزوح أعداد كبيرة من الأجانب واليهود. وكذلك تم تأميم الشركة فى إطار التغيرات الإشتراكية فى عام ١٩٦١، وتم ادماج الضاحية ضمن منظومة الحكم المحلي المترهلة. وبالمقابل زاد سكان الضاحية من المصريين زيادة كبيرة، وأضيفت إليها مناطق أخرى فى اتجاه الماظة ومنطقة النزهة حتى التحمت بمدينة نصر من ناحية وبالزيتون من ناحية أخرى.

وبرغم مما عانت منه الضاحية من جحود، بالخروج على قواعد البناء السابقة، وتحويل الكثير من الفيلات والعمارات الأثرية إلى عمارات شاهقة، والإهمال الذي عانت منه خدمات الضاحية بعد ضمها إلى منظومة الإدارة المحلية لمدينة القاهرة، وأخيرا رفع خطوط المترو السطحي الذي سبق وأن وفر وسيلة نقل رخيصة وغير

ملوثة للبيئة، ما زالت الضاحية تحتفظ ببعض رونقها القديم، وتجتذب الطبقات الوسطى والصاعدة. وما زالت شوارعها التى صممت منذ أزيد من قرن من الزمان تستوعب أعدادا هائلة من السيارات لم تكن حتى فى الحسبان.

وهكذا تقف ضاحية **مصر الجديدة** شاهدا على نجاح تجربة فريدة أنبتت فى الصحراء.

مراجع البحث

أولًا: المراجع عربية

- جمعية أصدقاء حي مصر الجديدة. (٢٠٠٧). الكتاب التذكاري بمئوية مصر الجديدة. القاهرة: الأهرام.
- سكاي نيوز عربية، (٨ فبراير ٢٠٢١). «كنيسة البازيليك» عمرها ١١١ عاما.. وأحدثت جدلا كبيرا في مصر،. أبوظبي: سكاي نيوز عربية.
- عبد الرحمن الرافعي. (١٩٨٩). عصر محمد علي، الطبعة الخامسة. القاهرة: دار المعارف.
- عبد الرحمن الرافعي. (١٩٨٤). مصطفى كامل، باعث الحركة الوطنية (تاريخ مصر القومي ١٨٩٢-١٩٠٨)، الطبعة الخامسة. القاهرة: دار المعارف.
- عبد الله بلال. (٢٠٠٨). مصر الجديدة، حي له تاريخ. القاهرة: جمعية أصدقاء مصر الجديدة.
- فرغلي تسن هريدي. (٢٠٠٢). الراسمالية الأجنبية فى مصر: ١٩٣٧-١٩٥٧. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مصلحة التعداد والإحصاء، (١٩٥٢). تعداد السكان لعام ١٩٤٧. القاهرة: المطابع الأميرية.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

ABU-LUGHOD, Janice (1971) *Cairo 1001 Years of the City Victorious* .Princeton: Princeton UP.

COHEN, MARK R (2014). *ewish Self-Governement in Medieval egypt* .Princeton, NJ: Pinceton University Press.

DEEB, MARIUS (1978). The socioeconomic role of the local foreign minorities in modern Egypt, 1805-1961 ."*International Journal of Middle East Studie, 11-22.*

DOBROWOLSKA, AGNAIESZKA, and DOBROWOLSKA, JAROSLAW, (2006). .*Heliopolis: rebirth of the city of the sun* .Cairo: AUC Press.

FARID, MOHAMED, and ABDELLHADY, OSAMA, (2004). Assessment of Heliopolis Heritage Suburb Agaisnt Sustainable Conservation .*International Journal of Science and Technology*) International Conference on Conservation of Architectural Heritage, CAH 2nd Ed .(.ISSN 2357-0849.)

GOLDSCHMIDT, JR., ARTHUR, (2008) A Brief History of Egypt, Infobase Publishing, New York.

GOITEIN, S.D. (2005). *Jews and Arabs: A Concise History of their social and Cultural Relations* .Mineola, NY.: Dover Publications.

HABIB, RASHA TALEB, (2002). *Armenians in Egypt: An Ethnic Minority by Choice, Unpublished M.A. Thesis* .Cairo: American University in Cairo.

HANLEY, WIL, (2017). *Identifying with Nationality: Europeans, Ottomans and Egyptians in Alexandria* .New York: Columbia University press.

HOME, R.K., (1990).Town Planning and Garden Cities in the British Colonial Empire 1910-1940. *Planning Perspectives 5, 33-37.*

ILBERT ROBERT. (1985). Heliopolis: "Colonial enterprise and town planning success," in Ahmed Evin ،*The Expanding Metropolis: Coping with the Urban Growth of Cairo,* (36-42). Singapore: Concept Media.

NJOH, A.J. (2007). *Planning Power: Town Planning and Social Control in Colonial Africa* . London :UCL Press.

MICCOLI, DARIO. (2015). *Histories of the Jews of Egypt: An Imagined Bourgeoisie, 1880s-1950s* . Florence: European University Institute.

OWEN, ROGER. (2004). *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul* .Oxford, UK: Oxford University Press.

TIGNOR, ROBERT (July, 1980)"The Economic Activities of Foreigners in Egypt, 1920-1950: From Millet to Haute Bourgeoisie", *Comparative Studies in Society and History 416-449.*

VOLAIT, MERCEDES, (2006). Un ensemble urbain Art Déco en Egypte: Héliopolis, banlieue du Caire ..*I Congrès international Ville et patrimoine, Art Déco, modèles de la modernité.* (221-254). Melilla, Espagne :.hal-00446019.

VOLAIT, MERCIDES, (2003). Making Cairo Modern (1870-1950): Multiple Models for a "European Style Urbanism . in Felix Suares ،*Urbanism- Imported or Exported? Native Aspirations and foreign* .

WILLEM, TIM, (2015). Heliopolis: A Colonial Enterprisethat became an Urban Success, in.J. Lagae ،*History and Theory of the Non-European City and Architecture* .Brussels.

.*XXV IUSSP International Conference* "Armenians in Egypt", ZOHNY, AYMAN, (2005). .International Union foor the Scientific Study of Population :Tours, France